الجمهـــوريـــة الجـزائـريـة الديـــمقراطيـة الشـعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة الـتـعـلـيـم الـعـالـــي و الـبـحـث الـعـلـمـي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلـيـة الآداب و اللغات و الفنـون
Faculté des lettres, des langues et des arts
جامعة وهران
Université d'Oran
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدّكتوراه في اللّسانيات بعنوان:

"الأسماء الدّالّة على أعضاء جسم الإنسان في السّياق القرآنيّ"

(دراسة تحليليّة ودلاليّة)

إعداد الطّالب: بلّي عبد القادر إشراف الدّكتور: عبد الحليم بن عيسى

لجنة المناقشة:

أ.د.صفية مطهري	جامعة وهران	رئيسا
د.عبد الحليم بن عيسى	جامعة وهران	مشرفا ومقرِّرا
أ.د أحمد عزّوز	جامعة وهران	عضوا
أ.د عبد القادر سلاّمي	جامعة تلمسان	عضوا
د. هشام خالدي	جامعة تلمسان	عضوا
د.لخضر العسّال	جامعة مستغانم	عضوا

السّنة الجامعيّة: 2011/2010



مقدَّمـــــــة

مقدّمة:

إنّ القرآن الكريم معجز في لفظه ونظمه وحسن نغمه وكلّ آياته، وهو مَعِينٌ لا ينضب، ومجال البحث فيه لا يحدّه حدٌّ، وكلّما زاد القارئ قراءةً، والمتأمِّل تأمُّلاً، والمتتبّع لنسق آياته ونظم مفرداته في الأسيقة تتبّعا، بدت له -لا محالة- صور جديدة من الإعجاز وأسرار أخرى - وإن لم تكن خطيرة- طالما هو دائم القراءة والتّأمّل متّخذاً ما قاله العلماء المفسّرون، والدّارسون لآي الله تعالى، قاعدة ومرجعا ونبراسا، لكي يتأمّل على هدى وصراط مستقيم.

لقد اشتغل علماء اللّغة العربيّة قديما وحديثا بإعجاز الكلمة القرآنيّة، فبحثوا عن ذلك في مختلف الآيات الكريمة وعبر كامل السّور القرآنيّة، فيما يتطلّبه النّظم أو السّياق، وأدركوا أنّ سرّ الإعجاز يكمن في الدّقّة الّتي وقعت بها الكلمة في السّياق، وما يربطها بما قبلها وما بعدها من الكلمات.

ولقد شدّني البحث في هذا الموضوع كثيرا، ولفت انتباهي فيه أكثر دقة استعمال الكلمة وقوة دلالتها أيضا في السياق القرآني.

ولازلت أقرأ القرآن الكريم وأتأمّل في آياته، وأقلّب الطّرف في كتب التّفسير والدّراسات الّتي تناولت حروفه أو مفرداته أو سياقه أو موضوعاته، حتّى اهتديت إلى فكرة البحث في موضوع يتعلّق بالمعجم اللّغوي "في القرآن الكريم"، وعلى وجه التّحديد والتّدقيق بالأسماء الّتي تدلّ على أعضاء جسم الإنسان "في القرآن الكريم"، وتردّدت بعدها في طريقة البحث وفي الفصول وعناوينها، وفي اختيار العنوان الّذي يجمع شتات الموضوع. ومازلت على هذه الحال حتّى بدا لي أن أدرس موقع هذه الكلمات في السّياق دراسة تحليليّة ودلاليّة، وأبحث عمّا إذا كان له دور في تحديد الدّلالة. وأن يكون العنوان: **"الأسماء الدّالّة على أعضاء جسم الإنسان في السّياق القرآنيّ؛ دراسة تحليليّة ودلاليّة"**.

واتضح لي أن أقسّم البحث إلى بابين بعد مدخل ومقدمة؛ وجعلت في كـــلّ بـــاب ثلاثة فصول، وبعد المقدمة التي عالجت فيها المسائل المنهجية التي تقتضيها البحوث الأكاديمية ابتدأت بالمدخل؛ وعنونته "**أسماء جسم الإنسان في الدّلالة السّياقيّة**"، تحدّثت فيه عن أصل الإنسان الطّيب المنتسب إلى آدم عليه السلام ، وعن الإنسان الّذي ورد ذكره في القرآن الكريم من خلال تكرار هذا اللّفظ في الآيات والسّور، وعلى أنّ الإنسان هو محور القرآن، وقد احتـــلّ حيّزا كبيرا وواسعا في الخطاب القرآنيّ، فما من أمر ولا نهي إلاّ هو موجّه إليه، وما من قصّة أو خبر أو نبأ إلاّ هو معنيٌّ به. وحاولت تقديم شرح لألفاظ "البَشَر" و"الإِنسان" و"النّـــاس" و"الإنس". وأوردتُ جدولين اثنين بيّنت فيهما ورود لفظ "إنسان" ومـــشتقّاته اللّغويّـــة في القرآن الكريم.

وتحدّثت أيضا عن جسم الإنسان وكيف ورد في القرآن الكريم، وقـــدّمت تعريفـــا لألفاظ "الجسد" و"الجسم" و"البدن". وأوردت جدولا ثالثا بيّنت فيه أعضاء جسم الإنسان الّتي وردت في القرآن الكريم وعدد كلّ منها. كما اقترحت بعد الجدول حقلا دلاليّا خاصّا بجسم الإنسان مقسّما إلى أربعة مجالات، هي: مجال الجسد والجسم والبدن، ومجال الـــرّأس والعنق، ومجال الجذع، ثم مجال الأطراف "العلويّة والسّفليّة".

كما قدّمت تعريفا للدّلالة وعلم الدّلالة وبيّنت موضوعه وأنواع المعـــنى والدّلالـــة، وركّزت على الدّلالة السّياقيّة نظرا لأهمّيتها في تحديد المعاني والدّلالات المختلفة، وأشـــفعت ذلك بأمثلة من القرآن الكريم.

أمّا الباب الأوّل فجعلته للحديث عن أسماء الأعضاء غير الظّاهرة في السّياق القرآنيّ وقد اخترت منها "القلب" لأنّه موضع الإيمان واليقين والإخلاص، و"النّفس" لأنّها مستودع الإنسان ودخيلته وجامع نواياه الحسنة والسّيّئة، وقسّمته ثلاثة فصول؛ هي على النّحو الآتيّ:

الفصل الأوّل، خصّصته للحديث عن القلب، وعنونته بـــ "القلـــوب البيـــضاء في السّياق القرآني"، ذكرت فيه عدد مرّات ورود لفظ "قلب" في القرآن الكريم، واشـــتقاقاته المختلفة، ثمّ عرّفت الكلمة تعريفا لغويّا واصطلاحيّا، وتحدّثت عن الألفاظ الأخرى الّتي دلّت

على القلب، وعن معانيه في القرآن الكريم، وتحدّثت عن مكانة القلب في جسم الإنسان، ثمّ انتقلت إلى الحديث عن أقسام القلب في المصحف الشّريف، واخترت تقسيم الرّسول ﷺ الّذي يشير إلى القلوب البيضاء والسوداء، واكتفيت في هذا الفصل بالحديث عن القسم الأوّل الّذي يضمّ قلب الرّسول ﷺ الطّاهر، ثمّ قلب المسلم المؤمن مثل: "القلب السّليم، والقلب المنيب، والقلب التّقي، والمهدي، والمربوط عليه، والقلب الوجل، والقلب المخبت..." وغيرها من الأنواع.

والفصل الثّاني، خصّصته للقسم الثّاني من أقسام القلب، وعنونته "القلوب السّوداء في السّياق القرآنيّ"، وتحدّثت فيه عن الدّلالات المختلفة الّتي صاحبت لفظ "قلب" ودلّت على أنّه من نوع القلب الأسود، مثل: "القلب المريض، والقلب المختوم عليه، والقلب المطبوع عليه، والقلب القاسي، والقلب المكنون، والقلب الأعمى، والقلب الغليظ..." وغيرها من القلوب السّوداء، الّتي حدّد السّياق القرآنيّ دلالاتها المختلفة.

وأمّا الفصل الثّالث فقد جعلته لعضو ثان غير ظاهر، وعنونته بـ"أقسام النّفس ودلالاتها في السّياق القرآنيّ"، وبدأت فيه بوضع جدول ذكرت فيه عدد مرّات ورود اللّفظ في القرآن الكريم، واشتقاقاته المختلفة، ثمّ عرّفت الكلمة تعريفا لغويّا، وآخر اصطلاحيّا، وتحدّثت عن أنواع النّفس الإنسانيّة كما وردت في السّياق القرآنيّ، وعن دلالاتها المختلفة. وقدّمت بعض النّماذج لمواقف نفسيّة إنسانيّة وردت في القرآن الكريم، وأهمّ مميّزاتها، والمواقف النّفسيّة في القرآن الكريم كثيرة ومتنوّعة والمقام ضيق لا يسمح بالوقوف عندها كلّها.

وأمّا الباب الثّاني فجعلته للحديث عن أسماء الأعضاء الظّاهرة في السّياق القرآنيّ واخترت منها "الوجه" و"اليد" بالتّفصيل، وأعضاء أخرى بإيجاز، وقسّمته ثلاثة فصول؛ هي على النّحو الآتيّ:

الفصل الأول عنونته بـ"ملامح الوجه ودلالاتها في السّياق القرآنيّ"؛ عرّفت فيه الكلمة تعريفا لغويّا واصطلاحيّا، وقدّمت جدولا بيّنت من خلاله عدد مرّات ورود الكلمة

في القرآن الكريم، واشتقاقاتها المختلفة، ثمّ انتقلت إلى بيان تنوّعها في السّياق القرآنيّ، فذكرت وجه الرّسول ﷺ ووجه يعقوب عليه السلام ووجه امرأة عمران، ثمّ انتقلت إلى إبراز الدّلالات المختلفة الّتي صاحبت لفظ "وجه" في العبادة، وفي النّعيم، والعذاب، واتّصافه باللّونين الأبيض والأسود. ولقد اخترت الوجه؛ لأنّه أشرف أعضاء جسم الإنسان، ومحلّ الحسن والصّباحة، وصومعة الحواسّ، وأوّل ما يظهر من الإنسان، ويلفت الانتباه عند اللّقاء، وإنّما يتميّز بعض النّاس عن بعض بسبب الوجه.

الفصل الثّاني عنونته بـ "دلالات اليد وحركاتها في السّياق القرآنيّ" قدّمت فيه جدولا عن عدد مرات الكلمة في القرآن وعن اشتقاقاتها المختلفة، وعرّفتها تعريفا لغويّا واصطلاحيّا، ثمّ انتقلت إلى إبراز موقع لفظ "يد" في السّياق القرآنيّ، وإلى بيان الدّلالات الّتي صاحبتها فيه، فتحدّثت عن حركات اليد وأفعالها في القرآن الكريم مثل: "عمل اليد، وكتابة الكتاب، وبسطها، وكفّها، وقطعها، ودلالتها على البخل، وعلى النّدم والحيرة..." وغيرها من المواضع. واخترت اليد بعد الوجه لأنّها آلة الفعل والعمل، والخير والشّرّ، والإحسان والبطش، وينسب إليها كلّ فعل يقوم به الإنسان حتّى وإن قام به بعضو آخر، فيقال: هذا ما كسبت يداك، للنّمّام، والكذّاب، والزّاني.

أمّا الفصل الثّالث فقد عنونته بـ " دلالات أعضاء أخرى في السّياق القرآنيّ" وتحدّثت فيه عن مجموعة من الأعضاء وعن موقعها في السّياق القرآنيّ، واخترت؛ الجسم والبدن والجسد، والرّأس والنّاصية، واللّسان، وملحقات الوجه؛ مثل: "الجبهة والجبين والخد، والرّقبة والعنق والجيد، وملحقات اليد؛ مثل: الذّراع، والمرافق، والعضد، والكفّ، والأصابع، والبنان، والأنامل"، وأشرت إلى موقعها في السّياق القرآنيّ وإلى الدّلالات الّتي ارتبطت بها.

أمّا الخاتمة فقد جمعت فيها النّتائج المتوصّل إليها، وأشرت فيها أيضا إلى أن البحث قد أثار الكثير من المسائل التي تحتاج إلى دراسات متخصصة.

إنّ المقام لا يسمح بالوقوف عند كلّ اسم دالّ على عضو من أعضاء جسم الإنسان، ومجال هذه المذكّرة لا يُفْسِح هذه الفرصة، وهذه صعوبة وقفت في طريقي، بالإضافة إلى

الزّمن المحدّد لإنجاز بحث الدّكتوراه، وقد حاولت تجاوزها بالوقوف عند أكثر الأعضاء ذكرا في القرآن الكريم، مثل: النّفس والقلب والوجه واليد، أو عضو له قوّة في الدّلالة مثل: الخدّ والكفّ والأنامل والبنان والنّاصية.

أمّا فيما يخصّ المصادر والمراجع، فلقد حاولت قدر الإمكان استعمال ما له علاقة بالموضوع "جسم الإنسان في القرآن الكريم"، وهذه صعوبة ثالثة، وعلى الرّغم من ذلك، فإنّ توجيهات أستاذي ومساعداته كانت خير دليل لي للبحث عن المعلومة القيّمة. وأمّا فيما يخصّ البحث عن الدّلالة المتعلّقة بالاسم الدّالّ على العضو، فقد اعتمدت على المعاجم اللّغويّة الّتي ساعدتني على تحديد دلالات كثير من الأسماء الدّالّة على أعضاء جسم الإنسان. كما اعتمدت على تفاسير القرآن الكريم قديمها وحديثها، مثل: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطّبريّ الّذي لم تخل صفحة من الإشارة إليه باعتباره مصدرا هامّا عند جلّ المفسّرين، وأنّ أغلب ما ذكره الطّبريّ أعاده غيره، والكشّاف للزّمخشري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وتفسير الفخر الرّازي للرّازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ، وتفسير التّحرير والتّنوير للطّاهر بن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وغيرها من التّفاسير القرآنيّة الّتي لا يستغني عنها دارس الدّلالة في القرآن الكريم.

أمّا فيما يخصّ المنهج المتّبع في هذه الدّراسة فهو المنهج الوصفيّ، والاستقرائيّ التّحليليّ، وقد حاولت تحقيقه من خلال تتبّع الآيات القرآنيّة الّتي اشتملت على أسماء دالّة على أعضاء جسم واستقرائها، والإشارة إلى أقوال العلماء في تفسير الآيات القرآنيّة موضوع البحث، وتوثيق النّقول توثيقا علميّا بحيث يكون توثيقا كاملا عند أوّل ورود للمرجع، وبعد ذلك أكتفي بذكر اسم الكتاب واسم الكاتب والمجلّد والجزء والصّفحة، وعزو الآيات القرآنيّة بذكر اسم السّورة ورقم الآية، وتسجيل أهمّ النّتائج المتوصّل إليها، وعرض موجز لما توصّلت إليه.

ولقد توصّلت بمجموعة من الدّراسات الحديثة المتعلّقة بالكلمة الدّالّة على أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم الّتي استأنست بها؛ مثل: ألفاظ العقل والجوارح في القرآن

الكريم؛ دراسة إحصائيّة ودلاليّة، لسهام محمّد أحمد الأسمر (2007)، وأحوال النّفس وصفاتها في القرآن الكريم، لزين حسين أحمد ياسين (2009)، ولغة الجسد في القرآن الكريم، لأسامة جميل عبد الغنيّ ربايعة (2010)، وكلّها رسائل ماجستير، أنجزها أصحابها بكلّية الدّراسات العليا، جامعة النّجاح الوطنيّة، نابلس، فلسطين.

وفي الأخير فإنّني لا أدّعي إتيان جديد في الموضوع بقدر ما أريد أن أقدم مساهمةً في خدمة البحث العلميّ، وخدمة لغتي، وخدمة القرآن الكريم.

وإنّني أشكر الله تعالى كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأحمده حمدًا يليق بمقامه أن وفّقني إلى الدّكتوراه.

وأشكر أستاذي الكريم؛ عبد الحليم بن عيسى، على التّشجيع المتواصل الّذي حظيت به من قبله، وعلى التّوجيه الّذي وجدته، كلّما دنوت منه، وكلّما عنّت لي صعوبة، وأشكره أيضا على سعة قلبه، ورحابة صدره.

كما أقدّم الشّكر إلى أساتذتي في مرحلة الماجستير الّذين فتحوا لي باب الأمل إلى الدّراسات العليا.

ولا أنسى أن أقدّم الشّكر إلى كلّ من قدّم لي يد المساعدة أثناء تحضير المذكّرة وأعانني بكتاب على البحث.

وأتوجّه بالشّكر الجزيل، إلى أعضاء اللّجنة الّذين جعلوا لي من وقتهم الغالي وقتا لقراءة هذه المذكّرة، وجمع الملاحظات والتّوجيهات النّفيسة الّتي أستفيد منها لا محالة.

فالحقّ، والحقّ أقول؛ فإنّ شكر هؤلاء جميعا والثّناء عليهم، فوق ما يحمل اللّفظ أو يقوى عليه إعصار شاعر.

والله المستعان وهو نِعم المولى ونِعم المُعين.

بوهران، في يوم: 2011/05/30

الطّالب: بلّي عبد القادر

مدخـــــــــل

أسماء جسم الإنسان في الدّلالة السّياقيّة

أوّلا: – أصل الإنسان

ثانيّا: – ألفاظ "البشر" و"الإنسان" و"النّاس" و"الإنس" في القرآن الكريم

ثالثا: – جسم الإنسان في القرآن الكريم

رابعا: – تعريف "الجسد" و"الجسم" و"البدن"

خامسا: – تعريف الدّلالة

1 – ماهية الدّلالة لغة:

2 – ماهية الدّلالة وعلم الدّلالة اصطلاحا:

3 – موضوع علم الدّلالة:

4 – أنواع الدّلالة:

5 – علاقة علم الدّلالة بالمستويات اللّغويّة والعلوم الأخرى:

أ ــ الدّلالة الصّوتيّة:

ب ــ الدّلالة الصّرفيّة:

ج ــ الدّلالة النّحويّة:

د ــ الدّلالة السّياقيّة:

6 – العلاقة ما بين الدّال بالمدلول في علم الدّلالة:

7 – علاقة اللّفظ بالمعنى:

8 – أهمية علم الدّلالة:

9 – المفردة القرآنيّة:

أسماء جسم الإنسان في الدّلالة السّياقيّة

الإنسان هو محور القرآن الكريم، وجلّ ما جاء فيه متعلّق بهذا المخلوق؛ الدّنيا والآخرة، والتّكريم والخلافة، والأوامر والنّواهي، والعبادة والشّريعة والأحكام والتّكليف، والتّرغيب والتّرهيب، والجنّة والنّار.

أوّلا: أصل الإنسان:

يتمثّل الإنسان في خلقه الأصليّ في شخصية آدم عليه السلام، وهو مكوّن من مصدرين أساسيّين، هما: مصدر أرضيّ ترابيّ مادّيّ محسوس، يمكن التّعرّف عليه من النّاحية العلميّة ممّا توصّل إليه علماء جسم الإنسان من المعارف، ومصدر روحيّ هو نفخة من روح الله[1].

إنّ الإنسان، طيب الأصل نقي السّجيّة سليم الفطرة قويم الكينونة، يحبّ الخير ويؤمن بالله تعالى، يمشي منتصب القامة يهفو إلى فوق بنظره وتفكيره، ويسمو إلى أعلى ببحثه عن خالقه، وعندما أخطأ وعصى ربّه، عاد تائبا واعترف بذنبه مستغفرا، وتاب الله عليه[2].

ثانيّا: ألفاظ "البشر" و"الإنسان" و"النّاس" و"الإنس" في القرآن الكريم:

لقد وردت في القرآن الكريم أربع كلمات تدلّ على هذا المخلوق الّذي خصّه الله تعالى بالخلافة من دون الخلق جميعا، بالإضافة إلى لفظ خامس عرف به وناداه به الخالق تعالى هو (بني آدم)، والألفاظ الأربعة، هي: "البشر والإنسان والنّاس والإنس".

1 – البشر:

ورد في اللّسان أنّ البَشَرَ هم: "الخلقُ، يقع على الأنثى والمذكّر، والواحد والاثنين والجمع، لا يثنّى ولا يجمع؛ يقال: هي بَشَرٌ وهو بَشَرٌ وهما بَشَرٌ وهم بَشَرٌ. ابن سيده: البَشَرُ

1 ـ ينظر لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. عن دعوة الحقّ. سلسلة شهريّة. العدد:11. السّنة الثّانيّة. 1406هـ. صفر.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. والصّفحة نفسها.

الإنسان الواحد والجمع، والمذكّر والمؤنّث في ذلك سواء. وقد يجمع على (بَشَرَيْنِ) ويجمع على (أَبْشَارٍ)"[1]. وإنّ الغالب في اشتقاق لفظ "بشر" هو أنّه مأخوذ من البِشرة، وهي ظاهر جلد الإنسان، وسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لظهور بشرتهم أو ظهورهم، بخلاف الحيوانات الّتي عليها الصّوف أو الشّعر أو الوبر[2]. فالبَشَرُ هو؛ الإنسان[3]. وهو لفظ للدّلالة على جنس البشر (اسم جنس).

إنّ استقراء المواضع الّتي ورد فيها لفظ "بشر" في القرآن الكريم، يدلّ على أنّ البشريّة فيه هي هذه الآدميّة المادّيّة الّتي تأكل الطّعام وتمشي في الأسواق. وفيها يلتقي بنو آدم جميعا على وجه المماثلة الّتي هي أتمّ المشابهة. ولقد ورد هذا اللّفظ اسم جنس في خمسة وثلاثين موضعا من القرآن الكريم، منها خمسة وعشرون موضعا في بشريّة الرّسل والأنبياء، فيما هو من ظواهر البشريّة وأعراضها المادّيّة، بينهم وبين سائر البشر [4]، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ

1 ـ ابن منظور. أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقيّ المصريّ (ت 711هـ). بيروت. لبنان. دار صادر للطّباعة والنّشر. ط1. 2000م. مج2/89. مادّة (بشر).

2 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. أبو القاسم الحسين بن محمّد بن المفضّل المعروف بالراغب الأصفهاني (503هـ). ضبطه وخرّج آياته وشواهده: إبراهيم شمس الدّين. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. (د. ط). 1425هـ/2004م. 57. مادّة (بشر)، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدّوريّ. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1427هـ/2006م. 92.

3 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزّيات، وحامد عبد القادر، ومحمّد علي النّجّار. إستانبول. تركيا. المكتبة الإسلاميّة. (د. ط). (د. ت). ج1/58. مادّة (بَشَرَ).

4 ـ ينظر القرآن وقضايا الإنسان. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطيء). القاهرة. ج. م. ع. دار المعارف. (د. ط). (د. ت). 15.

عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1]، فلا ينكر هؤلاء الرّسل بشريّتهم، بل يردّون على أقوامهم، ويوجّهون أنظارهم إلى منّة الله في اختيار رسل من البشر، وفي منحهم ما يؤهّلهم لحمل الأمانة الكبرى[2].

2 – الإنسان:

الإنسان؛ الكائن الحيُّ المفكِّرُ[3]، ولفظ "إنسان" مشتقّ من النّسيان فيكون أصله إِنْسِيَان بزنة إِفْعِلاَن، قال ابن عبّاس ﷺ : (**إِنَّمَا سُمِّيَ الإِنْسَانُ إِنْسَانًا لأَنَّهُ عُهِدَ إليه فَنَسِيَ**)[4]، ولا يكون النّسيان إلا بعد العلم. لذا نجد القرآن الكريم يخاطبه بالقراءة والعلم. لقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ . ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[5].

"وقيل: سمّيَ بذلك؛ لأنّه خلق خلقةً لا قوام له إلاّ بأُنس بعضهم ببعض؛ ولهذا قيل الإنسان مدنيّ بالطّبع من حيث لا قوام لبعضهم إلاّ ببعض...وقيل: سُمّيَ بذلك؛ لأنّه يأنس بكلّ ما يألفه"[6]، وهذه واحدة من أهمّ خصائص التّمدّن في التّكوين الإنسانيّ.

---

1 - إبراهيم/9-11. وقال تعالى: ﴿ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ . قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ . بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ . مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ . وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ . وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ الأنبياء/2-8. وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ الكهف/110.

2 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2091/13.

3 - ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج29/1. مادّة (أنَس).

4 - ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج170/1، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 36. مادّة (أنس)، ودقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدُّوري. 92.

5 - العلق/3-5.

6 - معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 36. مادّة (أنس)، ودقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدُّوري. 92.

إنّ الإنسانيّة في "الإنسان" هي "ارتقاء إلى الدّرجة الّتي تؤهّله للخلافة في الأرض واحتمال تبعات التّكليف وأمانة الإنسان، لأنّه المختصّ بالعلم والبيان والعقل والتّمييز، مع ما يلابس ذلك من تعرّضه للابتلاء بالخير والشّرّ، وفتنة الغرور بما يحسّ من قوّته وطاقته، وما يزدهيه من الشّعور بقدْره ومكانته في الدّرجة العليا من درجات التّطوّر ومراتب الكائنات"[1]. فنطمئنّ إلى الدّلالة المميّزة للإنسانيّة، ونبدأ بأوّل ما نزل من القرآن، لنجتلي الملامح العامّة للإنسان، وقد تكرّر ذكر هذا اللّفظ في هذه السّورة "العلق" ثلاث مرّات:

إحداها: تلتفت الإنسان إلى آية خلقه من علق.

الثّانيّة: تشير إلى الاختصاص الإنسان بالعلم.

الثّالثة: تحذّر ممّا يتورّط فيه من طغيان، حين يتمادى به الغرور فيرى أنّه استغنى عن خالقه، ولقد وردت هذه السّمات في آيات أخرى زادتها جلاء وبيانا[2]. قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ. ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ . ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾[3]. فالإنسان يتجاوز حدّه، ويستكبر على ربّه، فيكفر به.

لقد أكّد القرآن الكريم في مواطن كثيرة ومواضع مختلفة "ومن عدّة وجوه قيمة الإنسان وشخصيته الفريدة المتميّزة عن سائر الكائنات في تكريمه وفي أهليته للاستخلاف في الأرض خلافة عمران ورخاء بما سخّر الله له من خيرات الأرض وما حولها، وبما وهبه من وسائل الفكر والملاحظة والتّجريب والعمل. وكلّ ذلك لما يتمتّع به الإنسان من تبعات الاستخلاف؛ فهو مسؤول ومكلّف لأنّه عاقل مدرك إلى جانب ما يحمله من ميول فطريّة للإيمان، وبما أرسل إليه من رسل مبشّرين وهادين"[4]. ويلخّص هذا القول الشّروط الأساسيّة

1 ـ القرآن وقضايا الإنسان. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطيء). 19-20.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. 20-21.
3 ـ العلق/1- 8.
4 ـ لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 98.

للاستخلاف بما وُهِبَ الإنسان من العقل والفكر والإدراك والملاحظة والتّجريب والعمل، وبما جاءه من الرّسل والأنبياء.

3 – النّاس:

النّاسُ؛ اسم للجمع من بني آدم، واحده؛ إنسان من غير لفظه، وقد يراد به الفضلاء دون غيرهم، مراعاة لمعنى الإنسانيّة[1]. وقد يكون من الإنس ومن الجنّ، من نَاس يَنُوسُ نَوْسًا ونَوَسَانًا: تحرّك وتَذَبْذَبَ، والنَّوْسُ: تَذَبْذُبُ الشّيءِ[2]. ويأتي لفظ "النّاس" في النّصّ القرآنيّ في زهاء مائتين وأربعين مرّة يدلّ فيها على اسم الجنس لهذه السّلالة الآدميّة، أو هذا النّوع من الكائنات، في عمومه المطلق وهو غير "الإنس"[3]. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[4]، لقد جعل الله تعالى النّاس شعوبا وقبائل ليعرف بعضهم بعضا في قرب القرابة منه وبعده[5].

4 – الإنس:

الإنْسُ خلاف الجنّ[6]، وخلاف الوَحشة[7]، من أَنِسَ به وإليه أُنسا؛ سَكَنَ إليه وذهبت به وَحْشَتُهُ[8]. ويأتي هذا اللّفظ في القرآن الكريم دائما مع لفظ "الجنّ" على وجه التّقابل، يطّرد ذلك ولا يتخلّف في كلّ الآيات الّتي ورد فيها ذكر "الإنس" وعددها ثماني عشرة آية[9]. منها قوله تعالى في الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ

1 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج1/ 962. مادّة (ناس).
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج382/14. مادّة (نوس).
3 ـ ينظر القرآن وقضايا الإنسان. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطيء). 17-18.
4 ـ الحجرات/13.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل قرآن. الطّبري. مج13/ج163/26.
6 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج29/1. مادّة (أَنَسَ).
7 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج171/1. مادّة (أنس).
8 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج29/1. مادّة (أَنَسَ).
9 ـ ينظر القرآن وقضايا الإنسان. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطيء). 18.

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1]، وتتميّز الإنسيّة هنا، بما يعني من عدم التّوحّش، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجنّ الّتي تدلّ على الخفاء الّذي هو قرين التّوحّش[2].

إنّ الجدول الآتي يبيّن وورود لفظ "إنسان" ومشتقاته: "الإنْسُ، وأُنَاسٌ، وأَنَاسِي، والنَّاسُ"، بمختلف صيغها، في القرآن الكريم[3]:

المشتقات	حجم الورود	المشتقات	حجم الورود
الإنسان	65	آنس	1
أناسي	1	آنست	3
الإنس	17	آنستم	1
إنسيا	1	تستأنسوا	1
أناس	5	مستأنسين	1
النّاس	241		

إنّ لفظ "إنسان" هو الأكثر ذكرا في القرآن الكريم فهو يمثّل هذا المخلوق متميّزا بكلّ ما يتمتّع به من خصائص الإنسانيّة. وكما هو مبين في الجدول الإحصائي، يحتلّ لفظ

1 ـ الأنعام/112. وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ الأحقاف/18، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجنّ/5-6، وقال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ الرّحمن/56. والآيات كلّها هي: الأنعام/130،128،112، والأعراف/179،38، والإسراء/88، والنّمل/17، وفصّلت/29،25، والأحقاف/18، والذّاريات/56، والجنّ/6،5، وكلّها آيات مكّيّات، والرّحمن/39،33، 74،56 وهي مدنيّة.

2 ـ ينظر القرآن وقضايا الإنسان. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطيء). 18، ودقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدّوري. 90.

3 ـ ينظر المعجم المفهرس. محمّد فؤاد عبد الباقي. بيروت. لبنان. دار الجيل. (د.ط). (د.ت). 93 مادّة (أ ن س) و726 مادّة (ن و س).

"الإنسان" من بين تلك المشتقّات خمسة وستّين موضعا موزّعا على ثلاث وأربعين سورة، ست وثلاثين مكيّة، وسبع مدنيّة[1].

أمّا الجدول الآتي[2] فيُجمل الموارد المتعلّقة بلفظ "إنسان" من حيث كمُّها أو حجمُها والمجالُ الّذي تنتمي إليه:

موضع الورود	حجم الورود	موضع الورود	حجم الورود
المجال/ السورة والآية		**المجال/ السورة والآية**	
المكي: العلق: 2-5-6	3	**المكي**: الشورى: 48	1
الفجر: 15-26	2	الزخرف: 14	1
العصر: 2	1	الأحقاف: 14	1
العاديات:6	1	الكهف: 53	1
النجم: 25-38	2	النحل: 4	1
عبس: 17-24	2	إبراهيم: 36	1
التين: 4	1	الأنبياء: 37	1
القيامة: 3-5-10-13-	6	المؤمنون: 126	1
14-35		السجدة: 6	1
ق: 16	1	المعارج: 20	1
البلد: 4	1	النازعات: 35	1
الطارق: 5	1	الانفطار: 6	1

1 ـ المكّيّة هي: العلق، الفجر، العصر، العاديات، النّجم، عبس، التّين، القيامة، ق، البلد، الطّارق، يس، مريم، الإسراء، يونس، هود، يوسف، الحجر، لقمان، الزّمر، فصّلت، الشّورى، الزّخرف، الأحقاف، الكهف، النّحل، إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون، السّجدة، المعارج، النّازعات، الانفطار، الانشقاق، العنكبوت.
والمدنيّة هي: الأحزاب، النّساء، الرّحمن، الإنسان، الحشر، الحجّ. وذلك حسب ترتيب النّزول.

2 ـ مفهوم الإنسان في القرآن الكريم والحديث الشّريف. حمد بوشلطة. بيروت. لبنان. منشورات الحلبيّ الحقوقيّة. 2007م. ط1. 44.

يس: 76	1	الانشقاق: 6	1
الفرقان: 29	1	العنكبوت: 7	1
مريم: 66-67	2		
الإسراء: 11-13-53-67-87-100	6	**المدني**: الأحزاب: 72	1
		النساء: 28	1
يونس: 12	1	الزلزلة: 3	1
هود: 9	1	الرحمن: 2-12	2
يوسف: 5	1	الإنسان: 1-2	2
الحجر: 26	1	الحشر: 16	1
لقمان: 13	1	الحج: 65	1
الزمر: 9- 46	2	المجموع: 36 سورة مكية و7 سور مدنية	المجموع:65
فصلت: 49-50	2		

ثالثا: جسم الإنسان في القرآن الكريم:

إنّ الإنسان هو محور القرآن، وهو الّذي اختاره الله تعالى من دون خلقه، ليستخلفه في الأرض ويحمّله الأمانة، فحملها، ولا عجب بعد ذلك أن يكون كلّ ما في القرآن الكريم متعلّقا بالإنسان. ولقد بعث الله تعالى إليه رسلا وأنبياء – في مجال العقيدة – يدعونه إلى توحيده سبحانه، وعبادته وعدم الإشراك به، وجعل من شريعته نظاما ومنهاجا يعرف به موقعه في الكون، ويدرك طبيعة علاقاته فيه؛ مع اللّه تعالى، ومع الخلق، ومع نفسه.

إنّ الإنسان جسم وروح، خُلِقَ أوّلا ثمّ نُفِخ فيه؛ نَفَخ الله تعالى فيه من روحه، فجمع بين عنصرين اثنين؛ عنصر أرضيّ مادّيّ، وآخر سماويّ إلهيّ مقدّس. فلا طاقة لنا بالبحث في أمر الرّوح، ولا قبل لنا بها.

أمّا الجسم، فهو ذو أهمّية كبيرة لكلّ إنسان لأنّه يحقّق وجوده الحياتيّ والاجتماعيّ، ويظهر ذلك من خلال أجهزته المختلفة ووظائفها المتنوّعة. إنّ وعي الذّات يتمثّل في اعتبارها كيانا جسميّا يتحيّز ويتحرّك، فالإنسان لا يعرف هويّته إلاّ بجسمه الّذي ينبعث منه هذا الشّعور بالهويّة ويعطيه التّفرّد الخصوصيّ. إنّه في المقام الأوّل مساحة جسميّة في مكان، وله في مقام آخر هويّته المعنويّة الّتي يستمدّها أيضا من الجسم بصفات مثل: الكرم والبخل، والشّجاعة والجبن، والحلم والتّهوّر وحسن الطّبع وسوء الطّبع[1].

ولقد وقفت على الأسماء الّتي دلّت على أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم من خلال الآيات الكثيرات الّتي ورد فيها ذكره، والمواضع المتعدّدة الّتي تعلّقت بأعضائه. وأوّل ما أقف عنده – في البدء – هو تعريف هذه الكلمات الثّلاث:

رابعا: تعريف الجسد والجسم والبدن[2]:

لقد وردت هذه الكلمات الثلاث في القرآن الكريم، في سبعة مواضع؛ (الجسد أربع مرّات) و(الجسم مرّتين) و(البدن مرّة واحدة). واختلف علماء اللّغة في معانيها وفي أيّها يدلّ على جسم الإنسان.

1 – الجَسَدُ: قيل: إنّه "جسم الإنسان، ولا يقال لغيره من الأجسام المغتذيّة، ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض"[3]، وقيل: يقع على ما لا يغتذي من الجماد، وقيل: يقع على المغتذي وعلى غيره[4]، ولكنّ القرآن الكريم وصف عجل بني إسرائيل بأنّه جسد: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾[5]؛ أي ذا جثّةٍ، على التّشبيه بالعاقل وبالجسم[6]،

---

1 ـ الإشارات الجسميّة؛ دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل. كريم زكي حسام الدّين. القاهرة. ج. م. ع. دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 2001. 99-100.

2 ـ وسيأتي الحديث عن هذه الكلمات في مواضعها من السّياق القرآني في الفصل الثّالث من الباب الثّاني من المذكّرة.

3 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 106. مادّة (جسد)، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج145/3. مادّة (جسد).

4 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج277/6.

5 ـ طه/88

6 ـ ينظر المصباح المنير. أحمد بن محمد بن علي الفيومي. تح: يوسف الشّيخ محمّد. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة. (د. ط). 1425هـ/2004م. 56-57. مادّة (الجَسَدُ).

وقيل: "الجسد كلّ روح تمثّل بتصرّف الخيال المنفصل، وظهر في جسم ناريّ كالجنّ أو نوريّ كالأرواح الملكيّة والإنسانيّة"[1]. فيطلق على الإنسان والملائكة والجِنِّ ولا يقال لغيرهم[2].

2 – الجسم: الجسم: الجسد[3]. من "جَسُمَ يجْسُمُ جَسَامَةً: عَظُمَ، فهو جَسِيمٌ، والجمع؛ جِسَامٌ. والجِسمُ كلّ شخص يُدرَك من الإنسان والحيوان والنّبات. وعند الفلاسفة: كلّ جوهر مادّيّ يشغل حيِّزًا ويتميّز بالثّقل والامتداد، ويُقَابل الرُّوح"[4]. أو هو جوهر قابل للأبعاد الثّلاثة[5]. أي: ما له طول وعرض وعمق ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجساما وإن قُطِعَ ما قُطِعَ وجُزِّيءَ ما جُزِّيءَ[6].

3 – البدن: البدنُ الجسدُ، يقال اعتبارا بعظم الجثّة، ومنه امرأة بادِنٌ وبدِين عظيمة البدن[7]. وبَدَنُ الإنسان: جسده. والبدن من الجسد: ما سِوَى الرّأس والأطراف[8]. وبدَنَ الرّجل وبَدُنَ، يَبْدُنُ بُدنًا، وبَدانةً، فهو بادِنٌ ومُبَدَّنٌ إذا ضَخُمَ، وامرأة مُبَدَّنَةٌ. والبُدْنُ: السُّمنُ والاكتناز، ومنه: البَدَنَةُ من الإبل والبقر تسمّى بُدْنًا اعتباراً بعظم الخلق، والجمع: بُدُنٌ وبُدْنٌ[9]، يقول تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾[10]. وسمّيتُ البدنُ بذلك لأنّهم كانوا يسمّنونها للنّحر.

---

1 ـ كتاب التّعريفات. عليّ بن محمّد الشّريف الجرجانيّ الحسينيّ الحنفيّ (816هـ). تح: محمّد عبد الرّحمن المرعشلي. بيروت. لبنان. دار النّفائس للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط/1/1424هـ/2003م. 139. مادّة (الجسد).
2 ـ ينظر المصباح المنير. أحمد بن محمّد الفيّوميّ. 56-57. مادّة (الجَسَدُ).
3 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج146/3. مادّة (جسم)، وينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج122/1. مادّة (جَسُمَ).
4 ـ المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج122/1. مادّة (جَسُمَ)
5 ـ ينظر كتاب التّعريفات. الشّريف الجرجانيّ (ت816هـ). 139. مادّة (الجسم).
6 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 106. مادّة (جسم).
7 ـ المصدر السّابق. 49. مادّة (بدن).
8 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج40/2. مادّة (بدن)، وينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج44/1. مادّة (بَدَنَ).
9 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها. مادّة (بدن)، وينظر دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدّوريّ. 110.
10 ـ الحجّ/36.

ولقد تقارب معنى البدن مع معنى الجسم في التّعبير عن عظم الخلق، ولكنّهما افترقا في معنى دقيق، من حيث كون البدن عِظَمَ الجثّةِ بأجمعِها مع انقطاع الرّوح، أمّا الجسم فهو عِظَمُ الأجزاء والأعضاء من الأحياء كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾[1]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ ﴾[2]، وليس في البدن شيء من ذلك، فلا يمدح الرّجل على أنّه بدين، في حين يثنى عليه في أنّه جسيم[3].

يتألّف جسم الإنسان من مجموعة من الأعضاء الظّاهرة وغير الظّاهرة، ولكلّ عضو منها وظيفة خاصّة به، أو أكثر، وأهمّ هذه الوظائف الوصول إلى الله تعالى، و"ما من عضو من الأعضاء ولا حاسّة من الحواسّ إلاّ ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى فمن استعمله فيه فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب"[4]، ففي القلب – الّذي يقع وسط المملكة الجسم – يستقرّ ما يُدرك الإنسان من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وتجري بقية الأعضاء مجرى خدمه وكتّابه، فيجري اللّسان مجرى ترجمانه، والحواسّ الخمس مجرى جواسيسه، وتُوَكَّل العين بعالم الألوان، والسّمع بعالم الأصوات، والشّمّ بعالم الرّوائح[5]، وتكون الأعضاء الظّاهرة والباطنة وقواها، جندا من أجناد القلب.

وقد حاولت إحصاء أعضاء جسم الإنسان الّتي ذكرت في القرآن الكريم فوجدت أربعة وستّين عضوا، وحاولت عدّ كلّ المواضع الّتي ورد فيها اسم يدلّ على عضو من أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم، يكون – فيها هذا العضو – خاصّا بالإنسان فقط، فوجدت تسعين وتسع مائة موضع. والجدول الآتي يبيّن هذا:

---

1 ـ البقرة/247.
2 ـ المنافقون/4.
3 ـ دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدّثوريّ. 111.
4 ـ إحياء علوم الدّين. أبو حامد الغزالي. ج3/12-13.
5 ـ ينظر المصدر نفسه. ج3/13.

جدول أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم					
العضو	**عدده**	**العضو**	**عدده**	**العضو**	**عدده**
الجسم	02	الخدّ	01	الفرج	07
الجسد	04	الذّقن	03	السّوأة	07
البدن	01	اللّحية	01	العورة	04
العظام	14	العنق	09	الجنب	08
اللّحم	02	الرّقبة	09	الجناح	05
الجلد	02	الجيد	01	الرّحم	11
الدّم	03	العِطْفُ	01	اليد	110
النّفس	295	الحناجر	02	الذّراع	01
الرّأس	17	التّراقي	01	العضد	02
النّاصية	04	الحلقوم	01	المرافق	01
الوجه	72	الظّهر	09	الكفّ	02
الأذن	11	الصّلب	02	الأصابع	02
العين	35	الصّدر	44	الأنامل	01
الطّرف	06	القلب	132	البنان	02
الأنف	02	الفؤاد	16	اليمين	16
الخرطوم	01	البطن	10	الشّمال	03
الفم	13	الأمعاء	01	الرّجل	13
اللّسان	25	التّرائب	01	السّاق	03
السّنّ	02	حبل الويد	01	القدم	08

الشّفتان	01	الوتين	01	العقب	07
الجبهة	01	الأدبار	17	الكعب	01
الجبين	01	**المجموع = 990 مرّة**			

ولقد رتّبت الأسماء الواردة في الجدول السّابق في حقل دلاليّ خاصّ بجسم الإنسان، على النّحو الآتيّ:

المجال الأوّل: الجسم، الجسد، البدن، الجلود، العظام، الدم، اللّحم، النّفس.

المجال الثّاني: الرّأس والعنق:

1 – الّرأس، ويضمُّ: النّاصيّة، الوجه، الأذن، العين، الطّرف، الأنف، الخرطوم، الفم، اللّسان، السّنّ، الشّفتان، الجبهة، الجبين، الخدّ، الذّقن، اللّحية.

2 – العنق، ويضمّ: الرّقبة، الجيد، العِطْفُ، الحناجر، التّراقي، الحلقوم.

المجال الثّالث: الجذع، ويضمّ: الظّهر، الصّلب، الصّدر، القلب، الفؤاد، الأمعاء، التّرائب، حبل الوريد، الوتين، الأدبار، الأرحام، الفرج، السّوأة، العورة، الجنب، الجناح، الرّحم.

المجال الرّابع: الأطراف:

1 – **الأطراف العلويّة**، وهي: اليد، الذّراع، العضد، المرافق، الكفّ، الأصابع، الأنامل، البنان، اليمين، الشّمال.

2 – **الأطراف السّفليّة**، وهي: الرّجل، السّاق، القدم، العقب، الكعبين.

إنّ العضو الأوّل الّذي ذكر في القرآن الكريم بحسب ترتيب المصحف الشّريف، هو: القلب، لقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1]، وهو عضو غير ظاهر، إلاّ أنّه "الملك المشتغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، مخدوم، مستقرّ في الوسط. وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الرّوح الحيوانيّ والحرارة الغريزيّة. وهو معدن العقل والعلم والحلم والشّجاعة، والكرم والصّبر، والاحتمال، والحبّ والإرادة والرّضا والغضب، وسائر صفات الكمال"[2]. وهو محل الإيمان والتّقوى والمدركات، وبه تحدّد طبيعة الإنسان المؤمن أو المنافق أو الكافر، وهو العضو الّذي يوصف بالحياة وضدّها.

أمّا العضو الأوّل الظّاهر الّذي ذكر بعد القلب فهو الأذن، ولم يذكر صراحة وإنّما ذكرت الحاسّة، وأشير إليها من خلال ما قد يصيبها من العطل إذا غفل الإنسان عمّا كلّفه الله تعالى به، وضيّع ما استخلفه فيه، قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[3]، فلقد ذكر العضوان في آية واحدة، وخصّهما القرآن الكريم بالختم معا؛ فلا ينفذ الحقّ إلى قلوب هؤلاء الكفّار ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم واستكبارهم، ولا إلى أسماعهم لأنّها تنبو عن الإصغاء إليهن وتعاف استماعه كأنّها مستوثق عليها بالختم[4]، "لأنّ الأدلّة السّمعيّة لا تستفاد إلاّ من جهة السّمع، والأدلّة العقليّة لا تستفاد إلاّ من جانب القلب"[5]، والسّمع طريق إلى القلب. و"إنّما قدّم سبحانه الختم على القلوب هنا لأنّ الآية تقرير لعدم الإيمان فناسب تقديم القلوب لأنّها

1 ـ البقرة/7

2 ـ طبّ القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحرّاني وابن قيّم الجوزيّة. عمر أحمد الرّاوي. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط2. 1427هـ/2006م. 291.

3 ـ البقرة/7

4 ـ ينظر الكشّاف. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ. بيروت. لبنان. دار الفكر. ط1. 1977م/1397هـ. مج1/155-156.

5 ـ تفسير الفخر الرّازي. فخر الدّين الرّازي. بيروت. لبنان. دار الفكر. ط1. 1425و1426هـ/2005م. مج1/ج2/53.

محلّ الإيمان، والسّمع والأبصار طرق وآلات له"[1]، في علاقته بالعالم الخارجيّ، وإن كانت الجوارح كلّها تابعة للقلب فقد يتأثّر بأعمالها للارتباط الّذي بين الظّاهر والباطن[2].

إنّ الله تعالى يقدّم السّمع – في القرآن الكريم – على البصر حيث وقعا، فبالسّمع تُنال سعادة الدّنيا والآخرة، والسّعادة بأجمعها قائمة في طاعة الرّسل والإيمان بما جاؤوا به، وهذا إنّما يُدرك بالسّمع. وأفضل نعيم أهل الجنّة في الدّار الآخرة وأحبّه إليهم إنّما هو النّظر إلى وجه الله تعالى، ولقد نالوا هذا النّعيم وهذا العطاء بواسطة السّمع، فكان السّمع كالوسيلة لهذا المطلوب العظم[3].

وإنّ ما يحصل للإنسان من العلوم من طريق السّمع أضعافُ أضعافِ ما يحصل له من البصر، وإنّ السّمع يجعل الإنسان يدرك الموجودات والمعلومات والحاضر والغائب والقريب والبعيد والواجب والممكن والممتنع، فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه، وفَقْدُ السّمع يوجب ثَلْمَ القلب واللّسان، ولهذا كان الأطرش خِلقَةً لا ينطق في الغالب.

ولقد عُرِفَ كثير من العلماء والفضلاء وأئمّة الإسلام من هو أعمى ولم يعرف فيهم واحد أطرش؛ بل لا يعرف في الصّحابة أطرش[4].

خامسا: تعريف الدلالة:

الإنسان اجتماعيّ بطبعه، ولابدّ له من وسيلة أساسيّة للاتّصال مع بني جنسه، ولا توجد أفضل وسيلة لتحقيق هذه الغاية من اللّغة الّتي توفّر له طرقا متعدّدة للتّفاهم مع غيره في جميع مجالات الحياة، سواء بالكلمة أو بالرّمز والإشارة.

---

1 ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني. محمود الألوسيّ. القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث. (د. ط). 1426هـ/2005م. مج1/ج1/203.

2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ. بيروت. لبنان. دار إحياء التّراث العربيّ. (د. ط). (د. ت). ج1/188.

3 ـ ينظر بدائع الفوائد. ابن قيّم الجوزية. تح: صالح اللّحّام وخلدون خالد. بيروت. لبنان. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1426هـ/2005م. 94-95.

4 ـ ينظر المرجع نفسه. الصّفحة نفسها.

ويملك الإنسان في مجتمعه ثروة لغويّة خاما يَتّفق على معانيها مع غيره طالما هي في المعجم، أمّا إذا انتقل بها إلى سياقات الاستعمال المختلفة، فإنّ الدّلالات تتغيّر وتتبدّل، وتتنوّع بحسب ما يقتضيه الموقف وتتطلّبه الحياة. وفي هذا الوقت يتدخّل الباحث اللّغويّ لدراسة هذه الدّلالات والتّغيرات الّتي طرأت على مفردات اللّغة، ويطرح ذلك ضمن علم الدّلالة. و"موضوع الدّلالة هو المعنى اللّغويّ، والمعنى اللّغويّ ينطلق من معنى المفردة من حيث حالتها المعجميّة ومتابعة التّطوّرات الدّلاليّة والتّغيّرات الّتي تأخذها في السّياقات المختلفة إذ يصعب تحديد الكلمة، لأنّ الكلمة لا تحمل في ذاتها دلالة مطلقة، وإنّما السّياق هو الّذي يحدّد لها دلالتها الحقيقيّة"[1]، فدلالة الكلمة الحقيقيّة تتحقّق بفضل السّياق الّذي ترد فيه.

1 – ماهية الدّلالة لغة:

دَلَّهُ على الشّيء يدُلُّهُ دَلاًّ ودَلالَةً فاندَلَّ: سدَّدَهُ إليه، والدَّليلُ ما يُستَدَلُّ به. والدَّليلُ: الدَّالُّ. وقد دَلَّهُ على الطّريقِ يدُلُّهُ دَلالةً ودِلالةً ودُلُولة. والدّليل يدُلُّ على الدَّلالةِ. والدِّلّيليّ عِلمُهُ بالدَّلالَةِ ورسُوخُهُ فيها[2]. "وترتبط دلالة لفظ (الدّلالة) في الاصطلاح بدلالته في اللّغة، حيث انتقلت اللّفظة من معنى الدّلالة على الطّريق، وهو معنى حسّيّ، إلى معنى الدّلالة على معاني الألفاظ، وهو معنى عقليّ مجرّد"[3]. فالارتباط ما بين المعنيين وارد في عمليّة الإرشاد إلى الوصول إلى أمر ما؛ فالدّليليّ يرشد إلى الطّريق، والدّلالة ترشد إلى المعنى.

2 – ماهية الدّلالة وعلم الدّلالة اصطلاحا:

(فالدّلالة) و(المعنى) مترادفان[4]، و(علم الدلالة) تركيب إضافيّ يدلّ دلالة الاسم على مسمّى خال من الدّلالة على الزّمان[5]، يقابله في الفرنسيّة Sémantique ، وأوّل من استعمل

1 ـ علم الدّلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. الأسكندريّة. ج. م. ع. المكتب الجامعيّ الحديث. الزاريطة. (د. ط). (د. ت). 6.
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج5/291-292. مادّة (دلل).
3 ـ علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. القاهرة. ج.م.ع. النّاشر مكتبة الآداب. ط1. 1426هـ/2005. 12.
4 ـ المرجع نفسه. 17. الهامش1.
5 ـ ينظر المرجع نفسه 14.

هذا المصطلح هو (ميشال بريال) Michel Bréal سنة 1883[1]، بعد أن تبلورت عنده صورته الفرنسيّة Sémantique، ليعبّر به عن فرع من فروع اللّغة العام، وهو علم الدّلالة في مقابل علم (الصّوتيات)[2]. ثمّ نقله اللّغويّون إلى الإنجليزيّة بعد ذلك[3]. وقد اشتقّ من اليونانيّة من أصلين اثنين هما: Semantikos بمعنى العلامة، وSemainein بمعنى دلّ[4].

إنّ علم الدّلالة، من أهمّ جوانب علم اللّغة، "يعرّفه بعضهم بأنّه (دراسة المعـــنى)، أو (العلم الّذي يدرس المعنى)، أو(ذلك الفرع من علم اللّغة الّذي يتناول نظريّة المعنى)"[5]. أو هو "ذلك الفرع الّذي يدرس الشّروط الواجب توافرها في الرّمز حتّى يكون قادرا على حمـــل المعنى"[6]، أو "القضية الّتي يتمّ خلالها ربط الشّيء والكائن والمفهوم والحدث بعلامة قابلة لأن توحي بها: فالغمامة علامة المطر، وتقطيب الحاجب علامة الارتباك والغضب، ونباح الكلب علامة غضبه، وكلمة حصان علامة الانتماء إلى فصيلة الحيوان"[7]. فعلم الدّلالة إذن هو علم يشمل الدّلالات المنطوقة وغير المنطوقة[8].

وعند علماء العربيّة "هو العلم الّذي يدرس كلّ ما أَعطَى معنًى، أو علم دراسة المعنى الّذي يتحقّق من الرّموز الصّوتيّة واللّفظيّة والكتابيّة، والإشاريّة والجسديّة، وغيرها من رموز

---

1 ـ ينظر علم الدلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 7، ومدخل إلى علم اللّغة. محمود فهمي حجازي. القاهرة. مصر. دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 1998. 129، وإشارة اللّغة ودلالة الكلام. موريس أبو ناضر. بيروت. لبنان. منشورات وتوزيع مختارات. ط1. 1990. 23. أمّا أحمد عزّوز في دراسته "نظرية الحقول الدّلاليّة، دراسة في التأسيس والتّطبيق"، فيشير إلى أنّ أوّل مرّة استخدم فيها ميشال بريال مصطلح Sémantique كان سنة 1897. (دكتوراه) . إشراف: أ.د. عبد الكريم بكري. والمشرف المساعد: مختار حبّار. جامعة وهران. (مخطوط). ص: ب، وينظر الدّلالة الإيحائيّة. صفية مطهري. دمشق. سوريا. منشورات اتّحاد الكتّاب العرب. (د. ط). 2003م. 36.

2 ـ ينظر علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 12.

3 ـ ينظر المرجع نفسه. 13.

4 ـ ينظر مدخل إلى علم اللّغة. محمود فهمي حجازي. 129، وعلم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 12، وعلم الدلالة؛ درسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 23

5 ـ علم الدّلالة. أحمد مختار عمر. القاهرة. مصر. عالم الكتب. ط5. 1998م. 11، وينظر العلاقات الدّلاليّة والتّراث البلاغيّ العربي. عبد الواحد حسن الشّيخ. القاهرة. مصر. مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنّيّة. ط1. 1419هـ/1999م. 7.

6 ـ اللّغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين. نادية رمضان النّجّار. الأسكندريّة. ج. م. ع. دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر. (د.ت). (د. ط). 219.

7 ـ علم الدّلالة. بيار غيرو. ترجمة: أنطوان أبو زيد. بيروت. لبنان. منشورات عويدات. ط1. 1986. 15.

8 ـ وكانت الكلمة، في القرن السّابع عشر ـ على حدّ رأي بَالْمَرْ Palmer ـ تعني التّنبّؤ بالغيب، فأصابها تغيّر دلاليّ، فانتقلت من هذه الدّلالة إلى المعنى الاصطلاحي الجديد، المنتمي إلى حقل علم اللّغة. ينظر علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 13.

المعاني...أو دراسة كلّ ما يدلّ على شيء، ويتوصّل به إلى معنى. وتُعدّ الألفاظ هي أكثر الرّموز اللّغويّة دلالة على المعنى، وأكثرها انتشارا، وأدقّها تعبيرا، وأسرعها فهما"[1]؛ وقد اهتمّ به علماء أصول الفقه اهتماما كبيرا، لاعتمادهم عليه في فهم النّصّ الشّرعيّ، واستنباط الحكم الفقهيّ، كما اهتمّ به البلاغيّون أيضا[2]، فهو علم يساعد على إبراز المعاني المختلفة والدّلالات المتنوّعة في كلّ فرع من فروع الدّرس اللّغويّ الأخرى، فلا يمكن فصله عن الصّوت أو الصّرف أو النّحو أو المعجم، أو أيّ موقف في حياة الإنسان[3].

لقد أشار أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ) إلى الدّلالة بأنواعها بمصطلحي (البيان) أو (الدّلالة الظّاهرة على المعنى الخفي) فقال: "البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضّمير، حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدّليل، لأنّ مدار الأمر والغاية الّتي يجري إليها القائل والسّامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[4]. وفيه ربط ما بين الوسيلة المساعدة وما بين تحقيق الفهم والإفهام.

ثمّ قال في موضع آخر موضّحا العناصر الّتي تساعد على تحقيق الفهم والإفهام: "قد قلنا في الدّلالة باللّفظ. فأمّا الإشارة فباليد، والرّأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشّخصان، وبالثّوب وبالسّيف. وقد يتهدّد رافع السّيف والسّوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا... والإشارة واللّفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم التّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللّفظ، وما تغني عن الخطّ "[5]. وفي القول تأكيد على دور الإشارة في الإبانة والتّعبير.

---

1 ـ دلالة الألفاظ. محمود أبو المعاطي أحمد عكاشة. ج. م. ع. مكتبة الأنجلو المصريّة. (د. ط). 2002. 8.
2 ـ ينظر اللّغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين. نادية رمضان النّجّار. 201.
3 ـ تعني الدّلالة في الأصل "الدّراسة التّاريخيّة لتغيّرات معاني الكلمات، هي دراسة التّغيّر والتّطوّر الذي يصيب لمعنى عبر العصور، وهذا ما عرف بالدّرس التّاريخي". اللّغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين. نادية رمضان النّجّار. 219.
4 ـ البيان والتّبيين. بيروت. لبنان. دار الفكر للجميع، ودار إحياء التّراث العربيّ. ط 1968. مج1/ج1/55.
5 ـ المصدر نفسه. مج1/ج1/56-57.

والدّلالة عند الرّاغب الأصفهانيّ (ت503هـ) هي: "ما يُتَوَصَّلُ به إلى معرفة الشّيء كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالة الإشارات والرّموز والكتابة والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالة، أو لم يكن بقصد كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنّه حيّ"[1]. قال تعالى: ﴿ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

أمّا الدّلالة عند الشّريف الجرجانيّ (ت816هـ) فقد عرّفها بقوله: "هي كون الشّيء بحالة يلزم من العلم به العلم بالشّيء الآخر، والشّيء الأوّل: هو الدّال، والثّاني: هو المدلول"[3]. وهذا معنى عامّ لكلّ رمز إذا عُلِمَ، كان دالاّ على شيء آخر[4]. ثمّ ينتقل إلى المعنى الخاصّ بالألفاظ، فيقول: "الدّلالة اللّفظيّة الوضعيّة: وهي كون اللّفظ بحيث متى أُطلِقَ أو تُخُيِّلَ؛ فُهِم منه معناه للعلم بوضعه. وهي المنقسمة إلى المطابقة والتّضمّن والالتزام، لأنّ اللّفظ الدّال بالوضع يدلّ على تمام ما وُضِعَ له بالمطابقة، وعلى جزئه بالتّضمّن، وعلى ما يلازمه في الذّهن بالالتزام، كالإنسان: فإنّه يدلّ على تمام الحيوان النّاطق بالمطابقة، وعلى جزئه بالتّضمّن، وعلى قابل العلم بالالتزام"[5]. وهذا التّعريف خاصّ بالألفاظ باعتبارها رموزا دالّة[6].

3 – موضوع علم الدّلالة:

يهتمّ علم الدّلالة بدراسة اللّغة باعتبارها كلمة أو رمزا، لأنّ كلاّ منهما يحمل معنىً في ذاته وفي السّياق الّذي يُوَظَّف فيه، ولأنّ كلاّ منهما أداة من أدوات الاتّصال. وأضاف آخرون الجملة لتكون موضوعا لعلم الدّلالة لأنّها في نظرهم الأنسب، لأنّ اللّفظ أو الكلمة لا يمكن أن يستعمل بمعزل عن وحدات معجميّة أخرى؛ بمعنى أنّ "الّذي سيكون أساسيّا في الدّلالة هو الطّريقة الّتي تُرَتَّب وفقها معاني الكلمات لتكوّن معنى جملة ما. مثلا لو أتينا

1 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن 192. مادّة (دلّ).
2 ـ سبأ/14.
3 ـ كتاب التّعريفات. 172.
4 ـ ينظر علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 11.
5 ـ كتاب التّعريفات. الشّريف الجرجانيّ. 173.
6 ـ ينظر علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 11.

بجملة: الرّجل يعطي نقودا إلى الولد. فإنّ هذا القول مكوّن من الوحدات المعجميّة الأساسيّة لقولنا: الولد يعطي نقودا إلى الرّجل، إلاّ أنّ المعنى يختلف من الجملة الأولى عنه في الثّانيّة"[1]. والتّرتيب المقصود في هذا المقام، إنّما هو ترتيب السّياق اللّغويّ الّذي يفرض دلالة محدّدة للكلمة، كلّما تجدّد السّياق أو التّركيب.

وأمّا أحمد مختار عمر، فهو أكثر دقّة وتحديدا لموضوع لعلم الدّلالة، إذ يقول: "موضوع علم الدّلالة أيّ شيء أو كلّ شيء يقوم بدور العلامة أو الرّمز، هذه العلامات أو الرّموز قد تكون علامات على الطّريق وقد تكون إشارة باليد أو إيماءة بالرّأس كما قد تكون كلمات أو جملا"[2]. فهو (علم الدّلالة) يبحث في كلّ ما يقوم بدور العلامة أو الرّمز سواء كان لغويّا أو غير لغويّ (رموز ألسنيّة وشبه ألسنيّة)، ولكنّه يركّز بالدّرجة الأولى على المعنى اللّغويّ في مجال الدّراسة اللّغويّة[3]، فتكون الكلمة الموضوع الأوّل للدّلالة، باعتبار اللّغة ذات أهميّة بالغة بالنّسبة للإنسان. "ولكن لا يفهم من هذا أنّ علم الدّلالة يهتمّ بالمعنى المفرد وحسب، بل هو موجّه صوب النّشاط الكلاميّ، ذي الدّلالة الكاملة، من أحداث كلاميّة، أو امتدادات نطقيّة، تكوّن جملا، ذات معان تتجدّد عن طريق معطيات الجملة ككلّ"[4]. فيكون للدّلالة دور أساسيّ لتحديد القواعد المنظّمة لدلالة الكلمات فيما بينها[5]، والّذي سيكون أساسيّا أيضا هو الطّريقة الّتي تترتّب وفقها معاني الكلمات لتُكوّن معنى جملة ما[6].

وعلم الدّلالة أيضا طريق إلى فهم القوانين الّتي تحكم اللّغات، وتطوّر المعاني وأسباب تبدّلها، والعلاقة ما بين اللّفظ والمعنى، أو الدّالّ ومدلوله، وصلة اللّغة بأصحابها، ومعرفة

1 ـ علم الدّلالة. دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 30.
2 ـ علم الدلالة. 11.
3 ـ ينظر علم الدّلالة. كلود جرمان وريمون لوبلون. ترجمة: نور الهدى لوشن. بنغازي. ليبيا. منشورات جامعة قان يونس. ط1. 1997. 8.
4 ـ العلاقات الدّلاليّة والتّراث البلاغيّ العربيّ. عبد الواحد حسن الشّيخ. 7.
5 ـ ينظر علم الدّلالة. كلود جرمان وريمون لوبلون. ترجمة: نور الهدى لوشن. 24.
6 ـ ينظر المرجع نفسه. 30.

أسرارها وتطوّر ألفاظها ومعانيها، ووسيلة لفهم عقليّة الشّعب الّذي يتكلّمها، ومعرفة بيئته وعاداته ومراحل تفكيره[1].

4 – أنواع الدّلالة[2]:

لقد اختلفت الآراء على التّسمية، فقالوا: أنواع الدّلالة، وأصناف الدّلالة، وأقسام الدّلالة، ووجوه الدّلالة[3]، وعلى الرّغم من هذا الاختلاف، فإنّ علماء الدّلالة أرجعوا ذلك إلى عدّة أنواع من المعاني، فإنّ معنى الكلمة لا ينحصر في المعجم الّذي يعد المدوّنة الرّئيسيّة والأساسيّة لمعاني الكلمات وحسب؛ فهو ليس كافيا لاستيعاب جميع المعاني. وأهم هذه المعاني، هي[4]:

أ – المعنى الأساسيّ أو الأوّليّ: وهو الّذي يسمّى المعنى التّصوّري أو المفهوميّ أو الإدراكيّ، أو المعجميّ، وهو العامل الرئيسيّ للاتّصال اللّغويّ والتّفاهم ونقل الأفكار، ويستعمل في المعنى المباشر.

ب – المعنى الإضافيّ أو الثّانويّ أو التّضمّنيّ: وهو ذلك المعنى الّذي يشير إلى اللّفظ إضافة إلى معناه التّصوّريّ، وهو غير ثابت ولا شامل، وإنّما يتغيّر بتغيّر الثّقافة أو الزّمن أو الخبرة.

جـ – المعنى الأسلوبيّ: وهو الّذي تحدّد ملامحه الظّروف الاجتماعيّة والجغرافيّة، كما يتقيّد بالعلاقة بين المتكلّم والسّامع، كالصّحافة والقانون والأدب بأنواعه وغيرها.

---

1 ـ ينظر فقه اللّغة وخصائص العربيّة. محمّد المبارك. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط7. 1971. 164.

2 ـ " وأرجع [الجاحظ] جميع أصناف الدّلالات إلى خمسة أشياء، هي: اللّفظ، والإشارة، والعقد، والخطّ، والحال (النّصبة). واسماها الغزالي، وجوها: الوجه الأوّل: دلالة الاسم على اسمه كدلالة (البيت) على (البيت) مثلا، والثّاني: ما يسمّى بالتّضمين، مثل دلالة (البيت) على (الحائط)، لأنّ البيت يتضمّن الحائط، والثّالث: ما يسمّى بالالتزام والاستتباع، وذلك مثل دلالة لفظ (السّقف) على الحائط إذ يعدّ السّقف لاحقا ومستتبعا للحائط ولولاه لم يقم.

وأشار فايز الدّاية إلى ضربين من الدّلالة: الدّلالة المعجميّة، والدّلالة السّياقيّة.

وهناك تقسيم آخر للدّلالة، وهو الدّلالة اللّفظيّة والدّلالة غير اللّفظيّة، وكلّ واحدة منهما تنقسم إلى: وضعيّة وطبيعيّة وعقليّة، والدّلالة اللّفظيّة تشمل الدّلالة غير اللّفظيّة". علم الدّلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 38-40.

3 ـ ينظر علم الدّلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 38.

4 ـ ينظر المرجع نفسه. 38-40، والدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإفرادية. صفية مطهري. ص12-13، وعلم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 36- 40، واللّغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين. نادية رمضان النّجّار. 220-222.

د – المعنى النّفسيّ: وهو فرديّ، مرتبط بما يملكه الفرد من دلالات ذاتيّة لذلك اللّفظ، مثل الأحاديث العاديّة، أو الأعمال الأدبيّة.

هـ – المعنى الإيحائي: إنّ للمعنى الإيحائي أهمّية بالغة وذلك في كونه يعمل على استنباط الدّلالة الكامنة في المفردة اللّغويّة لما تؤدّيه هذه الأخيرة من وظائف، بحيث يستشفّ قدرتها على الإيحاء بناء على ما تتميّز به من شفافيّة معيّنة. وللمعنى الإيحائيّ ثلاثة تأثيرات، هي: "التأثير الصّوتيّ، والتّأثير الدّلاليّ المتعلّق بالمجاز، ويلحق بهذا النّوع ما يسمّى بالمعنى الانعكاسيّ. ويتّضح المعنى الانعكاسيّ بصورة أكبر في الكلمات ذات المعاني المكروهة أو المحظورة مثل الكلمات المرتبطة بالجنس والموت. وفي أمثال هذه الحالات ينبغي استعمال التّلطيف في التّعبير، الّذي هو عملية الإشارة إلى شيء مكروه أو معنى غير مستحبّ بطريقة تجعله أكثر قبولا واستساغة"[1]. وكلّ أنواع الدّلالات تتفاعل تفاعلا كبيرا في إعطاء المعنى، ولا يمكن الاستغناء عن أيّ منها.

5 – علاقة علم الدّلالة بالمستويات اللّغويّة والعلوم الأخرى:

العلاقة ما بين مستويات اللّسانيّات (من مستوى صوتيّ ومستوى صرفيّ ونحويّ ومعجميّ) وما بين علم الدّلالة قائمة لا تزول، فالتّغيّرات الصّوتيّة الّتي تحدث، وبنية الكلمة وترتيب عناصر الجملة، وانتظامها داخل السّياق، كلّ ذلك له دلالات معيّنة. والحقيقة أنّ هذه المستويات على درجة كبيرة من الاتّساق والانسجام، فهي مرتبطة مجتمعة تؤلّف وحدة متكاملة[2]، و"لا ينفصل بعضها عن بعضها الآخر، لكن هذا الفصل الّذي يفعله الدّارسون إنّما يستهدفون منه إجراء الدّراسة، والقيام بالتّحليل اللّغويّ... وعلم الدّلالة يستخدم ما يبدو من الخصائص الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة للخطاب أثناء عمليّة التّحليل الدّلاليّ، للكشف عن

1 ـ علم الدّلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 41.
2 ـ إشارة اللّغة ودلالة الكلام. موريس أبو ناضر. 21، وينظر العلاقات الدّلاليّة والتّراث البلاغيّ العربيّ. عبد الواحد حسن الشّيخ. 9.

الخصائص الدّلاليّة للكلمة، أو التّركيب"[1]. وهذه التّداخلات بين هذه الفروع في الدّرس اللّغويّ تؤكّد أنّ مستويات اللّغة تخضع لكيان واحد، وأنّ التّقسيمات من صنع العلماء[2].

ويعتبر علم الدّلالة قمّة هذه المستويات وغايتها؛ لأنّ الهدف من الخطاب المكتوب أو المنطوق، هو الفهم، والمسئول عن الفهم هو علم الدّلالة[3]. و"لم يقتصر هذا العلم على الدّراسات اللّغويّة فحسب، وإنّما قضيّة المعنى تشغل جميع المتكلّمين وجميع الاختصاصات، ولذا فقد شارك فيه علماء النّفس وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، كما شارك فيه رجال السّياسة والاقتصاد والفنّانون والصّحفيون والأدباء"[4]. فإنّ علم الدّلالة هو نقطة التقاء لأنواع من التّفكير والمناهج وإن اختلفت اهتمامات كلّ منها.

أ ــ الدّلالة الصّوتيّة[5]: وتنقسم هذه الدّلالة إلى[6]:

ــ الدّلالة الصّوتيّة الطّبيعيّة الّتي تعنى بوجود مناسبة مابين اللّفظ ومعناه[7] وسمّاها ابن جنّي الدّلالة اللّفظيّة[8].

ــ والدّلالة الصّوتيّة التّحليليّة الّتي يتغيّر فيها المعنى تبعا لتغيّر الوحدات الصّوتيّة[9]. ففي الألفاظ (قطم، وقطف، وقطع، وقطش، وقطّ) يدلّ القاف والطاء على القطع، أمّا الحرف الثّالث (الوحدة الصّوتيّة الثّالثة) فهو الّذي يحدّد المعنى (الدّلالة)[10].

---

1 ـ علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 15

2 ـ ينظر التّحليل اللّغويّ في ضوء علم الدّلالة. محمود عكاشة. القاهرة. ج. م. ع. دار النّشر للجامعات. ط1. 1426ه. 2005. 16.

3 ـ ينظر علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. 15، والدّلالة الإيحائيّة. صفية مطهري. 27، اللّغة وأنظمتها بين القدماء وأنظمتها. رمضان النّجّار. 219.

4 ـ الدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإفراديّة. صفية مطهري. 27، وينظر العلاقات الدّلاليّة والتّراث البلاغيّ العربيّ. عبد الواحد حسن الشّيخ.8، وعلم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 15-16.

5 ـ علم الدّلالة بين النّظر والتطبيق. أحمد نعِيم الكَراعين. بيروت. لبنان. المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع. ط1. 1993م. 95.

في الهامش رقم:28 يذكر الكاتب أنّ إبراهيم أنيس تعرّض لأنواع الدّلالات وقسّمها في كتابه "دلالة الألفاظ" 24-57 وما بعدها، إلى: الدلالة الصوتية، والدلالة الصرفية، والدلالة النحوية، والدلالة المعجمية أو الاجتماعية.

6 ـ المرجع نفسه. 95.

7 ـ المرجع نفسه. 96.

8 ـ الخصائص. أبو عثمان بن جنّي. تحقيق محمد علي النّجّار. بيروت. لبنان دار الكتاب العربيّ. (د. ط). (د. ت). ج98/3.

9 ـ علم الدّلالة بين النظر والتطبيق. أحمد نعِيم الكَراعين. 96، وينظر الدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإفراديّة. صفية مطهر. 30، وعلم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 13.

10 ـ ينظر المرجع نفسه. 96.

ب ــ الدّلالة الصّرفيّة[1]:

تعني أنّ دلالة اللّفظ مرتبطة بصيغة اللّفظ. وقد سمّاها ابن جنّي (الدّلالة الصّناعيّة)[2]، وجعلها ضمن دلالات النّحو الثلاث (لفظيّة وصناعيّة ومعنويّة) وجعلها أقوى من الدّلالة المعنويّة، فيقول: "الدّلالة الصّناعيّة أقوى من الدّلالة المعنويّة"[3]. ومثال على ذلك: الفعل (دَخَلَ) والفعل (نَظَرَ) بصيغة (فَعَلَ)، كلاهما لازم فإذا صغنا منهما على وزن (أَفْعَلَ) تغيّرت دلالتُهما، لأنّ "أَفْعَلَ تكون للتّعديّة غالبا أي لجعل اللاّزم متعديّا على مفعول واحد مثل: نَظَرَ وأَنْظَرْتُهُ ودَخَلَ وأَدْخَلْتُهُ، وإن كان الفعل متعديّا إلى مفعول واحد صار متعديّا إلى مفعولين، مثل: سَمِعَ الخبرَ، فتقول: أَسْمَعْتُهُ الخبَرَ، وعَلِمَ الأَمْرَ، فتقول: أَعْلَمْتُهُ الأَمْرَ"[4]. بمعنى أنّ كلّ تغيير في بناء الكلمة وصيغتها يجرّ حتما إلى تغيير في الدّلالة.

جـ ــ الدّلالة النّحويّة[5]:

إنّ لعناصر الجملة الفعليّة والاسميّة ترتيبا على نمط خاصّ يتولّد عنه مدلول معنى، ولا يزال هذا المعنى يتغيّر بحسب التّغيّر الّذي يطرأ داخل الجملة من حيث التّقديم والتّأخير، والعلاقات الّتي تكتسبها الكلمات داخل الجملة. ولقد سبق علماء العرب والمسلمين غيرهم إلى الإشارة إلى الدّلالة النّحويّة، فقالوا: "إنّ النّظم هو توخّي معاني النّحو في معاني الكلم وإنّ توخّيها في متون الألفاظ محال"[6]، ويوضّحون أكثر: "إذا كان قد علم أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون الإعراب هو الّذي يفتحها وإنّ الأغراض كامنة فيها حتّى يكون هو المستخرج لها وإنّ المعيار الّذي لا يتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتّى يعرض عليه المقياس الّذي

1 ـ علم الدّلالة بين النظر والتطبيق. أحمد نعيم الكراعين. 97، ويراجع :الدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإفراديّة. 31، وعلم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 13.
2 ـ الخصائص. ابن جنّي. ج98/3، وينظر علم الدّلالة بين النّظر والتّطبيق. أحمد نعيم الكراعين. 97 .
3 ـ المصدر نفسه. الصّفحة نفسها، وينظر علم الدلالة بين النظر والتطبيق. أحمد نعيم الكراعين. 97.
4 ـ الشّامل؛ معجم في علو اللّغة العربيّة ومصطلحاتها. محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي. بيروت. لبنان . دار العودة. ط1. 1985. 145.
5 ـ ينظر علم الدلالة بين النظر والتّطبيق. أحمد نعيم الكراعين. 98، والدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإراديّة. صفية مطهري. 31، وعلم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 13 .
6 ـ دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ). تح: محمود محمّد شاكر. القاهرة. مصر. مكتبة الخانجي للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). (د. ت).94.

لا يعرف صحيح من سقيم حتّى يرجع إليه"[1]. وإنّ الفاعليّة والمفعوليّة والابتداء والخبر وغيرها هي الدّلالات الّتي تكتسبها الكلمة داخل الجملة، كلّما تغيّر مكانها.

ومثال على ذلك قولنا: "أهدى محمد خالدا كتابا" و"أهدى خالد محمدا كتابا". فعندما تَغَيَّرَت رتبةُ الكلمات، تَغَيَّرَ مدلولها، فإنّه "كما يمدّ العنصر النّحويّ العنصر الدّلاليّ بالمعنى الأساسيّ في الجملة الّذي يساعد على تميّزه وتحديده، يمدّ العنصر الدّلاليّ العنصر النّحويّ كذلك ببعض الجوانب الّتي تساعد على تحديده وتمييزه، إذ يوجد (في) العنصرين أخذ وعطاء وتبادل تأثيريّ دائم"[2]، يظهر ذلك من خلال ترتيب عناصر الجملة في اللّغة العربيّة، وما يطرأ عليها أحيانا من التّقديم والتّأخير.

د ــ الدّلالة السّياقيّة[3]:

السّياق في اللّغة: جذره متكوّن من السّين والواو والقاف، وهو أصل واحد، وهو حَدْوُ الشّيءِ[4]، مشتقّة من ساقَ يَسُوقُ الإِبِلَ وغيرَها يَسُوقُها سَوْقًا وسِيَاقًا، وقد أَسَاقَهَا واسْتاقَها فانْسَاقَت[5]، أي؛ سارت متتابعةً[6]، وتَسَاوَقَت الإبل ونحوُها تَسَاوُقًا إذا تَتَابَعَتْ[7]، وكذلك تقاودَتْ فهي متَسَاوِقةٌ ومُتقَاودةٌ[8]. والأصل في تَسَاوَقَ تَتَساوق كأنّها لضعفها وهزالها تتخاذل ويتخلّف بعضها عن بعض[9]، والسِّيقَةُ: ما اسْتِيَق منَ الدَّوَابِّ[10]. وفي حديث

---

1 ـ أعلام الموقعين عن ربّ العالمين. ابن قيم الجوزيّة. مراجعة وتعليق: طه عبد الرّؤوف سعد. القاهرة. مصر. مكتبة ومطبعة الحاج عبد السّلام بن محمّد بن شقرون. شركة الطّباعة الفنّيّة المتّحدة. (د.ط). 1968. مج3/238.

2 ـ الدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإفراديّة. صفية مطهري. 32.

3 ـ ينظر المرجع نفسه. الصّفحة نفسها، وعلم الدّلالة بين النّظر والتّطبيق. أحمد نعيم الكراعين. 100.

4 ـ ينظر معجم المقاييس في اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ). تح: شهاب الدّين أبو عمرو. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2/1418هـ/1998. 498. مادّة (سوق).

5 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج7/304. مادّة (سوق).

6 ـ ينظر تاج العروس من جواهر القاموس. محبّ الدّين أبو الفيض السّيّد محمّد مرتضى الزّبيديّ (ت1305هـ). بيروت. لبنان. منشورات دار مكتبة الحياة. ط1. 1306ه. مج6/388-389.

7 ـ ينظر أساس البلاغة. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري (ت538هـ). بيروت. لبنان. دار صادر. ط1. 1412هـ/1992م. 314. مادّة (سوق)، ولسان العرب. ابن منظور. مج7/304. مادّة (سوق)، والمعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج1/464. مادّة (ساق).

8 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج7/304. مادّة (سوق)، وتاج العروس. الزّبيديّ. مج6/388-389.

9 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها، وتاج العروس. الزّبيديّ. مج6/388-389.

10 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. أحمد بن فارس. 498. مادّة (سوق).

أمّ معبد: (جاء زوجها يسُوقُ أعنُزًا ما تَسَاوَقَ أي ما تتابع)[1]. ويقال: ولدت فلانة ثلاثَةً على ساقٍ واحدَة، أي بعضُهُم على إثر بعضٍ، ليست بينهم جاريةٌ[2]. وسياق الكلام؛ تتابعه وأسلوبه الّذي جرى عليه[3]. فهذه أقوال علماء اللّغة والمعجم تتّفق على معنى الّتتابع والاتّصال.

أمّا في الاصطلاح فيحدّد أصحاب نظريّة السّياق أربعة أنواع منه، هي: السّياق اللّغويّ وسياق الموقف، والسّياق الثّقافيّ، والسّياق العاطفيّ[4]. والّذي يهمّنا في هذا البحث النّوعان الأوّل والثّانيّ؛ أي: السّياق اللّغويّ الّذي نستعين به لتوضيح الدّلالات المختلفة الّتي تكتسبها الكلمة من خلال الاستعمالات المتنوّعة. وسياق الموقف أو سياق الحال، ويتجلّى هذا النّمط فيما يعرف بأسباب النّزول[5]؛ فقد كان سبب نزول الآية من أهمّ القرائن الّتي تعيِّنُ دلالتها وتوجِّهُ معناها إلى وجهة دون غيرها[6].

أمّا السّياق اللّغويّ فهو الّذي يحدّد معنى الكلمة، ولا يتحدّد هذا الأخير من خلال معناها المعجميّ أو القاموسيّ فحسب، فهو يعطينا دلالات كثيرة للكلمة الواحدة، بعضها متجانس وبعضها متناقض[7]، فهذا "ليس كل شيء في إدراك معنى الكلام فثمّة عناصر (غير لغويّة) ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء أو أجزاء من معنى الكلام: وذلك كشخصيّة المتكلّم، وشخصيّة المخاطب، وما بينهما من علاقات، وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذات صلة به"[8]. فالسّياق أو ما يسمّى (الكلام الحيّ)[9] هو الّذي يكشف عن حقيقة الكلمة، لأنّه – أي السّياق – كما عرّفه (سبنس) Spence هو: "وضع الكلمة

---

1 ـ ينظر تاج العروس. الزّبيديّ. مج6/388-389.

2 ـ ينظر معجم الصحاح (مرتّب ترتيبا ألفبائيّا وفق أوائل الحروف). إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (ت390هـ أو 400هـ). اعتنى به مأمون شيحا. بيروت. لبنان. دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 1428هـ/2007م. 524. مادّة (سوق).

3 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج1/464. مادّة (ساق).

4 ـ ينظر علم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 69.

5 ـ ولقد حاولت الإشارة إلى سياق الموقف أو الحال من خلال أسباب النّزول الّتي أوردتها في الإحالات.

6 ـ ينظر التّأويل اللّغويّ في القرآن الكريم؛ دراسة دلاليّة. حسين حامد الصّالح. بيروت. لبنان. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1426هـ/2005م. 129-130.

7 ـ ينظر المرجع نفسه. 127.

8 ـ علم اللّغة، مقدّمة للقارىء العربيّ. د. محمود السّعران. بيروت. لبنان. دار النّهضة العربيّة. (د. ط). (د. ت). 263.

9 ـ ينظر المرجع نفسه. 263.

داخل الجملة أو الحدث الّذي تعبّر عنه الكلمة داخل الجملة، مرتبطة بما قبلها وما بعدها"[1] ، وبالتّالي يجب ـــ أن نتتبّع الكلمة داخل السّياقات المختلفة لكي نفهم معناها أو دلالاتها، "ولهذا يصرّح (فِيرث) Firth بأنّ المعنى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللّغويّة: أي وضعها في سياقات مختلفة"[2]. فالدّلالة الحقيقيّة للكلمة تتحدّد كلّما وقعت داخل سياق معيّن، وتختلف بحسب استعمالاتها.

ولقد "أكّد اللّسانيّون من أصحاب المدرسة الاجتماعيّة، ومنهم فيرث Firth على دور السّياق في تحديد المعنى، واهتمّوا بالاستعمال الفعليّ للكلمة في إطار مجتمع بعينه، ورأى أصحاب هذه المدرسة أنّ هذا الاستعمال يحكمه أمران:

الأوّل: السّياق اللّغويّ نفسه، الّذي لا ينظر إلى الكلمات بوصفها وحدات منعزلة، أي أنّ الكلمة يتحدّد معناها بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى في السّلسلة الكلاميّة.

الثّاني: القرينة أو الموقف الّذي يقال فيه الكلام؛ أي الظّروف الّتي يحدث فيها السّياق"[3].

ويقول أولمان Ulman عن السّياق اللّغويّ بأنّه "النّظم اللّفظيّ للكلمة وموقعها من ذلك النّظم"[4]. وهو بذلك يشمل الكلمات والجمل السّابقة واللاّحقة للكلمة، والنّصّ الّذي ترد فيه، والكتاب المتضمّن لذلك النّصّ[5].

إنّ البعد الدّلاليّ للحدث اللّسانيّ لا يقوم "على العلاقات الّتي تفرزها عناصره اللّغويّة فحسب؛ بل يستمدّ أيضا من علاقات الموقف الاتّصاليّ الّذي يقوم هو الآخر على عناصر متعدّدة تتلاقى مع المعطى التّعبيريّ. فرصد الوظيفة الإخباريّة للحدث الإنسانيّ يرتكز على

1 ـ علم الدّلالة بين النّظر والتّطبيق. أحمد نعيم الكراعين. 100 .
2 ـ علم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 68. ويعدّ فيرث زعيم المنهج السّياقيّ. Contextual Approach أو المنهج العمليّ Approach Oprational.
3 ـ التّحليل الدّلاليّ، إجراءاته ومناهجه. كريم زكي حسام الدّين. القاهرة. ج. م. ع. دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 2000. ج96/1.
4 ـ دور الكلمة في اللّغة. ستيفن أولمان. ترجمة: د. كمال بشر. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة الشّباب. (د. ط). 1975. 54-55.
5 ـ ينظر المرجع نفسه. 56.

جانبين أساسيين؛ جانب على صلة بالسّياق اللّفظيّ الّذي تمليه علاقات المكوّنات اللّفظيّة للتّشكيل اللّسانيّ، وجانب آخر مرتبط بالسّياق الحاليّ أو المقاميّ؛ وهو يضمّ الظّروف والملابسات غير اللّغويّة وقت الإنشاء اللّغويّ"[1]. فالسّياق اللّفظ هو السّياق المقاليّ أو الأدائي للكلمة، وهو سلسلة كلاميّة متفاعلة، تسهم في تقرير الوظيفة الإخباريّة[2]، والسّياق الحالي هو الظّروف الاجتماعيّة والنّفسيّة والثّقافيّة مشتركة بين المتكلّمين واللّغة[3].

فالكلمات ليس لها معان وإنّما لها استعمالات داخل السّياق، وإنّ هذه الاستعمالات تخرج بها من محيط اللّغة السّاكن إلى الكلام المتحرّك، كما يقول الفيلسوف الألمانيّ فتجنشتين: Wittgenstein: "لا تبحث عن الكلمة، بل تبحث عن استعمالها"[4]، أو كما يقول اللّسانيّ الفرنسيّ مييه Mielle: "إنّ الكلمة الحقيقيّة هي الكلمة في السّياق"[5]. فهي تأخذ معناها من خلال السّياق، ولا تدلّ بنفسها على شيء[6]. والّذي سيكون أساسيّا في الدّلالة هو الطّريقة الّتي تترتّب وفقها معاني الكلمات لتُكوِّن معنى جملة ما[7].

إنّ "أحسن طريقة لفهم معنى كلمة هو وجودها في التّركيب الّذي يسهم في إبراز معناها ويجعلها متباينة عن تلك الّتي تقاربها أو تبدو مشابهة لها، بالإضافة إلى الوظائف الدّلاليّة ذات الارتباط بالمحيط والثّقافة اللّذين يعبّران عن دلالة اللّفظ عن كلّ كلمات اللّغة"[8]. فالسّياق مسألة ضروريّة وحاسمة في مجال اللّغة، وأداة إجرائيّة فعّالة لا يمكن الاستغناء عنها.

---

1 ـ البنية التّركيبيّة للحدث اللّسانيّ. عبد الحليم بن عيسى. منشورات مختبر اللّغة العربيّة والاتّصال. جامعة وهران. وهران. الجزائر. دار الأديب. السّانيا. (د. ط). 2006م. 83.
2 ـ ينظر البنية التّركيبيّة للحدث اللّسانيّ. عبد الحليم بن عيسى.. 83.
3 ـ ينظر المرجع نفسه. 89.
4 ـ التّحليل الدّلاليّ؛ إجراءاته ومناهجه. كريم زكي حسام الدّين. ج95/1.
5 ـ المرجع نفسه. الصّفحة نفسها.
6 ـ ينظر المرجع نفسه. 96.
7 ـ ينظر علم الدّلالة. كلود جرمان وريمون لوبلون. ترجمة: نور الهدى لوشن. 30.
8 ـ أصول تراثيّة في نظريّة الحقول الدّلاليّة. أحمد عزّوز. دمشق. سوريا. منشورات اتّحاد الكتّاب العرب. (د. ط). 2002م. 7.

وقد أكّد علماء المسلمين على أهمّية السّياق وأثره في بيان الدّلالات وتحديدها، إلاّ أنّهم لم يتّفقوا على معنى واحد جامع متقارب. ويمكن لنا أن نسرد أقوال بعض العلماء الّذين اشتغلوا بهذا الموضوع، لنعرف مدى اهتمامهم به في مجال البحث عن قرينة أكيدة تمكّن من التّدقيق في اختيار الدّلالات.

يقول عزّ الدّين بن عبد السّلام (ت660هـ): "السّياق يرشد إلى تبيين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلّ ذلك بعرف الاستعمال، فكلّ صفة وقعت في سياق الذّمّ كانت ذمّاً وإن كانت مدحا بالوضع"[1]، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[2]. ولا يخفى ما في الآية من التّأنيب والتّرذيل والجزاء لهذا العزيز الكريم في غير ما عزّ ولا كرامة.

يقول ابن دقيق العيد (ت702هـ): "أمّا السّياق والقرائن فإنّها الدّالّة على مراد المتكلّم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات..."[3]. فأرجع السّياق إلى مراد المتكلّم، وهو الغرض المقصود. وقال في موضع آخر عن دلالة السّياق بأنّه: "لا يقام عليها دليل"[4]. ولبيان أهمّيته في فهم النّصوص الشّرعيّة قال في موضع آخر أيضا: "فإنّ السّياق طريق إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات، وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة من قواعد أصول الفقه، ولم أر من تعرّض لها في أصول الفقه بالكلام عليها وتقرير قاعدتها مطوّلة إلا بعض المتأخّرين ممّن أدركنا أصحابهم، وهي قاعدة متعيّنة على النّاظر، ذات شعب على المناظر"[5]. ويقول أيضا ضمن استدلاله على وجوب الأخذ بالسّياق في فهم النّصوص قوله: "...لأنّ السّياق مبيّن للمجملات، مرجّح لبعض المحتملات، ومؤكّد

1 ـ البحر المحيط في أصول الفقه. بدر الدّين الزّركشيّ. تح: عمر الأشقر. وزارة الشّؤون الإسلاميّة في الكويت. ط2. 1413هـ. ج55/8.
2 ـ الدخان/49.
3 ـ إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. تقي الدّين بن دقيق العيد. تح: أحمد شاكر. القاهرة. ج. م. ع. عالم الكتب. ط2. 1407هـ. ج21/2.
4 ـ المصدر نفسه. ج406/1.
5 ـ المصدر نفسه. ج232/2.

للواضحات... فلينتبه لهذا ولا يغلط فيه، ويجب اعتبار ما دلّ عليه السّياق والقرائن لأنّ بذلك يتبيّن مقصود الكلام"[1]. وفي أقواله المتتاليّة تأكيد على ضرورة مراعاة السّياق في الكلام لفهم الدّلالات.

ويقول ابن قيّم الجوزيّة (ت751هـ) وهو يقرّر بأن إهمال السّياق يؤدّي إلى الوقوع في الغلط والمغالطة: "السّياق يُرشدُ تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العامّ، وتقييد المطلق، وتنوّع الدّلالة. وهذا من أعظم القرائن الدّالّة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[2]، كيف تجد سياقه يدلّ على أنّه الذّليل الحقير"[3]. وهذه من أهمّ خصائص السّياق القرآنيّ، فظاهره يدلّ على المدح والمعنى الحقيقي فيه الذّمّ.

وقال بدر الدّين بن محمّد الزّركشي (ت794هـ): "ليكن محطّ نظر المفسّر مراعاة نظم الكلام الّذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللّغويّ لثبوت التّجوّز، ولهذا ترى صاحب الكشّاف يجعل الّذي سيق له الكلام معتمدا حتّى كأنّ غيره مطروح"[4]. وقد أكّد – في موضع آخر– على حجيّة دلالة السّياق، فقال: "دلالة السّياق أنكرها بعضهم ومن جهل شيئا أنكره. وقال بعضهم: إنّها متّفق عليها في مجاري كلام الله تعالى"[5]. لما لها من الأثر البالغ في تحديد الدّلالات.

وقال جلال الدّين السّيوطيّ (ت911هـ): "وعليه [المفسّر] بمراعاة المعنى الحقيقيّ والمجازيّ، ومراعاة التّأليف، والغرض الّذي سيق للكلام"[6]. والمفهوم من كلام الزّركشيّ

1 ـ البحر المحيط في علم أصول الفقه. بدر الدّين الزّركشيّ. تح: عمر الأشقر. ج289/8 -290.
2 ـ الدّخان/49.
3 ـ بدائع الفوائد. 1013-1014.
4 ـ البرهان في علوم القرآن. تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار الجيل. ط. 1408هـ. ج317/1.
5 ـ البحر المحيط في أصول الفقه. بدر الدّين الزّركشيّ. ج54/8.
6 ـ الإتقان في علوم القرآن. تح: مصطفى ديب البغا. بيروت. لبنان. دار ابن كثير. ط3. 1416هـ. ج1222/2.

والسّيوطيّ: أنّهما يجعلان السّياق هو الغرض، والنّظم في عبارة الزّركشيّ هو التّأليف، وعند السّيوطيّ تابع للسّياق ودليل عليه.

إنّ المتأمّل في أقوال هؤلاء العلماء وفي الشّواهد الّتي ساقوها، يجدها تحمل اعترافات واضحة بأثر السّياق ودلالته وأهمّيته البالغة في الكشف عن المفردات القرآنيّة ودلالات الآيات، وعن مراد الشّارع ضمن مباحث المفسّرين وعلماء الأصول واللّغويين.

والمثالان اللّذان بين أيدينا يوضّحان أثر السّياق على تحديد المعنى؛ ومن ذلك كلمة (يَدٌ) وكلمة (أَكَلَ) وقد تنوّعت السّياقات الّتي وردتا فيها.

❁ – كلمة "يد" في لسان العرب، هي: "الكفّ، وقال أبو إسحق: اليد من أطراف الأصابع إلى الكفّ، وهي أنثى محذوفة اللاّم وزنها فَعْلٌ يَدْيٌ، فحُذِفَتْ الياء تخفيفاً فأعقبت حركت اللاّم على الدّال، والجمع أيدٍ"[1]، وفي المعجم الوسيط، هي: "من أعضاء الجسد وهي من المنكب إلى أطراف الأصابع (مؤنّثة)"[2]. فهذا معناها المعجميّ أو القاموسيّ الثّابت الّذي لا يتغيّر. وأمّا معناها عند أصحاب نظريّة السّياق فهو: "(استعمالها في اللّغة) أو (الطّريقة الّتي تستعمل بها) أو (الدّور الّذي تؤدّيه)"[3]، فتتغيّر دلالتها كلّما تحدّد السّياق. تقول:

– يد الفأس: مقبضها – يد الدّهر: مدّ زمانه – يد الطّائر: جناحه.

– فلان طويل اليد: إذا كان سمحاً – سقط في يده: ندِمَ[4].

❁ – وأمّا كلمة "أَكَلَ"، فقد وردت في اللّسان: "أكل؛ أكلت الطّعامَ أكلا ومأكلا. ابن سيدة: أكل الطّعام يأكله أكلا، فهو آكل و الجمع أكلةٌ"[5]، وفي معجم المقاييس: "قال الخليل: الأكل معروف، والأَكْلَةُ مرّة والأُكْلَةُ اسمٌ كاللُّقْمَة، يُقَالُ: رجل أكول وكثير

1 ـ ابن منظور. مج309/15. مادّة (يدي).
2 ـ إبراهيم أنيس، وآخرون. ج1063/2. مادة (يداه).
3 ـ علم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 68.
4 ـ ينظر علم الدّلالة. أحمد مختار عمر. 70.
5 ـ ابن منظور. مج162/1. مادّة (أكل)..

الأكل"[1]. وحين ترد هذه الكلمة في سياقات مختلفة، فإنّ دلالاتها تختلف بالضّرورة بحسب الحقيقة والمجاز.

وقد وردت كلمة (أكل) في القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة ومتنوّعة، مثل:

- ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾[2]. بمعنى: التّغذيّة للإنسان.

- ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾[3]. بمعنى: الافتراس للحيوان.

- ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾[4]. بمعنى: الرّعي للحيوان.

- ﴿ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ ﴾[5]. بمعنى: القرض للحشرات

- ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴾[6]. بمعنى: الغيبة للإنسان.

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا ﴾[7]. بمعنى: الاختلاس .

- ﴿ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ ﴾[8]. بمعنى: الاحتراق للجماد[9].

---

1 - ابن فارس. 82.
2 - الفرقان/7.
3 - يوسف/13.
4 - هود/64.
5 - سبأ/14.
6 - الحجرات/12.
7 - النساء/10.
8 - آل عمران/183.
9 - ينظر التّحليل الدّلالي، إجراءاته و مناهجه. كريم زكي حسام الدّين. 96.

إنّ السّياقات المختلفة الّتي وردت فيها كلمة (أكل) في هذه الآيات الكريمة هي الّتي حدّدت الدّلالة الحقيقيّة لها. والسّياقات هي الّتي حدّدت بدورها الدّلالات المتنوّعة لكلمة (يد).

6 – العلاقة ما بين الدّال والمدلول في علم الدّلالة:

إنّ دروس فردينان دي سوسير في الدّرس اللّسانيّ الحديث بوّأت علم الدّلالة مكانا علّيا بفضل اهتمامه في تحديد المفاهيم والعناصر المكوّنة؛ "فالدّلالة عنده عبارة عن العلاقة الّتي تربط الدّال بالمدلول داخل العلامة اللّسانيّة، ومن خواصّ هذه العلاقة أن يكون بين الدّال والمدلول كمال الاتّصال، وأنّ أحدهما يقتضي الآخر ويؤذن به، فتصوّر كلّ منهما مرهون بصاحبه، فلا يكون الدّال دالاّ حتّى يكون له مدلول، ولا يتسنّى الكلام على المدلول حتّى يكون له دالّ إذ هو لا يوجد خارج العلاقة الّتي تربطه بالدّال. فلا الدّالّ سابق المدلول، ولا المدلول سابق الدّالّ.

إنّ الدّال بلا مدلول مجرّد شيء من الأشياء، لئن كان له وجوده المادّيّ المحسوس، فإنّه غير ذي دلالة، فكيف يكون دالاّ وهو لا يدلّ؟ والمدلول بلا دالّ أمر لا يتحقّق ولا يُتَصوّر، فهو والعدم سواء"[1]. فالعلاقة ما بين العنصرين جدليّة قائمة ومتينة، فكلاهما يستدعي الآخر، ولصيق به كعلاقة وجهي العملة الواحدة.

يقول غريماس بعبارة أخرى: "يبدو أنّ أفضل نقطة انطلاق لفهم البنية الدّلاليّة تكمن لغاية الآن في المفهوم السّوسيريّ لمستوى اللّغة – مستوى التّعبير، ومستوى المضمون – إلى أنّ وجود التّعبير يعتبر شرطا لوجود المعنى. إنّ مفهوما كهذا يساعد:

ـــ في طرح مسلّمة التّوازي Parallélisme بين التّعبير والمضمون، وإعطاء فكرة تقريبيّة عن وجود المعنى وتلفّظه.

1 ـ علم الدّلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. 27-28.

ـــ في اعتبار مستوى التّعبير مكوّنا من فروقات خلافيّة [تشكّل] الشّروط لوجود المعنى المتلفّظ به، وبالتّالي للوسائل التّقييميّة لتطابق النّماذج المستعملة في وصف المستوى الدّلاليّ (تبعا للقاعدة المشتقّة من مبدإ التّوازي الّذي تقوم على أنّ كلّ تغيير في التّعبير يناظره تغيير في المضمون)"[1]. فالصّلة ما بين اللّفظ والمعنى متينة لا يمكن الفصل بينهما بأي وسيلة فالبنية اللّغويّة لها دلالة، لا تبرحها إلاّ أذا وقع تغيير في البنية ذاتها.

إنّ العلامة اللّسانيّة عند دي سوسير ذات وجهين اثنين لا ينفصل أحدهما عن الآخر، هما الدّال Signifiant وهو الصّورة السّمعيّة، والمدلول Signifié وهو الصّورة المفهوميّة الّتي تعبّر عن المُتصوّر الذّهنيّ الّذي يحيلنا إليه الدّال[2]، وبعبارة أخرى: "فالدّالّ هو: لفظ أو إشارة يدويّة أو خطّيّة أو إشارات أخرى...، والمدلول هو: المعنى أو الصّورة الذّهنيّة"[3].

فالدّرس اللّغويّ الحديث ينظر إلى اللّفظ والمعنى باعتبارهما أمرين متلازمين مترابطين، بحيث لا يكون وجود لأحدهما دون الآخر، ويراهما كائنين يمثلان وجودا عكسيّا؛ فالأوّل وهو اللّفظ ظاهريّ مُدْرَكٌ بحاسّة السّمع، والثّاني المعنى داخليّ غير مُدرَكٍ بالحواسّ إدراكا مباشرا[4].

7 – علاقة اللّفظ بالمعنى:

موضوع اللّفظ والمعنى مرتبط مباشرة بعلم الدّلالة، وهو موضوع للدّراسة في كلّ اللّغات، وعند كلّ الأمم من الهند إلى الصّين إلى اليونان إلى الفرس ثمّ إلى العرب والمسلمين ثمّ إلى أوربا. وقد نظر الدّرس اللّغويّ الحديث "إلى المعنى بالذّات من خلال مستويات التّحليل اللّغويّ باعتباره مستوى قائما بنفسه؛ ويمثّل اللّفظ والمعنى في علم اللّغة الحديث وجهين للّغة، أحدهما: الشّكل أو المظهر الخارجيّ، والآخر المضمون أو المظهر الدّاخليّ؛

1 ـ إشارة اللّغة ودلالة الكلام. موريس أبو ناضر. 244.
2 ـ ينظر المدارس اللّسانيّة؛ أعلامها، مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التّواصليّ. أحمد عزّوز. وهران. الجزائر. دار آل رضوان. ط2. 2008. 116.
3 ـ ينظر التّفكير اللّساني في رسائل إخوان الصّفا. عبد الرّحمن مشَنْتَلَ. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة الآداب. ط1. 1426هـ. 2005م. 139.
4 ـ ينظر التّفكير اللّساني في رسائل إخوان الصّفا. عبد الرّحمن مشَنْتَلَ. 151.

يمكن تمثيلها أيضا بالعملة النّقديّة حسب تصوّر دي سوسير De Saussure لعلاقة اللّفظ بالمعنى؛ فالوجه الأوّل هو اللّفظ، والوجه الآخر الّذي طبعت عليه قيمة العملة هو المعنى"[1]. وقد عبّر دي سوسير عن هذه الثّنائيّة بلفظي (الدّال) و(المدلول).

أمّا إذا أردنا أن نطّلع على ما أنتجه علماء العرب والمسلمين في ثنائيّة اللّفظ والمعنى، فيكفي أن نشير إلى سيبويه (ت180هـ) في (الكتاب)، ثمّ الجاحظ (ت255هـ) في (الحيوان)، وابن قتيبة (ت276هـ)، وثعلب النّحوي (ت291هـ)، وابن جنّي (ت392هـ)، وأبي هلال العسكري (ت395هـ) وغيرهم كثير.

إنّ "الكلمة مبنى ومعنى، ولكلّ منهما سماته وخصائصه الّتي بها نستطيع أن نتعرّف على الكلمات. فالمبنى يدرس في الصّوت، والمعنى يدرس في المباحث الدّلاليّة، والاهتمام بالمعنى جزء هامّ من أجل تكامل دراسة اللّفظة، فإذا كانت الكلمات لفظًا ومدلُولاً ومعنًى، فإنّ المعنى ـــ إذن ـــ علاقة متبادلة بين اللّفظ والمدلُول، وعلاقة تمكّن كلّ واحد منها من استدعاء الآخر"[2]. ويذهب ابن قيّم الجوزية إلى أبعد من هذا، حين يقول: "اعلم أنّ الأصل هو المعنى المُفرد، وأن يكون اللّفظ الدّالّ عليه مفردا، لأنّ اللّفظ قالب المعنى ولباسُهُ يحتذي حذوه، والمناسبة الحقيقيّة معتبرة بين اللّفظ والمعنى طولا وقِصَرًا، وخفّة وثِقلا، وكثرة وقلّة، وحركة وسكوتا، وشدّة ولينا"[3]. وفي هذا تأكيد على الصّلة الوثيقة ما بين اللّفظ والمعنى، وأنّه لا فضل لأحدهما على الآخر.

فلا جدوى من لفظ بلا معنى، ولا من اسم دون مُسمًّى، ولا من مصطلح دون مفهومٍ؛ لأنّ الكلمة تكون كالشّيء الجامد المعتم ما لم تعبّر عن موقف أو فكرة. فالقيمة الحقيقيّة لها تتمثّل في أداء معنى وتعبير عن إحساس وأفكار. فإنّ حياة الإنسان تتوقّف في كثير من القضايا على فهم النّصوص فهمًا صحيحًا ودقيقًا في ميادين السّياسة والحقوق

1 ـ التّفكير اللّساني في رسائل إخوان الصّفا. عبد الرّحمن مشَنْتَلَ. 149-150.
2 ـ فصول في علم اللّغة العام. محمّد على عبد الكريم الرُّوَيني. بيروت. لبنان. عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتوزيع. ط1. 2002م. 248.
3 ـ ينظر بدائع الفوائد. 140

والقانون والمعاهدات الدّوليّة والاتّفاقات التّجاريّة والاقتصاديّة، وقضايا المعاملات والعبادات في الفقه الإسلاميّ. ولهذه المجالات وغيرها اختلافات كثيرة من حيث التّعامل مع دلالة الألفاظ[1].

إنّ للّفظ قيمة وأهمّية في أداء المعاني، والتّعبير عن أحاسيس وأفكار المتكلّم واستجابة السّامع لهذا الكلام. وإلاّ عجزت اللّغة عن أداء دورها في التّواصل ما بين أفراد اللّغة الواحدة[2].

لقد شغل البحث والتّأليف في دلالة الألفاظ وعلاقتها بالمعاني بال العلماء العرب والمسلمين القدامى فاهتمّوا به وبأشكاله وأنواعه، وبذلوا جهودا كبيرة في ذلك. ويمكن القول بأنّهم أوّل من وضع أسس علم الدّلالة[3]. وسنثبت في هذا المقام آراء بعض علماء اللّغة العربيّة في موضوع اللّفظ والمعنى وهم؛ سيبويه (ت180هـ) والجاحظ (ت255هـ) وابن جنّي (ت392هـ)، وأبو هلال العسكريّ (ت395هـ). ولقد كان لهم الفضل في تحديد الصّلة المتينة ما بين الطّرفين.

يقول عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه: "إنّ من كلامهم (أي العرب) اختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللّفظين والمعنى واحد، واتّفاق اللّفظين واختلاف المعنيين. وسترى ذلك إن شاء الله تعالى. فاختلاف اللّفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: (جلس) و(ذهب). واختلاف اللّفظين والمعنى واحد، نحو: (ذهب) و(انطلق). واتّفاق اللّفظين والمعنى مختلف قولك: (وجدتُ عليه) من المَوْجِدة، و(وجدتُ) إذا أردت وِجدان الضّالّة. وأشباه ذلك كثير"[4]. وقد أشار إلى موضوعي (التّرادف والاشتراك).

---

1 ـ ينظر فصول في علم اللّغة العام. محمّد على عبد الكريم الرُّوَيني. 249-251.
2 ـ ينظر عوامل التّطوّر اللّغويّ؛ دراسة في نموّ وتطوّر الثّروة اللّغويّة. أحمد حمّاد عبد الرّحمن. بيروت. لبنان. دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط9. 1983. 153.
3 ـ ينظر نظريّة الحقوق الدّلاليّة؛ دراسة في التّأسيس والتّطبيق. أحمد عزّوز. رسالة دكتوراه. جامعة وهران. إشراف: أ.د. عبد الكريم بكري. والمشرف المساعد: مختار حبّار. (مخطوط). 52.
4 ـ الكتاب. علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه، د. إميل بديع يعقوب. بيروت. لبنان. منشورات محمّد علي بيضون. دار الكتب العلميّة. ط1. 1999م. مج1/49. وينظر علم الدلالة العربي. النّظريّة والتّطبيق، دراسة تاريخيّة، تأصيليّة، نقديّة. د. فايز الدّاية. بيروت. لبنان. دار الفكر المعاصر، ودمشق. سورية. دار الفكر. ط2. 1966م. 33.

ويقول الجاحظ: "قال بعض جهابذة الألفاظ ونقّاد المعاني: المعاني قائمة في صدور النّاس المتصوَّرة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتّصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفيّة، وبعيدة وحشيّة، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره. وإنّما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها. وهذه الخصال هي الّتي تقرّبها من الفهم، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا...وعلى قدر وضوح الدّلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقّة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلّما كانت الدّلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدّلالة الظّاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الّذي سمعت الله عزّ وجلّ يمدحه، ويدعو إليه ويحثّ عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم"[1]. فقد فصل ما بين اللّفظ والمعنى وجعل لكلّ منهما نصيبا للوصول إلى المعنى الدّلالي الأكبر، وجعل للّفظ جهابذة يعنون به، وللمعنى نقّادًا.

أمّا ابن جني فيرى مناسبة ما بين الألفاظ ومعانيها أو "محاكاة الأصوات الطّبيعيّة، كتقليد الإنسان أصوات الحيوان، وأصوات مظاهر الطّبيعة، أو تعبيره عن انفعالاته الخاصّة أو عن الأفعال الّتي تُحْدِثُ عند وُقُوعها أصواتًا مَّعَيّنةً"[2]. فيقول: "وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللّغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات كدويّ الرّيح، وحنين الرّعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظّبي، ونحو ذلك، ثمّ ولدت اللّغات عن ذلك فيم بعد. وهذا عندي وجه صالحٌ، ومذهب مُتقبَّلٌ"[3]. وهذه إحدى النّظريّات الّتي اعتدها ابن جنّي وغيره من اللّغويّين للبحث في أصل اللّغات.

أمّا أبو هلال العسكريّ فيرى أنّ "الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدلّ عليها ويعبّر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللّفظ.. لأنّ لمدار بعد

1 ـ البيان والتبيين. مج1/ج1/55.
2 ـ دراسات في فقد اللغة. د. صبحي الصّالح. بيروت. لبنان. دار العلم للملايين. ط15. سبتمبر2002م. 148.
3 ـ الخصائص. ج1/47.

على إصابة المعنى.. ولأنّ المعاني تحلّ محلّ الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة.. فلا يكمل لصناعة الكلام إلاّ من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللّفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال"[1]. فاللّفظ والمعنى عنده عنصران مرتبطان ومتكاملان، ولابدّ من مراعاة الحاجة إليهما[2].

ولقد عني علماء الأصول أيضا بكثير من مسائل الألفاظ والمعاني وجعلوا لها فصولا في كتبهم، لأنّ استنباط الحكام من النّصوص مرتبط في كثير من الأحيان بفهم المسائل اللّغويّة وتمحيصها وتحليلها[3].

ولقد "كانت ألفاظ القرآن الكريم مادّة ضخمة من موادّ اللّغة العربيّة، اجتهد العلماء منذ نزول الوحي الكريم في تحديد معانيها، فجمعوا لكلّ لفظ ما له صلة به وتبيين ما اشتقّ منه، وما تفرّع من مادّته، وكانت حافزا لهم على الرّحلة إلى البادية ومشافهة الأعراب، وتدوين المفردات ومعانيها، ومواضع ورودها في الشّعر والخطب والمثال والحكم والحكايات والنّوادر والأساليب العربيّة بوجه عامّ"[4]. وتمثّل هذه الجهود المرحلة الأولى من مراحل الاهتمام بعلم الدّلالة عند العرب والمسلمين، والبحث عن معاني الألفاظ.

8 – أهمية علم الدّلالة:

إنّ الاهتمامات الكثيرة والمتواليّة بالبحوث في علم الدّلالة عند العرب والمسلمين وعند غيرهم يبرز أنّ هذا العلم "هامّ جدّا لأنّه يمسّ حياة الإنسان في مختلف مناحيها، الثّقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والصّناعيّة والسّياسيّة، وما يمارسه الإنسان في حياته اليوميّة من أعمال، فهو يكتسب في كلّ يوم معرفة جديدة وخبرة جديدة، ويضيف إلى معلوماته معلومات جديدة في كلّ ما يتطوّر، وفي كلّ ما يُستحدث في العصر الّذي يعيش فيه، فيضيف إلى معرفته ألفاظًا جديدة لمُستحدثات جديدة لم يكن على علم بها من قبل، ويضيف

1 ـ كتاب الصّناعتين. تح: مفيد قميحة. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط2. 1404هـ/1984م. 84.
2 ـ ينظر نظرية الحقول الدّلاليّة؛ دراسة في التّأسيس والتّطبيق. أحمد عزّوز. 51.
3 ـ ينظر عوامل التّطور اللّغويّ. أحمد حامد عبد الرّحمن. 151.
4 ـ نظريّة الحقوق الدّلاليّة؛ دراسة في التّأسيس والتّطبيق. أحمد عزّوز. 53.

دلالات جديدة لألفاظ كانت دلالتها قديمة أو يستحدث ألفاظا قديمة لدلالات حديثة"[1]. ولقد مسّ هذا مجالات الحياة كلّها الاجتماعيّة والثّقافيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والدّينيّة وغيرها من الميادين.

إنّ الجهل باللّغة، أو الضّعف فيها عامل مهمّ، أو علّة في الفهم لدلالة الألفاظ، وقد أورد ابن جنيّ في هذا الجانب بابًا ذكر فيه "أنّ أكثر مَن ضلّ من أهل الشّريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطّريقة المثلى إليها، إنّما استهواه واستخفّ حلمه ضعفه في هذه اللّغة الكريمة الشّريفة الّتي خُوطب الكافّة بها، وعرضت عليها الجنّة والنّار من حواشيها وأنحائها، وأصل اعتقاد التّشبيه لله تعالى بخلقه منها، وجاز عليهم بها وعنها"[2]. ثم أورد أمثلة من آيات القرآن الكريم أساء بعضهم فهم معاني كلماتها. يقول تعال: ﴿ يَـٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾[5]، ﴿ مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ ﴾[6]، ويقول تعالى: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾[7]، وأخطأ هؤلاء الذّين ذكرهم ابن جني فَهْمَ دلالات الكلمات (جنب الله)، (وجه الله)، (عيني)، (يديّ)، وأخذوها على ظاهرها. وعن سوء فهم كلمة (ساق) في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾[8]، يقول ابن جنّي: "ذهب بعض الجهّال أنّها ساق ربّهم ونعوذ بالله من ضعفة النّظر، وفساد المعتبر ويشكّوا أن هذه أعضاء له، وإذا كانت أعضاء كان هو لا محالة جسما مُعضًّى؛ على ما يشاهدون من خلقه، عزّ وجهه، وعلا قدره"[9]، ثم يذكر أنّ اللّغة العربيّة أكثرها جارٍ على المجاز، وأنّ القليل الّذي يخرج على الحقيقة[10].

1 ـ فصول في علم اللغة العام. محمّد على عبد الكريم الرُّوَيني. 252-253.
2 ـ الخصائص. مج3/246،245.
3 ـ الزمر/56.
4 ـ البقرة/115.
5 ـ ص/75.
6 ـ يس/71.
7 ـ طه/39.
8 ـ القلم/42.
9 ـ الخصائص. مج3/246.
10 ـ ينظر المصدر نفسه. مج3/247.

9 – المفردة القرآنيّة:

لقد تحدّث العلماء عن لغة القرآن الكريم المعجزة، فأجمعوا على أنّها لغة تخرق العادة وتخرج عن الإلف، وقارئ القرآن المتدبّر في آياته يلمس بيسر جوانب متعدّدة من مظاهر الإعجاز اللّغويّ، في موقع الكلمة من السّياق، وهيئتها في الاشتقاق، وما ينالها من التّغيّر في التّصريف، وفي تبدّل حركتها في الإعراب، وجرسها في الصّوت، وظلالها في الخيال، ووحيها في البيان. والرّجوع إلى اللّغة والاحتكام إليها في التّعرّف على معاني القرآن عصمة وهداية، ودربة ودراية، فهي وعاء معانيه، ومظهر إعجازه.

إنّ البحث في دلالة الألفاظ القرآنيّة على جانب كبير من الأهمّية، وتتوقّف تلك الأهمّية على تحديد معاني تلك الألفاظ من أحكام شرعيّة وقانونيّة بين الحلال والحرام، والواجب والمندوب، والمستحبّ والمكروه[1]. فالكلمة أصغر وحدة من وحدات المعنى، وهي الّتي تتكوّن منها الوحدات الأخرى كالعبارة والجملة. والكلمة تتمتّع بقوّة خفيّة تؤثّر في نفوسنا، وتعدّل من سلوكنا بسبب ما ارتبطت به من صبغة دينيّة، وما اكتسبته من مترلة اجتماعيّة[2]. فالكلمات لفظ ومدلول ومعنى، وهذا الأخير "علاقة مُتبادلة بين اللّفظ ومدلوله: علاقة تمكّن كلّ واحد منهما من استدعاء الآخر"[3]. ودلالة أي لفظ هي ما ينصرف إليه هذا اللّفظ في الذّهن من معنى مُدرَك أو محسوس، والتّلازم بين الكلمة ودلالتها أمر لابدّ منه في اللّغة ليتمّ التّفاهم بين النّاس[4].

لا يخفى أنّ المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام. فمن لم يتبيّن معنى الألفاظ المفردة من القرآن، أغلق عليه باب التّدبّر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسّورة، ثمّ إنّ سوء فهم الكلمة ليس بأمر هيّن، فإنّه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام وكلّ ما يدلّ عليه من العلوم والحكم، فإنّ أجزاء الكلام يبيّن بعضها بعضا للزوم

1 ـ ينظر التّأويل اللّغويّ في القرآن الكريم؛ دراسة دلاليّة. حسين حامد الصّالح. 34-35.
2 ـ ينظر دور الكلمة في اللّغة. ستيفن أولمان. ترجمة: د. كمال بشر. 64.
3 ـ المرجع نفسه. 11-13.
4 ـ ينظر التّأويل اللّغويّ في القرآن الكريم؛ دراسة دلاليّة. حسين حامد الصّالح. 40.

التّوافق بينها. إنّ القرآن الكريم، بثروته اللّفظيّة الزّاخرة، ما يزال، وسيظلّ محطّ عناية الدّارسين والباحثين، لتوقّف فهم دلالاته وأحكامه على فهم المراد منها، بوجه خاصّ.

وممّا يؤكّد المكانة الهامّة الّتي كانت للبحث في دلالة المفردة القرآنيّة لدى الدّراسات القرآنيّة الأولى، التّراث الضّخم الّذي خلّفوه في هذا المجال. فقد عقدت لدراسة الألفاظ في القرآن الكتب المفردة مثل: كتب (غريب القرآن) الّتي ألّف فيها أبو سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري (ت141هـ)، وأبو فيد مؤرّج السّدوسيّ (ت195هـ)، وأبو محمّد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت202هـ)، والنّضر بن شميل (ت203هـ)، وأبو عبيدة معمر بن المثنّى (ت210هـ)، والأصمعي (ت213هـ)، والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت211هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت224هـ)، ومحمّد بن سلاّم الجمحيّ (ت231هـ)، وابن قتيبة (ت276هـ) وغيرهم كثير[1].وأقدم من نسب إليه مؤلّف في غريب القرآن عبد الله بن عبّاس ﷺ[2].

لهذا نجد الرّاغب الأصفهانيّ، يؤكّد أهمّية العلوم اللّفظيّة في فهم دلالة القرآن ومعانيه؛ إذ يقول: "إنّ أوّل ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللّفظيّة. ومن العلوم اللّفظيّة تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يُريد أن يُدرك معانيه، كتحصيل اللّبِنِ في كونه من أوّل المُعاون في بناء ما يريد أن يبنيه. وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط بل هو نافع في كلّ علم من علوم الشّرع، فألفاظ القرآن هي لُبُّ كلام العرب وزُبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكمِهم، وإليها مفزعُ حذّاق الشّعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم"[3]. ومن ثمّة وجب علينا أن نواصل المسيرة مع ما مضى من اهتمام بالمفردات القرآنيّة، لندخل عليها من أبواب متعدّدة، تتضمّن مداخل الأولين والمتأخّرين.

1 ـ ينظر الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث. محمد حسين آل ياسين.بيروت. لبنان. منشورات دار مكتبة الحياة. ط1. 1400هـ/1980م. 150.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. 146.
3 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن. 8.

إنّ تناول المفردة القرآنيّة بالدّرس والتّحليل، إنّما تمليه أهمّية هذا المكوّن الصّغير داخل الجزء الكبير الّذي هو البناء القرآني عموما. وبذلك نعي أهمّية ما قد تخرج به الأبحاث القرآنيّة المهتمّة بدراسة ألفاظه ضمن المنهجيّة المعرفيّة القرآنيّة، وما قد تفتحه من آفاق للتّفكير والتّنظير.

إنّ المفردة القرآنيّة ترد ضمن نصّ لغويّ، يجب أن نعي أبعاده ومارميه، فهو نصّ إلهيّ ممّا يعني أنّ استخدامه للّغة لن يوازي الاستخدام البشريّ، أي إنّ له استخدامه اللّغويّ الخاصّ به، ممّا يجعل الاستعانة بالمعاجم في التّعرّف على معاني الكلمات، لن يؤدّي الغرض المراد تحقيقه، لأنّ فهم الألفاظ ينبع من القرآن أوّلا حين تكون المفردة في السّياق، ثمّ ومنهجيّا يمكن أن نستعين بالمعاجم، لأنّ القرآن مهيمن عليها، إذ هو الّذي حفظ اللّغة.

إنّ المفردة القرآنيّة فريدة في مضمونها، وموضوعها يتعلّق بغرض السّورة الدّينيّ أو بأغراضها المختلفة، ومهما أوتي الدّارس المعاصر من قدرة على الغوص فيها لبحث معانيها ودلالاتها، فهو ليس في غِنًى عمّا قاله العلماء المسلمون القدامى، ومهما كان للمفسّر المعاصر من وسائل للبحث والتّفسير، فلا غنى له عمّا قاله المفسّرون السّابقون وعلماء الأصول والمحدّثون والنّحاة والبلاغيّون.

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربيّ مبين، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1]، فكانت كلّ ألفاظه عربيّة فصيحة، من جنس ما كان يستعمله العرب في ما قبل مجيء الإسلام. ولكن صار الكثير من تلك الألفاظ مصطلحات قرآنيّة إسلاميّة، مثل: الإيمان، والصّلاة، والزّكاة، والحجّ، والشّرك...حين أعطاها القرآن معاني أخرى بالإضافة إلى معناها اللّغويّ، بحيث أصبح معناها الشّرعيّ مختلفا اختلافا كبيرا عن معناها المعجميّ.

1 - يوسف/2.

الباب الأوّل

أسماء الأعضاء غير الظّاهرة في السّياق القرآنيّ

الفصل الأوّل: القلوب البيضاء في السّياق القرآنيّ

الفصل الثّاني: القلوب السّوداء في السّياق القرآنيّ

الفصل الثّالث: أقسام النّفس ودلالاتها في السّياق القرآنيّ

الفصل الأوّل

القلوب البيضاء في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "قلب" في القرآن الكريم:

ثانيّا: تعريف القلب: لغة واصطلاحا:

ثالثا: معاني القلب في القرآن:

1 – القلب بمعنى المضغة:

2 – القلب بمعنى العقل:

3 – بمعنى الرّوح:

رابعا: الألفاظ المرادفة للفظ "قلب" في القرآن:

1 – الفؤاد:

2 – الصدر:

3 – العين:

خامسا: أقسام القلب في القرآن:

1 – تقسيم الرّسول ﷺ :

2 – تقسيم الصّحابة رضي الله عنهم:

3 – تقسيم ابن قيّم الجوزيّة:

أ ــ القلب الصّحيح:

ب ــ القلب المريض:

جـ ــ القلب الميّت:

سادسا: مظاهر القلوب البيضاء صفاتها:

1 – قلب الرّسول ﷺ القلب المستقبل القرآن:

2 – صفات القلوب البيضاء ودلالاتها:

أ – القلب السّليم:

ب – القلب المنيب:

جـ – القلب المهديّ:

د – القلب المربوط عليه:

هـ – القلب التّقي:

و – القلب العاقل:

ز – القلب المطمئن للإيمان:

ح – القلب الوجل:

ط – القلب المُخْبِتُ:

ي – القلب السّاكن:

ك – القلب اللّين:

ل – القلب الخاشع:

م – قلب رؤوف رحيم ورهبانيّ:

ن – القلوب الّتي ألّف الله بينها:

س – قلوب الخير أو الخيّرة:

ع – القلب الطّاهر:

ف – القلب الحيّ:

ص – القلب المؤمن:

الفصل الأول: القلوب البيضاء في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "قلب" في القرآن الكريم:

ورد لفظ "قلب" في القرآن الكريم اثنتين وثلاثين ومائة مرّة، في أربع وأربعين سورة (اثنتين وعشرين سورة مكّيّة، وعشرين سورة مدنيّة)، وورد بصيغ متباينة ما بين مفرد ومثنّى وجمع، ومضاف وغير مضاف، وإعراب مختلف. والجدول الآتي يبيّن الصّيغ المتنوّعة للفظ "قلب" في القرآن الكريم:

عدد ألفاظ "قلب" في القرآن الكريم[1]					
اللّفظ	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**
قَلْبٌ	06	قَلْبِي	01	قُلُوبُكُمْ	15
قَلْبِكَ	03	قَلْبَيْنِ	01	قُلُوبُنَا	06
قَلْبُهُ	08	قُلُوبٌ	21	قُلُوبُهُمْ	68
قَلْبِهَا	01	قُلُوبُكُمَا	01	قُلُوبِهِنَّ	01
المجموع = 132					

وأشرت إلى الموضوعات المختلفة الّتي كان لفظ "قلب" متعلّقا بها، مثل: معاني القلب، ومرادفاته وأقسامه، والدّلالات المختلفة الّتي ارتبطت باللّفظ.

ثانيّا: تعريف القلب:

وسأقف عند تعريف لفظ "قلب" لغة واصطلاحا قبل الخوض في الموضوع وقبل أيّ تقسيم أو حديث عن دلالة.

1 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. ص549-551. مادة (قلب).

1 – لغة:

القلب: هو المضغة من الفؤاد معلّقة بالنّياط[1]، والجمع: أَقْلُبٌ وقُلُوبٌ[2]. ولكي نقف على معنى القلب ولماذا سمّي القلب قلبا، يجب الاطّلاع على ما في المعاجم وتفاسير القرآن.

وردت مادّة "ق ل ب" في معاجم اللّغة العربيّة وتفاسير القرآن ـــ على اختلافها ـــ متشابهة الدّلالة، وتكاد تتطابق في التعبير عن التّبدّل والتّغيّر. وهذا حصر لبعض التّعاريف في المعاجم:

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ أو 175هـ)[3]: "القَلْبُ: تحويلُكَ الشّيْءَ عن وجهِهِ... وكَلاَمٌ مقلُوبٌ، وقَلَبْتُهُ فانْقَلَبَ، وقلَّبْتُهُ فَتَقَلَّبَ. وقَلَبْتُ فلانًا عن وجهِهِ أي صرفته... وجئتك بهذا الأمر قلبًا؛ أي محضا لا يشوبُهُ شيءٌ"[4]. وقد ورد هذا التّعريف في أوّل مُعجَمٍ وضع في اللّغة العربيّة و لم تكن المعاجم الّتي جاءت بعده بعيدة عن هذا الّتعريف.

قال الجوهريّ (ت393هـ): "وقَلَبْتُ الشَّيْءَ فانْقَلَبَ، أي انْكَبَّ... وتَقَلَّبَ الشّيء ظهراً لبطن، كالحيَّةِ تتقلَّبُ على الرَّمضَاءِ"[5].

أمّا ابن فارس (ت395هـ) فقد نحا نحوا آخر في الشّرح وجعل القاف واللاّم والباء أصلين صحيحين؛ "أحدهما يدلّ على خالِصِ شيءٍ وشريفِهِ، والآخر على ردّ شيءٍ من جهةٍ

---

1 ـ ينظر كتاب العين. الخليل بن أحمد. مج421/3. مادة (قلب). لسان العرب. ابن منظور. مج169/12. مادة (قلب). "النياط: عرق علق به القلب من الوتين، فإذا قطع مات صاحبه... ونياط القلب: عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين، والجمع أنوطةٌ ونُوطٌ" لسان العرب. مج385/14. مادة (نوط). "النياط: عرق غليظ عُلّقَ به القلبُ إلى الرئتين". المعجم الوسيط. إبراهيم أنيس، وآخرون. ج963/2. مادة (ناط).

2 ـ لسان العرب. ابن منظور. مج169/12. مادة (قلب).

3 ـ ذكر عبد الحميد هنداوي أنّ الخليل توفي سنة 170هـ. ينظر كتاب العين. الخليل بن أحمد الفراهيديّ. ترتيب وتحقيق: عند الحميد هنداوي. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1/2002م/1424هـ. (الصفحة الخارجيّة)، وذكر محمّد حين ياسين أن وفاة الخليل كانت سنة 175هـ. ينظر الدّراسات اللّغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثّالث. بيروت. لبنان. منشورات دار مكتبة الحياة. ط1. 1400هـ/1980م. 230، وذكر سعيد حسين بحيرى التّارخين معا (170هـ/175هـ). ينظر المدخل إلى مصادر اللّغة العربيّة. القاهرة. مصر. مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع. ط1. 2001/1421م. 255.

4 ـ كتاب العين. مج421/3. مدة (قلب).

5 ـ الصّحاح. 878. مادة (قلب).

على جهة. فالأوّل القَلْبُ: قلبُ الإنسان وغيره، سُمِّيَ لأنّه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كلِّ شيء وأشرفه قلبه، ويقولون عربيّ قلبٌ (أي خالصٌ). قال:

فلاَ تُكثِرُوا فيها الضّجاجَ فإنّني ❁ تخَيَّرْتُهَا منهم زُبَيْرِيَّةً قلْبًا

والأصل الآخر قَلَبْتُ الثَّوْبَ قَلْبًا...وقَلَبْتُ الشّيءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبْتُهُ بيدي تقلِيبًا"[1].

أمّا الرّاغب الأصفهانيّ (ت503ه) فقد شرح الكلمة كما وردت في السّياق القرآنيّ. "قلبُ الشّيء تصريفُهُ وصرفه عن وجهٍ إلى وجهٍ كقلب الثّوب وقلب الإنسان أي صرفِه عن طريقته...وتقليبُ الأمورِ تدبيرُها والنّظرُ فيها، قال: ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾[2]، وتقليبُ اللهِ القلوبَ والبصائرَ: صرفُها من رأي إلى رأي، قال: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[3] "[4].

وكذلك الأمر عند الزّمخشريّ (ت538ه) فقد جمع المعنين ـــ أيضا ـــ في تعريفه فقال: "قَلَبَ الشّيءَ قَلْبًا: حوَّلَهُ عن وجهِه. وحجرٌ مقلُوبٌ. وكلامٌ مقلوبٌ. وقَلَبَ رِداءَهُ. وقَلَبَهُ لِوَجْهِه: كَبَّهُ، وقَلَبَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ... ورجلٌ قَلْبٌ مَحْضٌ واسِطٌ في قومه"[5].

وأمّا في اللّسان: فـــ"القلبُ تحويل الشّيء عن وجهِه. قَلَبَهُ يَقْلِبُهُ قَلْبًا... وقد انقلبَ، وقلَبَ الشّيْءَ وقَلَّبَهُ: حوَّلَهُ ظهرا لبطنٍ... وقلبْتُ الشَّيْءَ فانْقَلبَ أي انكبَّ... وكلام مقلُوبٌ... وقد قلّبتُهُ فانقلَبَ. وقلَّبْتُهُ فتقلَّبَ. والقلبُ: صرفُك إنسانًا، تَقْلِبُهُ عن وجهِه الّذي يريدُهُ... وقلبُ كلّ شيءٍ: لُبُّهُ، وخالصُهُ، ومحضُهُ؛ تقول جئتُكَ بهذا الأمر قلبًا أي محضًا لا يشوبهُ شيءٌ... وقولهم: هو عربيّ قلبٌ، وعربيّة قَلْبَةٌ وقلبٌ أي خالصٌ"[6].

1 ـ معجم المقاييس في اللغة. 857-858. ماد (قلب).
2 ـ التّوبة/48.
3 ـ الأنعام/110.
4 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن. 458. مادة (قلب).
5 ـ أساس البلاغة. 518-519. مادة (قلب).
6 ـ ابن منظور (ت711ه). مج12/169-170. مادة (قلب).

ويقول الفيروزآباديّ (ت817هـ): "قَلَبهُ يقلِبُهُ: حوَّلَهُ عن وجهِهِ... وقَلَبَ الشّيءَ: حَوَّلهُ ظهراً لبطنٍ كقلَّبَهُ... والقلبُ: محضُ كلّ شيء... والقَلُوبُ: المُتقَلِّبُ، الكثير التّقلُّبِ"[1].

وورد المعجم الوسيط: "قَلَبَ الشّيءَ يَقْلِبُهُ قَلْبًا: جَعَلَ أعلاه أسفله، أو يمينه شماله، أو باطنه ظاهره... (وقلب كلّ شيء) وسطُهُ ولُبُّهُ ومحضُه... ورجل قلبُ: خالص النّسب... وجئتك بهذا الأمر قلبا: محضا... والقُلَّبُ: الكثير التّقلُّبِ"[2].

وقيل: للقلب استعمال حسّيّ بمعنى العضلة الحمراء الّتي تعمل في تجويف الصّدر لتنقية الدّورة الدّمويّة للجسم كلّه. واستعمال معنويّ بمعنى العقل الّذي يفقه به الإنسان حقائق الأمور وحصل به أصدق المعرفة[3]، على مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[5].

وهذان أنموذجان من التّعاريف المتعلّقة بلفظ "قلب" الموجودة في التّفاسير القرآنيّة؛ أمّا التّعريف الأوّل فهو: "والقلب في الأصل مصدر قَلَبْتُ الشّيءَ أَقْلِبُهُ قَلْبًا إذا رددته على بداءته وقلَبتُ الإناءَ على وجهه، ثمّ نقل هذا اللّفظ فسمي به هذا العضو الّذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه ولتردّدها عليه.. ثمّ نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشّريف

1 ـ القاموس المحيط. 1439. مادة (قلب).
2 ـ إبراهيم أنيس، وآخرون. ج753/2. مادة (قلب).
3 ـ ينظر المعرفة في منهج القرآن. صابر طعيمة. بيروت. لبنان. دار الجيل. (د.ط). (د.ت). 143.
4 ـ الأعراف/179.
5 ـ الحج/46.

والتزمت فيه تفخيم قافه تفريقا بينه وبين أصله"[1]. وأمّا في التّعريف الثّانيّ فقد ذكر الألوسيّ (ت1270ه)؛ أنّ القلب إنّما سميّ قلبا لتقلّبه بقضاء الله وقدره[2].

نتبيّن من التّعريفات الواردة في المعاجم المختلفة والتّفاسير، المتعلّقة بالمادّة اللّغويّة (ق ل ب) أنّها تعبير عن خالصِ الشّيءِ وشريفِه وجوهره، وعن عدم الاستقرار على حال ودوام التّبدّل والتّغيّر. ومنه سُمِّيَ قلبُ الإنسان قلبًا لكثرة تقلُّبه[3]. قال:

وما سُمِّيَ القلبُ إلاّ من تقلُّبِه، ❁ والرّأيُ يصرفُ والإنسانُ أطوارُ[4]

وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[5].

2 – اصطلاحا:

إنّ تعاريف القلب في الاصطلاح تقترب كثيرا من التّعاريف اللّغويّة ويكاد يكون الاتّفاق عامّا على هذه المعاني اللّغويّة والاصطلاحيّة. قال أبو حامد الغزالي (ت505ه): يطلق القلب ويراد به معنيان: "أحدهما: اللّحم الصّنوبريّ الشّكل المودع في الجانب الأيسر من الصّدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التّجويف دم أسود هو منبع الرّوح ومعدنه، ولسْنا نقصد شرح شكله وكيفيته إذ يتعلّق به أغراض الأطبّاء ولا يتعلّق به الأغراض الدّينيّة، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميّت، ونحن إذا أطلنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك. فإنّه قطعة لحم لا قدر لها وهو من عالم الشّهادة إذ تدركه البهائم بحاسّة البصر فضلا عن الآدميّين.

والمعنى الثّاني: هو لطيفة ربّانيّة روحانيّة لها بهذا القلب الجسمانيّ تعلُّقٌ وتلك اللّطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسمانيّ، وقد

1 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ (ت671ه). 188/1.
2 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج1/ج202/1.
3 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج170/12. مادة (قلب). ومعجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 458. مادة (قلب).
4 ـ ينظر كتاب العين. الخليل بن أحمد. مج421/3. مادة (قلب). ولسان العرب. ابن منظور. مج170/12. مادة (لقب). وقد ورد العجز فيه بصيغة أخرى: ❁ والرّأي يصرف بالإنسان أطوارا.
5 ـ الأنعام/110.

تحيّرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته؛ فإنّ تعلّقه به يضاهي تعلّق الأغراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات"[1]. فاللّطيفة الرّبّانيّة هذه هي الرّوح الإنسانيّة المتحمّلة لأمانة الله المتحلّيّة بالمعرفة المركوزة فيها العلم بالفطرة النّاطق بالتّوحيد فهي أصل الآدميّ ونهاية الكائنات في عالم المعاد وحيثما ورد القلب في الشّرع فيراد به الرّوح الإنسانيّة[2].

والقلب هو منشأ الحرارة الغريزيّة الممدّة للجسم كلّه ويكنّى بصلاحه وفساده عن صلاح الجسد وفساده لما بينهما من التّعلّق الّذي لا يعلم حقيقته إلاّ الله تعالى كما قال ﷺ : **﴿ أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإِذَا فَسُدَت فَسُدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وهِيَ القَلْبُ﴾**[3].

ويُجمل الشّريف الجرجاني القول في تحديد تعريف "القلب"، فيقول: "القلب: لطيفة ربّانيّةٌ لها بهذا القلب الجسمانيّ الصّنوبريّ الشّكل المُودَعُ في الجانب الأيسر من الصّدر تعلُّقٌ، وتلك اللّطيفة هي حقيقة الإنسان ويُسمِّيها الحكيم: النّفس النّاطقة، والرُّوح باطنه، والنّفس الحيوانيّة مركَبُهُ. وهي المُدركُ العالمُ من الإنسان، والمُخَاطَبُ، والمُطَالَبُ، والمُعَاتَبُ"[4].

إنّ القلب هو مستقرّ الإيمان والعقيدة، وهو محلّ العقل والمعرفة والإدراك، وهو ملك البدن الإنسانيّ وجوارحه وحواسّه، وكلّ هذه الأعضاء تبع له ومأمورة بأمره، فهو الرّاعي وهي الرّعية، وهو الملك وهي جنوده.

وللقلب مكانة أساسية في جسم الإنسان، يقول ابن قيم الجوزية: "القلب هو الملك المشتغل لجميع آلات البدن، والمستخدم لها، فهو محفوف بها، محشود، وخدوم، مستقرّ في الوسط. وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة، وهو منبع الرّوح الحيوانيّ والحرارة

---

1 ـ إحياء علوم الدين. تح: سيّد عمران. القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث (طبع. نشر. توزيع). (د.ط). 1425هـ/2004م. ج4/3.

2 ـ ينظر معارج القدس في معرفة مدارج النفس. أبو حامد الغزاليّ. مطبعة الميناء العراقي. (د. ط). (د. ت). ص23.

3 ـ ينظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني. أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمود الألوسيّ البغداديّ. (ت127هـ). تحقيق وتخريج: السّيد محمّد السّيّد وسيّد إبراهيم عمران. (د. ط) 1426هـ/2005م. القاهرة. ج. م. ع . دار الحديث (طبع. نشر. توزيع). مج1/ج202/1.

4 ـ كتاب التّعريفات. 259. مادّة (القلب).

الغريزيّة. وهو معدن العقل والعلم والحلم والشّجاعة، والكرم والصّبر، والاحتمال، والحبّ والإرادة والرّضا والغضب، وسائر صفات الكمال.

فجميع الأعضاء الظّاهرة والباطنة وقواها، إنّما هي جند من أجناد القلب، قال أبو هريرة –رضي الله عنه–: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإن خبث الملك خبثت جنوده"[1]. ففي القول دليل على فضل القلب على جميع الجوارح؛ فهو قطب الرحى في الجسم والمركز المتحكّم في الأجهزة، وهو للإنسان ولغيره، وخالص كلّ شيء وأشرفه قلبه، والقلب موضع الفكر[2].

لقد جمع القرآن الكريم ما بين القلب وهذه الأعضاء الّتي تخضع له في مواضع متعدّدة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾[3]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[4].

ولقد ذكر أبو حامد الغزاليّ ما يختصّ به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله، وإنّما هو راجع إلى العلم والإرادة؛ "أمّا العلم، فهو العلم بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة والحقائق العقليّة، فإنّ هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكليّة الضّروريّة من خواصّ العقل إذ يحكم الإنسان بأنّ الشّخص الواحد لا يتصوّر أن يكون في مكانين في حالة واحدة وهذا حكم منه على كلّ شخص، ومعلوم أنّه لم يدرك بالحسّ إلاّ بعض الأشخاص، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحسّ. وإذا فهمت هذا في العلم الظّاهر الضّروريّ فهو في سائر النّظريات أظهر"[5]. وهذا العلم خاصّ بالإنسان.

1 ـ طبّ القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحرّاني وابن قيّم الجوزيّة. عمر أحمد الرّاوي. 291-292.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج187/1.
3 ـ الإسراء/36..
4 ـ الأنعام/110.
5 ـ إحياء علوم الدين. ج10/3.

وأمّا الإرادة فإنّها تتجلّى عند الإنسان متى "أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصّلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشّهوة وإرادة الحيوانات، بل يكون على ضد الشّهوة. فإنّ الشّهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها. والشّهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض والعقل يجد في نفسه زاجرا عنها، وليس ذلك زاجرا للشّهوة. ولو خلق الله العقل المعرّف بعواقب الأمور و لم يخلق هذا الباعث المحرّك للأعضاء على مقتضى حكم العقل، لكان العقل ضائعا على التّحقيق"[1]. فيكون القلب بهذا الفهم مرادفا للعقل الواعي.

ثالثا: معاني القلب في القرآن:

إنّ معاني القلب في اللّغة تتراوح بين المضغة الّتي في الصّدر، أو العقل، أو الرّوح، أو الرّأي، أو النّفس.

1 – القلب بمعنى المضغة التّي في الصّدر، لقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[2]. فهذا تحديد للقلب وهو المضغة اللّحميّة والشّكل الصّنوبريّ المتواجد في الجانب الأيسر من صدر الإنسان، والّذي يعرف أمره بعلم التّشريح.

2 – القلب بمعنى العقل: وقد يُعَبَّرُ بالقلب عن العقل. وإلى ذلك يشير الفرّاء في تفسير المفردة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[3]. أي: عقل[4].

ويقول ابن جرير الطّبري (ت310ه): "والقلب في هذا الموضع: العقل. وهو من قولهم: ما

---

1 - إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي. ج10/3.
2 - الحج/46.
3 - ق/37.
4 - ينظر مشكل إعراب القرآن ومعانيه. أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (207ه). تح: محمّد بن عيد الشّعبانيّ. طنطا. ج. م. ع. دار الصّحابة للتّراث. ط1. 1427ه/2006م. ج686/2. والصحاح. الجوهري. 878. مادة (قلب). ولسان العرب. ابن منظور. مج169/12. مادة (قلب)، والقاموس المحيط. أبو طاهر مجد الدّين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم بن عمر الشّيرازيّ الفيروزآبادي (ت817ه). رتّبه وفصّله: حسّان عبد المنّان. (د. ط). 2004م.. عمّان. الأردن. بيت الأفكار الدّوليّة. 1439. مادة (قلب).

لفلان قلب، وما قلبه معه: أي ما عقله معه. وأين ذهب قلبك؟ يعني أين ذهب عقلك؟"[1]. ويقول أبو القاسم جار الله الزّمخشري (ت538هـ).: "ذلك أنّ القلوب مراكز العقول"[2]. ومن الآيات الّتي ورد فيها لفظ "قلب" بمعنى العقل قوله جلّ شأنه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[5]، وقوله تعالى أيضا: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[7]. وحينما يُعبَّرُ بالقلب عن العقل فإنّ المراد يكون ما تحمله كلمة العقل من معانٍ كالعلم، والفهم، والوعي، والذّهن، والإدراك، والمعرفة.

3 – بمعنى الرّوح: كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[8]. وفسّرها الرّاغب الأصفهانيّ بأنّها الحناجر[9]. وأقرب من هذا ما ذكره الفخر الرّازي؛ أي أنّ القلب

---

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع (د. ط). 1426هـ/2005م. مج13/ج206/26.

2 ـ الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط) (د. ت). مج167/3، وينظر الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ (ت671هـ/1273م). بيروت. لبنان. دار إحياء التّراث العربيّ. ج255/13.

3 ـ الإسراء/46.

4 ـ التوبة/87.

5 ـ محمد/24.

6 ـ البقرة/225.

7 ـ الشعراء/193-194.

8 ـ الأحزاب/10. يوم الخندق. وتفصيل القصّة في جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج11/ج138/21-141.

9 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن لكريم. 458. مادّة (قلب).

يندفع عند الغضب ويتقلّص عند الخوف فيلتصق بالحنجرة ويسدّ مجرى النّفس فلا يقدر المرء على التّنفس ويموت[1].

رابعا: الألفاظ المرادفة للفظ "قلب" في القرآن:

1 – الفؤاد:

ذكر ابن فارس (ت395هـ) عن مادّة (ف أ د) إنّ "الفاء والألف والدّال أصل واحد يدلّ على حُمَّى وشدّة حرارة"[2]. من ذلك: فأدتُ اللّحمَ وافتأدتُهُ إذا شوْيتُهُ، ولحمٌ فَئِيدٌ أي مشوِيٌّ[3]، والفَئِيدُ: النار نفسها. والتَّفَؤُّدُ: التَّوَقُّدُ[4]. وممّا هو من قياس الباب: الفؤاد: القلبُ سمّيَ بذلك لِتَفَؤُّدِهِ وتَوَقُّدِهِ حرارته[5]. وهي قوّة الإدراك والتّمييّز والمعرفة الّتي استخلف الله تعالى بها الإنسان.

لقد اختلف العلماء فيمَ هو القلب؟ وما الفؤاد؟ فقيل: القلب: الفؤاد[6]، "والفؤاد: القلب وجمعه أفئدة"[7]. وقيل: الفؤاد وسطُه القلب، وقيل: الفؤاد غِشاء القلب، والقلب حبَّتُهُ وسُوِيْدَاؤُهُ[8]. و"القلب مضغة من الفؤاد معلّقة بالنّياط... وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال: ﴿**أَتَاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ هُمُ أَرَقُّ قُلُوبًا وَأَلْيَنُ أَفْئِدَةً**﴾؛ فوصف القلوب بالرّقّة والأفئدة باللّين وكأنّ القلب أخصّ من الفؤاد في الاستعمال... وقيل القلوب والأفئدة قريبان من السّواء، وكرّر ذكرهما لاختلاف اللّفظين تأكيدا.. قال الأزهري: ولا أنكر أن يكون القلب هو

---

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. مج9/ج176/25.
2 ـ معجم المقاييس في اللّغة. 833 -834. مادة (فأد).
3 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 833-834. مادة (فأد)، ولسان العرب. ابن منظور. مج116/1. مادّة (فأد).
4 ـ ينظر لسان العرب. اب ن منظور. مج116/1. مادّة (فأد).
5 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 833-834. مادة (فأد)، ولسان العرب. ابن منظور. مج116/1. مادّة (فأد).
6 ـ ينظر الصّحاح. الجوهري. 878. مادة (قلب). ومختار الصّحاح. الرازي. بيروت. لبنان. دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 1983. 431. مادة (قلب). ولسان العرب. ابن منظور. مج169/12. مادة (قلب). والقاموس المحيط. الفيروز آبادي. 1439. مادة (قلب).
7 ـ مختار الصحاح. الرّازي. ص384. مادّة (ف أ د).
8 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج116/1. مادّة (فأد).

العلقة السّوداء في جوفه"[1]. وقال في موضع آخر: "ورأيتُ بعض العرب يُسمِّي لحمة القلب كلَّها، شحمَها ولحمَها: قلباً وفؤاداً، قال: ولم أرَهُمْ يَفْرِقُونَ بينهما"[2]. ولقد ورد اللّفظان في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]. وتكاد تجمع هذه التّعاريف على أنّ القلب والفؤاد واحد.

قال أبو ذؤيب[4]:

رَآهَا الفُؤَادُ فاسْتَضَلَّ ضلالَهُ، ❁ نِيَافًا منَ البِيضِ الحِسَانِ العَطائِلِ

والرّؤية هنا قلبيّة عبّر عنها الشّاعر بقوله: (رآها الفؤاد).

وفي المعجم الوسيط: "الفُؤَادُ: القَلبُ، وفي التّنزيل العزيز: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[5]. ويقال: هو فارغ الفؤاد: لا همَّ عنده ولا حَزَنَ، أو سَيِّءَ حالٍ، وبه قال بعض المفسّرين في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾[6]"[7]. والقرآن الكريم يُعبّر عن قوّة الإدراك أو مجموع مدارك الإنسان الواعيّة مرّة بالقلب ومرّة بالفؤاد ومرّة باللّبّ ومرّة بالعقل. وكلّها تعني الإدراك في صورة من صوره[8].

---

1 ـ لسان العرب. ابن منظور. مج12/169-170. مادة (قلب).
2 ـ المصدر نفسه. مج12/170. مادة (قلب).
3 ـ القصص/10.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج1/116. مادّة (فأد).
5 ـ النجم/11.
6 ـ القصص/10.
7 ـ المعجم الوسيط. إبراهيم أنيس، وآخرون. ج2/670. مادّة (فأده).
8 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. بيروت. لبنان. دار الشّروق.. ط9. 1400هـ/1980م. مج6/ج26/3267. ويقول الفخر الرّازي: "ومن النّاس من فرّق بين القلب ولفؤاد فقال: القلب هو العلقة السّوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللّحم والشّحم، ومجموع ذلك هو الفؤاد، ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان، وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمّى قلبا وفؤادا موضعا هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار، وأنّ معظم جرم هذا العضو مسخّر لذلك الموضع، كما أنّ سائر الأعضاء مسخّرة للقلب، فإنّ العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه أعني العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني، فيشبه أن يكون اسم القلب اسما للأجزاء التي تحلّ فيها هذه المعاني بالحقيقة، واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو، فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفّق للصّواب". تفسير الفخر الرازي أو التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب. محمّد الرّازي فخر الدّين (ت 604هـ). بيروت. لبنان. دار الفكر. ط1. 1426هـ/2005م. مج8/ج24/151.

لقد ورد لفظ الفؤاد مرادفا للفظ القلب في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعا. وهو لا يقلّ في أهمّيته عن القلب في تعبيره عن العقل الواعي المدرك وكذلك في تعبيره عن الصّلة والرّابطة القويّة ما بينه وما بين الحواسّ الإنسانيّة في الإحساس والإدراك والمسؤولية والشّكر لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]؛ ففي سماع قصص الأنبياء والرّسل السّابقين عليهم السّلام تثبيت لفؤاد الرّسول ﷺ على أداء الرّسالة وعلى الصّبر واحتمال أذى قومه.[2]

وقال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[3]، أي أفئدة من أفئدة النّاس[4]، هم المسلمون، ولو قال: أفئدة النّاس لازدحمت عليه فارس والرّوم والتّرك والهند واليهود والنّصارى والمجوس[5].

وقال تعالى:﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[6].

إنّ من بين الآيات الخمس عشرة الّتي جاء فيها ذكر الفؤاد في القرآن الكريم هناك ثمان آيات، نلاحظ فيها اشتراك الفؤاد مع الحواسّ، خاصّة حاسّتي السّمع والبصر في اكتساب العلم والمعرفة ممّا يدلّ على عظيم الصّلة بينهما. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ

1 - هود/120.
2 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج66/28.
3 - إبراهيم/37.
4 - ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج380/2.
5 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج119/19، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج380/2.
6 - القصص/10. وسيأتي تفصيل الآية الكريمة في الفصل الأول من الباب الأول، بعنوان: القلب المربوط عليه.

لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[3].

إنّ الله تعالى يجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السّمع والبصر والفؤاد، إنّها أمانة الجوارح والحواسّ والعقل والقلب؛ ومتى استقام القلب والعقل على المنهج الرّبّانيّ القويم لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولا مجال للظّنّ والشّبهة في عالم الحكم والقضاء والتّعامل، وعالم البحوث والتّجارب والعلوم[4].

لقد جعل الله سبحانه بين السّمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطا ونفوذا يقوم به بعضها مقام بعض، ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرا في كتابه..وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصّورة البشريّة لتقوم كلّ حاسّة منها مقام الحاسّة الأخرى وتفيد في الجملة لا في كلّ شيء.

2 – الصدر:

الصّدر: أعلى مقدَّم كلّ شيء وأوّله، حتّى إنّهم ليقولون: صدر النّهار واللّيل، وصدر الشّتاء والصّيف، وصدر القناة وصدر المجلس والكتاب والكلام. وكلّ ما واجهك صدر.

1 - الإسراء/36.
2 - النحل/78.
3 - الأحقاف/26.
4 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2227/14.

وصدر الإنسان جارحته، لقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴾[1]، ولقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[2]، وجمع صدر صدور ولا يُكَسَّرُ[3].

وقد استعمل لفظ الصّدر مكان لفظ القلب من باب الاستعارة المحليّة، ذلك أنّ الصّدر هو محلّ القلب، ولا يمكن اعتباره من المترادفات لأنّه ليس القلب حقيقة بل مجازا. يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[4]. فإنّ القلب في هذا السّياق غير الصّدر، بل هو موجود فيه. ويبلغ عدد آيات الصّدر إحدى وأربعين آية[5]. وقال بعض الحكماء: حيثما ذَكَرَ الله تعالى القلبَ، فتلك إشارة إلى العقل والعلم نحو: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾[6]، وحيثما ذُكِرَ الصّدر فإشارة إلى ذلك وإلى سائر القوى من الشّهوة والهوى والغضب ونحوها[7].

ونجد المعاني الّتي يعبّر عنها الصّدر قريبة جدّا، أو هي المعاني نفسها الّتي عبّر عنها القلب، فالصّدر فيه:

أ – الغلّ في الصّدر: قال تعالى: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ تَجۡرِي تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[9].

---

1 ـ طه/25.
2 ـ العاديات/10.
3 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج209/8. مادة (صدر)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم. الرّاغب الأصفهانيّ. مادّة (صدر). 309.
4 ـ الحج/46.
5 ـ ينظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة. محمّد علي الجوزو. بيروت. لبنان. دار العلم للملايين. ط1/1980. 243.
6 ـ ق/37.
7 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم. الرّاغب الأصفهانيّ. مادّة (صدر). 310.
8 ـ الأعراف/43.
9 ـ الحجر/47.

ب – وسوسة الشّيطان: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[1].

ج – أعمال الإنسان: قال تعالى: ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[2] أي يوم القيامة.

د – رغبات النّاس: قال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴾[3].

ه – الرّهبة: قال تعالى: ﴿ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾[4].

و – العطاء السّمح: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[5].

ز – لا يحاسب إنسان مكان إنسان: قال تعالى:﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[6]، وكأنّ القلب هو الصّدر وهذا شيء بديهيّ ولكن القرآن يؤكّد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[7]، وهذا يفسّر استخدام الصّدر مكان القلب أحيانا كثيرة للتّعبير عنه.

---

1 - الناس/5.
2 - العاديات/10.
3 - المؤمن أو غافر/80.
4 - الحشر/13.
5 - الحشر/9.
6 - الزمر/7.
7 - الحج/46.

3 – العين:

يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾[1]؛ أي لقد كان بين بصائرهم، أو بصائرهم القلبيّة، أو أعين قلوبهم، وبين ذكر الله عَلَى وَجْهٍ يَلِيقُ بشأنه، وتوحيده وتمجيده، والنّظر في شرعه، وفهم قرآنه والاهتداء به، غطاء، وهذا الغطاء للقلب أوّلا ثمّ يسري منه للعين، لأنّ عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذّكر[2].

خامسا: أقسام القلب في القرآن:

لقد ورد لفظ "القلب" في القرآن الكريم في مواضع متعدّدة جدّا ومتنوّعة لأهميته وأفضليته على سائر الأعضاء. وعددتُ مائة واثنتين وثلاثين مرّة تكرّر فيها لفظ "قلب" في الآيات القرآنيّة[3]، وهي تتحدّث عن جوانب كثيرة في النّفس البشريّة بحيث تشعرنا أحيانا أنّنا أمام صورة من صور العقل، أو العقل ذاته، وأحيانا أخرى نشعر أنّنا أمام العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانيّة، وأحيانا ثالثة نجد أنفسنا أمام جانب يجمع بين الجانبين العقليّ والعاطفيّ ويزيد عليها عمقا وبعدا آخر[4].

ومع هذا العدد الهائل من الآيات الّتي تتحدّث عن القلب في القرآن الكريم، والّتي لو أردت أن أستقصيها جميعها مع التّوسّع في شرحها لطال بي المقام. لذا فإنّني سأتحدّث على أقسام القلوب ودلالاتها أو الدّلالات الّتي تعلّقت بها في السّياق. ولقد اخترت ثلاثة

---

1 ـ الكهف/101.

2 ـ ينظر الجواهر الحسان في تفسير القرآن أو تفسير الثعالبيّ. عبد الرحمن بن محمّد بن مخلوف أبو زيد الثعالبيّ المالكيّ (ت875هـ). ج386/5. تح:علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود وعبد الفتّاح أبو سنّة. بيروت. لبنان. دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي. ط1. /1418هـ/1997م. ج544/3، وينظر تفسير تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. تح: عدل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض. ط2. 1428هـ/2007م. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. مج157/8، وروح المعاني. الألوسي. مج8/ج512/15، بدائع التفسير. ابن قيم الجوزية (ت 751هـ). جمعه وخرّج وراجعه: يسري السّيّد محمّد وصالح أحمد الشّامي. المملكة العربيّة والسّعوديّة. دار ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع. ط1. 1427ه. مج166/2، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمّد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسي (ت 546هـ). تح: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1422هـ/2001م. ج545/3، وزاد المسير في علم التفسير. أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغداديّ (ت597خ). بيروت لبنان. المكتب الإسلاميّ. ط3. 1404هـ/1984م. ج196/5.

3 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمّد فؤاد عبد الباقيّ. 549 -551.

4 ـ ينظر مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة. محمّد علي الجوزو. 186.

تقسيمات، وهي: تقسيم الرّسول ﷺ للقلوب، وتقسيم الصّحابة ﷺ، وتقسيم ابن قيم الجوزيّة رحمه الله.

1 – تقسيم الرّسول ﷺ :

يقسّم الرّسول ﷺ القلوب قسمين متقابلين؛ قسما خاصّا بالمؤمنين وقسما خاصّا بغير المؤمنين. "قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ : ﴿ **تُعرَضُ الفتَنُ على القلوبِ كعرضِ الحصيرِ عُوداً عُوداً. فأيُّ قلبٍ أُشرِبَهَا**[1] **نُكتتْ فيه نُكْتَةٌ سودَاءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَهَا نُكتَتْ فيه نكتَةٌ بيضَاءُ، حتّى تعودَ القلوبُ على قلبَيْنِ:**

قَلبٍ أسودَ مُرْبادًّا[2] **كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يتعرفُ معروفاً ولا يُنكرُ مُنْكَرًا، إلاّ ما أُشْرِبَ مِنْ هواهُ. وَقَلبٍ أبيضَ، لا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامتِ السّمواتُ والأرضُ** ﴾[3].ويعلّق ابن قيم الجوزية على الحديث فيقول: "وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلب إذا عرضت عليه فتنة أُشربها، كما يشرب السّفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كلّ فتنة تعرض عليه حتّى يسودّ وينتكس، وهو معنى قوله: "كالكوز مجخيا"، أي مكبوبا منكوسا.. وقلبٍ أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتن أنكرها وردّها، فازداد نوره وإشراقه وقوّته"[4]. فيكون تقسيم الرّسول ﷺ القلوب: قلبين أبيض وأسود.

2 – تقسيم الصّحابة ﷺ:

ذكر ابن قيم الجوزية أنّ الصّحابة ﷺ قد قسّموا القلوب أربعة أقسام، كما صحّ عن حذيفة بن اليمان ﷺ: قلب أجرد، أي متجرّد ممّا سوى الله ورسوله، سالم من شبهات الباطل وشهوات الغير، فيه سراج يزهر، مشرق ومستنير بنور العلم والإيمان، فذلك قلب

1 ـ أشربها: سقيها وامتصها، واختلطت به وتخللت في أجزائه. ينظر لسان العرب. مج8/47. مادة (شرب).
2 ـ المرباد: التام في السواد.
3 ـ إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان. ابن قيّم الجوزيّة (ت 751هـ). تح: مجدي فتحي السّيّد. القاهر. ج. م. ع. دار الحديث؛ طبع. نشر. توزيع. (د. ط). 1425هـ/2004. 14.
4 ـ إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان. ابن قيم الجوزية. 14.

المؤمن. وقلب أغلف، داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، فذلك قلب الكافر. وقلب منكوس، مردود في الباطل بسبب كسبه وأعماله الباطلة، وهو شرّ القلوب وأخبثها، يعتقد الباطل حقّا ويوالي أصحابه، والحق باطلا ويعادي أهله، فذلك هو قلب الكافر. وقلب له مادّتان؛ فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب إليه يرجع[1].

3 – تقسيم ابن قيّم الجوزيّة:

أمّا ابن قيم الجوزية فقد قسّم القلوب ثلاثة أقسام، هي: القلب الصّحيح، والقلب الميّت، والقلب المريض. فقال: "ولمّا كان القلب يوصف بالحياة وضدّها، انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة"[2]، ثمّ وضّح معنى كلّ قلب وطبيعته.

أ – القلب الصّحيح:

القلب الصّحيح هو: "القلب السّليم الّذي ينجو يوم القيامة إلاّ من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[3]... والقلب السّليم الّذي قد صارت السّلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير... الّذي قد سلم من كلّ شهوة تخالف أمر الله ونهيه... هو الّذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه عامّ، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبّة، وتوكّلا، وإنابة، وإخباتا، وخشية، ورجاء، وخلص عمله لله"[4]. وهذا القلب هو محلّ الإيمان والعقيدة الصّحيحة واليقين والتّأثير في الجوارح والحواسّ تأثيرا إيجابيًّا.

1 ـ ينظر إغاثة اللّهفان من مصائد الشّيطان. ابن قيم الجوزية. 14-15.
2 ـ المصدر نفسه. 11.
3 ـ الشعراء/88. 89.
4 ـ إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان. ابن قيم الجوزية. 11

ب ــ القلب المريض:

أمّا القلب المريض فهو "قلب له حياة وبه علّة، فله مادّتان، تمدّه هذه مرّة، وهذه أخرى، وهو لِمَا غلب عليه منهما، ففيه من محبّة الله والإيمان به والإخلاص له، والتّوكّل عليه: ما هو مادّة حياته، وفيه من محبّة الشّهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحبّ العلو والفساد في الأرض بالرّياسة: ما هو مادّة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدّار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنّما يجيب أقربهما منه بابا، وأدناهما إليه جوارا"[1]. وأغلب ما يكون القلب في المنافق؛ ظاهره صورة وباطنه غير ظاهره.

جـ ــ القلب الميّت:

القلب الميّت هو القلب "الّذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربّه، ولا يعبده بأمره وما يحبّه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذّاته، ولو كان فيها سخط ربّه، وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظّه، رضي ربّه أو سخط، فهو متعبّد لغير الله: حبّا، وخوفا، ورجاء، ورضا وسخطا، وتعظيما، وذلاّ"[2]. نسي الله فأنسى الله تعالى صاحبه نفسه فساءت دنياه وساءت خاتمته.

سادسا: مظاهر القلوب البيضاء صفاتها:

إذا جمعنا ما بين تقسيم الرّسول ﷺ ووصفه القلوب، وما بين ما قاله الصّحابة ﷺ وما بين ما قاله ابن قيّم الجوزيّة رحمه الله، فإنّنا نتوصّل إلى صنفين من القلوب:

الصّنف الأوّل: ينقسم إلى قسمين، هما: قسم يتعلّق بقلب الرّسول ﷺ ، وقسم يتعلّق بصفات القلوب البيضاء وأحوالها ودلالاتها.

الصّنف الثّاني: يتعلّق بصفات القلوب السّوداء وأحوالها ودلالاتها.

---

1 ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشّيطان. ابن قيم الجوزية. 12-13.
2 ـ المصدر نفسه. 12.

إذا تأمّلنا الآيات الموجودة في هذا الفصل – المتعلّقة بالصّنف الأوّل – وأمعنّا فيها النّظر، وتتبّعنا سياقاتها اللّغويّة، سنجد "تعبيرات اصطلاحيّة تعتمد على القلب وتشير إلى دلالات متنوّعة تصوّر صفات الإنسان وسلوكه"[1]، ونسجد أنّ لفظ "قلب" قد اتّصل بما قبله من الألفاظ أو ما بعده بعلاقة نحويّة معيّنة أكسبته دلالة خاصّة، وحدّدت نوعه أو صفته ضمن القلوب البيضاء، وهذا هو الأهمّ في تحديد الإنسان المؤمن أو المنافق أو الكافر وإنّما يقاس الإنسان بقلبه ولسانه، يقول أبو حامد الغزاليّ: "وغرضنا ذكر أوصافها (أي القلوب) وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر أحوالها"[2]، فقلب الإنسان بعد معرفة الصّفات والأحوال، هو: قلب منيب، أو سليم، أو مهديّ، أو تقيّ، أو مخبت، أو مربوط عليه، أو خاشع، أو ساكن، أو رؤوف، أو خيّر، أو طاهر، أو ليّن، أو حيّ، أو منيب، أو مطمئنّ، أو وَجِلٌ ... والقلوب البيضاء كثيرة متنوّعة، كما توجد صفات وأحوال تتعلّق بالقلوب السّوداء، وسيأتي الحديث عنها في مكانها.

إنّها قلوب اتّصلت بالله تعالى؛ فآمنت به ووحّدته، واستجابت للقرآن، فتدبّرت آياته، واطمأنّت به، واتّمرت بأوامره، وانتهت عن نواهيه، وحذرت زواجره، وصدّقت بالنّبيّ محمّد ﷺ واتّبعت سنّته، فاهتدت ولانت وخشعت ووجلت وأنابت إلى الله تعالى. وتتجلّى هذه القلوب في مظهرين اثنين؛ هما: قلب الرّسول ﷺ على وجه الخصوص، وقلوب المؤمنين بالله تعالى وبرسوله ﷺ كافّة، كما تتجلّى في أهمّ الصّفات النّورانيّة الّتي ميّزت هذه القلوب عن باقي قلوب الخلق.

1 – قلب الرّسول ﷺ القلب المستقبل القرآن:

إنّ أتقى هذه القلوب البيضاء الّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم وأخشاها إلى الله تعالى والجامع لصفات الكمال البشري؛ هو قلب الرّسول ﷺ الشّريف الّذي جاء ذكره في مواضع متعدّدة، نذكر منها أربعة مواضع:

1 ـ الإشارات الجسميّة؛ دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل. كريم زكي حسام الدّين. 152.
2 ـ إحياء علوم الدّين. ج5/3.

أ – **الموضع الأوّل**: لقد ذكر قلب الرّسول ﷺ أوّلا في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1]؛ فرأى أهل العلم بالتّأويل أنّ هذه الآية الكريمة إنّما أنزلت لتكون جوابا على اليهود من بني إسرائيل، الّذين زعموا أنّ جبريل عليه السلام عدو لهم لأنّه يتنزّل عليهم بالقتال والدّمار، وأنّ ميكائيل عليه السلام وليّ لهم لأنّه يأتيهم الخصب والنّماء[2]. والحقّ أنّهم لمّا "سمعوا أنّ جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمّد ﷺ ، ولمّا كان عداؤهم لمحمّد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق، فقد لجّ بهم الضّغن أن يخترعوا قصّة واهية وحجّة فارغة، فَزَعَموا أنّ جبريل عدوّهم، لأنّه ينزل بالهلاك والدّمار والعذاب، وأنّ هذا هو الّذي يمنعهم من الإيمان بمحمّد من جرّاء صاحبه جبريل. ولو كان الّذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزّل بالرّخاء والمطر والخصب"[3]. لا شكّ أنّ هذا الكلام من اليهود دليل على خطل الرّأي وعدم التّدبّر، وإنّما ذكره الله تعالى ليبيّن للنّاس الحجج الواهيّة الّتي يعتمدها أهل الكتاب، وليعرفوا مقدار مرائهم وسُخفهم في جدلهم، وأنّهم ضعاف العقول عديمو البيّنة قليلو التّبصّر في عواقب ما يقولون[4].

قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾[5].

فإنّ جبريل لم يكن له "من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتيّة، في أن يتزّله على قلبك، إنّما هو منفّذ لإرادة الله وإذنه في تتريل هذا القرآن على قلبك[6]. والقلب هو موضع التّلقّي، وهو

---

1 ـ البقرة/97.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. ابن جرير الطبري. مج1/ج1/553.

3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج1/93.

4 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1418هـ/1998م. مج1/148.

5 ـ البقرة/97. "وأكثر الأمة على أنه أنزل القرآن عليه لا على قلبه إلا أنه خص القلب بالذكر لأجل أن الذي نزل به ثبت في قلبه حفظا حتى أداه إلى أمته، فما كان سبب تمكنه من الأداء ثباته في قلبه حفظا جاز أن يقال: نزله على قلبك وإن كان في الحقيقة نزله عليه لا على قلبه". تفسير الفخر الرازي. الرّازي (ت 604هـ). مج1/ج3/191.

6 ـ قال محمد الأمين الشنقيطي: "الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه، فتصل معانيه ‘لى قلبه بعد سماعه وذلك هو معنى تنزيله على قلبه". أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشّنقيطيّ (ت1393هـ). القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث. (د.ط). 1426هـ/2006م. ج1/87. وقال البيضاوي في تفسيره في معنى (على قلبك): "فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ". أنوار التنزيل وأسرار التأويل أو تفسير

الّذي يفقه بعد التّلقّي، ويستقرّ هذا الكتاب فيه ويحفظ. والقلب يُعبّر به في القرآن عن قوّة الإدراك جملة وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال.. والقرآن يصدق في عمومه ما سبقه من الكتب السّماويّة[1]. فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السّماويّة، وجميع الدّيانات الإلهيّة"[2]. فالقلب هو موضع التّلقّي وحفظ القرآن الكريم، وهو الّذي يفقه بعد التّلقّي ما أنزل الله تعالى.

وإذا تأمّلنا التّعبير القرآنيّ ﴿ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ نلحظ الحرف (على) ولا نلحظ (إلى)، وهذه الدقّة القرآنيّة لا يمرّ عليها القاريء المتأمّل دون الالتفات إليها أو الوقوف عندها؛ فلقد جيء بلفظ (على)؛ لأنّ القرآن مستعل على القلب، والقلب سامع مطيع، محلّ العقل والعلم وتلقّي الواردات، يمتثل ما أمر به ويجتنب ما نهي عنه، فكانت (على) أبلغ من (إلى)، فالأولى تدلّ على الاستعلاء، والثّانيّة تدلّ على الانتهاء فقط، وما استعلى على الشّيء يضمن الانتهاء إليه[3].

ب – الموضع الثّاني: ورد في سورة الشّعراء في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ. عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾[4]؛ أي نزل به أمين السّماء جبريل عليه السلام على قلبك يا محمّد لتنذر بآياته المكذّبين[5].

يذكر الطّبريّ رحمه الله تعالى أنّ المقصود بالقلب إنّما هو محمّد ﷺ، وهذا الّذي نفهمه من قوله: "إنّ الرّوح الأمين هو الّذي نزل بالقرآن على محمّد، وهو جبريل عليه السلام... فتلاه عليك يا محمّد، حتّى وعيته بقلبك، لتكون من رسل الله الّذين ينذرون من أرسلوا إليه من قومهم، فتنذر بهذا التّنزيل قومك المكذّبين بآيات الله. وإنّما ذكر تعالى ذكره أنّه نزل هذا

البيضاوي. ناصر الدّين أبو سعيد عبد الله أبو عمر بن محمّد الشّيرازي البيضاويّ (ت 791هـ). تح: عبد القادر عرفات العشّا حسونة. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 1426هـ/2005م. ج1/367.

1 ـ ينظر روح المعاني. محمود الألوسيّ. مج1/ج1/461.

2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج1/93.

3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/488.

4 ـ الشعراء/193- 194.

5 ـ صفوة التّفاسير. محمّد علي الصّابونيّ. ج2/362.

القرآن بلسان عربيّ مبين في هذا الموضع، إعلاما منه مشركي قريش أنّه أنزله كذلك، لئلا يقولوا إنّه نزّله بغير لساننا، فنحن إنّما نعرض عنه ولا نسمعه، لأنّا لا نفهمه وإنّما هذا تقريع لهم"[1]. فالقلب هو سلطان الجسد ومحلّ العقل والعلم وموضع التّلقّي وهو المقصود بالخطاب الإلهيّ.

أمّا الفخر الرّازي فيذكر أنّ القلب معناه الفهم والإدراك، فلقد جعل الله الرّوح نازلا به ﴿ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾؛ أي فهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى. وإن كان إنّما أنزله عليه ليؤكّد به أنّ ذلك المترل محفوظ للرّسول متمكّن في قلبه لا يجوز عليه التّغيّر فيوثق بالإنذار الواقع منه الّذي بيّن الله تعالى أنّه المقصود[2]، لقوله سبحانه: ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾؛ وأنّ القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنّه موضع التّمييز والاختبار. وأمّا سائر الأعضاء فمسخّرة له[3].

---

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج11/ج119/19. لقد ذكر أبو حيان الأندلسيّ المعنى نفسه الذي ذكره الطّبري، أي أنّ المقصود هو الرّسول ﷺ وإنّما ذكر القلب لبيان أنّ المُنزَّل عليه محفوظ ثابت، فقال: "وخصّ القلب والمعنى عليك لأنّه محلّ الوعي والتّثبيت، وليعلم أنّ المنزّل على قلبه عليه السّلام محفوظ لا يجوز عليه التّبديل ولا التّغيير". تفسير البحر المحيط. مج38/7. وقد أنزل (بلسان عربيّ مبين) "لأنّه لو نزله باللّسان الأعجميّ لتجافوا عنه أصلا، لقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه، فيتعذّر به، وفي هذا الوجه أنّ تنزيله بالعربيّة الّتي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنّك تفهمه ويفهمه قومك". تفسير البحر المحيط. مج38/7.

2 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. مج8/ج149/24.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها. إنّ المعنى نفسه ذكره أحمد مصطفى المراغي في تفسيره والقلب محلّ الفهم واليقين وموضع التّمييز والاختيار، فقال: "أي وإنّ هذا القرآن الّذي تقدّم ذكره في الآية الخامسة ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾. الشّعراء/5. أنزله الله إليك، وجاء به جبريل عليه السّلام فتلاه عليك حتّى وعيته بقلبك، لتنذر به قومك بلسان عربيّ بيّن ليكون، قاطعا للعذر، مقيما للحجّة، دليلا إلى المحجّة، هاديا إلى الرّشاد، مصلحا لأحوال العباد. وفي قوله: ﴿ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ إيماء إلى أنّ ذلك المنزّل محفوظ، وأنّ الرّسول متمكّن منه، إلاّ أنّ القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنّه موضع التّمييز، والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مسخّرة له... ولأنّ القلب إذا غُشِّيَ عليه وقطع سائر الأعضاء لم يحصل له تصوّر، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات.

وفي قوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾. الشعراء/195، تقريع لمشركي قريش بأنّ الذي حملهم على التّكذيب هو الاستكبار والعناد، لا عدم الفهم، لأنّه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه". تفسير المراغي. مج6/7.

جـ – **الموضع الثّالث**: قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

لقد زعم هؤلاء الكفّار، والمشركون بالله أنّ الرّسول ﷺ جاء بهذا الّذي يتلوه عليهم اختلاقا من قِبَلِ نفسِهِ. وإنّ الله تعالى ذو علم بما في صدور خلقه، وما تنطوي عليه ضمائرهم[2]. و"يقول لنبيّه ﷺ: لو حدّثت نفسك أن تفتري على الله كذبا، لطبعت على قلبك، وأذهبت الّذي آتيتك من وحيي، لأنّي أمحو الباطل فأذهبه، وأحقّ الحقّ"[3]، و"قال قتادة: المعنى إن يشإ الله يُنْسِكَ ما أَتاك"[4]. وإنّما هذا إخبار من الله تعالى الكافرين به، الّذين زعموا وادّعوا بأنّ محمّدا افترى هذا القرآن على الله من قِبَلِ نفسِهِ، فأخبرهم أنّه إن فعل ذلك لفعل له ما أخبر به في هذه الآية[5]، وفي الإخبار ردّ على مقالة الكفّار وبيان إبطالها. وللمفسّرون رأيٌ آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ وفي ضبط دلالته؛ أي "يربط الله على قلبك بالصّبر على أذاهم حتّى يشقّ عليك قولهم: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ ﴾"[6][7]، ويختم الله تعالى على قلبك بالصّدق واليقين وقد فعل ذلك[8].

---

1 ـ الشورى/24. نزلت الآية في كفّار قريش الّذين قالوا: إنّ محمّدا اختلق القرآن كذبًا على الله. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج32/25، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج25/16.

يوجد في أوّل الآية إضراب عن الكلام. يقول عنه أبو حيان الأندلسي: "أضرب عن الكلام المتقدّم من ير إبطال. واستفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة. أي: مثله لا ينسب إليه الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصّدق والأمانة". تفسير البحر المحيط. مج494/7. ويقول الطاهر بن عاشور: "إضراب انتقالي عطفا على قوله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾. الشوري/21. وهو الكلام المضرب عنه والمنتقل منه، والمراد الانتقال إلى توبيخ آخر، فالهمزة المقدّرة بعد ﴿ أَمۡ ﴾ للاستفهام التّوبيخي، فإنّهم قالوا ذلك فاستحقوا التوبيخ عليه، والمعنى: أو قالوا افترى ويقولونه. وجيء بفعل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بصيغة المضارع ليتوجّه التّوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشّنيع مع ظهور دلائل بطلانه. فإذا كان قولهم هذا شنعا من القول فاستمرارهم عليه أشنع". تفسير التحرير والتنوير. مج10/ج85/25.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج32/25.

3 ـ المصدر نفسه، الصّفحة نفسها، وينظر الكشاف. الزّمخشري. مج468/4، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج25/16.

4 ـ لسان العرب. ابن منظور. مج19/5. مادة (ختم)، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج494/7.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج32/25.

6 ـ النحل/101.

7 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج494/7، وينظر الكشاف. الزمخشري. مج468/4، ولسان العرب ابن منظور. مج19/5. مادة (ختم).

8 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج468/4.

فمثل الرّسول ﷺ لا ينسب إليه الكذب على الله مع اعترافهم له قبلُ بالصّدق والأمانة[1]، "فإنّه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلاّ من كان في مثل حالهم، وهذا مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله وأنّه في البعد مثل الشّرك بالله والدّخول في جملة المختوم على قلوبهم"[2]. وكيف يصحّ أن يكون القرآن مفترى، والرّسول بمرأى ومسمع من الله؟[3].

د – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[4]؛ إنّ الفظَّ هو الغَليظُ الجافي، من فَظِظْتَ تَفظُّ فَظَاظَةٍ وفِظَاظًا فأنْتَ فَظٌّ. والأنثى فَظَّةٌ والجمع أفظاظ[5]. والغليظ القلب هو قاسيه غير ذي رحمة ولا رأفة، ولم تكن صفته ﷺ كذلك[6]، فقد وصفه الله جلّ شأنه بقوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[7]. فليس هو بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق[8].

فبرحمة الله بمحمّد ورأفته به، وبمن آمن به من أصحابه، لان الرّسول ﷺ لأتباعه وأصحابه فسهّل لهم خلائقه، وحسّن أخلاقه، حتّى احتمل أذى من ناله منهم أذاه، وعفا عن ذي الجرم منهم جرمه، وأغضى عن كثير ممّن لو جفا به، وأغلظ عليه، لتركه ففارقه، ولم يتبعه[9]. فقد بيّن تعالى أنّ ثمرة اللّين هي المحبّة والاجتماع عليه، وأنّ خلافها من الجفوة والخشونة مؤدٍّ إلى التّفرّق، فلو أنّ الرّسول ﷺ شافههم بالملامة والعتاب على ما صدر منهم من المخالفة والفرار لتفرّقوا من حوله، هيبة منه وحياء[10].

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج494/7.
2 ـ الكشاف. الزمخشري. مج468/4.
3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج494/7.
4 ـ آل عمران/159.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/4.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج183/4.
7 ـ التوبة /128.
8 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/4.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج184/4.
10 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج104/3.

إنّ الرّسول ﷺ لّما رفَقَ بمن تولّى يوم أُحُدٍ ولاَنَ لهم و لم يُعَنِّفْهُمْ، بيَّنَ الرّبُّ تعالى أنّه إنّما فعل ذلك بتوفيق الله تعالى إيّاه[1]؛ فإنّ لينه لهم ما كان إلاّ برحمة من الله وهو ربطه على جأشه، وتوفيقه المرفق بهم[2]. ولو كان جافيا غليظ القلب،قاسيه[3]، خشن الجانب شرس الأخلاق جافيا في المعاشرة قولا وفعلا[4]، لتفرّقوا عنه حتّى لا يبقى حوله أحدٌ منهم[5].

يقول الألوسيّ: "وذكر بعضهم أنّ الفظّ سيّء والثّاني سبب للأوّل وقدّم المسبّب لظهوره إذ هو الّذي يطلع عليه، ويمكن أن يقال: المراد لو كنت على خلاف تينك الصّفتين المعبّر عنهما بالرّحمة وهو عدم التّهوّر المشار إليه بالفظاظة وسوء الأخلاق المرموز إليه بغلظ القلب فإنّ قساوة القلب وعدم تأثّره يتبعه كلّ صفة ذميمة، ولهذا ورد: أبعد القلوب عن الله تعالى القلوب القاسيّة، وكأنّه لبعده صدّر بيمكن وعلى كلّ تقدير في الكلام حذف أي لو كنت فظّا غليظ القلب فلم تلن لهم وأغلظت عليهم. فإذا كان الأمر كذلك فعف عنهم فيما يتعلّق بحقوقك واستغفر لهم الله تعالى فيما يتعلّق بحقوقه سبحانه وتعالى إتماما للشّفقة وإكمالا للتّربيّة. وشاورهم في أمر الحرب"[6]. أي فيما يصحّ أن يشاور فيه استظهارا برأيهم وتطييبا لنفوسهم وتمهيدا لسنّة المشاورة للأمّة[7].

ولقد أمر تعالى الرّسول ﷺ بالعفو عن صحابته رضي الله عنهم، "وذلك فيما كان خاصّا به من تبعته له عليهم، وبالاستغفار لهم فيما هو مختصّ بحقّ الله تعالى، وبمشاورتهم، وفيها فوائد تطييب نفوسهم، والرّفع من مقدارهم بصفاء قلبه لهم حيث أهّلهم للمشاورة"[8].

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/4.
2 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج108/2.
3 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج474/1.
4 ـ ينظر روح المعاني.الألوسي. مج2/ج441/4.
5 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج474/1.
6 ـ روح المعاني. مج2/ج441/4.
7 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج108/2، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج104/3.
8 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج104/3.

2 – صفات القلوب البيضاء ودلالاتها:

أ – القلب السّليم[1]:

قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[3]. السّليم من سَلِمَ يَسْلَمُ سَلاَمَةً وسَلاَماً بمعنى البراءة[4]، والتّعرّي من الآفات الظّاهرة والباطنة. قال تعالى: ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ ﴾[5]، هذا في الظّاهر، وفي الباطن يقول تعالى: ﴿ بِقَلْبٍ ۚ سَلِيمٍ ﴾ أي متعرٍّ من الدّغل[6]، ونقي ظاهر من الشّرك والنّفاق والحسد والبغضاء[7]، ومن الشّكّ في توحيد الله، والبعث بعد الممات[8].

ب – القلب المنيب:

قال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[9]. فالمُنيب صفة أخرى لقلب المؤمن، من نَابَ وأَنَابَ، و"النَّوْبُ رجوع الشّيء مرّة بعد أخرى. يقال: نَابَ نَوْبًا ونَوْبَةً، وسُمِّيَ النَّحْلُ نَوْباً لرجوعها إلى مقارّها"[10]. و"نابَ فُلانٌ إلى الله تعالى، وأَنَابَ إليه إِنَابَةً، فهو مُنِيبٌ: أَقْبَلَ وتَابَ، ورجع إلى الطّاعة، وقيل: نَابَ: لزِمَ الطّاعة، وأَنَابَ: تابَ

---

1 ـ انظر تعريف القلب السّليم في الصّفحة: 65، بعنوان: القلب الصّحيح.

2 ـ الشعراء/89. قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾. الشّعراء/87-88.

3 ـ الصافات/84. وقال تعالى في الآية التي سبقت، وفي الآيتين اللاحقتين: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ . إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾. الصّافات/83-86.

6 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج240/7. مادة (سلم).

5 ـ البقرة/71.

6 ـ ينظر مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 268. مادة (سلم).

7 ـ ينظر صفوة التفاسير. ج353/2.

8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج95/19ج11، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج115/13.

9 ـ ق/33. وقال الله تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾. ق/31-32.

10 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 546. مادة (نوب).

ورَجَعَ. والإِنَابَةُ: الرُّجُوعُ إلى الله بالتّوبة"[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾ أي: بقلب تائب من ذنوبه، راجع ممّا يكرهه الله إلى ما يُرضيه[2] مخلص لطاعته، مُقبل عليها[3]، وقد خاف الرّحمن فأطاعه دون أن يراه لقوّة يقينه[4]، ووصف القلب بالإنابة مع أنّها يُوصف بها صاحبها لما أنّ العبرة رجوعه إلى الله تعالى[5] بقلب تائب خاضع خاشع.

جـ – القلب المهديّ:

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[6]. جاء في المعاجم اللّغويّة العربيّة أنّ لفظ "الهدى" يدلّ على الرّشاد والدّلالة، فيقال: هداه الله لدين الهدى، وهَدَيْتُهُ الطّريق والبيتَ هِدايةً، أي عرَّفْتُهُ[7]. والرّجل المهدي "الّذي قد هداه الله إلى الحقّ، وقد استُعمل في الأسماء حتّى صار كالأسماء الغالبة"[8]، وأطلق على القلب فقيل: "قلب مهدي"؛ وهو الّذي هداه الله لليقين، "فيعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن لِيُصيبَه"[9]، إن ابتلي بالمصيبة أو بالموت أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك صبر، فيعلم أنّها من الله تعالى فيسلم لأمر الله، وإن أُعطِيَ شكر، وإن

---

1 ـ لسان العرب. ابن منظور. مج378/14. مادة (نوب)، وينظر القاموس المحيط. الفيروزآبادي. 1770. مادة (نوب)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 546. مادة (نوب).

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج201/26.

3 ـ ينظر فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير. محمّد بن عليّ الشوكاني (1173-1250هـ)، (1760- 1834م). بيروت. لبنان. دار الفكر للطباعة والنّشر. (د. ط). (د. ت). مج78/5.

4 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمّد علي الصّابونيّ. ج229/3.

5 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج13/ج466/26.

6 ـ التغابن/11.

7 ـ ينظر معجم الصحاح. الجوهريّ. 1092. مادة (هدى)، وينظر مختار الصحاح. الرّازيّ. 548-549. مادة (هدى)، والمصباح المنير. أحمد بن محمد بن علي الفيّوميّ. 327. مادة (هـ د ي)، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 596. مادة (هدى).

8 ـ لسان العرب. ابن منظور. مج41/15. مادة (هدي).

9 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج14/ج138/28، وينظر الكشاف. الزّمخشريّ. مج115/4، وروح المعاني. الألوسيّ. مج14/ج426/27.

ظُلِمَ غفر[1]. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2].

د – القلب المربوط عليه:

لقد وردت عبارة "الرّبط على القلوب" في القرآن الكريم ثلاث مرّات في أسيقة تدلّ على معنى الشّدّ والمنع والحبس والصّبر والثّبات. يقال: "رجل رابط الجأش أي شديد القلب كأنّه يربط نفسه عن الفرار يكفّها بجرأته وشجاعته. وربط جأشه رباطة: اشتدّ قلبه ووثق وحَزُمَ فلم يفرّ عند الرّوع... أي ثابت النّفس. وربط الله على قلبه بالصّبر؛ أي ألهمه الصّبر وشدّه وقوّاه"[3]. ويقول ابن حجر العسقلانيّ (ت852هـ): "ربط الله على قلبه: صبّره"[4] أي على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن[5] ليثقوا على لطف الله بهم[6].

لقد احتار المؤمنون – في غزوة بدر – واضطربوا حين وجدوا المشركين قد سبقوهم إلى الماء، وكان الله معهم ليثبت أقدامهم وليربط على قلوبهم. قال تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[7]. فأمن المسلمون وجاء الماء وزال العطش، وثبتت الأقدام وربط الله على قلوبهم، فثبّتهم وأزال عنهم الاضطراب.

---

1 ـ ينظر الكشاف. الزّمخشريّ. مج4/115، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/23-24

2 ـ البقرة/156.

3 ـ لسان العرب. ابن منظور. مج6/82. مادة (ربط)، وينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازيّ. مج5/ج15/113، وروح المعاني. الألوسيّ. مج5/ج9/230، وصفوة التفاسير. محمّد علي الصّابونيّ. ج1/460.

4 ـ غرائس الأساس. تح: توفيق محمّد شاهين. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة وهبة. ط1. 1411هـ/1990. 164. مدة (ربط).

5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/290.

6 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاويّ. ج3/93.

7 ـ الأنفال/11. لقد ورد في جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطّبري في سبب نزول هذه الآية قول الضّحّاك: "إنّ المشركين نزلوا بالماء يوم بدر، وغلبوا المسلمين عليه، فأصاب المسلمين الضّمأ، وصلّوا محدثين مجنبين، فألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن، ووسوس فيها: إنّكم تزعمون أنّكم أولياء الله وأنّ محمدا نبيّ الله، وقد غُلبتم على الماء وأنتم تصلون محدثين مجنبين. فأمطر الله السّماء حتى سال كلّ واد، فشرب المسلمون وملئوا أسقيتهم وسقوا دوابّهم واغتسلوا من الجنابة، وثبّت الله به الأقدام؛ وذلك أنّهم كان بينهم وبين عدوّهم رملة لا تجاوزها الدّوابّ، ولا

وأمّا الفتية الّذين ذهبوا في الدّهر الأوّل، وقد خالفوا ما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام وتقديم القرابين لها، وكان يحكمهم ملك عنيد جبّار يأمر النّاس بذلك ويحثّهم عليه[1]. فقد ورد ذكرهم في سورة الكهف في قوله تعالى:﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[2]، فلقد ألهمهم الله تعالى الصّبر وقوّاهم به، وشدّ على قلوبهم بنور الإيمان حتّى عزفت أنفسهم عمّا كانوا عليه من العيش الرّغيد والسّعادة والنّعمة، ولم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والإخوان، والفرار بالدّين إلى بعض الغيران[3].

وأمّا الموضع الثّالث الّذي ورد فيه ذكر الرّبط على القلب أو القلب المربوط عليه ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]؛ فلقد أوحى الله تعالى إلى أم موسى عليه السّلام أن ضعي ابنكِ في التّابوت، فاقذفيه في اليمّ، وإنّا رادّوه إليكِ كي تقرّ عينك ولا تحزني. وكان فرعون يأخذ كلّ مولود ذكر غصبا ويقتله. وبلغها أنّ ابنها وقع في يد فرعون ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ من كلّ شيء إلاّ من ذكر موسى[5]، وطار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدّهش[6]، "لاسيما عقل امرأة خافت على ولدها حتّى طرحته في اليمّ رجاء نجاته من الذّبح، هذا مع الوحي إليها أنّ الله يردّه إليها ويجعله رسولا، ومع ذلك فطاش لبّها، وغلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم"[7]. ثمّ استكانت لمّا

يمشي فيها الماشي إلاّ بجهد، فضربها الله بالمطر حتّى اشتدّت وثبتت فيها الأقدام". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج6/ج235/9.

1 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج370/4.

2 ـ الكهف/14.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج9/ج231/15، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج474/2، وتفسير الفخر الرازي. الرّازيّ. مج7/ج90/21، وروح المعاني. الألوسيّ. مج8/ج295/15.

4 ـ القصص/10.

5 ـ ينظر جامع اليان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج39/20، و تفسير القرآن العظيم. الحافظ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ (ت774هـ). بيروت لبنان. دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط6. 1404هـ/1984م. ج267/5.

6 ـ ينظر لكشّاف. الزّمخشريّ. مج167/3.

7 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/ج102/7.

علمت أنّ زوجة فرعون تحسن إلى ابنها ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ ﴾ فكادت تبوح للملإ "بأنّه ولدها، لأنّها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت"[1] ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ بما أنزلنا عليه من السّكينة[2]، والإيمان، والعصمة، وإلهام الصّبر[3]، "وطمأنّا قلبها وسكّنا قلقه الّذي حدث من شدّة الفرح والابتهاج"[4]. ولقد كان سبب هذا الرّبط على القلب ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لكي تكون أمّ موسى راسخة في التّصديق بوعد الله بأنّه رادّه إليها وجاعله من المرسلين[5].

هـ – القلب التّقي:

وقى[6] ووقي[7]: الوقاية حِفظُ الشّيْءِ مِمَّا يُؤْذِيهِ ويَضُرُّهُ، يُقالُ: وَقَيتُ الشّيءَ أَقِيهِ وِقَايةً ووِقَاءً[8]: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾[9]، ووَقَاهُ اللهُ وَقْيًا ووِقَايَةً ووَاقِيةً: صَانَهُ[10]. ورجل تقِيٌّ ومُتَّقِيٌّ: من قوم أتقياء[11]. "والتَّقوى جَعْلُ النَّفسِ في وقايَةٍ ممّا يُخَافُ، هذا تحقيقُه، ثمّ يُسمّى الخوفُ تارة تقوى، والتَّقوى خوفًا حسب تسميّة مقتضى الشّيء بمُقتَضِيه والمُقتضى بمُقتضَاه. وصار التّقوى في تعارف الشَّرْعِ حِفظ النّفس عمّا يُؤثِمُ، وذلك بترك المحظور، ويتمُّ ذلك بترك بعض المُباحات لِمَا رُوِيَ: الحلال بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، ومَنْ رَتَعَ حوْلَ الحِمى فحقيقٌ أن يقع فيه"[12]، قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[13]. أمّا

1 - تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/ج102/7.
2 - ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج10/ج341/19.
3 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج256/13.
4 - تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/ج102/7.
5 - ينظر روح المعاني. الأندلسيّ. مج10/ج341/19.
6 - ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 603. مادّة (وقى).
7 - ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج265/15. مادّة (وقي).
8 - ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 603. مادّة (وقى).
9 - الإنسان/11.
10 - ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج265/15. مادّة (وقي).
11 - ينظر المصدر نفسه. مج266/15. مادّة (وقي).
12 - معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 603-604. مادّة (وقى).
13 - الأعراف/35.

القلب التّقيّ فهو القلب الّذي هُدِيَ إلى سبيلٍ يُصانُ به ويُحفظُ ممّا هو محرّم محظور يصله إلى عصيان الله تعالى.

لقد وردت آيتان اثنتان فيهما وصف للقلب المتّقي الّذي يعظّم شعائر الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[1]، والّذي يغض صوته عند رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وقد أورد الطّبري (رحمه الله تعالى) مجموعة من الأقوال في تفسير الآية الأولى وبيان معنى تقوى القلوب وتعظيم شعائر الله، ثمّ يميّز أحسنها وأولاها بالصّواب، فيقول: "إنّ الله تعالى ذِكرُه أخبر أنّ تعظيم شعائره، وهي ما جعله أعلاما لخلقه فيما تعبّدهم به من مناسك حجّهم، من الأماكن الّتي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال الّتي ألزمهم عملها في حجّهم، من تقوى قلوبهم، لم يخصّص من ذلك شيئا. فتعظيم كلّ ذلك من تقوى القلوب كما قال جلّ ثناؤه، وحقّ على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك"[3]، مع خشية الله وإخلاص توحيده، واجتناب الرّجس من الأوثان، واجتناب قول الزّور[4].

لقد جاء ذكر القلب في هذه الآية للتّفريق ما بين المؤمن المخلص في عبادته، وبين المنافق المرائي؛ لأنّ هذا الأخير قد يظهر التّقوى من نفسه، ولكن لّما كان قلبه خاليّا عنها، لا يكون مجدّا في أداء الطّاعات، وأمّا المخلص الّذي تمكّنت التّقوى في قلبه، فإنّه يبالغ في الطّاعات مخلصا فيها[5] ليتقرّب من الله تعالى أكثر.

---

1 ـ الحج/32.
2 ـ الحجرات/3.
3 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج10/ج187/17، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ ج56/12، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج638/4.
4 ـ ينظر المصدر نفسه. والصّفحة نفسها.
5 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج8/ج30/23.

وأمّا المظهر الثّاني للقلب التّقي في القرآن، فتحمله هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾[1]. فهؤلاء هم الّذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتّقوى، يعني لاتّقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه[2]. وهؤلاء هم الّذين لبّوا نداء الله تعالى حين ناداهم ونهاهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾[3]. فهؤلاء الّذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ ارتعشت قلوبهم وارتجفت أجسادهم "تحت وقع النداء الحبيب، وذلك التّحذير الرّعيب؛ وهكذا تأدّبوا في حضرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون"[4]. فوهبهم الله تعالى التّقوى، والتّقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب بعد تخليص وتمحيص، فلا يضعها إلاّ في قلب قد تهيّأ لها، وقد ثبت أنّه يستحقّها. والّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهيّأها لتلقّي تلك الهبة. وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم[5]، ورفعهم مكانا عليّا.

و – القلب العاقل:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[6]. لقد نزلت الآيات الّتي سبقت هذه الآية تُسلّي الرّسول ﷺ وقد تضمّنت الوعد بإهلاك من يعاديه ويكفر به، وإن تحزن على تكذيبهم إياك فاعلم أنّك لست وحدك في ذلكن قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ. وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ

1 ـ الحجرات/3.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج14/26.
3 ـ الحجرات/2.
4 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3339/26.
5 ـ ينظر المرجع نفسه. مج6/ج3340/26.
6 ـ الحج/46.

لُوطٍ. وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ. فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ ﴾[1]. ثمّ خاطب الله تعالى كفّار قريش ومشركيها: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾؛ فذكر "ما يتكامل به ذلك الاعتبار لأنّ الرّؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلاّ بتدبّر القلب لأنّ مَن عاين وسمع ثمّ لم يتدبرّ لم ينتفع البتّة ولو تفكّر فيما سمع لانتفع، فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ كأنّه قال لا عمى في أبصارهم فإنّهم يرون بها، لكنّ العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه"[2]. ويحتمل أنّهم لم يسافروا فحُثُّوا على السّفر؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم، ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، وأن يكونوا قد سافروا، ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا، فجُعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا[3]. وأنّهم لم يسيروا في الأرض سيرا تكون لهم به عقول يعقلون بها وآذان يسمعون بها، فانتفى أن تكون لهم قلوب وآذان بهذه المثابة لانتفاء سيرهم في الأرض[4]. وإسناد العقل للقلب يدلّ على أنّه محلّه[5]، أمّا قول الله تعالى: ﴿ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ

1 ـ الحج/42 ـ 45.
2 ـ تفسير الفخر الرّازيّ. الرّازي. مج8/ج40/23 -41.
3 ـ ينظر الكشاف، الزمخشري، مج17/3.
4 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. تونس. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. (د. ط). (د. ت). مج7/ج17/287-288.
5 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج6/349، وللطاهر بن عاشور رأي آخر في هذه العلاقة ما بين العقل والقلب: "وأطلقت القلوب على تقاسيم العقل على وجه المجاز المرسل لأنّ القلب هو مُفيض الدّم ـ وهو مادّة الحياة ـ على الأعضاء الرّئيسيّة وأهمّها الدّماغ الّذي هو عضو العقل. ولذلك قال: ﴿ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ وإنما آلة العقل هي الدماغ ولكن الكلام جرى أوله على متعارف أهل اللغة ثم أجري عقب ذلك على الحقيقة العلمية فقال: ﴿ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ فأشار إلى أنّ القلوب هي العقل". تفسير التحرير والتنوير. مج7/ج17/288.

بِهَآ ﴾؛ أي: يعقلون ما حلّ بالأمم السّابقة حين كذّبوا أنبياءهم، ويعقلون ما يجب من التّوحيد[1]. فتكون مهمة القلب العاقل مشاهدة آثار السّابقين والاعتبار بما حلّ بهم.

ز – القلب المطمئن للإيمان:

الطّمَأْنِينَةُ: السُّكُونُ؛ من طَأْمَنَ الشَّيءَ سكَّنَهُ، واطْمَأَنَّ الرَّجُلُ اطمِئنَاناً وطُمَأْنِينَةً أي سكَنَ. واطمَأَنَّ القلبُ إذا سَكَنَ واعتدل[2]. ولقد ورد الكلام عن القلب المطمئنّ للإيمان في القرآن الكريم في خمسة مواضع متفرّقة:

الموضع الأوّل: حين سأل إبراهيم عليه السلام ربّه أن يريه كيفية إحياء الموتى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]. ﴿ أَرِنِى ﴾ أي بصّرني[4] ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ سألتك ليطمئنّ قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهانا والمعلوم عيانا[5]، ليزداد يقينا إلى يقينه، وإيمانا إلى إيمانه[6]، و"ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضّرورة علم الاستدلال، وتظاهر الأدلّة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأنّ علم الاستدلال يجوز معه التّشكيك بخلاف العلم الضّروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الّذي لا مجال فيه للتّشكيك"[7]. فطمأنينة الأعضاء معروفة، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشّيء المعتقد، والفكر في صورة الأحياء غير محظور[8].

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج6/349.
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج9/147-148. مادة (طمن).
3 البقرة/260.
4 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج1/391.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج3/300.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج3/65.
7 ـ الكشاف. الزمخشري. مج1/392.
8 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج3/300.

الموضع الثّاني: حين وعد الله تعالى عباده المؤمنين بالنّصر المبين في غزوة بدر، قال جلّ شأنه: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ .إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةٍ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ.بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[1]، فهذا وعد الله تعالى. ثمّ قال جلّ شأنه: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[2]، كي تطمئنّ قلوبكم بوعده الّذي وعدكم به، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدوّكم، وقلّة عددكم[3]، فإنّ "قصارى أمرهم ما ذكر من البشارة وتقوية القلوب، ولم يقاتلوا، أو لأنّ قصارى أمرهم قاتلوا بتمكين الله تعالى لهم، ولم يكن لهم فعل استقلالا، ولو شاء الله تعالى ما فعلوا على أنّ مجرّد قتالهم لا يستدعي النّصر، بل لابدّ من انضمام ضعف المقابلين المقاتلين، ولو شاء الله تعالى لسلّطهم عليهم، فحيث أضعف وقوّى ومكّن وما مكّن به حصل النّصر، كان ذلك منه سبحانه وتعالى"[4]. وعندما يكون القلب مطمئنًّا للإيمان متّصلا بربّه سبحانه، فإنّه لا يفزع ولا يصيبه همّ ولا غمّ، ولو كان عدد العدوّ يملأ الآفاق.

الموضع الثّالث: يشبه الموضع الثّاني لأنّ الآية نزلت في نصرة المسلمين في غزوة بدر الكبرى، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[5].

الموضع الرّابع: يتعلّق بالّذين تطمئنّ قلوبهم بالقرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

1 - آل عمرآن/123- 125.
2 - آل عمران/126.
3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج126/4، وينظر روح المعاني. الألوسي.مج2/ج3/ 363.
4 - روح المعاني. الألوسي. مج2/ج363/4.
5 - الأنفال/10.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾[1]؛ والاطمئنان: السّكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشّك[2]. والمقصود؛ تطمئنّ قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته تعالى... أو تطمئنّ بذكر دلائله الدّالّة على وحدانيته، أو بالقرآن الكريم لأنّه معجزة بيّنة تُسكِّن القلوب وتريحها، وتُثَبِّتُ اليقين فيها[3].

إنّ علمهم بكون القرآن الكريم من الله تعالى، ومعجزا، يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمّد ﷺ نبيّا حقّاً من عند الله... وحصول الطّمأنينة في قلوبهم في أنّ الله تعالى صادق في وعده للمؤمنين ووعيده للكفّار، وأنّ محمّدا صادق في كلّ ما أخبر عنه[4].

إنّ "سبب اطمئنان قلوبهم بذلك علّمهم أنّ لا آية أعظم ومن ذلك لا يقترحون الآيات الّتي يقترحها غيرهم، ... [وهم مطمئنّو القلوب] لله دون غيره من الأمور الّتي تميل إليها النّفوس من الدّنياويّات، وإذا أريد سائر المعجزات فالقصر من حيث إنّها ليست في إفادة الطّمأنينة بالنّسبة إلى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فإنّه معجزة باقيّة إلى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئنّ به قلوب كافّة، وفيه إشعار بأنّ الكفرة لا قلوب لهم وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنّوا به ولم يعدّوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها"[5]. فالقلب المطمئنّ في هذا السّياق اكتسب سكونه واعتداله من إيمانه المطلق بالقرآن الكريم.

الموضع الخامس: يتعلّق بقلب أُكرِهَ صاحبُه على الكفر ولكنّه ظلّ مملوءا إيمانا، مطمئنّا به، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[6]؛ فلقد روي أنّ أناسا ضعفاء من أهل مكّة فتنهم كفّار قريش ومشركوها

1 - الرعد/28-29.
2 - ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج6/ج13/137.
3 - ينظر الكشاف. الزمخشري. مج2/359.
4 - ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج7/ج19/46.
5 - روح المعاني. الألوسي. مج7/ج13/193.
6 - النحل/106. ورد في سبب نزول هذه الآية ما ذكره جلال الدّين السّيوطي: "أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال: لمّا أراد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يهاجر إلى المدينة، أخذ المشركون بلالا وخبابا وعمّار بن ياسر. فأمّا

وآذوهم إيذاءً بليغا، فارتدّوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمّار وأبواه ياسر وسمية وصهيب وبلال وخبّاب وسالم الّذين عذّبوا عذابا أَفْقَدَهُم الوعيَ[1].

يقول الألوسيّ: "هو الكفر الواقع بالإكراه لا نفس الإكراه لأنّ مقارنة اطمئنان القلب بالإيمان للإكراه لا تجدي نفعا وإنّما المجدي مقارنته للكفر الواقع به أي إلاّ من كفر بإكراه أو إلاّ من أكره فكفر والحال أنّ قلبه مطمئنّ بالإيمان لم تتغيّر عقيدته، وأصل معنى الاطمئنان سكون بعد انزعاج، والمراد هنا السّكون والثّبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه"[2]. وهذا هو الّذي وقع لعمّار بن ياسر وأبويه ومن كان معهم من المؤمنين رضي الله عنهم.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فهو ترخيص ومعذرة لما من عمّار بن ياسر وأمثاله إذا اشتدّ عليهم عذاب من فتنوهم[3]، وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ استثناء من عموم ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ لئلاّ يقع حكم الشّرط عليه، أي إلاّ من أكرهه المشركون على الكفر؛ أي على إظهاره فأظهره بالقول لكنّه لم يتغيّر اعتقاده. وهذا فريق رخّص الله لهم ذلك[4]، لأنّ قلوبهم ظلّت مطمئنّة بالإيمان، خالصة لله، تؤمن به وحده، ولا تشارك غيره في عبادته.

عمّار فقال لهم كلمة تقية أعجبتهم تقية. فلمّا رجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حدّثه، فقال: كيف كان قلبك حين قلت، أكان منشرحا بالّذي قلت؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾". لباب النّقول في أسباب النّزول. 166، وينظر كتاب أسباب النّزول. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النّيسابوريّ. اعتنى به وليد الزّكري. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر. (د. ط). 1424هـ/2003م. 151، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج261/5.

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج430/2، وينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج7/ج102/20.

2 ـ روح المعاني. مج7/ج 639/14.

3 ـ ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطّاهر بن عاشور. مج6/ج293/14.

4 ـ ينظر المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

ح – القلب الوجل:

الوَجَلُ: الفَرَقُ والخَشْيَةُ[1]، والفزع والخوف، من وَجَلَ وجَلاً، والمضارع فيها أربع لغات؛ يَوْجَلُ ويَاجَلُ ويَيْجلُ ويِيجَلُ. ورجلٌ أَوْجَلُ ووَجِلٌ، وجمعه وِجَالٌ[2]. ولقد ورد الكلام على القلب الوجل في القرآن الكريم في مواضع ثلاثة:

الموضع الأوّل: يتعلّق بالمؤمنين إذا ذكروا الله تعالى فزعت قلوبهم لقوّة إيمانهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3]. أي: "ليس المؤمن بالّذي يخالف الله ورسوله ويترك اتِّبَاع ما أنزل إليه في كتابه من حدوده وفرائضه والانقياد لحكمه، ولكنّ المؤمن هو الّذي إذا ذكر الله وجل قلبه وانقاد لأمره وخضع لذكره خوفا منه وفرقا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها وأيقن أنّها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك تصديقاً"[4].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج6/ج215/7.

2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج159/15. مادة (وجل).

3 ـ الأنفال/2. وللرّازي رأي في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الرعد/28؛ يقول: "فإن قيل: إنّه تعالى قال ههنا ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فكيف جمع بينهما؟ قلنا: الاطمئنان إنّما يكون عن ثلج اليقين، وشرح الصّدر بمعرفة التّوحيد، والوجل إنّما يكون من خوف العقوبة، ولا منافاة بين هاتين الحالتين، بل نقول: هذان الوصفان اجتمعا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر/23. والمعنى: تقشعر الجلود من خوف عذاب الله، ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله". تفسير الفخر الرازي. مج5/ج100/15. ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية (الزمر/23): "أي تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله تعالى، وإن كانوا يخافون الله، فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته". الجامع لأحكام القرآن. ج366/7.

4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج6/ج214/7. ويقول الرازي على الوجل أو الخوف الذي يصيب قلوب المؤمنين: "وقال أصحاب الحقائق: الخوف على قسمين: خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال. أما خوف العقاب فهو للعصاة وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء أكان ملكا مقرّبا أو نبيّا مرسلا، وذلك لأنّه تعالى غنيّ لذاته عن كلّ الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغنيّ يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب، بل مجرّد بكونه غنيّا عنه، وكونه محتاجا إليه يوجب تلك المهابة، وذلك الخوف.

إذا عرفت هذا فنقول: إن كان المراد من الوجل القسم الأوّل، فذلك لا يحصل من مجرّد ذكر الله، وإنّما يحصل من ذكر عقاب الله. وهذا هو اللائق بهذا الموضع، لأنّ المقصود من هذه الآية هو إلزام أصحاب بدر طاعة

لقد وصف الله تعالى قلوب المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكر الله. ذلك لقوّة إيمانهم ومراعاتهم لربّهم، كأنّهم بين يديه. ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ أي تصديقا[2]. "فإنّ إيمان هذه السّاعة زيادة على إيمان أمس؛ فمن صدّق ثانيّا وثالثا فهو زيادة تصديق بالنّسبة إلى ما تقدّم، وقيل: هو زيادة انشراح الصّدر بكثرة الآيات والأدلّة"[3]. ولا تزال قلوب المؤمنين تزداد إيمانا وفرقا من الله تعالى كلّما ذكر وتليت آياته.

الموضع الثّاني: هذا نظير الموضع الأوّل في دلالة وجل القلوب من ذكر الله. قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَ ٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ .ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[4].

إنّ الّذين وجلت قلوبهم – في الآية الكريمة – هم المخبتون؛ أي المطمئنّون. وقيل أَخْبَتَ إلى ربّه أي اطمأنّ إليه، وفي قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ أي: المطمئنِّين، وقيل: هم المتواضعون. وفيه خَبْتَةٌ أي تواضُعٌ، وأَخْبَتَ: تواضع، وقيل: خَشَعَ[5]. فهذه جميعها من صفات المؤمنين الّذين وجلت قلوبهم عند ذكر الله.

الله ورسوله في قسمة الأنفال، وأمّا إن كان المراد من الوجل القسم الثاني، فذلك لازم من مجرّد ذكر الله، ولا حاجة في الآية إلى الإضمار". تفسير الفخر الرازي. مج7/ج15/99 -100.

1 ـ الحج/34-35.

2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج7/365-367.

3 ـ المصدر نفسه. 365-367.

4 ـ الحج/34-35.

5 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج5/8. مادة (خبت).

الموضع الثّالث: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ .وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ .وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ. أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾[1].

إنّ الشّاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، إذ يقول الفخر الرازي في تفسيرها: "معناه يعطون ما أعطوا فدخل فيه كلّ حقّ يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك من حقّ الله تعالى: كالزّكاة والكفّارة وغيرهما، أو من حقوق الآدميّين: كالودائع والدّيون وأصناف الإنصاف والعدل، وبيّن أنّ ذلك إنّما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وجلت، لأنّ من يُقْدِمُ على العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره، فإنّه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهدا في أن يوفيها حقّها من الأداء"[2]. ولقد سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن المقصود في الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ فقالت: أهو الّذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى؟ فقال ﷺ: **﴿ لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنْ هُوَ الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ عَلَى ذَلكَ يَخَافُ اللهَ تَعَالَى ﴾**[3]، ولا يكون مثل هذا القلب إلاّ قلب مؤمن، كلّما ازداد عملا وعبادة لله تعالى، ازداد شعورا بالتّقصير، فازداد اجتهادا ليزداد قربا من الله عزّ وجلّ.

ولقد قيل: "وَجَلُ العارف من طاعته أكثر من مخالفته، لأنّ المخالفة تمحوها التّوبة، والطّاعة تطلب التّصحيح، وقال الحسن: المؤمن يجمع إحسانا وشفقة، والمنافق يجمع إساءة

---

1 ـ المؤمنون/57 -61. تجمع هذه الآيات أربع صفات يعدّدها الرازي: "ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، لأنّ الأولى: دلّت على حصول الخوف الشّديد الموجب للاحتراز، والثانية: على تحصيل الإيمان بالله، والثالثة: على ترك الرياء في الطاعة، والرابعة: على أنّ المستجمع لهذه الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات نع خوف من التقصير، وهو نهاية مقامات الصّدّيقين". تفسير الفخر الرازي. مج8/ج96/23، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج379/6

2 ـ تفسير الفخر الرازي. مج8/ج96/23، وينظرالكشاف. الزمخشري. مج35/3، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج379/6، وروح المعاني. الألوسي. مج9/ج327/18.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها، وينظرالكشاف. الزمخشري. مج35/3، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج379/6، وروح المعاني. الألوسي. مج9/ج327/18.

وأمناً[1]". وهذه تمام العبادة وقمّة الورع والتّقوى. وهذا نموذج من القلوب البيضاء الّتي وصفها الله تعالى في كتابه ومدح أصحابها.

ط – القلب المُخْبِتُ:

قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

الخَبْتُ: الخفيُ المطمئنّ من الأرض والمتّسع منها، وأَخْبَتَ الرّجُلُ قَصَدَ الخَبْتَ أو نَزَلَهُ نحو: أَسْهَلَ وأَنْجَدَ، ثمّ استُعمل الإخباتُ استعمالَ اللِّينِ والتّواضُعِ، قال تعالى: ﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾[4]. أي؛ المتواضعين[5]، وأَخْبَتَ الرّجل إلى ربّه أي؛ اطمأنّ إليه[6]، وقوله تعالى: ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ ﴾، أي؛ تخضع للقرآن قلوبهم، وتذعن بالتّصديق به والإقرار بما فيه[7]، والانقياد والخشية له[8]، وتذلّ[9]، وتلينَ له وتخشعَ[10]، وتسكن[11]، وتخضع، وتسلّم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم[12]، وتتواضع وتتطامن، بخلاف من في قلبه مرض أو قسا قلبه[13]؛ أي وليعلم الّذين أوتوا العلم النافع الّذي يفرّقون به بين الحقّ والباطل، ويَعلمَ المؤمنون بالله ورسوله أنّ ما أوحينا إليك هو الحقّ من ربّك الّذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب عزيز.

---

1 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج379/6.
2 ـ الحج/54.
3 ـ هود/23.
4 ـ الحج/34.
5 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 158. مادة (خبت).
6 ـ ولسان العرب. ابن منظور. مج8/5. مادة (خبت).
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج226/17ج10.
8 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج222/17ج9.
9 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج658/4.
10 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 158. مادة (خبت).
11 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج86/12.
12 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. ط1. 1425هـ/2004م. مكتبة الصّفا. القاهرة. ج. م. ع. 519 .
13 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج353/6.

ي – القلب السّاكن:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[1]. هذه الجملة بدل اشتمال من مضمون جملة[2] ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي تحقيقا للنّصر، والسّكينة هي السّكون[4]، والوقار في قلوب المؤمنين[5]، والوقار لله تعالى ولرسوله، وهي اليقين، والكلّ من السّكون[6]. وقيل: السّكينة: الرّحمة[7]، والسّكون والطّمأنينة[8]. قال ابن عبّاس: كلّ سكينة في القرآن هي الطّمأنينة إلاّ الّتي في البقرة[9]. ومعنى الآية أنّ الله أنزل السّكون والطّمأنينة إلى الإيمان في قلوب المؤمنين بالله

---

1 ـ الفتح/4. نزلت هذه السورة بعد صلح الحديبية بعد أن ردّ الكافرون المسلمين عن دخول مكّة، فضاقت عليهم الأرض واشتدّ عليهم الخطب. يقول الطاهر بن عاشور: "لقد تضمّنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عافية صلح الحديبية وأنه نصر وفتح، فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدّهم عن الاعتمار بالبيت. وكان المسلمون عُدّة لا تغلب من قلّة، فرأوا أنهم عادوا كالخائبين، فأعلمهم الله بأنّ العاقبة لهم، وأنّ دائرة السّوء على المشركين والمنافقين". تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج10/ج142/26. وقد سمع رسول الله ﷺ رجلا يقول يوم الحديبية: ما هذا بفتح. فقال رسول الله ﷺ : "بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالرّاح ويسألونكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا". ولقد أصاب رسول الله ﷺ فيها ما لم يصب في غزوة، أصاب أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدي محلّه، وأطعموا نخل خيبر. ينظر الكشاف. الزمخشري. مج3/541، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/330.

2 ـ ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج10/ج26/149.

3 ـ الفتح/3.

4 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج3/541، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج7/221. مادة (سكن).

5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/330.

6 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج10/ج28/74، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج7/221. مادة (سكن).

7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج26/85، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/330، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج7/221. مادة (سكن).

8 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/330، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج16/264، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج7/221. مادة (سكن).

9 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج16/264. وهذا المقام الذي في سورة البقرة هو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة/248. وقد أورد القرطبي في تفسير الجامع لأحكام القرآن توضيحا وافيا. ج3/248.

ورسوله، وإلى الحقّ الّذي بعث الله به محمّدًا[1]، و" أنزل الله في قلوبهم السّكون والطّمأنينة بسبب الصّلح والأمن ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة غبّ القتال فيزدادوا يقينا إلى يقينهم"[2]، وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وخشية مع خشيتهم، ويقينا مع يقينهم[3]، ولتشتدّ عزائمهم[4].

وإذا تأمّلنا لفظ "أنزل" نجده لحكمة إلهيّة، وقد خصّ الله تعالى بها المؤمنين دون الكافرين. "قال تعالى في حقّ الكافرين: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ﴾[5]، بلفظ القذف المزعج. وقال في حقّ المؤمنين: ﴿ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ بلفظ الإنزال المثبّت، وفيه معنى حكميّ وهو أنّ من عَلِمَ شيئا من قبلُ وتذكّره واستدام تذكّره، فإذا وقع لا يتغيّر، ومن كان غافلا عن شيء فيقع دفعة يرجف فؤاده"[6]؛ أي وقع القذف في قلوب الكافرين دون سابق إنذار فارتجفوا بشدّة، وأنزلت السّكينة على قلوب المؤمنين بعلم مسبق من الله تعالى، ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ فارتاحوا واطمأنّوا.

يقول الطّاهر بن عاشور في إنزال السّكينة على قلوب المؤمنين: "إنزالها: إيقاعها في العقل والنّفس وخَلْقُ أسبابها الجوهريّة والعارضة، وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفا لذلك الوجدان بأنّه كالشّيء الّذي هو مكان مرتفع فوق الناس فأُلقي إلى قلوب النّاس"[7]. وتلك رفعة وتنويه بشأن المؤمنين.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج84/26.
2 ـ الكشاف. الزمخشري. مج3/541-542.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج264/16.
4 ـ ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج10/ج151/26.
5 ـ الأحزاب/26.
6 ـ تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج10/ج74/28.
7 ـ تفسير التحرير والتنوير. مج10/ج150/26.

ك – القلب اللّين:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾[1]. ولقد ورد في المعاجم اللّغويّة أنّ اللّين ضدّ الخشونة[2]، ويقال في فعل الشّيء اللَّيِّن: لاَنَ الشَّيءُ يَلِينُ لِينًا ولَيَانًا وتَلَيَّنَ ، وشيء لَيِّنٌ ولَيْنٌ، والجمع لَيْنُون وأَلْيِنَاءُ[3]. ويُستعمل ذلك في الأجسام ثم يُستعارُ للخُلُق وغيره من المعاني، فيقال: فلانٌ لَيِّنٌ، وفُلانٌ خَشِنٌ، وكلّ واحد منهما يُمدح به طورا، ويُذمّ به طورا بحسب اختلاف المواقع[4]، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾[5].

فقبل الإشارة إلى دلالة قوله تعالى: ﴿ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾، لابدّ من الوقوف قبلا على دلالة الجزء الأوّل من الآية: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾؛ إذا سمعوا القرآنَ وقوارعَ آياتِ وعيدِه أصابتْهم رهبةٌ وخشيةٌ واقشعرّت منها جلودُهم[6]، واضطربت وتحرّكت بالخوف ممّا فيه من الوعيد[7]. ويمكن "حمل القشعريرة على الحقيقة إذ هو موجود عند الخشية، محسوس يدركه الإنسان من نفسه. وحاصل من التّأثّر القلبيّ. وقيل: هو تمثيل تصوير لإفراط خشيتهم. والمعنى: أنّه حين يسمعونه يتلى ما فيه من آيات الوعيد عرتهم خشية تنقبض منها جلودهم"[8]. ثمّ إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة[9]، وسمعوا آيات وعده تعالى وألطافه[10]،

---

1 - الزمر/23.

2 - ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. 512. مادة (لين)، ولسان العرب. ابن منظور. مج268/13. مادة (لين).

3 - ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج268/13. مادة (لين).

4 - ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. 512. مادة (لين).

5 - آل عمران/159.

6 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج12/ج332/23، والكشاف. الزمخشري. مج395/3، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج256/8.

7 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج249/15.

8 - تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج406/7.

9 - ينظر الكشاف. الزمخشري. مج395/3.

10 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج12/ج332/23.

لانت جلودهم، وقلوبهم زال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة[1]، وتبدّلت خشيتُهُم رجاءً ورهبتُهُم رغبةً[2]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾، ومعنى لين القلب رقّته وطمأنينته وسكونه[3]، لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجّار[4].

يقول الزمخشري: "فإن قلت: ما وجه تعدية "لان" بإلى؟ قلت: ضمّن معنى فعل متعدّ بإلى كأنّه قيل: سكنت واطمأنّت إلى ذكر الله لينةً غير منقبضةٍ راجيةً غير خاشيةٍ. فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرّحمة؟ قلت: لأنّ أصل أمره الرّحمة والرّأفة، ورحمة هي سابقة غضبه... فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أوّلا ثمّ قرنت بالقلوب ثانيّا؟ قلت: إذا ذكرت الخشية الّتي محلّها القلب فقد ذكرت القلوب"[5]. لأنّ القلب هو سلطان الجسد والأعضاء الأخرى ظلّت مسخّرة له، فإذا حلّت بالقلب خشية فإنّ أثرها يظهر على الجلود.

ل – القلب الخاشع:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[6]، فالخُشُوعُ من خَشَعَ يَخْشَعُ خُشُوعًا واخْتَشَعَ وتَخَشَّعَ: رمى بصرَه نحو الأرض وغضَّهُ وخَفَضَ صوتَهُ. وخَشَعَ بصرُهُ انكَسَرَ. وقومٌ خُشَّعٌ: مُتَخَشِّعُونَ[7]. والخُشُوعُ: الضَّرَاعةُ[8]، والتّضرُّعُ والخضوع والتّذلّلُ[9]، والإِخْبَاتُ والتّضامنُ[10]. وأكثرُ ما يُستعملُ

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج3/395.
2 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج12/ج23/332، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج8/256.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج15/250.
4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/88، ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج7/406.
5 ـ الكشاف. مج3/395.
6 ـ الحديد/16.
7 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج5/73. مادّة (خشع).
8 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 167. مادّة (خشع).
9 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج5/73. مادّة (خشع).
10 ـ ينظر الجواهر الحسان في تفسير القرآن. عبد الرحمن الثعالبيّ (ت875هـ) ج5/386

الخُشوعُ فيما يُوجَدُ على الجَوارحِ. والضّراعة أكثرُ ما تُستعمَلُ فيما يوجد في القلب[1]. قال الله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾[2]، وقال جلّ ثناؤُهُ: ﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ ﴾[3]، والخشوع هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، ولذلك خصَّ تعالى القلب بالذّكر في الآية السّابقة[4].

إنّه عتاب طائفة من المؤمنين على الفتور والتّكاسل الّذي صاروا إليه[5]، لقد فترت هممهم عن القيام بما نُدِبُوا له من الخشوع، ورقّة القلوب بسماع المواعظ وسماع القرآن[6]. ألم يأت الوقت الّذي به تلين قلوبهم وتخشع لسماع القرآن وتنقاد لأوامره وزواجره وما نزل من الحقّ الّذي جاء به محمّد ﷺ. وهذا فيه الحثّ على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكّر المؤمنون المواعظ الإلهيّة والأحكام الشّرعيّة كلّ وقت ويحاسبوا أنفسهم على ذلك[7]. وحذّرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الّذين طال عليهم العهد فقست قلوبهم، وأعرضوا عن أوامر الدِّين ونواهيه[8].

م – قلب رؤوف رحيم ورهبانيّ:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةً وَرَحۡمَةً وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ

1 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 167. مادّة (خشع)، ولسان العرب. ابن منظور. مج 73/5. مادّة (خشع).
2 ـ طه/108.
3 ـ القلم/43.
4 ـ ينظر الجواهر الحسان في تفسير القرآن. عبد الرحمن الثّعالبيّ (ت875هـ) ج386/5، وينظر تفسير البحر المحيط.أبو حيان الأندلسي. مج223/8.
5 ـ "والمعاتب على ما قاله الزّجّاج طائفة من المؤمنين وإلاّ فمنهم من لم يزل خاشعا منذ أسلم إلة أن ذهب إلى ربّه". روح المعاني. الألوسي. مج14/ج240/27.
6 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج432/9.
7 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 802.
8 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج432/9.

أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1]. فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾؛ أي الّذين اتّبعوا عيسى على منهاجه وشريعته[2]، وهم الحواريّون[3]. و﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾؛ "فهاتان من الله، والرّهبانيّة ابتدعها قوم من أنفسهم، و لم تُكتب عليهم"[4].

فأمّا الرّأفة فهي أشدّ الرّحمة[5]، أو هي الرّحمة المتعلّقة بدفع الأذى والضّرّ[6]، وهي أرقّ من الرّحمة[7]، وقيل: هي الرقّة والخشية[8]، والشّفقة واللّين[9]. والرّحمة: الرّقّة والتّعطّف ورقّة القلب[10]. والمراد بالرّأفة والرّحمة في هذا السّياق هو أنّ أتباع عيسى عليه السلام كانوا متوادّين بعضهم مع بعض[11]. وهذا ثناء من الله تعالى عليهم، كما وصف أصحاب محمد ﷺ بذلك في قوله: ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[12]، فيدفعون الشّرّ والضّرر بعضهم عن بعض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويصلحون ما فسد من أمورهم، ويجلب بعضهم الخير لبعض[13].

أمّا الرّهبانيّة فهي نسبة إلى رَهِبَ على فعلان وهو الخائف، وقيل نسبة إلى الرُّهبان، وهو جمع راهب[14]، "والمراد بالرّهبانيّة ترهّبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدِّين، مخلصين أنفسهم للعبادة ومتحمّلين كلفا زائدة على العبادات الّتي كانت واجبة عليهم من الخلوة

1 ـ الحديد/27.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج270/27.
3 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج567/6.
4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج271/27. هي: رهبانية التزموها من تلقاء أنفسهم، وهي مذمومة من وجهين: الأول: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني: عدم القيام بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل. ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج567/6.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج270/27.
6 ـ ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج11/ج421/27.
7 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج61/6. مادة (رأف).
8 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج567/6.
9 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج312/3.
10 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج124/6-125. مادة (رحم).
11 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج231/29/10.
12 ـ الفتح/29.
13 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج442/9، وروح المعاني. الألوسي. مج14/ج254/27.
14 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج67/4، وتفسير الفخر الرازي. الرازي. مج231/29/10-232

واللّباس الخشن، والاعتزال عن النّساء والتّعبّد في الغيران والكهوف"[1]. يبتغون من وراء ذلك مرضاة الله تعالى.

إنّ جملة ﴿ ٱبۡتَدَعُوهَا ﴾ واقعة في موضع الصّفة للرّهبانيّة، وقد خصّ الله تعالى الرّهبانيّة بالابتداع لأنّ الرّأفة والرّحمة في القلب لا تَكَسُّبَ للإنسان فيها بخلاف الرّهبانيّة، فإنّها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتّكسّب[2]، والتّظاهر بالتّعبّد الزّائد الزّائف الّذي لم يفرضه الله تعالى على أحد من عباده.

ن – القلوب الّتي ألّف الله بينها:

إنّ الفعل "ألف" من: أَلِفَ الشيءَ أَلْفًا وإِلاَفًا، وأَلْفَانًا وأَلْفَهُ؛ لَزِمهُ. وأَلَّفْتُ بين الشّيئين تأْليفًا فتأَلَّفَا وأْتَلَفَا؛ إذا وصلتُ بعضَهما ببعض. وقال أبو زيد: أَلِفْتُ الشَّيْءَ وأَلِفْتُ فلانًا إذا أَنِسْتُ به، وأَلَّفْتُ بينهم تأليفًا إذا جمعتُ بينهم بعد تفرُّق[3]. والأُلْفَانُ: مصدر أَلِفْتُ الشَّيْءَ فأنا آلفُهُ من الأُلْفَة[4]. وأَلِفَهُ أَلْفًا وإِلْفًا وإِلاَفًا: أَنِسَ به وأَحبَّهُ. فهو آلِفٌ، والجمع؛ أُلاَّفٌ. وهو أَلِيفٌ أيضًا. وائتَلَفَ النّاسُ؛ اجتمعُوا وتَوَافَقُوا[5]. والإِلْفُ اجتماعٌ مع التِئامٍ، يُقالُ: أَلَّفْتُ بينهم، ومنه الأُلْفَةُ. ويقال للمألُوفِ إِلْفٌ وآلِفٌ[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ ﴾. وعند ابن فارس : الهمزة والألف والفاء أصل واحد، يدلّ على انضمامِ الشّيْءِ إلى الشَّيْءِ، والأشياء الكثيرة أيضا[7].

يقع هذا النّوع من القلوب في موضعين من القرآن الكريم:

---

1 ـ تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج232/29/10.
2 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج226/8.
3 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج132/1-133. مادة (ألف).
4 ـ ينظر كتاب العين (مرتّب على حروف المعجم). الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ). ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي. ط1. 1424هـ/2004م. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان.. مج79/1. مادة (ألف).
5 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج23/1-24. مادة (ألفه).
6 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهانيّ. 27. مادة (ألف).
7 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. 85. مادة (ألف).

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[1]؛ إنّ الله تعالى يدعو المؤمنين للعِصمة أي؛ المَنَعَة، والاعتصام بالحبلِ الواحد؛ وهو لفظٌ مُشتركٌ، وأصله في اللّغة السّبب الّذي يُوصَل بهِ إلى البغية والحاجة[2]. فلقد كان بينهم في الجاهلية من الإحن والعداوات والحروب المتواصلة ما جعلهم أعداء على الدّوام، "فألّف الله بين قلوبهم بالإسلام، وقذف فيها المحبّة فتحابُّوا وتوافقوا، وصاروا إخوانا متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد قد نظم بينهم وأزال الاختلاف، وهو الأخوّة في الله"[3]. وتلك هي نعمة الله عليهم، فلم تكن عند العداوة، ولكن عند حصول التّأليف عقب تلك العداوة[4].

إنّ الآية حملت أمرا ونهيا بديمومة ما هم عليه من الاعتصام والائتلاف، فذكرهم الله تعالى بأنّ ذلك من نعم دين الإسلام، وأنّ ائتلاف قلوبهم إنّما كان سببه إنعام الله عليهم بذلك، "إذ حصل منه تعالى خلق تلك الدّاعية في قلوبهم، المستلزمة بحصول الفعل فذكّر بالنّعمة الدّنيويّة والأخرويّة، أمّا الدّنيويّة فتآلف قلوبهم وصيرورتهم إخوة في لله، متراحمين بعدما أقاموا متحاربين متقاتلين [زمنا طويلا]، على أن ألّف الله بينهم بالإسلام... وأمّا الأخرويّة فإنقاذهم من النّار بعد أن كانوا أشفوا على دخولها، وبدأ بذكر النّعمة الدّنيويّة

---

1 ـ آل عمران/103. إنّ للآية للآيات الّتي سبقت سياق موقف يذكره العلماء سببا لنزولها؛ فلقد كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهليّة، فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بينهم. فأرسل شاس بن قيس اليهوديّ شابا يهوديّا فجلس في مجلس فيه نفر من الأوس والخرج، فانشد شعرا قاله أحد الحيين في حربهم، فكأنّهم دخلهم من ذلك، فقال الحي الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا وكذا، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت. فاجتمعوا وأخذوا السّلاح واصطفوا للقتال. ونزلت الآيات (100- 103). فجاء النبي ﷺ حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا وجعلوا يستمعون، فما فرغ ألقوا السّلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون. ينظر كتاب أسباب النّزول. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النّيسابوريّ. اعتنى به وليد الزّكري. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر. (د. ط). 1424هـ/2003م. 63، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج4/31-32، وتفسير الفخر الرازي. الرازي. مج3/ج8/151، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/85.

2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج4/158.

3 ـ الكشاف. الزمخشري. مج1/451. إنّ "أصل الأخوّة في اللّغة من التّوخّي وهو الطّلب، فالأخ مقصده مقصد أخيه، والصّديق مأخوذ من أن يصدق كلّ واحد من الصّديقين صاحبه ما في قلبه، ولا يخفي عنه شيئا". تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج3/ج8/151.

4 ـ ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج2/ج4/32.

لأنّها أسبق بالفعل"[1]. ويظهر في الآية نعمة الله تعالى على عباده المؤمنين في تأليف قلوبهم وتنقيتها من الحقد والتّباغض، وهذه نعمة يمنّها الله تعالى على عباده.

يقول سيد قطب: "والنّصّ القرآنيّ يعمد إلى مكمن المشاعر والرّوابط: (القلب).. فلا يقول: فألّف بينكم. إنّما ينفذ إلى المكمن العميق: ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ فيصوّر القلوب حزمة مؤلّفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه. كذلك يرسم النّصّ صورة لما كانوا فيه. بل مشهدا حيّا متحرّكا تتحرّك معه القلوب: ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾.. وبينما حركة السّقوط في حفرة النّار متوقّعة، إذا بالقلوب ترى يد الله، وهي تدرك وتنقذ.. وحبّ الله وهو يمتدّ ويعصم. وصورة النّجاة والخلاص بعد الخطر والتّرقّب.. ومشهد متحرّك حيٌّ تتبعه القلوب راجفة خافقة، وتكاد العيون تتملاّه من وراء الأجيال"[2]. إنّ تأليف قلوب العباد نعمة من الله تعالى ورحمة من رحماته، والسّياق اللّغويّ القرآنيّ يقفنا على نوع من القلوب ذي دلالة خاصّة هي الألفة. ولقد ورد ذكر هذا القلب وأصحابه المؤمنين مرّة أخرى في سورة الأنفال.

الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3]. يشير قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾[4]، إلى نعمة الله تعالى في الجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس

---

1 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج3/21. وينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج3/ج8/151.

2 ـ في ظلال القرآن. مج1/ج4/443.

3 ـ الأنفال/63. نزلت هذه الآية في المهاجرين والأنصار، وقيل في الأنصار. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج6/ج10/42-43، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/342، والكشاف. الزمخشري. مج2/166-167. وقيل نزلت في المتحابّين في الله. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج6/ج10/42، ولسان العرب. ابن منظور. مج1/133. مادة (ألف).

4 ـ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول الزمخشري: "التّأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ، من الآيات الباهرة، لأنّ العرب لما فيهم من الحمية والعصبيّة والانطواء على الضّغينة في أدنى شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم على اتّباع رسول الله ﷺ، واتّحدوا وأنشئوا يرمون عن قوس واحدة، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم وحدث بينهم من التّحابّ والتّوادّ، وأماط عنهم من التّباغض والتّماقت، وكلّفهم من الحبّ في الله والبغض في الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقلّبها كما شاء، ويصنع فيها ما أراد". الكشاف. مج2/166-167.

والخزرج على دينه الحقّ بعد التّفرّق والتّشتّت والتّقاتل زمنا طويلا، فصيّرهم به جميعا بعد أن كانوا أشتاتا، وإخوانا بعد أن كانوا أعداء[1]. و﴿ لَو أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾؛ فلو أنفقت يا محمّد ما في الأرض من ذهبٍ وورقٍ وعرضٍ ما جمعتَ أنتَ بين قلوبهم بحيلك[2]، لتناهي عداوتهم وقوّة أسبابها... وذكر القلوب للإشعار بأنّ التّأليف بينها لا يتسنّى وإن أمكن التّأليف ظاهرا، ولكنّ الله جلّت قدرته ﴿ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ قلبا وقالبا بقدرته البالغة[3]، وجمع قلوبهم على الهدى، فاجتمعت وائتلفت تقوية من الله لك وتأييدا منه ومعونة على عدوّك. والله تعالى هو الّذي فعل ذلك وسبّبه لك حتّى صاروا لك أعوانا وأنصارا ويدا واحدة على من بغاك سوءا[4]، بعدما كانوا أعداء فيما بينهم وأعداء لك.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي؛ "كامل القدرة والغلبة لا يستعصي عليه سبحانه شيء ممّا يريد، يعلم ما يليق تعلّق الإرادة به فيوجده بمقتضى حكمته عزّ وجلّ، ومن آثار عزّته سبحانه تصرّفه بالقلوب الأبيّة المملوءة من الحمية الجاهليّة، ومن آثار حكمته تدبير أمورهم على وجه أحدث فيهم التّوادّ والتّحابّ فاجتمعت كلمتهم، وصاروا جميعا كنانة رسول الله ﷺ، الذّابين عنه بقوس واحدة"[5]. إنّها معجزة لا يقدر عليها سوى الله تعالى خالق القلوب ومقلّبها كيف يشاء، والمؤلّف بينها.

لقد وقعت المعجزة الّتي صنعتها عقيدة الإسلام، ولا يقدر عليها إلاّ الله، فاستحالت هذه القلوب النّافرة، وهذه الطّباع الشّموس، إلى هذه الكتلة المتراصّة المتآخيّة الذّلول بعضها لبعض، المحبّ بعضها لبعض، المتآلف بعضها مع بعض[6].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تـأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج6/ج10/42، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/341 و342.
2 ـ ينظر المصدر نفسه، والصّفحة نفسها.
3 ـ ينظرروح المعاني. الألوسي. مج5/ج9/309-310.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تـأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج6/ج10/42
5 ـ روح المعاني. الألوسي. مج5/ج10/309-310.
6 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج10/1548.

وحين تخالط هذه العقيدة تلك القلوب، "تستحيل إلى مزاج من الحبّ والألفة وموذّات القلوب، الّتي تلين جاسيها، وترقّق حواشيها، وتندي جفافها، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق. فإذا نظرة العين، ولمسة اليد، ونطق الجارحة، وخفقة القلب، ترانيم من التّعارف والتّعاطف، والولاء والتّناصر، والسّماحة والهوادة، لا يعرف سرّها إلاّ من ألّف بين هذه القلوب، ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب"[1]. فإنّ أحوال القلوب من العقائد والإرادات والكرامات كلّها من خلق الله تعالى، وذلك لأنّ تلك الألفة والمودّة والمحبّة الشّديدة إنّما حصلت بسبب الإيمان ومتابعة الرّسول ﷺ[2].

س – قلوب الخير أو القلوب الخيّرة:

الخيرُ ضدّه الشّرّ[3]، وهو ما يرغب فيه الكلُّ كالعقلِ مثلا والعدلِ والفضل والشّيءِ النّافع،[4]، وجمعه خُيُورٌ. ويقال: هو خَيْرٌ منك وأَخْيَرُ. وقوله تعالى: ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا ﴾[5]، أي؛ تجدوه خيرا لكم من متاع الدّنيا[6]. و(الخيرُ) المقصود في سياق الآية كما يحدّده العلماء والمفسّرون هو الإسلام والتّصديق وخلوص الإيمان وصحّة النّية.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[7]؛ تتعلّق هذه الآية بأسرى المشركين[8]، والعبّاس وأصحابه[9] يوم بدر، وما أخذ منهم من الفداء.

---

1 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1548/10.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج5/ج158/15.
3 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 181. مادة (خير)، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج186/5. مادة (خير).
4 ـ ينظر المصدر نفسه، الصّفحة نفسها. مادة (خير).
5 ـ المزمل/20.
6 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج186/5. مادة (خير).
7 ـ الأنفال/70.
8 ـ قال ابن العربي (ت543هـ): "مّا أسر من أسارى المشركين، روي أنّه تكلّم قوم منهم بالإسلام، ولم يمضوا بذلك عزيمة، ولا اعترفوا به اعترافا جازما. ويشبه أنّهم أرادوا أن يَقْرَبُوا من المسلمين، ولا يبعدوا عن المشركين، فنزلت الآ ية". أحكام القرآن. تح: عبد الرزّاق المهدي. ط1. 1426هـ/2005م. دار الكتاب العربيّ. بيروت. لبنان. ج339/2.
9 ـ كان العبّاس بن عبد المطّلب يقول: فيّ والله نزلت حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج6/ج58/10-59، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج348/3 وما بعدها، وتفسير الفخر الرازي. الرازي. مج5/ج171/15 و172، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج52/8-53.

والشّاهد في سياق الآية قوله تعالى: ﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾؛ أي إن يعلم الله في قلوبكم إسلاما وإيمانا وتصديقا[1]، وخلوصَ إيمانٍ وصحّةَ نيةٍ[2]، وعزمًا "على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ في جميع التّكاليف ، والتّوبة عن الكفر وعن جميع المعاصي، ويدخل فيه العزم على نصرة الرّسول، والتّوبة عن محاربته"[3]، يؤتكم الله تعالى خيرا ممّا أخذ منكم من الفداء[4]، إمّا يخلفكم في الدّنيا أضعافه أو يُثْبِكُمْ في الآخرة خيرا منه[5]، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾؛ الشّرك الّذي كنتم عليه[6]، ويصفح لكم عن عقوبة جرمكم الّذي أجرمتموه بقتالكم نبيّ الله وأصحابه وكفركم بالله[7]، ويجزل لكم الثّواب والتّفضّل في الآخرة[8].

ع – القلب الطّاهر:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ

ويقول الرازي أيضا: "واختلف المفسرون في أن الآية نازلة في العباس خاصة، أو في جملة الأسارى. قال قوم: إنها في العباس خاصة، وقال آخرون: إنها نزلت في الكل، وهذا أولى، لأن ظاهر الآية يقتضي العموم... (و) أقصى ما في الباب أن يقال: سبب نزل الآية هو العباس، إلا أن العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب". تفسير الفخر الرازي. مج5/ج171/15.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج6/ج58/10، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج8/.53، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج350/3، وتفسير البغوي. البغوي. 536، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج516/4، روح المعاني. الألوسي. مج5/ج321/9.

2 ـ ينظر الكشّاف. الزمخشري. مج169/2.

3 ـ تفسير الفخر الرازي. الرازي. . مج5/ج172./15.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج6/ج58/10، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج8/.53، و تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج516/4.

5 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج169/2.

6 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج350/3.

7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج6/ج58/10، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج516/4.

8 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج5/ج172./15.

وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1].

إذا بحثنا عن دلالة لفظ "طهر" في المعاجم العربيّة فسنجد لها معنيين اثنين؛ واحدا حسّيّا حقيقيّا، والثّاني معنويّا مجازيّا. ففي أساس البلاغة؛ "طَهَرَ وطَهُرَ واطَّهَرَ وتَطَهَّرَ، وقد طَهُرتُ طَهُورا وطُهُورا، وما عندي طَهُور أتطهَّرُ به، أي وضوء أتوضّأ به، وأطلُبُ لي ماء طَهُورا؛ بليغا في الطّهارة لا شُبْهَةَ فيه... ومن المجاز: تَطَهَّرَ من الإثم؛ تنزّه من الإثم، وطَهَّرهُ الله"[2]. وفي معجم المقاييس "الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح يدلّ على نقاء وزوال دنس. ومن ذلك الطّهر: بخلاف الدّنس، والتّطهّر: التّنزّه عن الذّمّ وكلّ قبيح، وفلان طاهر الثّياب، إذا لم يدنّس"[3]. إنّ الّذي يهمّنا في هذا المقام المعنى المتعلّق بالطّهارة المعنويّة. ومنه المقصود في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾.

إذا سألتم نساء الرّسول ﷺ؛ أمّهات المؤمنين متاعا فليكن ذلك من وراء حجاب، ليكون الأمر أطهرَ لقلوبكم وقلوبهنّ من عوارض العين فيها الّتي تعرض في صدور الرجال من أمر النّساء، وفي صدور النّساء من أمر الرّجال، وأحرى من أن يكون للشّيطان عليكم وعليهنّ سبيل[4]. وهذا الّذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب[5]، و"أنفى للرّيبة وأبعد للتّهمة وأقوى للحماية. وهذا يدلّ على أنّه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحلّ له، فإنّ مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتمّ لعصمته"[6]. وكلّما بعد الإنسان عن الأسباب الدّاعيّة إلى الشّرّ، فإنّه أسلم له، وأطهر لقلبه[7].

1 ـ الأحزاب/53.
2 ـ الزمخشري. 399. مادة (طهر).
3 ـ أحمد بن فارس. 626. مادة (طهر).
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج44/22.
5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج493/5.
6 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج228/14، وأحكام القرآن. ابن العربي. ج646/3.
7 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 643.

يقول الطّاهر بن عاشور: "ذلك أقوى طهارة لقلوبكم وقلوبهنّ، فإنّ قلوب الفريقين طاهرة بالتّقوى وتعظيم حرمات الله وحرمة النّبيّ ﷺ ولكن لّما كانت التّقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة أراد الله أن يزيدهم منها بما يُكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهيّ من الخواطر الشّيطانيّة بقطع أضعف أسبابها وما يقرّب أمّهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثّابتة لزوجهنّ ﷺ فإنّ الطّيبات للطّيبين بقطع الخواطر الشّيطانيّة بقطع دابرها ولو بالفرض"[1]. تقويّة لطهارة قلوب أزواج الرّسول ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم.

إنّ الرّؤية سبب التّعلّق والفتنة، "فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب. أمّا إن رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي، فالقلب عند عدم الرّؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر، ثمّ إنّ الله تعالى لّما علّم المؤمنين الأدب أكّده بما يحملهم على محافظته"[2]. وفي بعض الآثار: النّظر سهم مسموم من سهام إبليس، وقال الشّاعر[3]:

وَالمَرْءُ مَادَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ❁ فِي أَعْيُنِ العِينِ مَوْقُوفٌ عَلَى الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا سَاءَ مُهْجَتَهُ ❁ لاَ مَرْحَبًا بِانْتِفَاعٍ جَاءَ بِالضَّرَرِ.

ف – القلب الحيّ:

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[4]، ولقد اختُلِفَ في تفسير لفظ "قلب" في هذا السّياق، فقيل: هو العقل، وقيل: هو القلب، أو القلب الحي، أو القلب الّذي يعقل ما قد يسمع من الأحاديث[5].

1 - تفسير التحرير والتنوير. مج9/ج91/22.
2 - تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج9/ج198/25.
3 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج11/ج332/22.
4 - ق/36-37.
5- ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج206/26. ويقول الطّبري: "والقلب في هذا الموضع: العقل. وهو من قولهم: ما لفلان قلب، وما قلبه معه: أي ما عقله معه. وأين ذهب قلبك؟ يعني أين ذهب عقلك؟". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج13/ج206/26.

لقد أهلك الله تعالى قبل قريش كثيرا من القرون الّذين كانوا أشدّ منهم، وإنّ في إهلاك القرون الّتي أهلكها من قبل قريش ﴿ لَذِكۡرَىٰ ﴾ وعظة لمن كان يَتَذَكَّرُ بها ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ ﴾؛ أي لمن له عقل – وعبّر عنه بمحلّه[1] – من هذه الأمّة فينتهي عن الفعل الّذي كانوا يفعلونه من كفرهم بربّهم، وتكذيبهم بمحمّد ﷺ خوفا من أن يحلّ بهم مثل الّذي حلّ بمن قبلهم مِنَ العذاب أو كان له قلب واعٍ يّدرك الحقائق، ويعقل ما قد سمع من الأحاديث والأخبار الّتي ضرب الله بها من عصاه من الأمم[2]، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنّه لا قلب له[3]، أو هو بمنزلة العدم[4].

أمّا قوله تعالى: ﴿ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ ﴾ فمعناه؛ أو أصغى بسمعه لإخبار الله تعالى إياه عن هذه القرون الّتي أهلكها، فيسمع الخبر عنهم، كيف فعل الله تعالى بهم حين كفروا به، وعصوا رسله[5]؛ لأنّ من لا يسمع فكأنّه حفظ سمعه وأمسكه فإذا أرسله حصل الاستماع[6]، فيسمع الخبر ويعيه، ويعقله بعقله ويتفهّمه بلبّه[7]، لا يحدّث نفسه بغيره[8]. ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ متفهّم لما يُخۡبَرُ به عنهم شَاهِدٌ لَهُ بِقَلۡبِهِ، غيرُ غافلٍ عنه ولا ساهٍ[9]، مُتفطِّنٌ لأنّ غير المتفطّن منزّل منزلة الغائب[10].

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج128/8.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج206/26.
3 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج11/4، وتفسير الفخر الرازي. الرازي. مج10/ج170/28، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج128/8، وروح المعاني. الألوسيّ. مج13/ج468/25.
4 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج13/ج468/25.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج207/26.
6 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج10/ج170/28.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج409/6.
8 ـ ينظر تفسير البغوي. البغوي. 1230.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج207/26.
10 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج13/ج468/25

ص – القلب المؤمن:

هذا النوع من القلوب هو جامع القلوب السّابقة أو جامع الصّفات السّابقة كلّها، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ . فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[1]. يُذكّر الله تعالى المؤمنين بوجود الرّسول ﷺ بينهم، وأنّه عليه السلام لو أطاعهم في كثير من الأمور لنالهم من الله في ذلك الشّدّة والمشقّة في كثير من الأمور، ولكنّ الله تعالى حبّب إليهم رضي الله عنهم الإيمان بالله ورسوله، وحسّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الفسوق والكذب، والعصيان، وركوب ما نهى الله تعالى عنه في خلاف أمر رسول الله ﷺ [2]. وأظهر صورة على أنّ القلب مؤمن هي الإيمان بالله وبالرّسول ﷺ.

قال عزّ وجلّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[3]. أي لا تجعل في قلوبنا ضغنا وبغضا وحسدا وغشّا وحقدا لأحد من أهل دينك، ولا تورّثها غلاّ لأهل الإيمان بك[4].

---

1 ـ الحجرات/7-8. يقول الطّبري في الأمور التي لو أطاع الرّسول ﷺ فيها المؤمنين لعنتوا: "كما لو قبل [الرّسول ﷺ] من الوليد بن عقبة قوله في بني المصطلق: إنّهم قد ارتدّوا، ومنعوا الصّدقة، وجمعوا الجموع لغزو المسلمين، فغزاهم فقتل منهم، وأصاب دماءهم وأموالهم كان قد قتل، وقتلتم من لا يحلّ له ولا لكم قتله، وأخذ وأخذتم من المال ما لا يحلّ له ولكم أخذه من أموال قوم مسلمين، فنالكم من الله بذلك عنت". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج13/ج26/146-147.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج26/146-147، والكشّاف. الزّمخشري. مج3/560-561.

3 ـ الحشر/10.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج28/51-52، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج29/269.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1]. يعني أصحاب رسول الله ﷺ إذ يبايعونه بالحديبية تحت الشّجرة بيعة الرّضوان[2]، وقد علم الله تعالى ما في قلوبهم من السّمع والطّاعة وصدق النّية، والوفاء بما يبايعونه عليه، والصّبر معه عليه السلام، فأنزل الله تعالى عليهم الصّبر والطّمأنينة والوقار، والثّبات على دينهم وحسن بصيرتهم بالحقّ[3].

كلّ هذه الدّلالات السّاميّة المتنوّعة الّتي صحبت لفظ "قلب" في السّياق القرآنيّ، تختصّ بقلب الإنسان المسلم المؤمن، قد تجتمع فيه كلّها، مثلما اجتمعت في قلب الرّسول ﷺ، أو يجتمع فيه بعضها. ولقد عددها في هذا المقام وأشرت إلى تنوّعها، لبيان الحالات المختلفة الّتي تنتاب هذا القلب المميّز، وأنّ القلب في القرآن الكريم متّصل في جميع أحواله بالله تعالى لا تأخذه غفلة ولا تلهيه دنيا، وهو خاضع للغرض العام للقرآن الكريم، ولمتطلّبات الدّعوة الإسلاميّة.

إنّ هذا القلب مميّز لم يرد مثله في الأعمال الأدبيّة والفنّيّة عند البشر، بل ورد قلب آخر موصوفا بصفات أُخر كالعشق والهيام والتّيهان والحبّ والتّعلّق بليلى أو لبنى أو عبلة أو عزّة أو خولة أو أسماء، ولنا في الشّعر العربيّ القديم قصائد طِوال وقِصار تصف هذا النّوع من القلوب.

---

1 ـ الفتح/18. وقال تعالى أيضا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾. آل عمران/8. وقال تعالى: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾. التوبة/15. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. المجادلة/22.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج99/26، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج274/16.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. مج13/ج102/26، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج341/6.

لقد أنهينا الحديث في الفصل الأوّل عن القلوب البيضاء، وهو القسم الأول من القسمين اللّذين أشار إليهما الرّسول ﷺ فيما يتعلّق بقلوب المؤمنين وقلوب غير المؤمنين. وسنشفعه بالفصل الثّاني الّذي سنقصر فيه الحديث عن القسم الثّاني المتعلّق بالقلوب السّوداء، وبالصّفات الّتي تميّزها.

الفصل الثّاني

القلوب السّوداء في السّياق القرآنيّ

أوّلا: القلب المريض:

ثانيّا: القلب المختوم عليه:

ثالثا: القلب المطبوع عليه:

رابعا: القلب القاسي:

خامسا: القلب المكنون:

سادسا: القلب الّذي فيه الرعب والخوف:

سابعا: القلب الأعمى:

ثامنا: القلب الغليظ:

تاسعا: القلب الّذي شدّ الله عليه:

عاشرا: القلب لدى الحناجر:

حادي عشر: القلب الواجف الخافق المضطرب:

الفصل الثّاني: القلوب السّوداء في السّياق القرآنيّ

يضمّ هذا الفصل ما بين صفحاته القسم الثّاني من القلوب الّتي أشار إليها الرّسول ﷺ وهو المتعلّق بالقلوب السّوداء، وهي خاليّة من كلّ إيمان وتقوى وإحسان، وقد خصّها القرآن الكريم بصفات تميّزها عن القلوب البيضاء؛ وتجعلها علامات بارزة على غير المؤمنين. ولقد سبق أن تحدّثنا في الفصل السّابق عن القسم الأوّل المتعلّق بالقلوب البيضاء.

إنّ للفظ "قلب" في كلّ الآيات الآتيّة علاقة بواحد من الألفاظ الّتي سبقته أو وليته، وبالتّالي منحته دلالة معيّنة، تَحَدَّدَ من خلالها نوع القلب الوارد ذكره في سياق الآية. والمتأمّل في تلك الآيات الكريمة يجد حالات كثيرة ومتنوّعة تعكس هذا الصّنف من القلوب (السّوداء) المريضة، والمختوم عليها، والمطبوع عليها، والقاسيّة، والمكنونة، والمرتابة والشّاكّة، والغافلة، والّتي فيها رعب، والمنافقة، والكافرة، والزّائغة، والآثمة، والّتي لا تفقه ... وغيرها.

تتعلّق هذه القلوب بالكافرين المعاندين الّذين كذّبوا بالدّين الإسلامي وعارضوا الرّسول ﷺ وحاربوه في مواقع كثيرة، وبالمنافقين الّذين أظهروا الإيمان وأخفوا الكفر، وباليهود الّذين كادوا المكائد ودسّوا الدّسائس للدّين الجديد وللرّسول ﷺ. وقد تحدّدت هذه الأنواع من القلوب تبعا للصّفات الّتي تعتريها أو تحلّ بها.

أوّلا: القلب المريض:

لقد ذكر القرآن الكريم القلب ومعه المرض الّذي هو صفة للكافر والمنافق في اثنتي عشرة آية كريمة. و"إنّ الفتن الّتي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشّهوات وفتن الشّبهات، فتن الغيّ والضّلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظّلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثّانيّة توجب فساد العلم والاعتقاد"[1]. ومرض القلب النّاشئ عن الكفر وسوء الاعتقاد والشّكّ فيه أو عن شهوة أو شبهة، يولّد حالة نفسيّة من عدم الاستقرار والتّناقض بين القول والعمل، والظّاهر والباطن، وتلك نفسيّة المنافق

1 ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشّيطان. ابن قيّم الجوزيّة. 14.

مريض القلب الخالي من الإيمان. ويقول الفخر الرّازي عن المرض: "هو صفة توجب وقوع الضّرر في الأفعال الصّادرة عن موقع تلك الصّفة، ولّما كان الأثر الخالص بالقلب إنما هو معرفة الله تعالى وطاعته وعبوديته، فإذا وقع في القلب من الصفات ما صار مانعا من هذه الآثار كانت تلك الصّفات أمراضا للقلب"[1]. وأقوى تلك الصّفات ضررا بالقلب وأقساها سوء الاعتقاد والشّكّ فيه.

إنّ مرض القلب ألمٌ يحصل فيه كالغَيظِ من عدوٍّ استولى عليك، فإنّ ذلك يؤلم القلب. قال تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ. وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]. فشفاؤهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ومن الغمّ والغيظ، والحزن، وكلّ هذه آلام تحصل في النّفس، وكذلك الشّكّ والجهل[3]، وقد يموت القلب بالجهل المطلق.

إنّ للقلب موتا وحياة، ومرضا وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه. فلهذا، إذا كان مرض القلب شبهة أو شهوة قوّت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه[4]. قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَـٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾[5]؛ فإنّ القلب المريض بالشّهوة يميل لضعفه "إلى ما يعوّض له من ذلك بحسب قوّة المرض وضعفه. ومرض القلب نوعان... مرض شهوة، ومرض شبهة، وأردؤهما مرض الشّبهة... وقد يمرض القلب ويشتدّ مرضه ولا يعرف به صاحبه لانشغاله وانصرافه عن معرفة صحّته وأسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته،

1 ـ تفسير الفخر الرازي. مج/ج65/2.
2 ـ التوبة/14-15.
3 ـ ينظر طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحرّاني وابن قيم الجوزية. إعداد عمر أحمد الراوي. 64.
4 ـ ينظر المرجع نفسه. 64-65. وينظر زاد المعاد في هدي خير العباد. شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزّرعيّ الدّمشقيّ، المعروف بابن قيم الجوزية (ت751هـ). تح: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. بيروت. لبنان. مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط6. 1404هـ/1984م. ج5/4-6.
5 ـ الحج/53.

وعلامة ذلك أنّه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحقّ وعقائده الباطلة"[1]. وهذا النّوع من القلوب يكون صاحبه في غفلة تامّة، فلا يلتفت إلى ما هو عليه من الضّلال، ولا يؤلمه ما يقوم به من السّلوك المشين وما يرتكبه من المنكر.

لقد ورد الحديث عن القلب المريض في القرآن الكريم في اثني عشر موضعا، هي كالآتي:

1 – الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[2]؛ إنّ الخطاب في هذه الآية موجّه إلى نساء النّبيّ ﷺ لئلاّ يلنّ بالقول للرّجال ولا يخضعن فيه "فيما يبتغيه أهل الفاحشة منكنّ، فيطمع الّذي في قلبه ضعف، فهو لضعف إيمانه في قلبه، إمّا شاكّ في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله، وإمّا متهاون بإتيان الفواحش"[3] محبّ لشهوة الزّنا، في قلبه رغبة بالفسق وضعف تجاه النّساء.

لقد بيّن الله تعالى لنساء النّبيّ ﷺ مترلتهنّ الّتي نلنها بفضل تقواهنّ، ثمّ بيّن لهنّ الوسائل الّتي يُذهبن بها الرّجس عن أهل البيت ويطهرهم تطهيرا، فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَض ﴾ فينهاهنّ الله تعالى "حين يخاطبن أن يكون في نبراتهنّ ذلك الخضوع اللّين، الّذي يثير شّهوات الرّجال، ويحرّك غرائزهم، ويطمع مرضى القلوب ويهيج رغائبهم... وأمرهنّ أن يكون حديثهنّ في أمور معروفة غير منكرة، فإنّ موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث"[4]. فيكون المرض في هذه الآية هو الشّهوة الّتي يثيرها حديث النّساء في الرّجال مرضى القلوب، إذا كان في هذا الحديث لين وخضوع.

---

1 ـ شرح العقيدة الطحاوية. القاضي علي بن علي بن محمّد بن أبي العزّ الدّمشقيّ (ت792هـ). تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ، وشعيب الأرنؤوطيّ. بيروت. لبنان. مؤسّسة الرّسالة. (د. ط). (د. ت). 360/2.

2 ـ الأحزاب/32.

3 ـ جامع البيان في تأويل آي القرآن. مج12/ج4/22، وينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج7/ج183/25. وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج177/14.

4 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2859/22.

2 – الموضع الثّاني: قال تعالى:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾[1]، فأخبرهم الله تعالى أنّ في قلوب المنافقين مرضا في اعتقاداتهم الّتي يعتقدون، وفي أديانهم، وما هم عليه من الشّكّ في أمر محمّد وأمر نبوّته، وما جاء به من عند الله، وتحيّرهم فيه، فلا هم موقنون مصدّقون، ولا هم منكرون مشركون؛ بل هم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وقد اجتزأ القرآن الكريم بدلالة الخبر على قلوبهم فقال: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ على معناه عن تصريح الخبر على اعتقادهم[2].

3 – الموضع الثّالث: قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[3]. إنّ الحديث وارد في هذه الآية على المنافقين[4] الّذين في قلوبهم مرض. وقد بيّنا فيما سبق طبيعة هذا المرض المتعلّق بالشّكّ في اعتقاداتهم وما هم عليه في أمر محمّد ﷺ.

4 – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[5]. إنّ المرض الّذي في قلوب هؤلاء هو الشّكّ في الدّين الإسلاميّ الذي بعث به محمّد بن عبد الله ﷺ، فلم يصحّ يقينهم، ولم تشرح بالإيمان صدورهم[6]، وهم نفر من مشركي قريش[7]، أعلنوا

---

1 ـ البقرة/10. نزلت هذه الآية في المنافقين.
2 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج1/ج1/162.
3 ـ المائدة/52.
4 ـ في هذه الآية إشارة إلى المنافقين أو إلى واحد منهم هو عبد الله بن أبيّ بن سلول. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج6/345، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/593، وتفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج4/ج12/15.
5 ـ الأنفال /49.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/26.
7 ـ قيل هم: "قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحرث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، ووعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج". المصدر نفسه. مج6/ج10/27. وقيل: "المنافقون الذين

إسلامهم ولكنّه لم يستحكم في قلوبهم[1]. فهم يظهرون الإسلام تقية أو مناورة أو سياسة، لا حقيقة.

5 – الموضع الخامس: قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾[2]، إنّ الّذين في قلوبهم مرض، إنّما هم المنافقون[3]، نفوسهم حريصة على الدّنيا متهالكة على لذّاتها راغبة في طيّباتها غافلة عن حبّ الله تعالى والآخرة، إذا سمعت هذه الآية المشتملة على الجهاد وتعريض النّفس للقتل والمال للنّهب ازدادوا كفرا إلى كفرهم، وشكّا إلى شكّهم، وإثما إلى إثمهم[4]، وذلك أنّهم شكّوا في أنّها من عند الله تعالى فلم يؤمنوا بها، و لم يصدّقوا بها[5].

6 – الموضع السّادس: قال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[6]، إنّ الدّلالة الّتي يحملها لفظ "مرض" في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شكّ ونفاق[7]، وهو

أظهروا الإيمان وأضمروا الكفر، والّذين في قلوبهم مرض: الشّاكّون، وهم دون المنافقين، لأنّهم حديثو عهد بالإسلام... وقيل: هما واحد، وهو أولى". الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج27/18.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج26/10.

2 ـ التوبة/125. قال تعالى قبل هذه الآية وبعدها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾. التّوبة/123-127.

3 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج6/ج195/16.

4 ـ ينظر المصدر نفسه. مج6/ج196/16، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج899/8.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج87/11-88.

6 ـ الحج/53.

7 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج86/12، وفتح القدير. الشّوكانيّ. مج362/3.

المناسب لقوله تعالى في المنافقين والشّاكّين[1] ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وتخصيص المرض بالقلب مؤيّد له لعدم إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر[2]. ﴿ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ الّذين قست قلوبهم عن الإيمان بالله، فلا تلين ولا ترعوي، وهم المشركون المكذّبون بالله[3].

7 – الموضع السّابع: قال تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[4]. القلب في هذه الآية مريض، ومرضه الشّكّ والرّيب[5]، أو النّفاق، والهمزة للتّوبيخ والتّقريع، أي؛ أكان هذا الإعراض منهم (المنافقين) بسبب النّفاق الكائن في قلوبهم، أم بسبب شكّهم في أمر نبوّة النّبي ﷺ، أم بسبب خوفهم من أن يجور الرّسول ﷺ في الحكم[6].

8 – الموضع الثّامن: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[7]. فبعد أن بيّنت الآيتان السّابقتان حال المسلمين[8] في غزوة الخندق حين حاصرهم المشركون من قريش وغطفان ويهود بني قريضة، في المدينة واشتدّ عليهم الخطب والخناق، قال المنافقون والّذين في قلوبهم مرض النّفاق والشّكّ، والاضطراب، وضعف في اعتقادهم، لأنّ الإيمان لم يخالط قلوبهم و لم يتمكّن منها[9]:

---

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج19/3.
2 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج4/ج221/17.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج10/ج226/17، والكشاف. الزمخشري. مج19/3.
4 ـ النور/50.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج10/ج187/18، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج293/12.
6 ـ ينظر فتح القدير. الشوكاني. مج45/4، وروح المعاني. الألوسي. مج4/ج520/18، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج365/4.
7 ـ الأحزاب/12.
8 ـ قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾. الأحزاب/10-11.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري.. مج11/ج143/21، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج434/5، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج212/7، وفتح القدير. الشّوكانيّ. مج266/4، وصفوة التفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج472/2.

"قد كان محمّد يعدنا فتح فارس والرّوم، وحُصرنا ههنا، حتّى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته؛ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا"[1]، فالقلب المريض في هذا المقام، مرضه: الشّكّ والنّفاق، وضعف الاعتقاد.

9 – الموضع التّاسع: قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

إنّ القلب المريض في هذه الآية الكريمة، فيه ضعف إيمان، وقلّة ثبات عليه، وفيه ريبة من شهوة الزّنا، وحبّ الفجور، صاحبه يؤذي المؤمن باتّباع نسائه، أو قل هو قلب الزّاني[3].

10 – الموضع العاشر: قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[4]. إنّ القوم في هذه الآية الكريمة، قلوبهم مرضى فيها شكّ في دين الله وريبة واضطراب، وضعف في الإيمان بالرّسول ﷺ، ونفاق[5]. وقال بعض المفسّرين: هم المنافقون[6].

11 – الموضع الحادي عشر: قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾[7]. إنّ الدّلالة الّتي تحملها كلمة مرض في السياق هي الشّكّ

---

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج143/21.
2 ـ الأحزاب60.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج12/ج53/22-54، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج517/5، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج245/14، والكشاف. الزّمخشريّ. وتفسير الفخر الرازي. الرّازيّ. مج9/ج203/25.
4 ـ محمد/20.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج63/26، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج243/16، وتفسير الفخر الرازي. الرّازيّ. مج10/ج58/28، وروح المعاني. الألوسي. مج13/ج302/26، وأضواء البيان. محمد الأمين الشنقيطي. ج256/7.
6 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازيّ. مج10/ج58/28.
7 ـ محمد/29.

والنّفاق، والنّفاق آكد لوروده في أغلب التّفاسير[1]، ويكون القلب في الآية الكريمة قلبا منافقا.

12 – الموضع الثّاني عشر: قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[2].

إنّ مرضى القلوب في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ ﴾ هم طائفة لم تكن في مكة وإنّما ستنجم في المستقبل القريب بعد الهجرة إلى المدينة المنورة؛ هي طائفة المنافقين؛ لأنّ السّورة كلّها مكّية، والنّفاق إنّما حدث في المدينة، وذلك لأنّه كان في معلوم الله أنّ النّفاق سيحدث فأخبر عمّا سيكون، وقد وقع الخبر[3]. وبالتّالي فإنّ القلب المريض في هذه الآية هو القلب المنافق[4].

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج70/26، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج251/16، وتفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج10/ج64/28، وروح المعاني. الألوسيّ. مج13/ج314/26.

2 - المدثر/31.

3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج14/ج174/29، وتفسيرالقرآن العظيم. ابن كثير. ج160/7، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج82/19، وتفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج11/ج185/30، وروح المعاني. الألوسي. مج15/ج182/29.

4 - وقد ذكر آخرون غير ذلك. فقال الطاهر بن عاشور: "المرض سوء نية في القرآن والرّسول (ص)، وهؤلاء هم الّذين لم يزالوا في تردّد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشّرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالّذين في قلوبهم مرض المنافقون، لأنّ المنافقين ما ظهروا إلاّ في المدينة بعد الهجرة والآية مكيّة". تفسير التّحرير والتّنوير. مج12/ج317/29.

ثانيّا: القلب المختوم عليه[1]:

خَتَمَهُ يَخْتِمُهُ خَتْمًا وخِتَامًا، أي؛ طَبَعَهُ، فهو مختُومٌ ومُخَتَّمٌ، والخَاتِمُ؛ الفاعلُ. الخَتْمُ على القلب: ألاّ يفهمَ شيئًا و يخرُجَ منه شيءٌ كأنّه طبع. وقال أبو إسحق: معنى خَتَمَ كطَبَعَ في اللّغة واحد، وهو التّغطية على الشّيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيءٌ[2].

وفي معجم مفردات ألفاظ القرآن: "الخَتْمُ والطَّبْعُ يقالُ على وجهين: مصدرُ خَتَمْتُ وطَبَعْتُ، وهو تأثيرُ الشّيءِ كنقشِ الخاتم والطّابع. والثّاني الأثر الحاصل عن النّقش، ويُتَجَوَّزُ بذلك تارةً في الاستيثاق من الشّيء والمنع منه اعتبارا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب"[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾[4]. وهذا المعنى الأخير هو المقصود في هذا المقام. وقد وردت في القرآن الكريم أربعة مواضع فيها إشارة إلى القلب المختوم عليه، وهي كالآتي:

1 – الموضع الأوّل: يتعلّق بقلب الرّسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ

---

1 ـ يقول الطّبري: "أصل الختم: الطبع، والخاتم: هو الطّابع، يقال منه: ختمت الكتاب، إذا طبعته. فإن قال لنا قائل: وكيف يختم على القلوب، وإنّما الختم طبع على الأوعية والظّروف والغلف؟ قيل: فإنّ قلوب العباد أوعية لما أُودعت من العلوم وظروف لما جُعل فيها من المعارف بالأمور، فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع الّتي بها تدرك المسموعات، ومن قبلها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المغيبات، نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج1/ج1/151. "و(أخبر رسول الله ﷺ أنّ الذّنوب إذا تتابعت على القلوب أغلفتها، وإذا أغلفتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله عزّ وجلّ والطّبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص. فذلك هو الطّبع والختم الّذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ ﴾".
جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج1/ج1/151-152، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/82، وتفسير البغويّ. أبو محمّد الحسين بن مسعود البغويّ (ت516هـ). ط1. 1423هـ/2002م. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. لبنان. 16.

2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج5/19. مادة (ختم)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج1/151.

3 ـ الرّاغب الأصفهاني. 160. مادة (ختم). وقال الفخر الرّازي: "الألفاظ الواردة في القرآن القريبة من معنى الختم هي: الطّبع، والكنان، والرّين على القلب، والوقر في الآذان، والغشاوة في البصر ثمّ الآيات الواردة في ذلك مختلفة". تفسير الفخر الرازي. مج1/ج1/53.

4 ـ البقرة/7.

إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[1]. فلقد ختم الله تعالى عليه بالصّبر على أذى قومه الّذين آذوه حين اتّهموه بالافتراء على الله سبحانه، وطبع عليه باليقين[2]. وهذا نوع من القلوب البيضاء، ولقد أثبتُهُ في هذا المقام للإشارة إلى المواضع الأربعة الّتي ورد فيها ذكر القلوب المختوم عليها في القرآن الكريم.

2 – الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3]؛ إنّ الله تعالى يؤكّد لرسوله محمّد ﷺ أنّ من كان مطواعا لهوى النّفس يتبع ما

---

1 ـ الشورى/24. نزلت الآية في كفّار قريش الّذين قالوا: إنّ محمّدا اختلق القرآن كذبًا على الله. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج32/25، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج25/16.

يوجد في أوّل الآية إضراب عن الكلام. يقول عنه أبو حيان الأندلسي: "أضرب عن الكلام المتقدّم من ير إبطال. واستفهم استفهام إنكار وتوبيخ على هذه المقالة. أي: مثله لا ينسب إليه الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصّدق والأمانة". تفسير البحر المحيط. مج494/7. ويقول الطاهر بن عاشور: "إضراب انتقالي عطفا على قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ الشوري/21. وهو الكلام المضرب عنه والمنتقل منه، والمراد الانتقال إلى توبيخ آخر، فالهمزة المقدّرة بعد ﴿ أَمْ ۚ ﴾ للاستفهام التّوبيخي، فإنّهم قالوا ذلك فاستحقّوا التوبيخ عليه، والمعنى: أو قالوا افترى ويقولونه. وجيء بفعل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بصيغة المضارع ليتوجّه التّوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشّنيع مع ظهور دلائل بطلانه. فإذا كان قولهم هذا شنعا من القول فاستمرارهم عليه أشنع". تفسير التحرير والتنوير. مج85/25/ج10.

2 ـ ينظر الفصل الأوّل. الصّفحة 71.

3 ـ الجاثية/23. "هذه الآية أصل في التّحذير من أن يكون الهوى الباعث للمؤمنين على أعمالهم ويتركوا اتّباع الحقّ، فإذا كان الحقّ محبوبا لأحد فذلك من التّخلّق بمحبّة الحقّ تبعا للدّليل مثل ما يهوى المؤمن الصّلاة والجماعة وقيام رمضان وتلاوة القرآن... وأمّا اتّباع الأمر المحبوب لإرضاء النّفس دون نظر في صلاحه أو فساده فذلك سبب الضّلال وسوء السّيرة". تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج360-359/25/10.

أمّا عن سبب نزولها أو سياق المقام فقد ورد في كتب التّفاسير روايات متعدّدة أشهرها؛ "قال ابن عبّاس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتّخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئا إلاّ ركبه. وقال عكرمة: أفرأيت من جعل إلهه الّذي يعبده ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئا وهَوِيَهُ اتّخذه إلاهًا. قال سعيد بن جبير: كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر. وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السّهمي أحد المستهزئين؛ لأنّه كان يعبد ما تهواه نفسه". تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج268/6.

وأمّا لفظ (الهوى) فقيل عنه: "الهوى: قال الشّعبيّ: إنّما سُمِّيَ الهوى [هوًى] لأنّه يهوي بصاحبه في النّار. وقال ابن عبّاس: ما ذكر الله هوىً في القرآن إلاّ ذمّه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ الأعراف/176، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ الكهف/28، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ص/26. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النّبيّ ﷺ : (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِه**)". الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج167/16.

تدعوه إليه فكأنّه يعبده كما يعبد الرّجل إلهه[1]، أومن اتّخذ إلهه هواه، فيعبده من دون الله الحقّ الّذي له الألوهة المطلقة، فإنّ الله تعالى يخذله على محجّة الطّريق، وسبيل الرّشاد في سابق علمه على علم منه بأنّه لا يهتدي. ويختم على سمعه فلا يسمع بما ينفعه، ولا يتأثر بمواعظ الله وآيات كتابه، ولا يعتبر بها ولا يتدبّرها، ولا يتفكّر فيها. كما يختم الله أيضا على قلبه، فلا يعي شيئا يهتدي به، فلا يعقل به شيئا، ولا يعي به حقّا. وجعل على بصره غشاوة مانعة عن الاستبصار والاعتبار، والكلام على التّمثيل، غشاوة أن يبصر به حججه وبراهينه فيستضيء بها، ويستدلّ بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره[2].

يقول الفخر الرّازي: "وكلّ ذلك قد مرّ تفسيره في سورة البقرة[3] بالاستقصاء، والتّفاوت بين الآيتين أنّه في هذه الآية قدّم السّمع على القلب، وفي سورة البقرة قدّم القلب على السّمع، والفرق أنّ الإنسان قد يسمع كلاما فيقع في قلبه منه أثر، مثل أنّ جماعة من الكفّار كانوا يلقون على النّاس أنّ النّبيّ ﷺ شاعر وكاهن وأنّه يطلب الملك والرّئاسة، فالسّامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنهن وأمّا كفّار مكّة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشّديد فكانوا يستمعون إليه، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئا نافعا"[4]؛ أمّا في الموضع الأوّل فينتقل التّأثير من البدن إلى النّفس، وأمّا في الثّاني فينتقل من النّفس إلى البدن، ولّما اختلف القسمان نبّه الله تعالى عليهما[5].

إنّ الختم على قلوب الكفّار وأسماعهم بأنّها لا تعي الذّكر ولا تقبل الحقّ، ولا تُصغي إليه، وهي الشّهادة بأنهم لا يؤمنون. ولقد خصّ القرآن الكريم القلب والسّمع بالختم، لأنّ الأدلّة السّمعيّة تستفاد من جهة السّمع، والأدلّة العقليّة تستفاد من جهة القلب[6].

---

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج3/512. وينظر تفسير الرازي. الرازي. مج9/ج7/243.وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج8/18.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج25/174. وتفسير البغوي. البغوي. 1181، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/268، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج16/169، و روح المعاني. الألوسي. مج13/ج25/204.

3 ـ يقول الله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾. البقرة/7.

4 ـ تفسير الفخر الرازي. مج9/ج7/243.

5 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها.

6 ـ ينظر المصدر نفسه. مج1/ج2/52-53.

3 – الموضع الثّالث: قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴾[1]؛ إنّ الله تعالى يدعو رسوله ﷺ لخطاب هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، المكذّبين بنبيّه عليه السّلام على سبيل التّبكيت والإلزام: أنتم أيّها المشركون بالله تعالى غيره إن أصمّكم الله فذهب بأسماعكم وأعماكم فذهب بأبصاركم[2]، ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ طبع على قلوبكم فلم تعقلوا الهدى، أو أماتها، أو أزال عقولكم حتّى تصيروا كالمجانين[3]. أو طبع عليها حتّى لا تفقهوا قولا ولا تبصروا حجّة ولا تفهموا مفهوما، فأيّ إله غير الله يردّ عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام فتشركوه في عبادة ربّكم[4]. ويجوز "أن يكون الختم عطفا تفسيريّا للأخذ فإنّ البصر والسّمع طريقان للقلب منهما يردّ ما يردّ من المدركات فأخذهما سدّ لبابه بالكلّية، وهو السّرّ في تقديم أخذهما على الختم عليها"[5]. فلقد غطّى الله على القلوب بما لا يبقى لهم معه عقل وفهم أصلا.

4 – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[6]؛ لقد أخبر الله تعالى بأنّه قد ختم على قلوب

---

1 - الأنعام/46.

2 - ينظر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج5/ج7/232، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج40/2.

3 - ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج4/ج12/196.

4 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج5/ج7/232، والكشاف. الزمخشري. مج18/2، و تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج104/3.

5 - روح المعاني. الألوسي. مج4/ج198/7. ويقول الفخر الرازي: "اعلم أنّ المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدلّ على وجود الصّانع الحكيم المختار، وتقريره أنّ أشرف أعضاء الإنسان هو السّمع والبصر والقلب؛ فالأذن محلّ القوّة السّامعة والعين محلّ القوّة الباصرة، والقلب محلّ الحياة والعقل والعلم. فلو زالت هذه الصّفات عن هذه الأعضاء اختلّ أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدّنيا والدّين. ومن المعلوم بالضّرورة أنّ القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات والمخافات ليس إلاّ الله. وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النّعم العاليّة والخيرات الرّفيعة هو الله سبحانه وتعالى فوجب أن يقال المستحقّ للتّعظيم والثّناء والعبوديّة ليس إلاّ الله تعالى وذلك يدلّ على أنّ عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة. (ختم على قلوبكم) طبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى. أزال عقولهم حتّى يصيروا كالمجانين. أي يميت قلوبهم". تفسير الفخر الرازي. مج4/ج196/12.

6 - البقرة/7. نزلت هذه الآية والّتي قبلها في أبي جهل وخمسة من أهل بيته كما ذكر الضّحّاك، وأمّا الكلبي فذكر نزولها في اليهود. ينظر كتاب أسباب النزول. أبو الحسن النيسابوري. 15.

هؤلاء وطبع عليها بذنوبهم فلا يعقلون له موعظة وعظهم بها فيما حدّد في كتابه الّذي أنزله إلى نبيّه محمّد ﷺ[1]، فإذا ثبتت الذّنوب على القلب فحفّت به من كلّ نواحيه حتّى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه هو الطّبع والطّبع هو الختم[2]. وختم على سمعهم فلا يسمعون من نبيّ الله تحذيرا ولا تذكيرا ولا حجّة أقامها عليهم بنبوّته، فيتذكّروا ويحذروا عقاب الله عزّ وجلّ في تكذيبهم إياه، مع علمهم بصدقه وصحّة أمره[3]، وفي ذلك إخبار من الله تعالى عن تكبّرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعُوا إليه من الحقّ[4]. وأعلمهم أن على أبصارهم غشاوة عن أن يبصروا سبيل الهدى، فيعلموا قبح ما هم عليه من الضّلالة والهدى[5].

يقول البيضاوي: "وإنّما المراد بهما [الختم والغشاوة] أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرّنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطّاعات بسبب غيّهم، وانهماكهم في التّقليد، وإعراضهم عن النّظر الصّحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحقّ، وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنّها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنّها غُطِّيَ عليها"[6]. فيكون الطّبع على القلب والسّمع، وتكون الغشاوة على البصر[7]؛ لأنّ الغشاوة تناسب الأبصار فتغطّيها وتمنعها الرّؤية، ولأنّ الختم يناسب الأسماع والقلوب إذ كلاهما يشبّه بالوعاء ويتخيّل فيه

ويذكر جلال الدّين السّيوطيّ أنّها نزلت في يهود المدينة: "وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحق عن محمّد بن أبي محمّد بن عكرمة، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآيتين أنّهما نزلتا في يهود المدينة". وذر أنّهما نزلتا في الكافرين: "أخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد: أربع آيات من أوّل البقرة نزلت في المؤمنين، وآيتان في الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين". لباب النّقول في أسباب النّزول. 11.

ويقول البيضاوي: "لمّا ذكر [الله تعالى]خاصّة عباده، وخلاصة أوليائه بصفاتهم الّتي أهّلتهم للهدى، عقّبهم بأضدادهم العتاة المردة، الّذين لا ينفع فيهم الهدى وتغني عنهم الآيات والنّذر...كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود". تفسير البيضاوي. ج1/135- 137.

1 ـ ينظر ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج1/155، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/ 80 -81، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج1/186.

2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/80-81

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج1/155، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/80-81، و الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج1/186.

4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/80-81.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج1/155، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/80-81، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج1/186.

6 ـ تفسير البيضاوي. ج1/144-145.

7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/82، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين الشّنقيطيّ. ج1/64، وتفسير التحرير التنوير. الطاهر بن عاشور. مج1/ج1/255.

معنى الغلق والسّدّ[1]، ومعنى الاستيثاق من الشّيء حتّى لا يخرج منه داخل فيه و لا يدخل فيه خارج عنه[2].

ثالثا: القلب المطبوع عليه:

"الطّبع": الطاء والباء والعين أصل واحد، وهو مثلٌ على نهايةٍ ينتهي إليها الشّيءُ حتّى يختم عندها. يقال: طبعتُ على الشّيء طابعا، ثمّ يقال على هذا: طبعُ الإنسان وسجيّتُه[3]. والطَّبْعُ أن تُصَوِّرَ الشّيءَ بصورة ما كطبعِ السِّكَّةِ وطبع الدّراهم وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النَّقشِ. والطّابع والخاتِم ما يُطْبَعُ به ويُخْتَمُ. والطّابع فاعل ذلك. والطّبع والطّبيعة الّتي هي السّجيّة فإنّ ذلك هو نقش النّفس بصورة ما إمّا من حيث الخلقة وإمّا من حيث العادة وهي فيما يُنقضُ به من حيث الخلقة أغلب[4]. والطَّبْع: الختمُ وهو التّأثير في الطِّين ونحوه. وطَبَعَ الشّيءَ وعليه يَطْبَعُ طَبْعًا: خَتَمَ. وقال أبو إسحق النّحويّ: معنى طَبَعَ في اللّغة وخَتَمَ واحد[5].

والطّبع: هو التّغطيّة على الشّيء والاستيثاق من أن يدخله شيءٌ، ومنه طَبَعَ الله على قلبه: خَتَمَ، وطَبَعَ الله على قلوب الكافرين؛ أي خَتَمَ فلا يَعِي وغَطَّى فلا يُوَفَّقُ لخير[6]، كأنّه ختم عليه حتّى لا يصل إليه هُدى ولا نور[7]، قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[9]، معناه غطّى على قلوبهم، وكذلك طبع الله على قلوبهم. وقال مجاهد: الرَّيْنُ أيسر من الطَّبْع، والطَّبْعُ أيسر من الإقفال، والإقفال أشدّ من ذلك كلّه[10].

---

1 ـ ينظر تفسير التحرير التنوير. الطاهر بن عاشور. مج1/ج1/255.
2 ـ ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين الشّنقيطيّ. ج1/64.
3 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 630-631. مادة (طبع).
4 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 337. مادة (طبع).
5 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج9/87. مادة (طبع).
6 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها. مادة (طبع).
7 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 630-631. مادة (طبع).
8 ـ محمد/24.
9 ـ المطففين/14.
10 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/80-81 ، ولسان العرب. ابن منظور. مج9/87. مادة (طبع).

وقد جاء الطّبع بمعنى الدّنس؛ ومنه طبع السّيف لصدئه ودنسه[1]. ويقول الزّمخشري: "ومعنى طبع الله: منع الألطاف الّتي تنشرح لها الصّدور حتّى تقبل الحقّ، وإنّما يمنعها من علم أنّها لا تجدي عليه ولا تغني عنه"[2]، كأنّه وُضِعَ حائل ما بين القلوب المطبوع عليها وما بين الحقّ ونور الله تعالى.

يقول الفخر الرازي في تبيّن معنى الطّبع: "وقد عرفت أنّ الطّبع والختم عبارة عندنا عن حصول الدّاعية القويّة للكفر المانعة من حصول الإيمان، وذلك لأنّ الفعل بدون الدّاعي لما كان محالا، فعند حصول الدّاعية الرّاسخة القوية للكفر، صار القلب كالمطبوع على الكفر، ثمّ حصول تلك الدّاعية إن كان من العبد لزم التّسلسل، وإن كان من الله فالمصقود حاصل. وقال الحسن: الطّبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحدّ الّذي كأنّه مات عن الإيمان، وعند المعتزلة عبارة عن علامة تحصل في القلب، والاستقصاء فيه مذكور في سورة البقرة في قوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾[3]"[4]. فالطّبع والختم سيان وهما خلق الكفر في قلوب الكفّار.

ورد القلب المطبوع عليه في أحد عشر موضعا من القرآن الكريم، فقد طبع الله تعالى على قلوب الكافرين، والمعتدين، والّذين لا يعلمون، والّذين لا يؤمنون إلاّ قليلا، والّذين لا يسمعون، والّذين لا يفقهون، والغافلين الخاسرين، والّذين اتّبعوا أهواءهم، والمتكبّرين المتجبّرين.

1 – الموضع الأوّل: قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ

1 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج6/ج210/11.
2 ـ الكشاف. الزمخشري. مج228/3.
3 ـ البقرة/7.
4 ـ تفسير الفخر الرازي. مج6/ج133/16.

إِلَّا قَلِيلاً ﴾[1]؛ لقد نقض هذا الفريق من أهل الكتاب العهود الّتي عاهدوا الله عليها، وجحدوا بآياته وأدلّته الّتي احتجّ بها عليهم في صدق أنبيائه ورسله، وقتلوهم بغير الحقّ بعد قيام الحجّة على نبوّتهم. وقالوا: قلوبنا غلف؛ عليها غشاوة وأغطية عمّا تدعونا إليه[2] وتبجّحوا بقولهم: إنّ قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، لأنّها مغلّفة دون كلّ قول[3]، "وهي المقولة الّتي كانوا يجيبون بها على دعوة الرّسول ﷺ إمّا تيئيسا له من إيمانهم واستجابتهم، وإمّا استهزاء بتوجيه الدّعوة إليهم، وتبجّحا بالتّكذيب وعدم الإصغاء، وإمّا هذا وذلك معا"[4]. فلقد كذبوا في قولهم: قلوبنا غلف، ولم تكن كذلك، ولا غطاء عليها؛ ولكنّ الله تعالى جعل عليها طابع الكفر...فلا يؤمنوا به سبحانه، ولم يصدّقوا به ولا برسله وما جاءهم به من عند الله إلاّ إيمانا قليلا[5].

2 – الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[6]؛ أي: أولم يتبيّن للّذين يُستَخلَفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها[7]، فلم يعتبروا بالآيات، ولم يتّعظوا بأحوالهم ولم يلتفتوا إلى الأدلّة[8]، "فساروا سيرهم وعملوا أعمالهم وعتوا، أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، وفعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، وختمنا على

---

1 ـ النساء/155. سبب نزول هذه الآية واللّتين قبلها والّتي بعدها ما ذكره السّيوطي: "أخرج ابن جرير عن محمّد بن كعب القرطبيّ قال: جاء ناس من اليهود على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: إنّ موسى جاءنا بالألواح من عند الله فاتنا بالألواح حتّى نصدقك، فأنزل الله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ فجثا رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا أحد شيئا. فأنزل الله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ الأنعام/91". لباب النّقول في سباب النّزول. جلال الدّين السّيوطي. 97.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج4/ج13/6.
3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج801/6.
4 ـ المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج4/ج13/6.
6 ـ الأعراف/100. "﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ أي؛ يبيّن ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ ﴾ يريد كفّار مكّة ومن حولهم ﴿ أَصَبْنَٰهُم ﴾ أي أخذناهم ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بكفرهم وتكذيبهم". الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج254/7.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج201/3.
8 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج5/ج20/9.

قلوبهم فهم لا يسمعون موعظة ولا تذكير"[1]، ومن شأن الله تعالى وسنّته في خلقه أن يطبع على قلب من لم يرد الإيمان حتّى يتّعظ بأحوال من قبله[2].

3 – الموضع الثّالث: قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3]. فالشّاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾؛ أي مثلما طبع الله تعالى على قلوب هؤلاء السّابقين المذكورين من تلك القرى، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمّد ﷺ المكذّبين بآياته[4].

4 – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾[5]. أي: طَبَعَ الله على قلوب هؤلاء المتخلّفين المتأخّرين عن الجهاد، فلأجل الطّبع ﴿ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ ولا يتدبّرون ولا يتفهّمون ما في الجهاد من الفوز

---

1 - تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج201/3.
2 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج5/ج20/9.
3 - الأعراف/101. "﴿ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ أي هذه القرى الّتي أهلكناها،؛ وهي قرى نوح وعاد ولوط وشعيب". الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج255/7.
4 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج255/7.
5 - التوبة/87. "والنّساء خوالف: اللاّتي يخلفن في البيت فلا يبرحن". مشكل إعراب القرآن ومعانيه. الفراء. مج277/1. "والمعنى: رضوا بأن يكونوا في تخلّفهم عن الجهاد كالنّساء". تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج6/ج133/16. وقال الآلوسي: "الخوالف: النّساء كما روي عن ابن عبّاس وقتادة، وهو جمع خالفة وأطلق على المرأة لتخلفها عن أعمال الرّجال كالجهاد وغيرهم، والمراد ذمّهم وإلحاقهم بالنّساء في التّخلّف عن الجهاد، ويطلق الخالفة على من لا خير فيه". روح المعاني. الألوسي. مج5/ج472/10.
الآية التي قبلها: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾. التوبة/86. نزلت هاتان الآيتان في المتخلّفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السّعة والطّول. ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج438/3-439. وقال القرطبي: "انتدب المؤمنون إلى الإجابة وتعلّل المنافقون. فالأمر للمؤمنين باستدامة الإيمان وللمنافقين بابتداء الإيمان". الجامع لأحكام القرآن. ج223/8.

والسّعادة[1]، ولا أسرار حكمة الله في هذا الأمر[2]، وما في التّخلّف من الشّقاء والضّلال[3]، ولا ما ينفعهم وما يضرّهم في الدّارين[4].

5 – الموضع الخامس: قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5]. يعني أنّ السّبب في نفرتهم عن الجهاد، هو أنّ الله طبع على قلوبهم[6]، وختم عليها بما كسبوا من الذّنوب[7]، فلأجل الطّبع ﴿ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما في الجهاد من منافع الدّين والدّنيا[8]، ولا يعملون سوء عاقبتهم بتخلّفهم عن الرّسول ﷺ وتركهم الجهاد معه وما عليهم من قبيح الثّناء في الدّنيا وعظيم البلاء في الآخرة[9].

6 – الموضع السّادس: قال سبحانه تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[10]؛ لقد طبع الله تعالى على قلوب الّذين لم يكونوا يَقْبَلُون النّصيحة من أنبيائهم، ولم يكونوا يستجيبون لدعائهم إياهم إلى ربّهم بما اقترفوا من الذّنوب واكتسبوا من الآثام، وكذلك طبع الله سبحانه على قلوب المعتدين على ربّهم، والّذين تجاوزوا ما أمرهم به من التّوحيد، وخالفوا ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصية ربّهم[11].

---

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج5/84.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج16/134.
3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج5/84.
4 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج5/ج10/472.
5 ـ التوبة/93.
6 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج16/138.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج11/3.
8 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج16/138.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج11/3.
10 ـ يونس/74. لقد بعث الله تعالى نوح عليه السّلام إلى قومه فكذّبوه [يونس/71-73]، ثمّ بعث الله سبحانه من بعد نوح عليه السّلام رسلا إلى أقوامهم مثل هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السّلام، فجاءوهم بالمعجزات، فكذّبوهم مثلما كذّب قوم نوح من قبل. ينظر الجامع لحكام القرآن. القرطبي. ج8/365، وينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج6/ج17/120.
11 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/11/168-169.

لقد خصّ الله تعالى في هذه الآية المعتدين بالطّبع على قلوبهم وهم المتجاوزون عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد، فيمنعها عزّ وجلّ لذلك عن قبول الحقّ وسلوك سبيل الرّشاد. وفسّره المعتزلة حيث وقع منسوبا إليه تعالى بالخذلان تطبيقا له على مذهبهم[1]، ومن هنا قال الزّمخشري: "والطّبع جارٍ مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم لأنّ الخذلان يتبعه"[2]. لأنّ من استمرّ على العناد وثبت على الجدال واللّجاج، خذله الله تعالى ومنعه التّوفيق واللّطف، فلا يزال كذلك حتّى يتراكم الصّدأ والرّين والطّبع على قلبه[3].

يقول الطّاهر بن عاشور: "فإنّ الطّبع مؤذن بأنّ قلوبهم قد ورد عليها ما لو خلت عند وروده عن الطّبع عليها لكان شأنه أن يصل بهم إلى الإيمان، ولكنّ الطّبع على قلوبهم حال دون تأثير البيّنات في قلوبهم"[4]. ومثل هذا الطّبع العجيب يطبع الله على قلوب المعتدين.

7 – الموضع السّابع: قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[5]؛ فهؤلاء المشركون هم القوم الّذين طبع الله على قلوبهم، فختم عليها بطابعه، فلا يؤمنون ولا يهتدون[6]، ويأبون إدراك الحقّ والتّأمّل فيه[7]، وأصمّ أسماعهم فلا يسمعون داعي الله إلى الهدى، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر ومتّعظ؛ فهم الغافلون السّاهون عمّا أعدّ الله لأمثالهم من أهل الكفر وعمّا يراد بهم[8]، وهم الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الحالة الرّاهنة عن تدبّر

1 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج6/ج210/11.
2 ـ الكشاف. الزمخشري. مج246/2.
3 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج6/ج210/11.
4 ـ تفسير التحرير والتنوير. مج5/ج24/11.
5 ـ النحل/108. قال تعالى قبل الآية وبعدها: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ النحل/106- 109.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج8/ج14/ 214.
7 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج422/3.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج8/ج14/ 214، وينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج262/5.

العواقب[1]، وهم الخاسرون الهالكون، الّذين غبنوا أنفسهم حظوظها من كرامة الله تعالى[2]، و ضيّعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلّد[3].

يلاحظ أن الطّبع في هذه الآية وقع على الأبصار أيضا مثلما وقع على القلوب، "فإن قيل: يكون الطّبع على الأبصار أيضا؟ فالجواب: أنّ الطّبع على الأبصار المذكور في آية النّحل: هو الغشاوة المذكورة في سورة البقرة، والجاثية، والعلم عند الله تعالى"[4].

8 – الموضع الثّامن: قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5]؛ إن الله يختم على قلوب الّذين لا يعلمون حقيقة ما يأتيهم به الرّسول ﷺ من عند الله من العِبر والعظات، والآيات البيّنات، فهم لا يعلمون، ولا يفقهون عن الله حجّة، ولا يفهمون عنه ما يتلى عليهم من آي كتابه[6]، لا يطلبون العلم ويصرّون على خرافات اعتقدوها، فإنّ الجهل المركّب يمنع إدراك الحقّ ويوجب تكذيب المُحق[7].

إنّ قلوبهم لا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحقّ باطلا، والباطل حقّا[8]. وقد أسند الله تعالى الطّبع إلى ذاته، إذ هو فاعل ذلك ومقدّره[9].

9 – الموضع التّاسع: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ

1 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج422/3.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج8/ج214/14.
3 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج422/3، وينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج262/5.
4 ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين الشّنقيطيّ. ج164.
5 ـ الروم/59. قال تعالى قبل الآية وبعدها: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾. الروم/58- 60.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج11/ج21/ 62-63.
7 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج343/4.
8 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 620.
9 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج/186.

مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[1]. فالشّاهد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾؛ يقول الطّبري في توضيح دلالة الطّبع على هؤلاء الجاحدين المعاندين: "إنّ الله يضلّ أهل الإسراف والغلوّ في ضلالهم بكفرهم بالله، واجترائهم على معاصيه، المرتابين في أخبار رسله، الّذين يخاصمون في حججه الّتي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج"[2]. وكما يطبع الله على قلوب المسرفين الّذين يجادلون في آيات الله بغير حقّ وبغير سلطان أتاهم، كذلك يطبع على قلوب جميع المتكبّرين الجبّارين الّذين أبوا أن يوحّدوا الله وأن يعبدوه ويصدّقوا رسله، واستعظموا عن اتّباع تعاليمه، فيصدر عنهم أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والجدل بغير الحقّ[3].

يمكن الإشارة إلى حالتين لإعراب لفظ "قلب" في الآية محلّ البحث وهما:

---

1 ـ غافر/35. نزلت هذه الآية والآيات التي قبلها والّتي بعدها ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾. غافر/30-46. "هذا إخبار من الله عزّ وجلّ عن هذا الرّجل الصّالح المؤمن من آل فرعون أنّه حذّر قومه بأس الله تعالى في الدّنيا والآخرة". تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج138/6. وقال أحمد مصطفى المراغي: "بعد أن سمع ذلك المؤمن رأي فرعون في موسى وتصميمه على قتله، وإقامته البراهين على صحّة رأيه وأنّه لا سبيل إلى العدول عن ذلك ت أعاد النّصح مرّة أخرى لقومه، لعلّهم يرعوون عن غيّهم ويثوبون إلى رشدهم، فذكّرهم باس الله وسنّته في المكذّبين للرّسل، وضرب لهم الأمثال بما حلّ بالأحزاب من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود، ثمّ ذكّرهم بأهوال يوم القيامة، يوم لا عاصم من عذاب الله، ثمّ أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة من بعده، فأحلّ الله بهم من الباس ما صاروا به مثلا للآخرين". تفسير المراغي. مج312/8.

أمّا لفظ (متكبّر) الوارد في الآية فدلالتها في المعاجم: "الكبرياء؛ العظمة والتَّجَبُّرُ ..والتّكبُّرُ والاستكبار: التّعظُّمُ. والتّكبّر صفة لا تكون إلاّ لله خاصّة لأنّ الله سبحانه وتعالى، هو الّذي له القدرة والفضل الّذي ليس لأحد مثله، وذلك الّذي يستحقّ أن يقال له المتكبِّرُ، وليس لأحد أن يتكبّر، لأنّ النّاس في الحقوق سواء، فليس لأحد ما ليس لغيره فالله المتكبّر". لسان العرب. ابن منظور. مج12/13. مادة (كبر).

"الكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاستكبار تتقارب، فالكِبْرُ الحالة الّتي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسِهِ وذلك أن يرى الإنسانُ نفسَه أكبر من غيرِهِ. وأعظم التّكبّر التّكبُّرُ على الله بالامتناع من قبول الحقّ والإذعان له بالعبادةِ". معجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. 471. مادة (كبر).

"المتكبّر: المعاند في تعظيم أمر الله، الجبّار: المسلّط على خلق الله". تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج446/7.

2 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج70/24.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. مج12/ج71/24، وينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج315/8.

– إضافة "قلبِ" إلى "مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ" لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ليكون المعنى أنّ الله طبع على قلوب المتكبّرين كلّها[1]، ومثل ذلك الطّبع على قلوب المتكبّرين المجادلين يطبع الله ويختم بالضّلالة ويحجب عن الهدى[2]، ومن كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفا ولا ينكر منكرا[3].

– تنوين لفظ "قلبٍ"؛ ووصف القلب بالتّكبّر والجبروت لكونه مركزهما ومنبعهما[4]، وفي هذه الحال ينسب التّكبّر والتّجبّر إلى القلب، لأنّه هو الّذي يتكبّر وسائر الأعضاء تبعٌ له[5]. ثمّ قال الطّبري: "وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصّواب بإضافة القلب إلى المتكبّر، لأنّ التّكبّر فعل الفاعل بقلبه"[6]، فيرجّح القراءة الأولى على الثّانيّة.

10 – الموضع العاشر: قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[7]؛ يوجد من بين هؤلاء الكفّار منافق، يستمع ما يقوله الرسّول ﷺ فلا يعيه ولا يفهمه، تهاونا منه فلا يتدبّر ما يتلوه عليه من كتاب ربّه، وتغافلا عمّا يقوله، ويدعو إليه من الإيمان، فهؤلاء الّذين هذه صفتهم وهذه حالهم، هم القوم الّذين ختم الله على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحقّ الّذي بعث الله به رسوله ﷺ ورفضوا أمر الله، واتّبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم وأهواؤهم[8].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج71/24.
2 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج445/7.
3 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج139/6.
4 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج427/3، ويتظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج445/7، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهاني. 472. مادة (كبر).
5 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج315/8.
6 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج71/24.
7 ـ محمد/16. سبب نزول هذه الآية ذكره السّيوطي فقال: "أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيسمع المؤمنون منهم ما يقول ويَعُونَهُ ويسمعه المنافقون فلا يَعُونه. فإذا خرجوا سألوا المؤمنين: ماذا قال آنفا؟ فنزلت: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾". لباب النقول في أسباب النزول. 261.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج59/26-60.

11 – الموضع الحادي عشر: قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾[1]؛ لقد قدّر الله تعالى النّفاق على هؤلاء القوم بسبب سلوكهم المنافي للحقّ[2]؛ فقد اتّخذوا أيمانهم جُنَّةً من أجل أنّهم آمنوا بالله ورسوله، ثمّ كفروا بشكّهم في ذلك وتكذيبهم به[3]، فرجعوا عن الإيمان إلى الكفران، واستبدلوا الضّلالة بالهدى، فطبع الله على قلوبهم[4]، وجعل عليها ختما بالكفر عن الإيمان..فهم لا يفقهون صوابا من خطإ، وحقّا من باطل[5]، لا يتدبّرون، ولا يستدلّون بالدّلائل الظّاهرة[6]، ولا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعِي ولا تهتدِي[7]. وقد قيل في شأن هؤلاء المنافقين: "إنّهم كانوا يظنّون أنّهم على الحقّ، فأخبر تعالى أنّهم لا يفقهون أنّه طُبِعَ على قلوبهم"[8]. وهذه قمّة الضّلال الّتي بلغها هؤلاء وهم لا يشعرون أنّهم قد طبع على قلوبهم وختم عليها، فلا يصل إليها الهدى قطّ.

رابعا: القلب القاسي:

لقد وردت الألفاظ (قَسَتْ، وقَسْوَة، وقَاسيَّة) في مجموعة من الآيات مسندةً إلى لفظ "قلب". وإذا تصفّحنا المعاجم اللّغويّة العربيّة نجدها تعني الصّلابة والشّدّة واليُبْس. يقول ابن

---

1 ـ المنافقون/3. قال تعالى في الآيتين قبلها: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ . ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ المنافقون/1- 3. "يقول تعالى مخبرا عن المنافقين أنّهم يتفوّهون بالإسلام إذا جاءوا النّبيّ ﷺ، فأمّا في باطن الأمر فليسوا كذلك بل على الضّدّ من ذلك". تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج15/7.

2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج16/7.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج14/ج120/28.

4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج16/7.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج14/ج120/28.

6 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج13/30.

7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج16/7.

8 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج13/30. وزاد الرّازي: "الطّبع على القلوب لا يكون إلاّ من الله تعالى، ولمّا طبع الله على قلوبهم لا يمكنهم أن يتدبّروا ويستدلّوا بالدّلائل، ولو كان كذلك لكان هذا حجّة لهم على الله تعالى، فيقولون: إعراضنا عن الحقّ لغفلتنا، وغفلتنا بسبب أنّه تعالى طبع على قلوبنا، فنقول: هذا الطّبع من الله تعالى لسوء أفعالهم، وقصدهم الإعراض عن الحقّ، فكأنّه تعالى تركهم في أنفسهم الجاهلة وأهوائهم الباطلة". تفسير الفخر الرّازي. مج11/ج13/30.

منظور: "قَسَا: القَسَاءُ: مصدر قَسَا القلبُ يَقْسُو قَسَاءً. والقَسْوَةُ: الصّلابَةُ في كلّ شيءٍ. وحجر قَاسٍ: صَلْبٌ. وأرضٌ قاسيّةٌ: لا تُنبتُ شيئا. وقال أبو إسحق في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾[1]؛ تأويل قَسَت في اللّغة: غَلُظَتْ ويَبِست وعَسَت، فتأويل القَسْوة في القلب ذهاب اللِّين والرّحمة والخشوع منه. وقَسَا قلبُه قَسْوَةً وقَسَاوةً وقَسَاءً، وهو غِلَظُ القلب وشِدّتُهُ، وأَقْسَاهُ الذّنبُ، ويقال: الذّنب مقساةٌ للقلب. ابن سيده: قَسَا القلبُ يَقْسُو قَسْوَةً اشتدّ وعسا، فهو قاسٍ"[2]. فمجموع المعاني الّتي تدلّ عليها المادّة اللّغويّة هي الصّلابة والخشونة والغلظة واليبوسة وذهاب اللّين والرّحمة.

والقاسيّة بالألف، على تقدير فاعلة، من قسوة القلب، نحو قوله: قسا قلبه، فهو يقسُو وهو قاسٍ، وذلك إذا غلظ القلبُ واشتدّ وصار يابسا صلباً[3]، والقَسْوَةُ غِلَظُ القَلْب، وأصله حجرٌ قاسٍ[4]. وفي المجاز: "قست قلوبكم؛ أي جفت، والقاسي: الجافي اليابس"[5]. والقاسي والقاسح أخوان في الدّلالة على اليُبْس والصّلابة[6].

ولقد ورد ذكر "القلب القاسي" في القرآن الكريم في ستّة مواضع، هي كالآتي:

1 – الموضع الأوّل: يقول تعالى توبيخا لبني إسرائيل وتقريعا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى[7]: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[8]؛ لقد قتل بنو

---

1 ـ البقرة/74.
2 ـ لسان العرب. مج106/12. مادة (قسا).
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج4/ج192/6.
4 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 451. مادة (قسو).
5 ـ مجاز القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ). ج45/1. عارضه بأصوله وعلّق عليه؛ د. محمّد فؤاد سوزكين. النّاضر مكتبة الخانجي القاهرة. بدون تاريخ. رقم الإيداع 1988.
6 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج600/1
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج197/1.
8 ـ البقرة/74. نزلت هذه الآية في كفّار بني إسرائيل، وهم فيما ذُكِرَ بنو أخي المقتول في قصّة البقرة وقد كذّبوا بالحقّ، من بعد أن أحيا الله تعالى المقتول الذي أخبرهم بقاتله وما السّبب الذي من أجله قتله، فقال لهم الله تعالى: ثمّ قست قلوبكم: أي جفّت وغلظت وعست. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج476/1.

إسرائيل القتيل، ثمّ احتاروا فيمن قتله، فأحياه الله تعالى، فأخبرهم بالقاتل، ثمّ مات ثانيّةً، و لم يؤمنوا، ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ ؛ قست قلوب هؤلاء بعد إذ رأوا الآية بأعينهم، وصلبت، ورفضوا الإذعان لله والخضوع لواجب حقّه تعالى عليهم، فهي قاسيّة ﴿ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً ﴾ فصارت كالحجارة صلابة ويبسا وغلظا وشدّة، أو أشدّ صلابة ويُبْسًا[1]، فقلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثلين؛ إمّا أن تكون مثلا للحجارة الّتي لا علاج للينها في القسوة ، وإمّا أن تكون أشدّ منها قسوة[2]، خاليّة من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى[3].

لقد اشتدّت قسوة الحجارة واشتدّت قسوة قلوبهم أكثر، فصارت مع طول الأمد بعيدة عن الموعظة. وصفة القلوب بالقسوة والغلظ مثلٌ لنبوّها وإعراضها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثّر فيها. ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ ﴾ فيه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدّة القسوة وتقرير لقوله تعالى أو (أشدّ قسوة)[4].

يقول الفخر الرّازي: "فالجسم من حيث إنّه جسم يقبل الأثر عن الغير إلاّ أنّ صفة الحجريّة لّما عرضت للجسم صار جسم الحجر غير قابل، وكذلك القلب من شأنه أن يتأثّر عن مطالعة الدّلائل والآيات والعبر وتأثّره عبارة عن ترك التّمرّد والعتو والاستكبار وإظهار الطّاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى، فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصّفة صار في عدم التّأثّر شبيها بالحجر فيقال: قسا القلب وغلظ، ولذلك كان الله تعالى وَصَفَ المؤمنين بالرّقّة فقال: ﴿ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ

و"قال أبو العالية وقتادة وغيرهما: المراد قلوب جميع بني إسرائيل. وقال ابن عبّاس: المراد قلوب ورثة القتيل، لأنّهم حين حييَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب؛ بعدما رأوا هذه الآية العظمى". الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج1/462 و463.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج1/468.

2 ـ ينظر المصدر نفسه. مج1/ج1/469، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/199.

3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج1/462.

4 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج1/290.

رَبِّهِمْ ﴾"[1][2]. وفي هذا تقابل ما بين قلوب المؤمنين وقلوب غيرهم من الكفّار والمشركين والمنافقين.

2 – الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3]؛ فبعدما أراهم الله تعالى من العبر والآيات بإهلاك فرعون وقومه في البحر وفلْق البحر لهم وسائر العبر، نقضوا ميثاقهم الّذي واثقوا به الله ونكثوا عهده، فلعنهم بنقضهم ميثاقهم[4]، وخذلهم ومنعهم الألطاف، وأملى لهم ولم يعاجلهم بالعقوبة[5]، وجعل قلوبهم قاسية غليظة صلبة يابسة عن الإيمان به والتّوفيق لطاعته، مترعة الرّأفة والرّحمة[6]، صُلبة لا تعي خيرا ولا تفعله[7]، نائية عن قبول الحقّ منصرفة عن الانقياد للدّلائل[8].

لقد سلبهم الله تعالى التّوفيق واللّطف الّذي تنشرح به صدورهم حتّى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وجعل قلوبهم يابسة غليظة تنبو عن قبول الحقّ ولا تلين. وهذا بَيَانٌ عن حال قلوبهم وما هي عليه من القساوة، وحُكْمٌ بأنّهم لا يؤمنون ولا تنفع فيهم موعظة[9].

---

1 ـ الزمر/23.

2 ـ تفسير الفخر الرازي. مج1/ج124/3.

3 ـ المائدة/13. "لمّا أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الّذي أخذه ليهم على لسان عبده ورسوله محمّد ﷺ، [في الآيات السّابقة: 7-11] وأمرهم بالقيام بالحقّ، والشّهادة بالعدل، وذكّرهم نعمه عليهم الظّاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحقّ والهدى، شرع يبيّن لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنّصارى، فلمّا نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم وطردا عن بابه وجنابه، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحقّ [في الآيات: 12- 14]". تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج524/2.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج4/ج192/6-193.

5 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج600/1. وروح المعاني. الألوسي. مج3/ج368/6.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج4/ج192/6-193.

7 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج115/6.

8 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج4/ج158/11.

9 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج3/ج368/6. لقد اختلف في قراءة قسيّة وقاسيّة؛ "اختلف الّذين قرءوا ذلك كذلك في تأويله، فقال بعضهم: من ذلك: معنى القسوة، لأنّ فعيلة في الذّمّ أبلغ من فاعلة، فاخترنا قراءتها قسيّة على قاسيّة لذلك.

وقال آخرون منهم: بل معنى (قسيّة) غير معنى القسوة؛ وإنّما القسيّة في هذا الموضع القلوب الّتي لم يخلص إيمانها بالله، ولكن خالطها إيمانها كفر كالدّراهم القسيّة، وهي الّتي يخالط فضّتها غشّ من نحاس أو رصاص

قال تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ فيه بيان لقسوة قلوبهم لأنّه لا قسوة أشدّ من الافتراء على الله وتغيير وحيه[1]، "والتّعبير بالمضارع للحكاية واستحضار الصّورة والدّلالة على التّجدّد والاستمرار"[2]، لأنّهم لا يكتفون بالتّحريف مرّة واحدة، بل يتمادون في ذلك كلّما سنحت الفرصة، وكلّما جاءهم نبيّ أو رسول.

3 – الموضع الثّالث: قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3]؛ إنّ كلمة "لولا" حرف تحضيض، وهو الطّلب بحثّ وإزعاج[4]، أي؛ فهلاّ إذا جاء بأسنا وعذابنا هؤلاء الأمم الكاذبة، تضرّعوا وتذلّلوا إلينا خاشعين تائبين ؛ أي حين جاءتهم مقدّمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم[5]، و"لا مانع لهم إلاّ قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم الّتي زيّنها الشّيطان لهم"[6]، من الشّرك والمعاندة والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي مارقت ولا خشعت[7]، وصلبت وغلظت؛ وهي عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية[8]، وصبرت على ملاقاة العذاب، فكانت كالحجارة أو أشدّ قسوة فلم تؤثّر فيها النّذر؛ وفي السّياق استدراك وقع بين الضّدّين؛ أي: فلم يتضرّعوا إليه تعالى برقّة القلب والخضوع، ولكن ظهر منهم نقيضه، حين قست قلوبهم واستمرّت على ما هي عليه من القساوة، وازدادت قساوة[9]، و"أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرّوا على ذلك واستكبروا عن أمر ربّهم، استهانة بعقاب الله، واستخفافا بعذابه وقساوة

وغير ذلك". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج4/ج193/6، ونظر تفسيرالفخر الرازي. الرازي. مج4/ ج11/ 158، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج114/6و115.

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج600/1. وروح المعاني. الألوسي. مج3/ج368/6.

2 ـ روح المعاني. الألوسي. مج3/ج368/6.

3 ـ الأنعام/43.

4 ـ ينظر الشّامل؛ معجم في علوم اللّغة العربيّة ومصطلحاتها. محمّد إسبر وبلال جنيدي. 756.

5 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرري الشّافعي. مج317/8.

6 ـ تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج409/2.

7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج22/3. مارقت: خرجت عن الدّين. ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج60/14. مادّة (مرق).

8 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج425/6.

9 ـ تفسير تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن. الهرَريّ الشّافعيّ. مج317/8.

قلب منهم. وحسّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون من الأعمال الّتي يكرهها الله ويسخطها منهم"[1]، فأغواهم بالمعاصي وحملهم عليها[2].

4 – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[3].

5 – الموضع الخامس: قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[4]؛ أفمن شرح الله تعالى صدره للإسلام، فاتّسع لتلقّي أحكام الله، والعمل بها، منشرحا، قرير العين[5]، وفسح قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وعلى بصيرة ويقين ممّا هو عليه، بتنوير الحقّ في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متّبع، وعمّا نهاه عنه منته فيما يرضيه[6]. "وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، فقيل: يا رسول الله كيف انشراح الصّدر؟ قال: **إِذَا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ**، فقيل: يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا عَلاَمَةُ ذَلِكَ؟ قال: **الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، وَالتَّأَهُّبُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ المَوْتِ**"[7]. "وعن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: (قال الله تعالى: **اطْلُبُوا الحَوَائِجَ مِنَ السُّمَحَاءِ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي، وَلاَ تَطْلُبُوهَا مِنَ القَاسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ سَخَطِي**)"[8]. أفمن كان صدره منشرحا منفسحا كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيّقه عن استماع الحقّ، واتّباع الهدى، والعمل بالصّواب؟[9].

---

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج227/7.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج425/6، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج102/3.
3 ـ الحج/53. سبق الحديث عن الآية في الصفحة بعنوان القلب المريض.
4 ـ الزمر/22. القاسية قلوبهم: قيل المراد أبو لهب وولده. ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/15.
5 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 695.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/ج222/23.
7 ـ الكشاف. الزمخشري. مج394/3.
8 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/15.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج12/ج222/23.

قال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ الّتي جفّت ونأت عن ذكر الله[1]، وازدادت قسوة من سماعه[2] لا تلين لكتابه، و لا تتذكّر آياته، ولا تطمئنّ بذكره، بل هي معرضة عن ربّها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء في ضلال مبين، ولهم الويل الشّديد، والشّرّ الكبير[3].

6 – الموضع السّادس: قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾[4]؛ ألم يأن، من أنى الأمر يأني؛ وحَانَ

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج12/ج223/23.

2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/15.

3 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 695. ويقول سيد قطب في تفسير الآية (21) الّتي سبقت الآية (22) من سورة الزّمر: "وكما ينزّل الماء من السّماء، فينبت لهم به زرعا مختلفا ألوانه ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، كذلك ينزّل من السّماء ذكرا تتلقاه القلوب الحيّة، فتتفتّح وتنشرح وتتحرّك حركة الحياة، وتتلقاه القلوب القاسيّة كما تتلقاه الصّخرة القاسيّة الّتي لا حياة فيها ولا نداوة.

والله يشرح للإسلام قلوبا يعلم منها الخير، وصلها بنوره فتشرق به وتستضيء. والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرى قاسيّة فرق بعيد. (أولئك في ضلال مبين).

وهذه الآية تصوّر حقيقة القلوب الّتي تتلقّى الإسلام فتنشرح له وتندى به. وتصوّر حالها مع الله. حال الانشراح والتّفتّح والنّداوة والبشاشة، والإشراق والاستنارة. كما تصوّر حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها، وعتمتها وظلامها. ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمدّ له من نوره، وليس قطعا كالقاسيّة قلوبهم من ذكر الله". في ظلال القرآن. مج5/ج3048/24.

4 ـ الحديد/16. لقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أو في سياق مقامها روايات كثيرة نذكر الأتي: "أخرج ابن أبي شيبة في (المصنّف) عن عبد العزيز بن أبي رواد أنّ أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ظهر فيهم المزاح والضّحك. فنزلت: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الآية". و"أخرج ابن المبارك (الزّهد) أنبأنا سفيان عن الأعمش قال: لمّا قدم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة فأصابوا من العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد فكأنّهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه. فنزلت: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ ﴾ الآية". لباب النقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطي. 281-282.

أمّا الرّواية الثّالثة فقد ذكرها النّيسابوريّ فقال: "قال الكلبيّ ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنّهم سألوا سلمان الفارسيّ ذات يوم فقالوا: حدّثنا عمّا في التّوراة فإنّ فيها العجائب، فنزلت هذه الآية. وقال غيرهما: نزلت في المؤمنين". كتاب أسباب النّزول. 227. وينظر الكشاف. الزمخشري. مج64/4، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج558/6.

يَحِينُ، إذا جاء إناه: أي وقتُهُ[1]. أي: ألم يحن للّذين صدّقوا الله ورسوله أن تلين قلوبهم لذكر الله وتُطيع، فتخضع به، ولما نزل من الحقّ، والقرآن على رسوله ﷺ [2]، وتنقاد لأوامره وزواجره. "وهذا فيه الحثّ على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكّر المؤمنون المواعظ الإلهيّة والأحكام الشّرعيّة كلّ وقت ويحاسبوا أنفسهم على ذلك"[3]. ولا يكونوا كأهل الكتاب الّذين طالت المدّة بينهم وبين أنبيائهم فمالوا إلى الدّنيا عن مواعظ الله فقست قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ صلبت فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة[4] بحيث لا تنفعل للخير والطّاعة[5] واشتدّت على السّكون إلى معاصي الله لّما طالت آمالهم وغلبهم الجفاء[6]. "فالقلوب تحتاج في كلّ وقت إلى أن تذكّر بما أنزل الله وتنطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك فإنّه سبب لقسوة القلب وجمود العين"[7] والصّدّ عن ذكر الله تعالى.

خامسا: القلب المكنون:

ورد في معجم مفردات ألفاظ القرآن: "الكِنُّ ما يُحفَظُ فيه الشّيء، يقال: كَنَنْتُ الشّيْءَ جعلتُه في كِنٍّ وخُصَّ كَنَنْتُ بما يُستَرُ بِبَيْتٍ أو ثوب وغير ذلك من الأجسام. وجمع الكنِّ أكنانٌ، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾[8]. والكِنَانُ الغطاء الّذي

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج64/4، وينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج10/ج217/29، ولسان العرب ابن منظور. مج183/1. مادة(أني).
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج259/27.
3 ـ تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 802. "ويجوز أن يكون نهيا لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبّخوا، وذلك أنّ بني إسرائيل كان الحقّ يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التّوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم، فلمّا طال عليهم الزّمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التّحريف وغيره". الكشاف. الزمخشري. مج64/4، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/558-559، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج433/9، وتفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج11/ج392/27.
4 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج14/ج242/27.
5 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج222/8.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج261/27، وتفسير الفخر الرازي. الرازي. مج10/ج217/29.
7 ـ تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 802.
8 ـ النحل/81.

يُكَنُّ فيه الشّيءُ والجمع أكنّة نحو غطاءٍ وأغطيةٍ، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾[1]. قيل: معناه في غطاء عن تفهُّم ما تُوردهُ علينا"[2]. والقلب المكنون؛ الموضوع في غطاء يحول ما بينه وما بين الحقّ، فلا يتأثّر بذكر الله تعالى ولا يتّعظ بعبرة.

وقد ورد ذكر القلب المكنون في أربعة مواضع من القرآن الكريم، هي كالآتي:

1 – الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[3].

2 – الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾[4].

---

1 ـ فصّلت/5.

2 ـ الرّاغب الأصفهانيّ. 493. مادة: (كنّ)، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج122/13. مادة (كنن).

3 ـ الأنعام/25. "الوَقْرُ: ثِقْلٌ في الأذن، بالفتح، وقيل: هو أن يذهب السّمع كلّه، والثِّقَلُ أخفّ من ذلك. والوِقْرُ بكسر الواو: الثّقل يحمل على ظهرٍ أو على رأسٍ". لسان العرب. ابن منظور. مج256/15. مادة (وقر).

إنّ المقصودين في "قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ ﴾ على اللفظ يعني: المشركين كفّار قريش". الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج404/6. وقيل: هم أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنّضر بن الحارث وعقبة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأُمية وأُبَيّ ابنا خلف والحارث بن عامر وأبو جهل. ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج161/12. يقول تعالى في الآيات التي سبقت: ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ . ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ . ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾. الأنعام/22- 24.

4 ـ الإسراء/46. سبب نزول هذه الآية والّتي قبلها: "أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الكتاب قالوا يستهزؤن به: قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه، وفي أذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطي. 169-170.

3 – الموضع الثّالث: قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[1].

4 – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾[2].

إنّ الجزء المشترك ما بين الآيات كلّها، هو قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ في ثلاثة مواضع، وقوله تعالى: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ في الموضع الرّابع.

لقد نزلت هذه الآيات في كفّار قريش وقد أعرضوا عمّا دعاهم إليه الرّسول ﷺ وجادلوا فيه فأكثروا الجدال بغير علم ولا حقّ. ولمّا عجزوا عن صدّ الحقّ قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾؛ أي كلامك لا يدخل أسماعنا، وقلوبنا مستورة عن فهمه[3]؛ فلقد جعل الله تعالى على قلوب هؤلاء الّذين يُعرضون عن آيات الله الّتي

---

1 ـ الكهف/57. يقول تعالى في الآيات السّابقات: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ =أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا . وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ الكهف/54-56.

2 ـ فصلت/5. أنزلت الآية في كفّار قريش. ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج159/6، والرّواية مفصّلة في الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج338/15-339. ويقول تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ فصّلت/3-4.

3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج339/15، وينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج321/5.

ذُكِّروا بها أغطيةً لئلاّ يتدبّروها ويفقهوها[1]، ويقرّوا بالتّوحيد وتصديق ما في القرآن من أمر الله ونهيه، وسائر ما أنزل فيه[2]، وجعل في آذانهم وقرا وصمما يحول دون سماعهم بقصد التّدبّر والوصول إلى ما فيه من الهداية والرّشد، فلا يسمعون ما يدعوهم إليه القرآن الّذي يتلوه عليهم محمّد ﷺ استثقالا منهم وكراهة له[3]، بل يسمعون صوته وقراءته وكلامه بآذانهم، ولا يعقلون عنه ما يقول، كمثل البهيمة الّتي تسمع النّداء ولا تدري ما يُقال لها[4]، وقد جعل الله تعالى بينهم وبينه حجابا ساترا وخلافا في الدّين[5].

يقول أحمد مصطفى المراغي: "وفي هذا تشبيه للحجب والموانع المعنويّة بالحجب والموانع الحسّيّة، فالقلب الّذي لا يفقه الحديث ولا يتدبّره كالوعاء الّذي وُضِعَ عليه الغطاء فلا يدخل فيه شيء، والآذان الّتي لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبّر كالآذان المصابة بالثّقل أو الصّمم، فسمعها وعدمُه سواء.

إنّ الله جلّت قدرته جعل التّقليد الّذي يختاره الإنسان لنفسه مانعا من النّظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فالمقلّد لا يستمع على متكلّم ليميز الحقّ من الباطل، وإذا وصل إل سمعه ما هو مخالف لما يَدِينُ به لا يتدبّره ولا يراه جديرا بالموازنة بينه وبين ما عنده من عقيدةٍ أو رأيٍ ليختار أقربهما إلى الصّحّة وأجدرهما بالصّدق وأكثرهما هداية ورشادا؛ وابعثهما إلى اطمئنان النّفس الموصل لها إلى السّعادة في الدّنيا والآخرة"[6]. فلقد فقدوا

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج15/296.
2 ـ ينظر المصدر نفسه. مج12/ج24/100.
3 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج7/202. وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج5/416، وتيسير الكريم الرحمن. السعدي. 222.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج15/339. وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج5/416، وتيسير الكريم الرحمن. السعدي. 222.
6 ـ تفسير المراغي. مج3/81. وينظر تفسير حدائق الروح والريحان. محمّد الأمين الهروي. مج8/268.
يقول أحمد مصطفى المراغي في مقام آخر: "ونسب [الله تعالى] جعل الحجاب على نفسه، لأنّه خلاهم ونفسهم، فصارت تلك التّخليّة كأنّها السّبب في وقوعهم في تلك الحال، ألا ترى أنّ السّيّد إذا لم يراقب أحوال مولاه حتّى ساءت حاله، يقول أنا الّذي أوصلك إلى هذا، إذ ألقيت حبلك على غاربك، ثمّ أراقبك عن كثب". تفسير المراغي. مج3/81.

الاستعداد لقبول الرّشاد والهدى، بما عصوا به الله تعالى، وبما دنّسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال والأقوال، وبما اجترحوا من الكفر والفسوق[1].

سادسا: القلب الّذي فيه الرعب والخوف:

إنّ دلالات مادّة "رعب" في المعاجم اللّغويّة تتشابه في دلالتها على الفزع والخوف والفرق والهلع؛ فالرُّعْبُ هو: الانقطاع من امتلاء الخوف، يُقالُ رَعَبْتُهُ فَرَعَبَ رُعْباً وهو رَعِبٌ والتِّرْعَابَةُ الفُرُوقُ[2]، قال تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[4]. أو هو: الخوف الّذي يحصل في القلب، وأصل الرُّعب الملء، يقال: سيلٌ

---

1 ـ لقد أثار موضوع الجعل في هذه الآية انتباه المفسّرين، فناقشوه وأبدى كلّ منهم رأيه. يقول الطّاهر بن عاشور: "فإن قلت: هل تكون هاته الآية حجّة للّذين قالوا من علمائنا: إنّ إعجاز القرآن بالصّرفة، أي أعجز الله المشركين عن معارضته بأن صَرَفَهُم عن محاولة المعارضة لتقوم لحجّة عليهم، فتكون الصّرفة من جملة الأكنّة الّتي جعل الله على قلوبهم.

قلت: لم يحتج بهذه الآية أصحاب تلك المقالة لأنّك قد علمت أنّ الأكنّة تخييل وأنّ الوقر استعارة وأن قول النّضر ما أدري ما أقول، بهتان ومكابرة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾". تفسير التّحرير والتّنوير. مج3/ج180/7.

ويقول سيد قطب: "أمّا هؤلاء فلم يتّجهوا إلى الهدى ليهديَهم الله، ولم يحاولوا أن يستخدموا أجهزة الاستقبال الفطريّة في كيانهم، فييسرَ الله لهم الاستجابة.. هؤلاء عطّلوا أجهزتهم الفطريّة ابتداءً؛ فجعل الله بينهم وبين الهدى حجابا، وجرى قضاؤه فيهم بهذا الّذي جرى جزاءً على فعلهم الأوّل وبيتهم الأولى.. وكلّ شيء إنّما يكون بأمر الله. ومن أمر الله أن يهديَ من يجاهد، وأن يفلح من يتزكّى. ومن أمر الله أن يجعل على قلوب المعرضين أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها.. والّذين يُحيلون ضلالهم وشركهم وخطاياهم على إرادة الله بهم، وعلى قضائه فيهم، إنّما يغالطون في هذه الإحالة. والله سبحانه يجبهم بالحقّ، وهو يحكي أقوالهم في هذا الشّأن ويسفّهها: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ . وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ النحل/35-36. فدلّ هذا على إنكار الله عليهم قولهم؛ وعلى أنّ الضّلالة إنّما حقّت عليهم ـ بعد النّذارة ـ بفعلهم". في ظلال القرآن. ج1066/7.

أمّا في تفسير البحر المحيط؛ "فنسبة الجعل إلى الله عند أهل السّنة فحقيقة لا مجاز.. وقال ابن عطية: وهذه عبارة عن ما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير كأنّهم لم يكونوا سامعين لأقواله". أبو حيان الأندلسيّ. مج102/4.

وأمّا الفخر الرّازي فله رأي وتحليل مطوّلان في تفسير الفخر الرّازي. مج4/ج161/12- 163.

2 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 223. مادة (رعب).

3 ـ الأحزاب/26، والحشر/2.

4 ـ الكهف/18.

رَاعِبٌ إذا ملأ الأودية والأنهار، وإنّما سمي الفزع رعبا لأنّه يملأ القلب خوفا[1]. وأمّا في لسان العرب فهو: "الرُّعْبُ والرُّعُبُ: الفَزَعُ والخَوْفُ. رَعَبَهُ يَرْعَبُهُ رُعْبًا ورُعُبًا، فهو مَرْعُوبٌ ورَعِيبٌ: أَفْزَعَهُ"[2]. والقلب الّذي فيه الرّعب؛ قلبٌ مَرْعُوبٌ، وهو قلب العاصي، فلا تراه إلاّ خائفا مرعوبا مستوحشا. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في أربعة مواضع هي كالآتي:

1 – الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

سيلقي الله تعالى في قلوب الّذين كفروا بربّهم وجحدوا نبوّة محمّد ﷺ ممّن حاربوا المسلمين في غزوة أحد، الرّعب والجزع والهلع بما أشركوا بالله، وبعبادتهم الأصنام، وطاعتهم الشّيطان الّتي لم يجعل الله تعالى لهم بها حجّة، وهذا وعد منه جلّ ثناؤه أصحاب محمّد ﷺ بالنّصر على أعدائهم. إنّه الرّعب الّذي كان ينصر الله تعالى به المسلمين على الكافرين، فلا يظنّ أصحاب النّبيّ ﷺ أن يكون لهؤلاء عاقبة نصر، أو ظهور عليهم ما اعتصموا بالله تعالى واتّبعوا أمره. فأمّا المصيبة الّتي أصاب بها المسلمين فبذنوب قدّموها لأنفسهم، خالفوا بها أمره، وعصوا فيها نبيّ الله ﷺ [4].

إنّه وعد من الله تعالى قائم "في كلّ معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان. فما يلقى الّذي الّذين كفروا الّذين آمنوا حتّى يخافوهم، ويتحرّك الرّعب الملقى من الله في قلوبهم. ولكن

---

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرازي. مج3/ج29/9.

2 ـ ابن منظور. مج171/6. مادة (رعب).

3 ـ آل عمران/151. ذكر الطّبري في نزول هذه الآية سببا: "لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجّهين نحو مكّة، انطلق أبو سفيان حتّى بلغ بعض الطّريق، ثمّ إنّهم ندموا فقالوا: بئس ما صنعتم، إنّكم قتلتموهم، حتّى إذا لم يبق إلاّ الشّرّير تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فقذف الله عزّ وجلّ في قلوبهم الرّعب، فانهزموا، فلقوا أعرابيّا، فجعلوا له جعلا، وقالوا له: إن لقيت محمّدا فأخبره بما قد جمعنا لهم.. فأخبر الله عزّ وجلّ رسوله ﷺ، فطلبهم حتّى بلغ حمراء الأسد [موضع على ثمانية أميال من المدينة]، فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك، فذكر أبا سفيان حين أراد أن يرجع إلى النّبيّ ﷺ وما قذف الله في قلبه من الرّعب، فقال: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ ﴾" . جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج4/150-151، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج8/28-29، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج3/83.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/150، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج3/83.

المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين"[1]. إنّ الأمر يقتضي وقوع الرّعب في جميع الكفّار، وقد أجرى بعض العلماء هذا العموم على ظاهره، لأنّه لا أحد يخالف الإسلام إلاّ وفي قلبه ضرب من الرّعب من المسلمين، إمّا في الحرب، وإمّا في المحاجّة. كما لا يقتضي وقوع جميع أنواع الرّعب في قلوب الكفّار، إنّما يقتضي وقوع هذه الحقيقة في قلوبهم من بعض الوجوه[2].

2 – الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[3]. ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي؛ "سأرعب قلوب الّذين كفروا بي أيها المؤمنون منكم، وأملؤها فرَقًا حتّى ينهزموا عنكم، فاضربوا فوق الأعناق"[4]. وسألقي الرّعب والذّلّة والصّغار على من خالف أمري وكذّب رسولي[5]. فإنّ الله تعالى إذا ثبّت المؤمنين، وألقى الرّعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثّبات لهم[6]؛ فإنّهم أولياؤه[7].

3 – الموضع الثّالث: قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[8]؛ أي؛ لقد

---

1 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. ج491/4.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرازي. مج3/ج29/9.
3 ـ الأنفال/12. لقد نزلت هذه الآية والآيات الّتي قبلها وبعدها في سياق قصّة بدر. ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج288/3-289، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج233/9.
4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج236/9.
5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج290/3.
6 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 296.
7 ـ ينظر تفسير البغوي. البغوي. 516.
8 ـ الأحزاب/26. من صياصيهم: من حصونهم. مفردها: صيصة. إنّ الّذين ظاهروا الأحزاب من قريش وغطفان، هم بنو قريظة الّذين نكثوا العهد الّذي كان بينهم وبين نبيّ الله ﷺ. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري مج11/ج161/21، وروح المعاني. الألوسي. مج11/ج229/21. يقول الله تعالى في الآية الّتي قبلها: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾، ويقول تعالى في الآية الّتي بعدها: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ الأحزاب/27.

أنزل الله تعالى من أهل الكتاب بني قريضة من حصونهم وقلاعهم، وهم الّذين عاونوا الأحزاب من قريش وحلفائها على الرّسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ و"الخوف الشّديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ من غير أن يكون من جهتهم حِراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء"[1]. فدارت الدّائرة على يهود بني قريضة كما دارت على الأحزاب (من قريش وغطفان) من قبل.

4 – الموضع الرّابع: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[2]؛ إنّ الله تعالى هو الّذي تولّى أمر إخراج هؤلاء الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر، من غير ستار لقدرته من فعل البشر، وهو الفاعل لكلّ شيء. ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ فلا المسلمون كانوا يتوقّعون أنّهم سيخرجون من بيوتهم، ولا هم كانوا يسلمون

وتفصيل قصة غزوة بني قريظة في كتاب؛ تهذيب سيرة ابن هشام. عبد السّلام هارون. بيروت. لبنان. مؤسسة الرّسالة. ط15. 1406هـ/1986م. 198.

1 - روح المعاني. الألوسي. مج11/ج229/21.

2 - الحشر/2. "الله الّذي أخرج الّذين جحدوا نبوّة محمّد ﷺ من أهل الكتاب، وهم يهود بني النّضير من ديارهم، وذلك خروجهم عن منازلهم ودورهم، حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن يؤمّنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أنّ لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم، ويخلوا له دورهم، وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله ﷺ على ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشّام، ومنهم من خرج إلى خيبر". وقيل: "نزلت في بني النّضير سورة الحشر بأسرها". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج32/28-33. وتفصيل قصّة إجلاء بني النّضير في سنة أربع للهجرة موجود في كتاب: تهذيب سيرة ابن هشام. لعبد السّلام هارون. 180 وما بعدها. ويقول الله تعالى في الآيتين اللّتين بعدها: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الحشر/3-4.

بذلك. فلقد كانوا من القوّة والمنعة في حصونهم وقلاعهم بحيث لم يتصوّر المسلمون ولا هم أنّهم سيُخرجون منها كما أُخرجوا. وغرّتهم قوّتهم ونسوا قوّة الله الّتي لا تردّها الحصون[1].

قال تعالى: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾؛ أي: "فأتاهم الله من داخل أنفسهم، لا من داخل حصونهم، أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرّعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم، وأراهم أنّهم لا يملكون ذواتّهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم. فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم. وقد كانوا يحسبون حساب كلّ شيء إلاّ أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم"[2]. ولقد سلّطهم الله على تلك الحصون والبيوت الّتي تحصّنوا بها فخرّبوها بأيديهم.

سابعا: القلب الأعمى:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[3]؛ لم تكن لكفّار قريش ومشركيهم تلك القلوب العاقلة الّتي ينظرون بها إلى آثار من قبلهم، ويتأمّلون بها ما حلّ بالأقوام السّابقين الّذين كذّبوا رسلهم وأنبياءهم. لقد كانت لهم قلوب لا تعقل وآذان لا تسمع؛ أي يرون بأعين فلا يتدبّرون فيما يرون، ويسمعون فلا يعون ولا ينتفعون. فقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾؛ إنّ العمى الّذي يعتدّ به هو عمى القلوب، وإنّ هؤلاء القوم ما عميت أبصارهم، ولكن عميت قلوبهم، فالمعنى الأوّل لقصد البلاغة، والثّاني خاصّ بهؤلاء القوم[4]، والّذي "قد تُعورف واعتُقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تُصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة ومثل. فلمّا أُريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب

1 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3521/28.
2 ـ المرجع نفسه. الصّفحة نفسها..
3 ـ الحج/46. لقد سبقت إشارة إلى تفسير هذه الآية في مبحث القلوب البيضاء (القلب العاقل). 88.
4 ـ ينظر التسهيل لعلوم التنزيل. أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي (ت741هـ). بيروت. لبنان. دار الكتب العلمية. ط1. 1995م. 1415هـ. ج60/2.

حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التّصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف، ليتقرّر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار"[1]. فليس الخلل والعيب في مشاعرهم، وإنّما هو في عقولهم باتّباع الهوى والانهماك في الغفلة[2]. فأمّا الأبصار الّتي في الرّؤوس فقد جعلها الله منفعةً وبُلغةً، وأمّا البصر فهو في القلب[3].

ثامنا: القلب الغليظ:

قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[4]؛ إنّ الفظَّ هو الغَليظُ الجافي، من فَظِظْتَ تَفظُّ فَظَاظَةً وفِظَاظًا فأنْتَ فَظٌّ. والأنثى فَظَّةٌ والجمع أفظاظ[5]. وغليظ القلب هو قاسيه غير ذي رحمة ولا رأفة، و لم تكن صفته ﷺ كذلك[6]، وإنّما وصفه الله تعالى بما هو أحسن : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[7]. فليس هو بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق[8].

يقول الألوسيّ: "وذكر بعضهم أنّ الفظّ سيّء والثّاني سبب للأوّل وقدّم المسبّب لظهوره إذ هو الّذي يطلع عليه، ويمكن أن يقال: المراد لو كنت على خلاف تينك الصّفتين المعبّر عنهما بالرّحمة وهو عدم التّهوّر المشار إليه بالفظاظة وسوء الأخلاق المرموز إليه بغلظ القلب فإنّ قساوة القلب وعدم تأثّره يتبعه كلّ صفة ذميمة، ولهذا ورد: أبعد القلوب عن الله

1 ـ الكشاف. الزمخشري. مج17/3، وينظر تفسير الرازي. الفخر الرازي.
2 ـ ينظر محاسن التأويل. محمد جمال الدين القاسمي (1283هـ - 1332هـ).(1866م - 1914م). دار إحياء الكتب العربيّة. عيسى البابي الحلبيّ وشركاه. تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي. ط1/1376-1957م. ج12/ 4349.
3 ـ ينظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور. السيوطي. القاهرة. مصر. مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية. ط1. 2003. ج519/10.
4 ـ آل عمران/159.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/4.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج183/4.
7 ـ التوبة /128.
8 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/4.

تعالى القلوب القاسيّة"[1]. هذا هو القلب الفظّ الغليظ، وأمّا الرّسول ﷺ فقد كان لين الجانب سمحا طيّب القلب.

إنّ الرّسول ﷺ لّما رفَقَ بمن تولّى يوم أُحُدٍ ولاَنَ لهم و لم يُعَنِّفْهُمْ، بيَّنَ الرّبُّ تعالى أنّه إنّما فعل ذلك بتوفيق الله تعالى إيّاه[2]؛ فإنّ لينه لهم ما كان إلاّ برحمة من الله وهو ربطه على جأشه، وتوفيقه المرفق بهم[3]. ولو كان جافيا غليظ القلب، قاسيه[4]، خشن الجانب شرس الأخلاق جافيا في المعاشرة قولا وفعلا[5]، لتفرّقوا عنه حتّى لا يبقى حوله أحدٌ منهم[6].

ولقد أمر تعالى الرّسول ﷺ بالعفو عن صحابته ﷺ، "وذلك فيما كان خاصّا به من تبعته له عليهم، وبالاستغفار لهم فيما هو مختصّ بحقّ الله تعالى، وبمشاورتهم، وفيها فوائد تطييب نفوسهم، والرّفع من مقدارهم بصفاء قلبه لهم حيث أهّلهم للمشاورة"[7]. وكان يجب أن يكون الرّسول ﷺ على هذا الخلق السّاميّ لأنّه وسيلة من وسائل الدّعوة ليستميل القلوب.

تاسعا: القلب الّذي شدّ الله عليه:

الشّدّ: الشّين والدّال أصل واحدٌ يدلّ على قوّة في الشّيءِ، وفروعُهُ ترجع إليه. ومنه شَدَدْتُ العقدَ شدًّا أشُدُّهُ[8]. والشَّدُّ؛ العقد القويّ[9]، ويقال: شدَدْتُ الشَّيْءَ قوَّيْتُ عقده، لقوله تعالى: ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾[10]. والشّدّة تُستعملُ في العقد وفي البدن وفي قُوَى النّفس وفي العذاب[11]؛ وتكون في الجواهر والأعراض[1]، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ

1 ـ روح المعاني. مج2/ج441/4.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج248/4.
3 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج108/2.
4 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج474/1.
5 ـ ينظر روح المعاني.الألوسي. مج2/ج441/4.
6 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج474/1.
7 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج104/3.
8 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 522. مادة (شدّ).
9 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 288. مادة (شد).
10 ـ محمد/4.
11 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الراغب الأصفهانيّ. 288. مادة (شد).

ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾[3]. والشِّدَّةُ؛ الصّلابةُ[4]، وهي ضدّ اللِّين، والجمع شِدَدٌ[5].

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[6]. والشّاهد في الآية الكريمة، قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ أي؛ دمّر عليهم، وعاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم[7]، وامحقها بالآفات الّتي تصيب زروعهم والجوائح الّتي تهلك أنعامهم وتنقص مكاسبهم، فيذوقوا ذلّ الحاجة[8]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ والشّدّ على القلوب الاستيثاق منها حتّى لا يدخلها الإيمان[9]، أي؛ اشدد عليها بالموت[10]، واطبع عليها بالضّلالة، وقسِّها، حتّى لا تلين

---

1 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج38/8. مادة (شدد).
2 ـ العاديات/8.
3 ـ ق/26.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج38/8. مادة (شدد).
5 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها. مادة (شدد).
6 ـ يونس/88. "قال موسى يا ربّنا إنّك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم، وهم الملأ، وزينة من متاع الدّنيا وأثاثها، وأموالا من أعيان الذّهب والفضّة في الحياة الدّنيا ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ ﴾ .. بمعنى: ليُضلُّا النّاسَ عن سبيلك، ويصدّوهم عن دينك.. أو بمعنى: ليَضلُّوا هم عن سبيلك، فيجُورُوا عن طريق الهدى.. والصّواب من القول في ذلك عندي: أنّها لام كي، ومعنى الكلام: ربّنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدّنيا والآموال لتفتنهم فيه، ويُضِلُّوا عن سبيلك عبادك، وعقوبة منك". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج181/11/7-182.
وقال القرطبي:" أصحّ ما قيل فيه [لام لبضلوا] ـ وهو قول الخليل وسيبويه ـ أنّها لام العاقبة والصّيرورة.. أي لمّا كان عاقبة أمرهم إلى الضّلال صار كأنّه أعطاهم ليَضِلُّوا". الجامع لأحكام القرآن. ج374/8.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج183/11، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج374/8.
8 ـ ينظر تفسير المراغي.أحمد مصطفى المراغي. مج271/4.
9 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج129/17/6.
10 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج186/5، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج183/11

ولا تنشرح بالإيمان، وأهلكهم كفّارا[1]، فإنّهم يستحقّون شديد عقابك[2]، ولا يؤمنون إلاّ إذا رأوا عذابك، ولا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك[3].

عاشرا: القلب لدى الحناجر:

قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[5].

إنّ القلوب الّتي بلغت الحناجر وردت في القرآن الكريم في موقعين اثنين. وقد يحتار الإنسان في تصنيف هذا النّوع من القلوب لأنّ هذه الحال تنتاب المؤمن وغير المؤمن وتكاد لشدّة الجزع تبلغ الحناجر[6]، أو أنّها قد صعدت من الصّدور لشدّة الخوف حتّى بلغت الحناجر[7]، أو أنّها "زالت عن أماكنها من الصّدور حتّى كادت تبلغ الحناجر، وهذا تمثيل لشدّة الرّعب والفزع الّذي دهاهم، حتّى كأنّ أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرته من شدّة ما يلاقي"[8]، ويحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجازا عبّر به عن شدّة الخوف والحنجرة هي الحلق[9]. حتّى إذا عدنا إلى أسباب نزول كلّ آية أدركنا أنّ لكلّ منها مقاما ومقالا، وأنّ الآية الأولى تتعلّق بالمؤمنين وأنّ الثّانية خاصّة بغيرهم.

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج183/11، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج374/8، و تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج186/5، و روح المعاني. الألوسي. مج6/ج222/11.

2 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج129/17/6.

3 ـ ينظر تفسير المراغي.أحمد مصطفى المراغي. مج271/4.

4 ـ الأحزاب/10. قال الرّاغب الأصفهانيّ عن القلوب في هذه الآية: "الأرواح". معجم مفردات ألفاظ القرآن. 458. مادة (قلب).

5 ـ غافر/18.

6 ـ ينظر صفو ة التفاسير. محمّد علي الصّابونيّ. ج89/3.

7 ـ ينظر التسهيل لعلوم التنزيل. أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي (ت741هـ). بيروت. لبنان. دار الكتب العلمية. ط1. 1995م. 1415هـ.. ج4/4.

8 ـ صفو ة التفاسير. محمّد علي الصّابونيّ. ج472/2.

9 ـ ينظر التسهيل لعلوم التنزيل. أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي. ج4/4.

أمّا في الآية الأولى فيذكر الله تعالى نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين حين صرف عنهم أعداءهم وهزمهم عام تألّبوا عليهم وتحزّبوا، في غزوة الخندق، في شوال سنة خمس من الهجرة. وكان سبب قدوم الأحزاب أنّ نفراً من أشراف يهود بني النّضير الّذين كان قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، خرجوا إلى مكّة، فاجتمعوا بأشراف قريش وألّبوهم على حرب النّبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم بالنّصر والإعانة، فأجابوا إلى ذلك، وخرجوا في عشرة آلاف، فلمّا سمع الرّسول ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة، وكانت فكرة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا وحفر معهم الرسول ﷺ ونقل التّراب. وجاء المشركون واليهود فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة[1]. واشتدّ الخطب على المسلمين وعظم عند ذلك البلاء، حتّى ظنّوا كلّ ظنّ أنّهم هالكون "ونبت القلوب عن أماكنها من الرّعب والخوف، فبلغت القلوب إلى الحناجر"[2]، ونزل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠. هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾[3].

لا يمكن فصل هذا الجزء من الآية عن الآيات السّابقة أو اللّاحقة؛ ولا يمكن فصل كلمة "قلب" عن مكانها. لماذا بلغت القلوب الحناجر؟ قال سيد قطب في هاتين الآيتين: "إنّها صورة الهول الّذي روّع المدينة، والكرب الّذي شملها، والّذي لم ينج منه أحد من أهلها. وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كلّ جانب. من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشّعور بالكرب والهول في قلب عن قلب... ومن ثمّ

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج11/ج21/139-140. وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج5/429.
2 - المصدر نفسه. مج11/ج21/141.
3 - الأحزاب/9-11.

كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا: ﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾ وهو تعبير مصوّر لحالة الخوف والكربة والضّيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب"[1]. فكان التّواصل التّام ما بين الدّاخل الّذي يمثّله القلب والخارج الّذي تترجمه الأبصار.

إنّ الموقف في هذه الآية وهذه السّورة هو غيره في الآية الثّامنة عشرة في سورة غافر؛ ففي الأولى يتعلّق الأمر بالمؤمنين، وفي الثّانيّة يتعلّق بالمشركين. قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾[2].

أي "وأنذر يا محمّد مشركي قومك يوم الآزفة، يعني يوم القيامة، أن يُوافُوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقّوا من الله عقابَه الأليم...إذ قلوب العباد من مخافة عقاب الله لدى حناجرهم قد شخصت من صدورهم، فتعلّقت بحلوق كاظميها، يرومون ردّها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا"[3]، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم، والكظم يكربهم، ويثقل على صدورهم، وهم لا يجدون حميما يعطف ولا شفيعا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب[4]. وفي الكلام كناية عن شدّة الخوف والجزع أو فرط التّألّم، ويجوز أن يكون على حقيقته وتبلغ قلوب الكفّار حناجرهم يوم القيامة ولا يموتون كما لو كان ذلك في الدّنيا[5].

---

1 - في ظلال القرآن. مج5/ج2837/21-2838. ثمّ يقول سيد قطب: "ثمّ تزيد سمات الموقف بروزا، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا: ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ والهول الّذي يزلزل المؤمنين لابدّ أن يكون هولا مروعا رعيبا. وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق... فلم يكونوا يأمنون في أية لحظة أن ينقضّ عليهم المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلّة بين هذه الجموع، الّتي جاءت بنية استئصالهم في معركة حاسمة أخيرة". في ظلال القرآن. مج5/ج3074/24.

2 - غافر/18.

3 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج59/24. وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج46/24.

4 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج3074/24.

5 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج12/ج419/24.

حادي عشر: القلب الواجف الخافق المضطرب:

قال تعالى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾[1]. وجفت القلوب فهي واجفة، قد ارتجفت واضطربت اضطرابا شديدا[2]. وهذه حال قلوب الكفّار يوم القيامة[3]، خائفة، قلقة، شديدة الاضطراب، بادية الذّلّ، يجتمع عليها الخوف والانكسار، والرجفة، والاهيار، من عظيم الهول النازل، يوم ترجف الرّاجفة ، تتبعها الرّادفة[4]، لأنّهم عاينوا ما كان الرّسول ﷺ يذكر لهم في دنياهم ولم يؤمنوا به، فاضطرب نفوسهم، مخافة أن يحلّ بهم ما أنذروا به، كما هي حال من تهدّده بعقوبة إن لم يقلع عن جرائره فيهلع قلبه إن شاهد بوادر الذّلّ والخوف[5]. وتبدو أبصار هؤلاء القوم ذليلة مُنْكَسِرةً ممّا قد علاها من الكآبة والحزن والهمّ والغمّ، ومن الخوف والرّعب الّذي نزل بهم، من عظيم هول ذلك اليوم[6] الّذي لا ينجو فيه أحد إلاّ من أتى الله تعالى بقلب سليم، وإذا حدث أمر داخل الإنسان بدا على صفحات وجهه وصره.

إنّ هذه الصّفات الّتي تعتري قلوب العصاة من المشركين والمنافقين والمعاندين من أهل الكتاب، قد تجتمع كلّها في قلب امريء واحد إذا بلغ من الكفر والشّرك والقسوة والعناد والتّجبّر مبلغا كبيرا لا يرجى معه التّوبة والرّجوع إلى الله تعالى.

---

1 ـ النازعات/8-9.
2 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج212/4.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج37/24.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج3074/24.
5 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج317/10.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج38/24.

الفصل الثّالث

أقسام النّفس ودلالاتها في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "نفس" في القرآن الكريم:

ثانيّا: تعريف لفظ "نفس" وتحديد معانيه: لغة واصطلاحا:

ثالثا: أنواع النّفس في القرآن:

1 – النَّفْسُ المُلْهَمَةُ:

2 – النَّفْسُ الأَمَّارَةُ:

3 – النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ:

4 – النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ:

5 – النَّفْسُ الرَّاضِيَّةُ:

6 – النَّفْسُ المَرْضِيَّةُ:

رابعا: دلالات "النّفس" في القرآن الكريم:

1 – النّفس بمعنى الذّات الإلهيّة:

2 – النّفس بمعنى العقوبة:

3 – النّفس بمعنى الغيب:

4 – النّفس بمعنى العِنْدُ:

5 – النّفس بمعنى الإنسان:

6 – النّفس بمعنى آدم عليه السّلام:

7 – النّفس بمعنى الرّوح:

8 – النّفس بمعنى العقل الّذي به تمييز الإنسان عن الحيوان:

9 – النّفس بمعنى القلب:

10 – النّفس بمعنى قوى الخير والشّرّ في الإنسان:

11 – النّفس بمعنى الأخ:

12 – النّفس بمعنى ضمير الإنسان وطويّته وباطنه ونجواه:

13 – النّفس بمعنى الجوانب المكتسبة من الشّخصية الإنسانيّة:

خامسا: نماذج لمواقف نفسيّة إنسانيّة في القرآن الكريم:

سادسا: مميّزات القرآن في هذه المواقف :

الفصل الثّالث: أقسام النّفس ودلالاتها في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "نفس" في القرآن الكريم:

لقد ورد لفظ "نفس" في القرآن الكريم خمسا وتسعين ومائتي مرّة، في ثمانٍ وخمسين سورة (اثنتين وأربعين سورة مكّيّة، وستّ عشرة سورة مدنيّة)، وورد بصيغ متباينة ما بين مفرد وجمع، ومضاف وغير مضاف، وإعراب مختلف. والجدول الآتي يبيّن الصّيغ المتنوّعة له في القرآن الكريم:

عدد ألفاظ "نفس" في القرآن الكريم[1]					
اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده
نَفْسٌ	61	نَفْسَهَا	02	الأَنْفُسُ	06
نَفْساً	14	نَفْسِي	13	أَنْفُسُكُمْ	49
نَفْسُكَ	10	النُّفُوسُ	01	أَنْفُسَنَا	03
نَفْسُهُ	40	نُفُوسِكُمْ	01	أَنْفُسُهُمْ	91
أَنْفُسِهِنَّ	04				
المجموع = 295					

وأشرتُ إلى أنواع النّفس وإلى الدّلالات المتنوعة الّتي تحملها، وإلى مواقف نفسيّة إنسانيّة في القرآن الكريم.

لقد وهب الله تعالى الإنسان هبتين اثنتين أوليّين، تمثّلان من التّكريم الإلهيّ له ما لم ينله غيره من المخلوقات، هما: النّفس، وتسخير الكون.

1 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. 710- 714. مادة (نفس).

إنّ هبة الله تعالى الأولى هي "النّفس" وما أُودع فيها من قدرات ودوافع واستعدادات وذكاء وقّاد وحواسّ نشطة ويد صنّاعة، ورغبة في البحث والإنتاج، جعلت الإنسان حسن التّقويم، أهلا للتّكريم والخلافة[1]. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]. فإنّ المشيئة العليا في هذا الكون تريد أن تسلّم لهذا المخلوق الجديد في الكون زمام الأمور إكراما له[3].

أمّا الهبة الثّانيّة فهي "تسخير الكون" لخدمة الإنسان بما فيه من خيرات وخامات، وحيوانات ونباتات وجمادات، والسّماء والأرض وما فيهما[4]. يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5]. فالإنسان، وهو هذا المخلوق الصّغير يحظى من رعاية الله تعالى بالقسط الوافر، فقد سخّر له الخلائق الكونيّة الهائلة، وقوى في هذا الكون وطاقات تفوق قوّته بما لا يُقاس[6].

ثانيّا: تعريف لفظ "نفس" وتحديد معانيه:

1 – في اللّغة:

تكاد تتّفق المعاجم اللّغوية على تعريف لفظ "نفس" على الرّغم من بعض الاختلافات المتواضعة. فهي في جلّ المعاجم الرّوح الّذي به حياة الجسد، فيقال: خرجت نفس فلان أي

1 ـ ينظر لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 25.
2 ـ البقرة/30.
3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج1/56.
4 ـ ينظر لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 25.
5 ـ الجاثية/12-13.
6 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج25/3226-3227.

روحه، وما يكون به التّمييز، وكلّ إنسان نفسٌ حتّى آدم، عليه السلام، الذّكر والأنثى سواء، ورجلٌ له نَفْسٌ؛ أي خُلُقٌ وجَلادةٌ وسَخَاءٌ، وما يُعَبَّرُ به عن الإنسان جميعه. والنَّفْسُ: الدّم، والأخ، والعَيْن، وجملة الشّيء وحقيقته، أو ذاته وعينه وما يُؤكّد به، والجسد، والغيب، والّتي بها العقل، وقَدْرُ دَبْغَةٍ ممّا يُدْبَغُ به الأديمُ، والعندُ[1]، ويتكوّن جذرها من النّون والفاء والسّين وهو أصل واحدٌ يدلّ على خروج النَّسيم كيف كان، من ريحٍ أو غيرها، وإليه يرجع فروعه، والنّفس: الماء[2]، والعظمة، والعزّة، والهمّة، والأنفة، والإرادة، والعقوبة[3]، وجمع الكلّ أنفُسٌ ونُفُوسٌ[4]. ويقال: في نفْسِي أن أفعل كذا: قَصْدِي ومُرَادِي[5].

2 – في الاصطلاح:

ورد في كتاب التّعريفات: "النَّفْسُ: وهي الجوهرُ البُخاريّ اللّطيف، الحاملُ لقوّةِ الحياةِ والحِسِّ والحركةِ الإراديَّةِ. وسَمَّاها الحكيم: الرُّوح الحيوانيّة، فهي جوهر مُشرِقٌ للبدن، فعند الموت: ينقطِعُ ضوؤه عن ظاهر البدن وباطنه، وأمّا في وقت النّوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه.. فَثَبَتَ أنّ النّوم والموت من جنس واحدٍ، لأنّ الموتَ هو الانقطاع الكلّيّ والنّوم هو الانقطاع النّاقص. فثَبَتَ أنّ القادر الحكيم دبّر تعلُّقَ جوهر النّفس بالبدنِ على ثلاثة أضرب: الأوّل إنْ بلغ ضوءُ النَّفْسِ على جميع أجزاء البَدَنِ ظاهرِهِ وباطنِهِ فهو اليقظة، وإن انقطع ضوؤها عن ظاهره دون باطنه: فهو النّوم، أو بالكلّيّة: فهو الموت"[6]. فالنّفس ألصق بابن آدم.

---

1 ـ ينظر كتاب العين (مرتّب على حروف المعجم). الخليل بن أحمد الفراهيدي. مج4/349. مادّة (نفس، ومعجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 1040-1041. مادّة (نفس)، والصّحاح. الجوهري. 1058. مادّة (نفس)، ومختار الصّحاح. عبد القادر الرّازي. 532. مادّة (ن ف س). وأساس البلاغة. الزّمخشري. 647. مادّة (نفس)، وتاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج4/260. مادّة (نفس). (فصل النون من باب السّين)، ولسان العرب. ابن منظور. مج14/319-321. مادّة (نفس)، والمصباح المنير. أحمد بن محمّد بن علي الفيومي. 317-318. مادّة (ن ف س)، والمعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج2/940. مادّة (نَفَسَهُ).

2 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 1040-1041. مادّة (نفس).

3 ـ ينظر تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج4/260. مادّة (نفس). (فصل النون من باب السّين)، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدُّوريّ. 139. ط1. 1427هـ/2006م. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان.

4 ـ ينظر تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج4/260. مادّة (نفس). (فصل النون من باب السّين)، ولسان العرب. ابن منظور. مج14/319-321. مادّة (نفس).

5 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم أنيس، وآخرون. ج2/940. مادّة (نَفَسَهُ).

6 ـ كتاب التّعريفات. الشّريف الجرجاني. 334. مادّة (النّفس).

وقد تساءل العلماء عن النّفس واختلفوا عن حقيقتها: "ما هي؟ وهل هي جزء من أجزاء البدن؟ أو عَرَضٌ من أَعْرَاضِهِ؟ أو جسم مَاكِنٌ له مُودَع فيه؟ أو جوهر مجرّد؟"[1]. وبعد دراسة وإمعان نظر أجابوا: "والّذي يدلّ الكتاب والسّنّة وإجماع الصّحابة وأدلّة العقل: أنّ النّفس جسم مخالف بالماهيّة لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانيّ عُلويّ، خفيف حيّ متحرّك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدّهن في الزّيتون، والنّار في الفحم"[2].

وتذكر النّفس في مواضع كثيرة في القرآن الكريم "على أنّها موضع الهدى والضّلالة، أو هي موضع التّقلّب والتّدبير في الحياة الدّنيا، فعليها تقع الصّفات الحميدة أو الذّميمة كالشّحّ أو البخل، وعليها يقع الضّيق والانبساط، وعليها يقع القتل و استمرار الحياة، وكلّ ذلك تصدّقه الآيات الكريمة، وهذه الأوصاف كلّها تدور في عالم الخلق"[3]. وهذا يقودنا إلى تحديد أنواع النّفس؛ المطمئنّة واللّوّامة والأمّارة وغيرها.

ثالثا: أنواع النّفس في القرآن:

إنّ النفس في الإنسان واحدة – في الواقع – ولكنها تتلوّن حسب طبيعة عملها وتبعا لنورانيّتها أو شهوانيّتها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[4]. وأنواع النّفس في القرآن الكريم، هي: النّفس الملهَمَة، والنّفس الأمّارة بالسّوء، والنّفس اللّوامة، والنّفس المُطْمَئِنَّة، والنّفس الرّاضِيّة، والنّفس المَرضِيّة. وسيأتي الحديث عن كلّ نوع:

1 ـ شرح العقيدة الطّحاويّة. ابن أبي العزّ. تح: جماعة من العلماء. وخرّج أحاديثها: محمّد ناصر الدّين الألبانيّ. بيروت. لبنان. المكتب الإسلاميّ. ط 5. 1399هـ. 441.
2 ـ المرجع نفسه. 443.
3 ـ دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدُّوريّ. 141.
4 ـ الشمس/7-8.

1 – النَّفْسُ المُلْهَمَةُ:

لقد خلق الله تعالى النّفس وأنشأها وأبدعها مستعدّة لكمالها وذلك بتعديل أعضائها وقوّاها الظّاهرة والباطنة[1]، وحدّد لكلّ منها وظيفة تؤدّيها وجعل لها جسما تستعمل أعضاؤُهُ تلك القوى[2]. قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾؛ فـ"ألهمه الله خيراً؛ لقّنه إيَّاه... والإلهامُ؛ أن يُلْقِيَ الله في النّفس أمراً يَبْعَثُهُ على الفعل أو التّركِ، وهو نوعٌ من الوحيِ، يخُصُّ الله به مَنْ يشاء من عِبادِه"[3]. والمقصود في هذا المقام أنّ الله تعالى لقّن النّفس فجورها وتقواها وعرّفها حال كلّ منهما، وجعل لها قوّة يصحّ معها اكتساب الفجور واكتساب التّقوى[4]، وبَيَّنَ لها وعلَّمَها وأَعْلَمَها تمييز الرّشد من الغيّ، وتبيين الهدى من الضّلال[5]، وما ينبغي لها أن تأتيَ أو تذر مِنْ الخير والشّرّ أو الطّاعة والمعصية أو جعل فيها[6]. فتلك قدرة أودعها الله تعالى في النّفس للتّمييز ما بين هاذين النّقيضين، والاستعداد لهما؛ يقول الله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[7]، "وهما سبيلا الخير والشّرّ، والنّجد الطّريق في ارتفاع فكأنّه لمّا وضحت الدّلائل جعلت كالطّريق المرتفعة العاليّة بسبب أنّها واضحة للعقول كوضوح الطّريق العاليّ للأبصار"[8]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[9]؛ والمراد من هداية السّبيل خلق الدّلائل، وخلق العقل الهادي، وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب، في حالتي الكفر والإيمان، أو فإن شاء فليكفر وإن شاء فليشكر[10].

---

1 - ينظر روح المعاني. محمود الألوسي. مج15/ج30/456.
2 - ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج10/432.
3 - لسان العرب. ابن منظور. مج13/245. مادّة (لهم).
4 - ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج8/475.
5 - ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج10/432.
6 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج30/230-231. ويقول الطّاهر بن عاشور: "والمعنى هنا: أنّ من آثار تسويّة النّفس إدراك العلوم الأوّليّة والإدراك الضّروريّ المدرج ابتداء من الانسياق الجبليّ نحو الأمور النّافعة.

وتعديّة الإلهام إلى الفجور والتّقوى في هذه الآية مع أنّ الله اعلم النّاس بما هو فجور وما هو تقوى بواسطة الرّسل باعتبار انّه لولا ما اودع الله في النّفوس من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها لما فهموا ما تدعوهم إليه الشّرائع الإلهيّة، فلولا العقول لما تيسّر إفهام الإنسان الفجور والتّقوى، والعقاب والثّواب". تفسير التّحرير والتّنوير. مج12/ج30/370.
7 - البلد/10.
8 - تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج31/170-171.
9 - الإنسان/3.
10 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/215.

2 – النَّفْسُ الأَمَّارَةُ:

النّفس الأمارة عامل تغرير وتعزيز للإقدام على أمور لا يجوز القيام بها: مثل التّسويل في تزيين مزالق السّلوك الخطأ أو الهابط أو المنحرف. لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1]؛ أي إنّ النّفس البشريّة في حدّ ذاتها كثيرة الأمر بالسّوء، والميل إلى الشّهوات مستعملة في تحصيلها القُوى والآلات[2]، إلاّ نفسًا رجحت عندها داعية الطّاعة على داعية المعصية، وحفظها، حفظها الله فارتقت وسمت[3]، أو نفسًا رحمها الله تعالى بالعصمة، كنفس يوسف عليه السّلام[4]. فالنّفس الأمّارة بالسّوء؛ "هي الّتي تميل إلى الطّبيعة البدنيّة، وتأمر باللّذّات والشّهوات الحسّيّة وتجذب القلب إلى الجهة السّفليّة، فهي مأوى الشّرور ومنبع الأخلاق الذّميمة"[5]. ميّالة إلى الشّهوة والغضب، قد ألفت المحسوسات والتذّت بها وعشقتها[6]، تأمر صاحبها بالشّرّ وتُسوِّلُ له الإقدام على فعله، وتغوي بارتكاب المحرّمات[7]. فالشّيطان قرينها وصاحبها.

ومثل هذه الآيات الّتي فيها ذكر النّفس الأمّارة قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾[8]،

---

1 - يوسف/53.
2 - ينظر روح المعاني. محمود الألوسي. مج7/ج6/13.
3 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج132/18/6.
4 - ينظر روح المعاني. محمود الألوسي. مج7/ج7/13.
5 - كتاب التّعريفات. الشّريف الجرجاني. 334. مادّة (النّفس).
6 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج132/18/6. ويقول الفخر الرّازي: "اختلف الحكماء في أنّ النّفس الأمّارة بالسّوء ما هي؟ والمحقّقون قالوا إنّ النّفس الإنسانيّة شيء واحد، ولها صفات كثيرة فإذا مالت على العالم الإلهيّ كانت نفسا مطمئنّة، وإذا مالت إلى الشّهوة والغضب كانت أمّارة بالسّوء. وكونها أمّارة بالسّوء يفيد المبالغة والسّبب فيه أنّ النّفس من أوّل حدوثها قد الفت المحسوسات والتذّت بها وعشقتها، فأمّا شعورها بعالم المجرّدات وميلها غليه، فذلك لا يحصل إلاّ نادرا في حقّ الواحد، فالواحد وذلك الواحد فإنّما يحصل له ذلك التّجرّد والانكشاف طول عمره في الوقات النّادرة فلمّا كان الغالب هو انجذابها على العالم الجسماني وكان ميلها إلى الصّعود على العالم العلى نادرا لا جرم حكم عليها بكونها أمّارة بالسّوء، ومن النّاس من زعم أنّ لنّفس المطمئنّة هي النّفس يالعقليّة النّطقيّة، وأمّا النّفس الشّهوانيّة والغضبيّة فهما مغايرتان للنّفس العقليّة". تفسير الفخر الرّازي. مج132/18/6.
7 - ينظر منهج الإسلام في تزكية النّفوس. أنس أحمد كرزون. بيروت. لبنان. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1428هـ/2007م. 46.
8 - طه/96.

والشّاهد فيها قوله تعالى: ﴿ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾؛ أي حدّثتني نفسي بالأمر وزيّنته لي[1]، وحسّنته وأعجبها[2]، والآية الثّانيّة: قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[3]، الشّاهد فيها قوله تعالى: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾؛ هنا محذوف تقديره: لم يأكله الذّئب[4]، بل زيّنت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في يوسف وحسّنته وسهّلته ففعلتموه[5]. والآية الثّالثة قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[6]، والشّاهد في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾؛ أي أقامته نفسه ليقتل أخاه وساعدته عليه وشجّعته وزيّنت له ذاك الصّنيع الشّنيع[7]، ووسّعته له ويسّرته، فانقاد لها، وقتله، أو كأنّه دعا نفسه إلى الإقدام عليه فطاوعته و لم تمتنع[8].

3 – النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ:

قال تعالى: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ . وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[9]؛ "قال سعيد بن جبير: قلت لابن عبّاس: ما اللّوّامة؟ قال: هي النّفس اللّؤوم. وقال مجاهد: هي الّتي تندم على ما فات وتلوم عليه"[10]؛ فهي من اللّوم. وقيل: هي من التّلوّم؛ لكثرة تردّدها وتلوّمها، وأنّها لا تستقرّ على حال واحدة. والحقيقة أنّ عدم ثباتها حين تفعل الشّيء ثمّ تلوم عليه هو التّلوّم، وهو من لوازم اللّوم[11]. وقيل: هي النّفس المتّقيّة الّتي تلوم النّفوس المقصّرة في

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج240/11.
2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج535/4.
3 - يوسف/18.
4 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج5/ج290/5.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج7ج191/12.
6 - المائدة/30.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج4/ج242/6.
8 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج608/1.
9 - القيامة/1-2.
10 ـ إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان. ابن قيّم الجوزيّة. 79.
11 ـ ينظر المصدر نفسه. 80.

التّقوى[1]، أو "هي النّفس الّتي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروها فهي دون النّفس المطمئنّة، وقيل بل هي النّفس الّتي قد اطمأنّت في ذاتها وترشّحت لتأديب غيرها فهي فوق النّفس المطمئنّة. ويقال رجلٌ لُومَةٌ يَلُومُ النّاس، ولُومَةٌ يلُومُهُ النّاس، واللُّومَةُ والمَلاَمَةُ واللاّئمةُ الأمر الّذي يُلاَمُ عليه الإنسانُ"[2]. وقال الشّريف الجرجاني: "هي الّتي تنوّرت بنور القلب قدر ما تنبّهت به عن سِنَة الغفلة، كلّما صدرت عنها سيِّئة بحكم جِبِلَّتِها الظّلمانيّة، أخذت تلوم نفسها وتَنُوبُ عنها"[3]. ونقل الإمام القرطبيّ عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن وغيرهم، أنّ هذه النّفس هي نفس المؤمن الّذي لا تراه إلاّ يلوم نفسه، يقول: ما أردتُ بكذا؟ فلا تراه إلاّ وهو يعاتب نفسه[4].

وقال مجاهد: النّفس هي الّتي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشّرّ لِمَ فعلته، وعلى الخيرِ لِمَ لا تستكثر منه[5]. وقال الحسن في قوله سبحانه: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾؛ أي: "لا يلقى المؤمن إلاّ يُعاتب نفسه، ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه... وقال ميمون بن مهران: التّقيُّ أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح"[6]. ويطلق بعض الباحثين على هذه الحال من حالات النّفس اسم (الضّمير)[7].

إنّ من فضل الله تعالى على عباده أن ترتقي النّفس إلى حالة ساميّة تعود فيها إلى فطرتها النّقيّة فتلوم نفسها على فعل المعصيَة وتحذّر صاحبها من الوقوع فيها قبل حدوثها، وتدعوه للتّوبة. ولقد أقسم الله تعالى بهذه النّفس تعظيما لشأنها كما أقسم بيوم القيامة[8].

---

1 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج419/5.
2 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 511. مادّة (لوم).
3 ـ كتاب التّعريفات. 334. مادّة (النّفس).
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. ج92/19-93.
5 ـ ينظر المصدر نفسه. ج93/19.
6 ـ إحياء علوم الدّين. أبو حامد الغزالي. ج56/5، وينظر إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان. ابن قيّم الجوزيّة. 80-81.
7 ـ ينظر منهج الإسلام في تزكية النّفس. أنس أحمد كرزون. 49.
8 ـ ينظر المرجع نفسه. 48.

4 – النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1]. فالشّاهد في الآية هو قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾؛ أي: هي النّفس الآمنة، المؤمنة[2]، المخبتة، المصدّقة[3]، المتيقّنة بالحقّ، فلا يخالجها شكّ، الآمنة الّتي لا يستفزّها خوف ولا حزن[4]، الّتي أيقنت أنّ الله تعالى هو ربّها، وضربت جأشا لأمره[5]، وأيقنت بلقائه، وبُشِّرت بالجنّة عند الموت، ويوم الجمع، وعند البعث[6]، وهي "النّفس الّتي اطمأنّت إلى وعد الله الّذي وعد أهل الإيمان به في الدّنيا، من الكرامة في الآخرة، فصدّقت بذلك"[7]. فهي مطمئنّة إلى قدر الله تعالى، ومطمئنّة في السّرّاء والضّرّاء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء، لا ترتاب، ولا تنحرف، ولا ترتاع في يوم الهول الرّعيب[8].

قال الشّريف الجرجانيّ: "هي [النّفس] الّتي تَمَّ تنوُّرُها بنور القلب حتّى انخلعت عن صفاتها الذّميمة وتخلَّقَتْ بالأخلاق الحميدة"[9]. ولا يحصل لها هذا الاطمئنان والاستقرار والثّبات إلاّ بذكر الله تعالى الدّائم، على كلّ الأحوال[10].

---

1 - الفجر/27-30. "قيل: نزلت في حمزة، وقيل في خبيب بن عديّ الذي صلبه أهل مكّة وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللّهمّ إن كان لي عندك خير فحوّل وجهي نحو قبلتك، فحوّل الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوّله". الكشاف. الزّمخشري. مج4/254.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج30/209.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. مج15/ج30/208.

4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج31/164، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج8/467، والكشاف. الزّمخشري. مج4/254، وتفسير النّسفيّ، المسمّى بمدارك التّنزيل وحقائق التّأويل. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. (ت701هـ). راجعه: إبراهيم محمّد رمضان. بيروت. لبنان. دار القلم. ط1/1408هـ/1989م. مج3/1963.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج30/208.

6 ـ ينظر المصدر نفسه. مج15/ج30/209.

7 ـ المصدر نفسه. مج15/ج30/207.

8 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج30/3907.

9 ـ كتاب التّعريفات. 334. مادّة (النّفس).

10 ـ يقول محمود الألوسيّ: "والنّفس قيل: بمعنى الذّات ووصفت بالاطمئنان بذلك لأنّها لترقى بقوّتها العاقلة في معارج الأسباب والمسبّبات إلى المبدإ المؤثّر بالذّات جلّت صفته وأسماؤه فتضطرب وتقلق قبل الوصول على معرفته تعالىن فإذا وصلت غليه عزّ وجلّ اطمأنّت واستغنت به سبحانه عن وجودها وسائر شؤونها ولم تلتفت على ما سواه جلّ وعلا بالكلّيّة، وقيل: هي النّفس المؤمنة المطمئنّة إلى الحقّ الواصلة إلى ثلج اليقين وبرودته بحيث لا

5 – النَّفْسُ الرَّاضِيَّةُ:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾، و ﴿ رَاضِيَة ﴾ هي الّتي رضيت بما أعطاها الله تعالى من كرامة وكلّ ما تطمح إليه[1]، راضيّة عمّا عملتْ في الدّنيا، وغير ساخطة لا في الغِنَى ولا في الفقر، ولم تتجاوز حدود الله[2]، وراضيّة بما أوتيت من النّعم الّتي لا تتناهى، ورضيت بما نالته من خفة الحساب وقبول الأعمال[3].

6 – النَّفْسُ المَرْضِيَّةُ:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾، و﴿ مَّرْضِيَّة ﴾ "اسم مفعول وأصله مرضيا عنها.. والمقصود من هذا الوصف زيادة الثناء مع الكناية عن الزيادة في إفضاء الإنعام لأن المرضي عنه يزيده الراضي عنه من الهبات والعطايا فوق ما رضي به هو"[4]، وقيل: راضية عن ربّك مرضيّة عنده بما عملت[5]. وقيل: الوصفان ﴿ رَاضِيَة ﴾ و﴿ مَّرْضِيَّة ﴾ "منصوبان على الحال، والظّاهر أنّ الحال الأولى مقدّرة، وقيل مقارنة وذكر الحال الثّانيّة من باب التّرقّي"[6]. وزيادة في المدح والثّناء على نفس المؤمن[7].

يخالطها شكّ ما ولا يمازجها سخونة اضطراب القلب في الحقّ أصلا وهو وجه حسن والارتباط عليه أنّ النّفس هي المتّعظة الذّاكرة". روح المعاني. مج15/ج30/438.

1 - ينظر تفسير التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور. مج 12/ج30/343، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفيّ. مج3/1964، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج4/254.

2 - ينظر تفسير المراغيي. أحمد مصطفى المراغي. مج10/422.

3 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج 15/ج30/439.

4 - تفسير التحرير والتنوير. الطّاهر بن عاشور. مج 12/ج30/343.

5 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج 15/ج30/439، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج8/467، والكشاف. الزّمخشري. مج4/254، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفي. مج3/1964.

6 - روح المعاني. الألوسي. مج 15/ج30/439.

7 - "قيل: النّفس [في هذه الآية] الرّوح ومعناه ادخلي في أجساد عبادي". الكشّاف. الزّمخشريّ. مج4/254، وينظر تفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفي. مج3/1964.

رابعا: دلالات "النّفس" في القرآن الكريم:

إنّ المتأمّل في آيات الكتاب العزيز، مقلّب النّظر في كلماته وجمله وأسيقته، يستكشف كثيرا من المواقف اللّغويّة والدّلالات المتنوّعة الّتي لا تبدو إلاّ بعد تكرار القراءة والتّأمّل الدّقيق. وكلّما وقع النّظر على لفظ "نفس" في القرآن الكريم؛ في سوره وآياته، يستوقف السّياقُ البصرَ ليتدبّر، فلا يلبث أن يهتدي إلى معانٍ خاصّة هي بنت كل موضع على حدة. مثل الذّات الإلهيّة، والعقوبة (عقوبة الله)، والغيب (غيب الله)، والإنسان، وآدم عليه السلام، والرّوح، والقلب، والقوى المفكّرة في الإنسان، وقوى الخير والشّرّ في الإنسان[1]... وغيرها كثير.

1 – النّفس بمعنى الذّات الإلهيّة: لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلۡ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَـٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2]. هو نداء موجّه إلى الرسّول ﷺ إذا جاءه القوم الّذين يصدّقون بتنزيل الله تعالى وأدلّته وحججه ويقرّون بذلك قولا وعملا، ويسترشدون عن ذنوبهم الّتي سلفت منهم بين الله تعالى وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيّسهم منها، وقل لهم: سلام عليكم: أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها[3]، ليسرّهم ويبشّرهم بسعة رحمة الله ويقبل التّوبة منهم[4]، بشرط استدامة الإصلاح في الشّيء الّذي تاب منه[5].

---

1 ـ لقد اهتُدِيَ إلى هذه دلالات المختلفة بفضل الرّجوع إلى تفاسير القرآن الكريم المتنوّعة، والمعاجم اللّغوية، وكثير من الكتب التّراثيّة، وكتب الدّراسات، (ذكرت في أماكنها في الإحالات وفي قائمة المصادر والمراجع).

2 - الأنعام/54. نزلت هذه الآية وآيات قبلها؛ (51- 55) في قوم ضعفاء كان يجلس معهم الرّسول ﷺ، فاقترح عليه كبار قريش أن يطردهم ليجلسوا معه، فإذا قاموا، عاد إليهم. والقصّة مفصّلة في جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج236/7، ولباب النّقول في أسباب النّزول. السّيوطي. 116.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج244/7.

4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج23/2.

5 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج4/ج144/4.

إنّ الشّاهد في كُلِّ الآيةِ لفظ ﴿ نَفْسِهِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾؛ "أي ألزم نفسه المقدّسة رحمةَ إبدالِ صفاتكم بصفاته لكم لأنّ في الله سبحانه خلفا على كلّ ما فات"[1]. وقد ورد في تفسير الفخر الرّازي: أنّ هذه الآية "دلّت على أنّه لا يمتنع تسمية ذات الله تعالى بالنّفس وأيضا قوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾[2]، يدلّ عليه، والنّفس ههنا بمعنى الذّات والحقيقة، وأمّا بمعنى الجسم والدّم فالله سبحانه وتعالى مقدّس عنه"[3]. وفي قوله: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ توجد مبالغة في الإيجاب، وهذا يقتضي كونه سبحانه راحما لعباده رحيما بهم على سبيل الوجوب. وإذا كان الله تعالى يتصرّف في عبيده كيف شاء وأراد، إلاّ أنّه أوجب الرّحمة على نفسه على سبيل الفضل والكرم[4]. "وقالت المعتزلة: إنّ كونه عالما يقبّح القبائح وعالما بكونه غنيّا عنها، يمنعه من الإقدام على القبائح ولو فعله كان ظالما، والظّلم قبيح، والقبيح منه محال"[5]. ومثل هذه الآية في دلالة "نفس" على الذّات الإلهيّة، قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[6]؛ أي خلقتك، وقوّيتك وعلّمتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتلّغ عبادي أمري ونهيي[7].

2 – النّفس بمعنى العقوبة: لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[8]. إنّ الله تعالى ينهى المؤمنين عن أن يُوالوا

1 ـ روح المعاني. الألوسيّ. مج4/ج217/7.
2 ـ المائدة/116. وقيل: نفسك هنا بمعنى الغيب، وسيأتي الحديث عنها في الصّفحة 168.
3 ـ الرّازي. مج5/ج4/13.
4 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها.
5 ـ المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.
6 ـ طه/41.
7 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج198/11.
8 ـ آل عمران/28. ذكر الطّبري في سبب نزول هذه الآية: "عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير،عن ابن عبّاس قال: كان الحجّاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وبن أبي الحقيق، وقيس بن زيد، قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم. فقال رفاعة بن المنذر بن الزّبير وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النّفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومباطنتهم، لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النّفر إلاّ مباطنتهم ولزومهم، فأنزل الله عزّ وجلّ:

الكافرين على دينهم من دون المؤمنين، ويظاهروهم على المسلمين ويدلّوهم على عوراتهم، ومن يفعل ذلك من المؤمنين فقد بريء منه الله تعالى بارتداده عن دينه[1]. وإنّ للمؤمنين في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين، فلا يؤثروهم عنهم[2]. وقد يباح للمؤمنين أن يداروا الكافرين إذا كانوا في سلطانهم وخافوا على أنفسهم منهم ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾، فيُظهرون الولاية، ويضمرون العداوة، ويحافظون على دينهم، ولا يعينوهم على المسلمين بفعل[3].

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ أي عقاب نفسه[4]. وفي الآية إعذار وموعظة وتهديد بالعقاب[5]؛ فالله تعالى يحذّر المؤمنين بطشه[6] وسخطه ووعيده الشّديد[7] وعذابه وعقوبته بمخالفة أمره ونهيه؛ إذ نهاهم عن تولّي الكافرين من دون المؤمنين[8]. وفائدة ذكر "النّفس" الإيماء إلى أنّ الوعيد صادر منه تعالى وهو القادر على إنفاذه ولا يعجزه شيء عنه[9].

3 – النّفس بمعنى الغيب: لقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾[10]. فالشّاهد في الآية الكريمة لفظ ﴿ نَفۡسِك ﴾ من قوله

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾ ... إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج3/ج279/3، وينظر لباب النّقول في أسباب النّزول. السّيوطيّ. 54-55.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج278/3-279.

2 ـ ينظر الكشاف. الزّمخشري. مج422/1.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج278/3-279.

4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن.القرطبيّ. ج58/4، وتاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج260/4. مادّة (نفس). وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج487/1.

5 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج2/ج221/3.

6 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج443/2.

7 ـ ينظر الكشاف. الزّمخشري. مج422/1.

8 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج26/2، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج2/ج221/3.

9 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج487/1.

10 ـ المائدة/116.

تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾؛ أي تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك[1]؛ لأنّ ما انطوت عليه النّفوس، هو من جملة الغيوب، ولأنّ ما يعمله علاّم الغيوب لا ينتهي إليه علم أحد[2]. "وقيل: المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم. وقيل: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تُخفيه. وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد. تعلم سِرِّي ولا أعلم سرّك، لأنّ السّرّ موضعه النّفس. وقيل: تعلم ما كان منّي في دار الدّنيا، ولا اعلم ما يكون منك في دار الآخرة. قلت: والمعنى في هذه الأقوال متقارب؛ أي تعلم سِرّي وما انطوى عليه ضميري الّذي خلقتَه، ولا أعلم شيئا ممّا استأثرت به من غيبك وعلمك"[3]. وقيل: تعلم معلومي، ولا أعلم معلومك[4]، وما يعلمه الله تعالى هو غيبه لا يعلمه إلاّ هو سبحانه وتعالى.

يقول عيسى عليه السلام لربّه سبحانه: لا يخفى عليك يا ربّ ما أضمرته نفسي ممّا لم يظهر بجوارحي، فكيف بما قد نطقت به وظهر؟ فلو قلت للنّاس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله، كنت قد علمته. إنّك تعلم ضمائر النّفوس ممّا لم ننطق به. ولا أعلم أنا ما أخفيت عنّي ، لأنّي إنّما أعلم من الأشياء ما أعلمتنيه، إنّك أنت العالم بخفيات الأمور الّتي لا يطّلع عليها سواك، ولا يعلمها غيرك[5].

4 – النّفس بمعنى العِنْدُ: لقوله تعالى في الآية: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾[6]، وقد سبقت الإشارة إلى أنّ دلالة "نفس" في هذه الآية هي: "الغيب". ورد في تاج العروس من جواهر القاموس: "النّفس (العِند) وشاهده قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه وعلى نبيّنا محمّد أفضل الصّلاة والسّلام ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ أي تعلم "ما عندي" ولا أعلم "ما عندك" ولكن يتعيّن أن تكون الظّرفيّة حينئذ ظرفيّة مكانة

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج376/6.
2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج655/1.
3 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج376/6.
4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج655/1.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج168/7، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج3/ج115/7.
6 ـ المائدة/116.

لا مكان. "أو حقيقتي وحقيقتك" قال ابن سيده: (أي لا أعلم ما حقيقتك ولا ما عندك علمه) فالتّأويل؛ تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم. والأجود في ذلك قول ابن الأنباريّ: إنّ النّفس هنا "الغيب"؛ أي تعلم غيبي، لأنّ النّفس هنا غائبة أُوقِعت على الغيب ويشهد بصحّته قوله في آخر الآية: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ كأنّه قال: تعلم غيبي يا علاّم الغيوب"[1]. فيميل الزّبيدي في الأخير إلى معنى "الغيب" لتفسير لفظ "نفس" في الآية الكريمة.

5 – النّفس بمعنى الإنسان: في إشارة إلى الجانب المادّيّ العضويّ، لقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]. والشّاهد في الآية لفظ ﴿ نَفْسًا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾؛ هم: المؤمنون، وسع الله عليه أمر دينهم[3]، أي إنّ الله تعالى لا يُكلِّفُ العباد من أفعال القلوب والجوارح إلاّ ما في وسع المكلَّف، ومقتضى إدراكه وبنيته[4]، والوسع: ما يسعه الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه[5]، أو "ما تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدرة وهو ما دون مدى طاقته، أي سنّته تعالى أنّه لا يكلّف نفسًا من النّفوس إلاّ ما تطيق، وإلاّ ما دون ذلك، كما في سائر ما كلّفنا به من الصّلاة والصّيام، مثلا فإنّه كلّفنا خمس صلوات، والطّاقة تَسَعُ ستًّا وزيادة، وكلّفنا صوم رمضان والطّاقة تَسَعُ شعبان معه، وفعل ذلك فضلا منه ورحمة بالعباد، أو كرامة، ومنه على

1- الزّبيدي. مج259/4. مادّة (نفس)، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج14/ 320. مادّة (نفس).
2 - البقرة/286.
3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج3/ج190/3
4 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج429/3، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج381/2.
5 - ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج407/1 و408.

هذه الأمّة خاصّة"[1]. فالحديث يتعلّق في هذا التّفسير بالإنسان الّذي يُعبِّر عنه اللّفظ الوارد في الآية: ﴿ نَفۡسًا ﴾.

وقد ذكر ابن منظور أنّ لفظ "نفس" يُعَبَّرُ بها عن الإنسان جميعه[2]، مثل قوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[3]. ومثل هذه الآية الّتي يدلّ فيها لفظ "نفس" على الإنسان، نجد آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[5]، يقول الطّبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾: "إنّه تحذير من الله تعالى عباده الّذين خاطبهم بهذه الآية عقوبته أن تحلّ بهم يوم القيامة، وهو اليوم الّذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئا، ولا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا"[6]، ويقول الزّمخشريّ: "ومعنى التّنكير أنّ نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئا من الأشياء وهو الإقناط الكلّي القطّاع للمطامع"[7]، والملحوظ في القولين أنّ النّفس إنّما يقصد بها الإنسان. أمّا ابن كثير فيصرّح بأنّ "النّفس" يراد بها الإنسان، فيقول: "أي لا يغني أحد عن أحد"[8]، ومثل هذه الآية في دلالة لفظ "نفس" على الإنسان قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ ﴾[9].

1 - روح المعاني. الألوسيّ. مج2/ج93/3.
2 - ينظر لسان العرب. مج320/14. مادّة (نفس).
3 - الزمر/56.
4 - البقرة/9.
5 - البقرة/48.
6 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج1/ج346/1.
7 - الكشّاف. مج279/1.
8 - تفسير القرآن العظيم. ج155/1.
9 - لقمان/33.

وكذلك دلالة لفظ "نفس" في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1]، هي الإنسان، وظاهر الآية يدلّ على أنّ النّفس تموت[2]. ولابدّ من استقرار هذه الحقيقة في النّفس؛ حقيقة أنّ الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل[3]، وفي الآية إخبار عامّ يعمّ جميع الخليقة بأنّ كلّ نفس ذائقة الموت، وتعزية لجميع النّاس، وهذا ممّا لا محيص عنه للإنسان، فإنّه لا يبقى أحد على وجه الأرض، وينفرد الواحد الأحد القهّار بالدّيمومة والبقاء[4]. كما يدلّ لفظ "نفس" على الإنسان في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[5].

وهذه الآيات جميعها ورد فيها لفظ "نفس" للدّلالة على الإنسان من جنسه العامّ، ومن حيث الفروق الجنسيّة بين الذّكر والأنثى في الإنسان وكذلك في عالم النّبات. لقوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[6]. أي؛ أنزّهه سبحانه وتعالى عمّا لا يليق به عقدا وعملا تنزيها خاصًّا به حقيقة بشأنه عزّ شأنه؛ فلقد خلق، وغيره لم يخلق، وخلق الأزواج ممّا تنبت الأرض من الأزواج المذكورة وغيرها[7]، ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي وخلق الأزواج من أنفسهم، وخلق من أولادهم

1 - آل عمران/185.
2 - ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج3/ج3/139
3 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج4/538.
4 - ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/169.
5 - السجدة/13.
6 - يس/36.
7 - ينظر روح المعاني. محمود الألوسيّ. مج12/ج23/14.

ذكورا وإناثا[1]، ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي والأزواج ممّا لم يطلعهم الله تعالى عليها، و لم يجعل لهم طريقا إلى معرفته بخصوصياته، وإنّما أطلعهم سبحانه على ذلك بطريق الإجمال[2].

6 – النّفس بمعنى آدم عليه السّلام: لقوله تعالى: وفي قوله تعالى أيضا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[3]. فالشّاهد في الآية لفظ "نفسٍ" في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أي؛ آدم عليه السلام، و﴿ زَوْجَهَا ﴾ ؛ حوّاء[4]. وفي قوله تعالى: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ "إشارة إلى ترك المفاخرة والكبر، لتعريفه إياهم بأنّهم من أصل واحد، ودلالة على المعاد لأنّ القادر على إخراج أشخاص مختلفين من شخص واحد فقدرته على إحيائهم بطريق الأولى، وزوجه هي حوّاء، وظاهر منها ابتداء خلق حوّاء من نفسه، وأنّه هو أصلها الّذي اخترعت، وأنشئت منه... ولّما كان قادرا على خلق آدم من التّراب، كان قادرا على خلق حوّاء أيضا كذلك"[5]. ليجعل الله تعالى منهما الزّوجين الذّكر والأنثى.

ومثل هذه الآية الّتي دلّ فيها لفظ "نفس" على آدم عليه السلام قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/23/12.
2 ـ ينظر روح المعاني. محمود الألوسيّ. مج12/ج14/23، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج6/23/12.
3 ـ النساء/1.
4 ـ ينظر مشكل إعراب القرآن ومعانيه. الفرّاء. مج144/1، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج3/ ج270/4-271، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج139/9-140، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج162/3-163. "قال ابن عبّاس: إنّما سمِّيَ آدم بهذا الاسم لأنّه تعالى خلقه من أديم الأرض كلّها أحمرها وأسودها وأطيبها وخبيثها؛ فلذلك كان في ولده الأحمر والأسود والطّيّب والخبيث، والمرأة إنّما سمّيت بحواء، لأنّها من ضلع من أضلاع آدم فكانت مخلوقة من شيء حي، فلا جرم سمّيت بحواء". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج140/9.
5 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج163/3.

خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1]، قال جمهور المفسّرين: المراد بـ ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾: آدم عليه السلام، وبـ ﴿ زَوْجَهَا ﴾: حواء[2]، ليألفها ويأنس بها ويطمئنّ إليها ويسكن بها[3].

وكذلك الدّلالة نفسها في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾[4]، وفي قوله أيضا: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[5]. والشّاهد في الآيات الثّلاث قوله تعالى: ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[6] الدّالّة على آدم عليه السلام.

7 – النّفس بمعنى الرّوح: لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[7]، والشّاهد في الآية لفظ ﴿ أَنفُسَكُمُ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

---

1 - الأعراف/189.
2 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج6/ج172/9، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج337/7.
3 - ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج263/3، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج337/7.
4 - الأنعام/98.
5 - الزمر/06.
6 - وفي المصباح المنير: " النَّفسُ أنثى إن أُريد بها الرّوح قال تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾. وإن أُريد الشّخص فمذكّر". أحمد بن محمّد الفيّومي. 318. مادّة (ن ف س).
7 - الأنعام/93.

ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ وتطلق النّفس على الرّوح الإنسانيّ وهي النّفس النّاطقة[1]. فنفوس بني آ دم إنّما يخرجها من أبدان أهلها ربّ العالمين. فكيف خوطب الكفّار في حال الموت بإخراج أنفسهم ولا قدرة لهم؟ إنّه "مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب. الظّالمون في غمرات الموت وسكراته، والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج... وهم يتابعونهم بالتّأنيب"[2]. فلقد صدر من الله تعالى أمر على ألسن رسله من الملائكة الّذين يقبضون أرواح هؤلاء القوم من أجسامهم، بأداء ما أسكنها ربّها من الأرواح إليه وتسليمها إلى رسله الّذين يتوفّونها[3]؛ ﴿ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي أرواحكم إلى سخط الله تعالى ولعنته وعذابه. وهذه عبارة عن العنف والتّشديد والإلحاح الشّديد في إزهاق الرّوح من غير تنفيس وإمهال، كأنّهم بلغوا في البلاء إلى حيث تولّى بنفسه إزهاق روحه[4].

إنّ مثل هذه الآية الّتي دلّ فيها لفظ "نفس" على الرّوح كثير في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[6]، يتوفّى الأنفسَ، والمقبوض هو الرّوح[7]. وبالتّالي فإنّ النّفس ليس هي الرّوح والرّوح ليست هي النّفس[8].

---

1 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج6/ج91/15.
2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج1149/7.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج321/7.
4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج74/13/5، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج185/4.
5 - التوبة/85.
6 - الزمر/42.
7 ـ ينظر تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج259/4. مادّة (نفس).
8 ـ "قال السّهيليّ: كثرت الأقاويل فلي النّفس والرّوح، هل هما واحدا؟ والنّفس غير الرّوح. وتعلّق قوم بظاهر من الأحاديث تدلّ على أنّ الرّوح هي النّفص كقول بلال: (أخذ بنفسي الّذي أخذ بنفسك) مع قوله صلّى الله عليه وسلّم: (إنّ الله قبض أرواحنا)، وقوله تعالى: (يتوفّى الأنفس) والمقبوض هو الرّوح. ولم يفرّقوا بين القبض والتّوفّي. وألفاظ الحديث محتملة التّأويل ومجازات العرب واتّساعاتها كثيرة. والحقّ أنّ بينهما فرقا، ولو كان اسمين بمعنى واحد

8 – النّفس بمعنى العقل الّذي به تمييز الإنسان عن الحيوان: لقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]؛ إنّ الله تعالى يخبر عباده بأنّه المتصرّف بهم، والمدبّر لأمورهم، في حال نومهم ويقظتهم وحياتهم ومماتهم، وهو سبحانه الّذي ﴿ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ فيستوفيها ويقبضها، وهي النّفس الّتي تكون معها الحياة والحركة[2]، ويتوفّى الأنفس ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ وهي أنفس التّمييز، قالوا: فالّتي تتوفّى في النّوم هي نفس التّمييز لا نفس الحياة لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النَّفَسُ والنّائم يتنفّس[3]. وكون النّفس تقبض والرّوح في الجسد حالة النّوم بدليل أنّه يتقلّب ويتنفّس، هو قول الأكثرين[4]. ورووا عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشّمس، فالنّفس الّتي بها العقل والتّمييز، والرّوح الّتي بها النَّفَسُ والتّحرّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه، ولم يقبض روحه، فيتوفيان معا عند الموت، وتتوفّى النّفس وحدها عندها النّوم. وهذا قول ابن الأنباري، والزّجّاج[5]. وهو قول بالفرق بين النّفس والرّوح، ونسبه بعضهم إلى الأكثرين[6].

كاللّيث والأسد لصحّ وقوع كلّ واحد ونهما مكان صاحبه كقوله تعالى : (ونفخت فيه من وروحي) ولم يقل من نفسي، وقوله: (تعلم ما في نفسي) ولم يقل: ما في روحي، ولا يحسن هذا القول أيضا من غير عيسى عليه السّلام. ويقولون في أنفسهم ولا يحسن في الكلام يقولون في أرواحهم. وقال أن تقول نفسي ولم يقل أن تقول روحي. ولا يقوله أيضا عربيّ. فأين الفرق إذا كان النّفس والرّوح بمعنى واحد. وإنّما الفرق بينهما بالاعتبارات. ويدلّ لذلك ما رواه ابن عبد البر في التّمهيد لحديث انّ الله تعالى خلق آدم وجعل فيه نفسا وروحتا؛ فمن الرّوح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفاؤه، ومن النّفس شهوته وطيشه وسفهه وغضبه. فلا يقال في النّفس هي الرّوح على الإطلاق حتّى لا يقيّد ولا يقال في الرّوح هي النّفس". تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج4/259-260.

1 - الزمر/42.

2 - "قال الزّجّاج: نفس الحياة هي الرّوح وحركة الإنسان ونموّه يكون به". لسان العرب. ابن منظور. مج14/320. مادّة (نفس).

3 - ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج3/400، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/414.

4 - ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/414.

5 - ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج3/400، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج15/261، وروح المعاني. الألوسي. مج12/ج24/352، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج5/69، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج8/267. يقول الزّجّاج: "(لكلّ إنسان نفسان؛ إحداهما نفس التّمييز وهي الّتي تفارقه إذا نام، فلا يعقل بها، يتوفّاها الله، والأخرى نفس الحياة وإذا زالت زال معها النَّفَسُ والنّائم يتنفّس... وقال: نفس الحياة هي الرّوح، وحركة الإنسان ونموّه)". تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيديّ. مج4/259.

6 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج12/ج24/352.

يقول الفخر الرّازي: "﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ يعني أنّه تعالى يتوفّى النفس الّتي يتوفّاها عند الموت يمسكها، ولا يردّها إلى البدن. وقوله: ﴿ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾، يعني أنّ النّفس الّتي يتوفّاها عند النّوم يردّها إلى البدن عند اليقظة، وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمّى"[1]. فالنّفس الأولى هي الرّوح الّتي تقبض ويفارق صاحبها الحياة، والثّانية هي نفس العقل الّذي يكون به التّمييز[2] يرسلها الله تعالى وتبقى إلى أجل مسمّى لا يعلمه إلاّ هو؛ هي نفس التّمييز بين الإنسان والحيوان، ونفس التّمييز ما بين الخير والشّرّ، ويؤكّد هذا ما جاء في تاج العروس؛ "وفلانٌ يؤامر نفسيه إذا اتّجه له رأيان... وبيانه أنّ العرب قد تجعل النّفس الّتي يكون بها التّمييز نفسين وذلك أنّ النّفس قد تأمره بالشّيء أو تنهاه عنه وذلك عند الإقدام على أمر مكروه، فجعلوا الّتي تأمر نفسا، وجعلوا الّتي تنهاه كأنّها نفس أخرى"[3]، والأصل أنّ العقل هو محلّ التّفريق ما بين النّقيضين.

فإذا كان الله تعالى هو الّذي يتوفّى الأنفس حين موتها، هذا لا يناقض أنّه وَكَّلَ ملك الموت وأعوانه بذلك، كما قال تعالى في موضعين آخرين: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾[4]. وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[5]. فمن سنّته سبحانه وحكمته أن جعل لكلّ أمر سببا[6].

9 – النّفس بمعنى القلب[7]: لقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[8]. فـ"المراد

1 ـ تفسير الفخر الرّازي. مج9/ج261/26.
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج320/14. مادّة (نفس).
3 ـ الزّبيدي. مج263/4. مادّة (نفس)، وينظر لسان العرب. ابن منظور. مج320/14. مادّة (نفس).
4 ـ السّجدة/11.
5 ـ الأنعام/61.
6 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 698.
7 ـ ينظر منهج الإسلام في تزكية النّفس. أنس أحمد كرزون. 18.
8 ـ الأعراف/205.

بذكر الله في نفسه كونه عارفا بمعاني الأذكار الّتي يقولها بلسانه مستحضرا لصفات الكمال والعزّ والعلوّ والجلال والعظمة، وذلك لأنّ الذّكر باللّسان إذا كان عاريا عن الذّكر بالقلب كان عديم الفائدة"[1]. فالذّكر المطلوب، ما كان بالقلب واللّسان معًا، وهو أكمل أنواع الذّكر وأحواله، فلقد أمر الله، عبده ورسوله محمّدا أصلا، وغيره تبعا، بذكر الله تعالى مخلصين له[2]، متضرّعين، خائفين منه راجين نعمه، مستحضرين معاني أسمائه وصفاته وآلائه وفضائله عليهم، وحاجتهم إليه[3].

إنّه الذّكر الّذي يكون بالقلب والجِنان، فيرتعش له الوجدان، ويخفق له القلب، وتعشو له النّفس، ويكون مصحوبا بالتّضرّع والتّذلّل والخشية والخوف، فيظلّ القلب موصولا بالله طرفي النّهار، وبالوجود من حوله في كلّ آن، ومراقبا الله تعالى في كلّ لحظة[4]. ومثل هذه الآية، قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾[6]؛ فلقد جاءت فرعونَ وقومَه آيات الله، وأدلّته وحججه على ما دعاهم إليه موسى عليه السلام، فاستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم، وعلموا يقينا أنّها من عند الله، والاستيقان أبلغ من الإيقان، فعاندوا بعد تبيّنهم الحقّ، ومعرفتهم به، وجحدوها بألسنتهم ظُلما وعلُوًّا وعُدوانًا[7]. وفي رأي الطّاهر بن عاشور؛ فإنّ عقولهم هي الّتي استيقنتها وتحقّقتها[8].

1 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج15/90.
2 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 293.
3 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج3/476.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج9/1427.
5 ـ يوسف/77.
6 ـ النمل/14.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج19/150، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج24/165.
8 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. مج8/ج19/232.

10 – النّفس بمعنى قوى الخير والشّرّ في الإنسان: لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[1]. فالشّاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ فالوسوسة: هي الصّوت الخفيّ، ووسوسة النّفس: هي ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النّفس[2]. والمعنى: ولقد خلق الله تعالى الإنسان ويعلم ما تحدّثه به نفسه، وما توسوس به من خير وشرّ، فلا يخفى عليه سرائره وضمائره[3]. فالإنسان قد يؤامر نفسيه إذا اتّجه له رأيان، والعرب قد تجعل النّفس الّتي يكون بها التّمييز نفسين؛ لأنّها تأمره وتنهاه، فجعلوا الّتي تأمر نفسا، وجعلوا الّتي تنهاه كأنّها نفس أخرى[4].

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ. فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[5]؛ هذه حال السّعداء، وفي الوصفين؛ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ و ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ جميع الطّاعات والحسنات[6]. والمعنى: أمّا من خاف مقام ربّه وحذر مساءلته إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه[7]، وأدرك مقدار عظمته وقهره، وغلبة جبروته وسطوته[8]، فاتّقاه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ومحارمه، ونهى نفسه الأمّارة بالسّوء عن اتّباع الشّهوات والهوى فيما يكرهه الله، ولا يرضاه منها،

---

1 - ق/16.
2 - ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج4/5.
3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج26/183، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج6/399.
4 - ينظر تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج4/263. مادّة (نفس).
5 - النازعات/40-41. "وقيل: الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه ابا عزيز يوم أحد، ووقى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بنفسه حتّى نفذت المشاقص في جوفه". الكشّاف. الزّمخشري. مج4/219.
6 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج31/48.
7 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج30/54.
8 - ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج10/324.

فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربّه، وضبطها بالصّبر والتّوطين على إيثار الخير. فمن كان هذا سلوكه، فإنّ الجنّة هي مأواه ومنزله يوم القيامة[1].

إنّ نهي النّفس عن الهوى وتوطينها على الهدى "هو نقطة الارتكاز في دائرة الطّاعة؛ فالهوى هو الدّافع القويّ لكلّ طغيان، وكلّ تجاوز، وكلّ معصية. وهو أساس البلوى، وينبوع الشّرّ، وقلّ أن يؤتى الإنسان إلاّ من قبل الهوى. فالجهل سهل علاجه. ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النّفس الّتي تحتاج إلى جهاد شاقٍّ طويل الأمد لعلاجها. والخوف من الله هو الحاجز الصّلب أمام دفعات الهوى العنيفة"[2]. وهذا يمثّل جانب الخير في دلالة النّفس عليه، والّذي يدعو الإنسان إلى اجتناب الشّرّ.

11 – النّفس بمعنى الأخ[3]: لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[4].

12 – النّفس بمعنى ضمير الإنسان وطويّته وباطنه ونجواه. يقول تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[5]. إي: إن يظهر الإنسان ما في نفسه ما يوجب اتّصافها به من الملكات الرّديئة والأخلاق الذّميمة كالحسد والكبر والعجب أو يخفيه، فإنّ الله تعالى سيجازيه به يوم القيامة[6].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج54/30، والكشّاف. الزّمخشري. مج219/4، وروح المعاني. الألوسيّ. مج15/ج303/30.
2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3819/30.
3 ـ ورد هذا المعنى في لسان العرب. ابن منظور. مج320/14، وينظر تاج العروس من جواهر القاموس. الزّبيدي. مج263/4. مادّة (نفس).
4 ـ النّور/61.
5 ـ البقرة/284.
6 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج2/ج86/3.

13 – النّفس بمعنى الجوانب المكتسبة من الشّخصية الإنسانيّة: تظهر في السّلوك، وعمليات التّفكير، وأنماط الخلق. يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[1]، فالله تعالى عادل مع عباده، "لا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلاّ إذا بعد أن يغيّروا نواياهم، ويبدّلوا سلوكهم. ويكرم هذا المخلوق الإنسانيّ أكبر تكريم، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري، عن طريق حركة الإنسان وعمله، ويجعل التّغيير القدري في حياة النّاس مبنيّا على التّغيير الواقعيّ في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعمله، وأوضاعهم الّتي يختارونها لأنفسهم"[2]. ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾[3]. إي؛ إنّ الله تعالى لا يغيّر ما بالقوم من العافية والنّعمة حتّى يغيّروا ما هم عليه من الحال الجميلة بكثرة المعاصي[4].

خامسا: نماذج لمواقف نفسيّة إنسانيّة في القرآن الكريم:

إنّ الباحث في مجال النّفس الإنسانيّة في القرآن الكريم يجد عدّة مواقف يستطيع أن يستشفّ منها انفعالات شتّى تكون متمركزة على محور عاطفيّ، تتجلّى فيه دوافع محدّدة تؤدّي إلى أنواع أخرى من السّلوك المناسب.

وتوجد في القرآن الكريم نماذج نفسيّة إنسانيّة عديدة ومتنوّعة من غير أن يذكر لفظ "نفس" في الآيات الّتي ترد فيها، بل تفهم من خلال السّياق الّذي يتضمّن ما يدلّ عليها كالأفعال الدّالّة على الدّوافع والانفعالات. نذكر بعضها في الأمثلة الآتيّة:

---

1 - الأنفال/53.
2 - في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1535/10.
3 - الرّعد/11.
4 - ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج352/2.

1 – موقف الأمومة: ويظهر هذا في موقف أمّ موسى عليه السلام من موسى الوليد، وقد أمرها الله تعالى أن ترميه في اليمّ رجاء سلامته، ثمّ أَرسَلت أخته تتقفّى أخباره.. حتّى عاد موسى إلى أمّه لتقرّ عينها ولا تحزن وفاء بوعد الله الصّادق[1]. ونجد هذا الموقف في موضعين من القرآن الكريم:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ . إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ . أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ . إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾[2]. لقد وجّه الله هذا الخطاب إلى موسى عليه السلام. فقال له: ولقد منّنا عليك يا موسى مرّة أخرى حين أوحينا إلى أمّك، أنِ اقذفي ابنك موسى – حين ولدتك – في التّابوت، فاقذفيه في اليمّ، فليلقه اليمّ بالسّاحل. وهو جزاء أُخرِجَ مخرج الأمر، كأنّ اليمّ هو المأمور[3]. و"هكذا يتمّ تدبير الله للطّفل وأمّه الّتي سمعت الإلهام فقذفت بفلذّة كبدها في التّابوت، وقذفت بالتّابوت في اليمّ، فألقاه اليمّ بالسّاحل، ليأخذه عدو لله وعدوّ له، فيكون الأمن بإلقائه بين هذه المخاوف، وتكون النّجاة من فرعون الّذي كان يذبح أطفال بني إسرائيل، بإلقائه بين يدي فرعون بلا حارس ولا معين"[4]. فألقاه اليمّ بمشرعة فرعون، وكان قد أصبح في مجلس له و(آسية) امرأته جالسة إلى جنبه، فالتقطه الخدم[5].

لقد ألقى الله محبّته على موسى، فحبّبه إلى زوجة فرعون، حتّى تبنّته وغذّته وربّته، وإلى فرعون حتّى كفّ عنه عاديته وشرّه. وتسابقت المرضعات إلى بيت فرعون، فلم يأخذ

1 ـ ينظر لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 136.
2 ـ طه/37-40.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج9/ج179/16
4 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2335/16.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج179/16-180.

من أحد من النّساء، فقالت لهم أخته: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ ﴾ فأرسلوها.. فلمّا حضرت أمّه ووضعته في حجرها أخذ ثديها، وسُرَّ أهل فرعون بذلك منه[1]. وردّه الله إلى أمّه كي تقرّ عينها وتبرد، فتطيب نفسها بلقائه ورؤيته ووصوله إليها، ولا تحزن بوصول لَبَنِ غيرها إلى باطنه، ولا يطرأ عليها الحزن بفراقه بعد ذلك، وقد عبّر عن السّرور بقرّة العين[2]، فبلغ لطف الله لها وله، أن ردّ عليها ولدها فقرّت عينها بسلامته، وزال عنها الحزن والغمّ الّذي كان قد ألمّ بها[3]. وعطف عليها نفع فرعون وأهل بيته مع الأمن من القتل الّذي يتخوّف منه غيره، فكأنّهم كانوا من أهل بيت فرعون في الأمانة والسّعة[4]. وتلك منّة منّها الله تعالى على موسى عليه السلام.

الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ. فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ . وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ . وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ . وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ . وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج16/179-180.
2 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. محمّد الأمين الهرَرِيّ الشّافعيّ. مج282/17.
3 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج93/6.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج9/ج180/16.

نَـٰصِحُونَ . فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

2 – دافع الحسد القاتل الّذي يفرّق بين الأخوين، يقول تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ . لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ . فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ . مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[2].

فهذه قصّة تقدّم أنموذجا لطبيعة الشّرّ والعدوان، وأنموذجا كذلك من العدوان الصّارخ الّذي لا مبرّر له. كما تقدّم أنموذجا لطبيعة الخير والسّماحة، وأنموذجا كذلك من الطّيبة والوداعة. وتقفهما وجها لوجه، كلّ منهما يتصرّف وفق طبيعته.. وترسم الجريمة

1 ـ القصص/7-13.

2 ـ المائدة/27-32. "واختلف أهل العلم في سبب تقريب ابني آدم القربان، وسبب قبول الله عزّ وجلّ ما تقبّل منه، ومَن اللذان قرّبا؟ فقال بعضهم: كان ذلك عن أمر الله جل وعزّ إياهما بتقريبه. وكان سبب القبول أنّ المتقبّل منه قرّب خير ماله وقرّب الآخر شرّ ماله، وكان المقرّبان ابني آدم لصلبه...وكان من قصّتهما ما قصّ الله في كتابه، وقال: أيمُ الله إن كان المقتول لأشدّ الرّجلين، ولكن منعه التّحرّج أن يبسط يده إلى أخيه". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج4/ج232/6.

المنكرة الّتي يرتكبها الشّرّ، والعدوان الصّارخ الّذي يثير الضّمير، ويثير الشّعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص والعدل، تكفّ الأنموذج الشّرير المعتدي عن الاعتداء. فما كان هناك مبرّر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه... كما تصون الأنموذج الطّيب الخيّر وتحفظ حرمة دمه. فمثل هذه النّفوس يجب أن تعيش، وأن تُصان، وأن تأمن[1].

إنّ الأخوين في موقف لا يثور فيه خاطر الاعتداء في نفس طيّبة؛ فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النّفس المستقيمة في مجال العبادة والتّقرّب[2]، ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾. ولقد لاح للمقتول بأمارات تغلب على الظّنّ أنّ أخاه يريد قتله فذكر له هذا الكلام ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ . لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ . إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ذكر له هذا الكلام على سبيل الوعظ والنّصيحة، وكان غرضه منه تقبيح القتل العمد في قلبه[3]. ولكن الأنموذج الشّرير طوّعت له ﴿ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾؛ أي سوّلت وسهّلت نفسه عليه الأمر وشجّعته وصوّرت له أن قتل أخيه طوعٌ سهلٌ له[4]، فاندفعت نفسه الشّريرة، فوقعت الجريمة، وقد ذلّلت له (نفسه) كلّ عقبة، وكلّ مانع، وطوّعت له (نفسه) قتل أخيه[5].

يقول الفخر الرّازي في تفسير ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ ﴾: "قال المفسّرون: سهّلت له نفسه قتل أخيه. ومنهم من قال: شجّعته، وتحقيق الكلام أنّ الإنسان إذا تصوّر من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشّيء العاصي المتمرّد عليه الّذي لا يطيعه بوجه البتّة، فإذا أوردت النّفس أنواع وساوسها

1 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج6/874-875.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. مج2/ج6/875-876.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرازي. مج4/ج11/175.
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج6/138.
5 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج6/875 -876.

صار هذا الفعل سهلا عليه، فكأنّ النّفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرّد عليه. فهذا هو المراد بقوله: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾"[1]. فلم يرتدع الجاني، و لم يتزجر، و لم يزل يعزم نفسه حتى قتل أخاه، الّذي يقتضي الشّرع والطّبع، احترامه[2].

3 – الغيرة القائمة ما بين الإخوة في مظاهرها السّلوكيّة السّلبيّة. يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ . إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ . ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ . قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ . قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ . قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ . فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ . قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ . وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[3].

يظهر في الآيات الكريمات مظهر من المظاهر السّلبيّة لداء الغيرة الّذي يفتك بالنّفوس الضّعيفة عندما يكون سبب إثارته مؤذّيا، ويتعلّق الأمر هنا بإيثار يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام

1 - تفسير الفخر الرّازي. مج4/ج176/11.
2 - ينظر تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 208.
3 - يوسف/7- 18.

وأخاه الشّقيق على إخوتهما[1]، وربّما كان يرى فيهما من آثار الرّشد والنّجابة ما لم يجد في سائر الأولاد[2]. ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ويغلي الحقد في نفوس الإخوة "ويدخل الشّيطان، فيختلّ تقديرهم للوقائع، وتتضخّم في حسّهم أشياء صغيرة، وتهون أحداث ضخام. تهون الفعلة الشّنعاء المتمثّلة في إزهاق روح، روح غلام بريء لا يملك دفعا عن نفسه، وهو أخ لهم. وهم أبناء نبيّ – وإن لم يكونوا هم أنبياء – يهون هذا. وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحبّ، حتّى توازي القتل، أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشّرك بالله... وهكذا يسوّل للنّفوس عندما تغضب وتفقد زمامها، وتفقد صحّة تقديرها للأشياء والأحداث"[3]. ومن الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورّث الحقد والحسد[4].

ولمّا قوي الحسد في نفوس الإخوة وبلغ النّهاية وتيقّنوا ألاّ فائدة من الاكتفاء بالكلام أمام موقف أبيهم الّذي شغله يوسف عنهم، نسبوا إليه الضّلال المبين، وانتقلوا إلى مرحلة أخرى قد تأتيهم بالفرج ممّا هم فيه من الغبن، فقرّروا قتل أخيهم أو تغريبه إلى أرض ليحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه[5] ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ وذكروا العلّة فيه ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فإذا فقده أقبل عليهم بالميل والمحبّة إقبالةً واحدةً لا يلتفت عنهم إلى غيرهم، وتسلم محبّته إليهم ممّن يشاركهم فيها وينازعهم إيّاها[6]. ولقد جاء إخوة يوسف عليه السلام بسبب الغيرة والحسد بكلّ خصلة مذمومة، وبكلّ طريقة في الشّرّ والفساد.

4 – الشّائعة ذات الأثر النّفسيّ الخبيث، وهي سلاح استخدمه المنافقون في (حديث الإفك). يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ

1 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج1973/12.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج77/18.
3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج1973/12.
4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج77/18.
5 ـ ينظر المصدر نفسه. مج6/ج78/18.
6 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج6/ج518/12.

خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1]. إنّ الفعلة فيها شائعة، وهذا الحادث، هو حادث الإفك. و"الإفك" اسم

1 - النور/11- 24. ورد في سبب نزول هذه الآيات حديث أخرجه الشّيخان عن عائشة. ينظر لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطيّ. 196- 198.

يدلّ على أبلغ ما يكون الكذب والافتراء[1]، لا شبهة فيه، فهو بهتان يفجأ النّاس، اختلقه المنافقون[2]، وأجمعوا أمرهم على إعلانه وإذاعته بين النّاس، وروّجوه لمقاصد لهم أخفوها، يعلمها الله تعالى[3]. وإنّما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكا لأنّ المعروف من حال عائشة قبل الواقعة الصّون والبعد عن مقدّمات الفجور، ومن كان كذلك كان اللاّئق إحسان الظّنّ به[4].

ولقد كلّف هذا البهتان أطهر النّفوس في تاريخ البشريّة كلّها آلاما هائلة وعميقة لا تُطاق، وكلّف الأمّة المسلمة كلّها تجربة من أشقّ التّجارب في تاريخها الطّويل، وعلق قلب رسول الله ﷺ، وقلب عائشة الّتي يحبّها، وقلب أبي بكر الصّدّيق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطّل علقها بحبال الشّكّ والقلق والألم الّذي لا يطاق، شهرا كاملا في جوّ خانق، فها هي ذي عائشة الطّيبة الطّاهرة تُرمى في أعزّ ما تعتزّ به، تُرمى في شرفها، وفي أمانتها ووفائها، وهي زوج محمّد بن عبد الله، وابنة الصّدّيق، وهي بريئة غافلة. وها هو ذا الرّجل المسلم الطّاهر، صفوان بن المعطّل، يُرمى بخيانة نبيه في زوجه، فيُرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي شرفه، وفي حميته، وهو من كلّ ذلك بريء. وها هو ذا الرّسول ﷺ يُرمى في بيته، وفي طهارة فراشه، وفي صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمّته، وهو المعصوم من كلّ سوء[5]. ويعلم الله تعالى ما لهذه الشّائعة الخبيثة من وقع أليم على النّفس.

5 – معالم التّكوين النّفسيّ للإنسان آدم عليه السّلام، وعداوة الشّيطان له. يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ

1 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج9/ج413/18.
2 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج8/ج169/18-170.
3 ـ ينظر تفسير المراغيّ. أحمد مصطفى المراغيّ. مج333/6.
4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج156/23.
5 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2495/18-2498-2499.

هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ . قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ . قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ . وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ . وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لقد سجد الملائكة امتثالا للأمر العلوي الجليل إلاّ إبليس أبى واستكبر. و"الإباء الامتناع من فعل أو تلقّيه، والاستكبار شدّة الكبر... والمعنى أنّه استكبر على الله بإنكار أن يكون آدم مستحقّا لأن يسجدَ هو له"[2]، وهو خير منه لقوله: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾[3]، وقوله: ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾[4]؛ فلقد قاس إبليس نفسه على عنصره، الّذي هو النّار، وقاس آدم على عنصره الّذي هو الطّين، واستنتج من ذلك أنّه خير من آدم، ولا ينبغي

1 ـ البقرة/30- 38. وفي قوله تعالى في سورة الأعراف/11-27، والإسراء/61- 65.
2 ـ تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ج1/424، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/ج1/304.
3 ـ الأعراف/12.
4 ـ الحجر/33.

أن يُؤمر بالسّجود لمن هو خير منه[1]، فلقد تكبّر وتعاظم في نفسه، وكان الكبر مانعه من السّجود لآدم عليه السلام، وخالفت حاله حال الملائكة.

ونقف عند هذا المقام الّذي ينكشف فيه "ميدان المعركة الخالدة، ما بين خليقة الشّرّ في إبليس، وخليفة الله تعالى في الأرض... المعركة الّتي ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربّه، وينتصر فيها الشّرّ بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهوته"[2]، لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾. فلقد شرّف الله تعالى آدم عليه السلام برتبة العلم وبإسجاد الملائكة له وامتنّ عليه بأن أسكنه الجنّة الّتي هي دار النّعيم[3]، وأباح له ولزوجه كلّ ثمار الجنّة، إلاّ شجرة واحدة، ترمز للغواية والمحظور في الأرض، وتَنْبُتُ بفضل تفاديها وتجنّبها الإرادة، ويُمْتَحَنُ صبر الإنسان على الوفاء بالعهد. فأزلّهما الشّيطان عن الجنّة[4]، وأخرجهما عن طريق الاستقامة بإغوائه وحملهما على أن زلاّ وحصلا في الزّلّة[5]. ولا يخفى ما للفظ ﴿ أَزَلَّهُمَا ﴾ من أثر على "رسم صورة الحركة الّتي يعبّر عنها. وإنّك لتكاد تلمح الشّيطان وهو يزحزحهما عن الجنّة، ويدفع بأقدامهما فتزلّ وتهوي"[6]. ولم يلبثا أن أخرجهما الله تعالى من الجنّة إلى الأرض ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وكان هذا الأمر بالهبوط إلى الأرض "إيذانا بانطلاق المعركة في مجالها المقدّر لها، بين الشّيطان والإنسان،

1 ـ ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. الطّبريّ. ج80/1.
2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج58/1.
3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/ج306/1.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج58/1. وقيل: "أزلّهما عن الشّجرة؛ أي فحملهما الشّيطان على الزّلّة بسببها". تفسير النّسفيّ، المسمّى بمدارك التّنزيل وحقائق التّأويل. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. راجعه: إبراهيم محمّد رمضان (ت701هـ). ط1/1408هـ/1989م. دار القلم. بيروت. لبنان. مج63/1.
5 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/ج312/1.
6 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج58/1.

إلى آخر الزّمان"[1]. إلاّ أنّ الإنسان أدركته رحمة الله تعالى عندما تاب إليه، ولاذ به، وتاب الله عليه.

ويقول تعالى في موضع آخر: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]. فلقد أدرك الشّيطان مكمن نقط الضّعف الفطريّة في الإنسان، "ونسي آدمُ وزوجُه تحت تأثير الشّهوة الدّافعة والقسم المخدّر"[3]، أنّ الشّيطان عدوّهما اللّدود، ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾. وهذا الضّعف الفطريّ في الإنسان – الّذي يدخل منه الشّيطان – يمكن اتّقاؤه بالإيمان والذّكر، لكيلا يكون لكيده الضّعيف من تأثير. وسمع آدم وزوجه العتاب والتّأنيب من الله تعالى على المعصيّة وعلى إغفال النّصيحة، فأدركا خطأهما، وعرفا زلّتهما، فندما وتابا، وتاب الله عنهما.

6 – تصوير النّفس في الجنس الإنسانيّ كلّه. يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4]. فإذا أصاب الإنسان الشّدّة والجهد، استغاث ربّه في كلّ أحواله؛ قائما أو قاعدا أو مضطجعا[5]، وفائدة ذكر هذه

1 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج1/58.
2 ـ الأعراف/20-22.
3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج8/1268.
4 ـ يونس/12.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج11/110.

الأحوال أنّ الّذي تصيبه مصيبة لا يزال داعيا لا يفترّ عن الدّعاء حتّى يزول عنه الضّرّ[1]. "فالإنسان هكذا حقّا: حين يمسّه الضّرّ، وتتعطّل فيه دفعة الحياة، يتلفّت إلى الخلف، ويتذكّر القوّة الكبرى، ويلجأ عندئذ إليها؛ فإذا انكشف الضّرّ، وزالت عوائق الحياة، وانطلقت الحيويّة الدّافعة في كيانه، وهاجت دواعي الحياة فيه، فلبّى دعاءها المستجاب، و(مرّ) كأن لم يكن بالأمس شيء"[2]. ونسي حال الجهد والبلاء، أو تناساه، أو مرّ عن موقف الابتهال والتّضرّع إلى الله تعالى لا يرجع إليه كأنّه لا عهد له به[3]، ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ ﴾. ومثل هذا الأنموذج كثير في ثنايا القرآن، ولكن من جوانب مختلفة؛ يقول تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾[5]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[6]. وهذا النّوع من النّفس الإنسانيّة الضّعيفة كثير الذّكر في القرآن الكريم، فيه إشارة بالغة إلى ضعف الوازع الدّينيّ وانعدام الصّلة ما بين العبد وربّه. ولابدّ أن يكون للإنسان من إيمانه بربّه حصن منيع يقف دونه ودون استسلامه لتقلّبات نفس ضعيفة.

7 – تصوير نماذج من النّفس الإنسانيّة الخاصّة. يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[7]. هذا

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/227 -228، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفيّ. مج672/2.
2 ـ التّصوير الفنّيّ في القرآن. سيد قطب. 217.
3 ـ ينظر تفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفيّ. مج672/2، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج110/11.
4 ـ الإسراء/83.
5 ـ هود/9- 10.
6 ـ المعارج/19.
7 ـ العنكبوت/10. ذُكِرَ في سبب نزول هذه الآية ما يأتي: "حُدِّثتث عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد، قال: سمعت الضّحّاك يقول: قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ ...الآية، نزلت في ناس من المنافقين

أنموذج من النّاس يقول: "أقررنا باللّه فوحّدناه، فإذا آذاه المشركون في إقراره بالله تعالى جعل فتنة النّاس إياه في الدّنيا، كعذاب الله في الآخرة. ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ ننصركم على أعدائكم، كذبا وإفكا"[1]. ذلك هو الإنسان الضّعيف الإيمان، يتمسّك بعقيدته ما ناله الخير منها، فإذا أوذي فيها وابتلي تزعزع وحاد عنها[2].

وقال الزّمخشريّ: "هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا مسّهم أذى من الكفّار وهو المراد (بفتنة النّاس) كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان، كما أنّ عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفا. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ ﴾ أي مشايعين لكم في دينكم ثابتين عليه ثباتكم ما قدر أحد أن يفتننا فأعطونا نصيبنا من المغنم"[3]. فإنّ غرض هؤلاء من الإسلام خير معجّل عند السّرّاء، ورجوع عنه عند الضّرّاء، ولا يمكن أن يكون هؤلاء إلاّ منافقين مذمومين.

ومثل هذه النّفس الضّعيفة المريضة الّتي تصوّرها الآية، نجده في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[4]. فذكر أنّ أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ مهاجرين من باديتهم، فإن نالوا رخاء من عيشٍ وسعَةً بعد الهجرة والدّخول في الإسلام وما يشبهه من أسباب الدّنيا أقاموا على الإسلام واستقرّوا عليه وثبتوا، وإذا أصابتهم فتنة من ضيق بالعيش ارتدّوا على أعقابهم وانقلبوا على وجوههم[5].

بمكّة كانوا يؤنون، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاء من المشركين، رجعوا إلى الكفر مخافة من يؤذيهم، وجعلوا أذى النّاس في الدّنيا كعذاب الله... وذُكِرَ أنّ هذه الآية نزلت في قوم من أهل الإيمان كانوا بمكّة، فخرجوا مهاجرين، فأُدركُوا وأُخِذوا فأعطوا المشركين لما نالهم أذاهم ما أرادوا منهم". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج143/20.

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج142/20.

2 ـ التّصوير الفنّي في القرآن. سيد قطب. ط7. 1402هـ/1982م. دار الشّروق. بيروت. لبنان. 218.

3 ـ الكشّاف. مج198/3-199، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/ج138/7، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج309/4.

4 ـ الحج/11.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج10/ج145/17، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج13/23.

يعبدون الله ﴿ عَلَىٰ حَرۡفٖ ﴾ فالمرء في باب الدّين مُعتمَدُه القلبُ واللّسانُ، فإذا وافق أحدُهما الآخرَ فقد تكامل في الدّين، وإذا أظهر باللّسان الدّين لأغراض وفي قلبه النّفاق، فهو ممّن يعبد الله على حرف[1].

8 – نماذج للنّفس الإنسانّية الّتي نراها كلّ يوم، وهذه أمثلة عنها:

أ – نفوس فيها شرّ:

❁ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾[2]. يخاطب الله تعالى محمّدا ﷺ ويحدّثه عن هؤلاء القوم المنافقين[3] الّذين فسدت بواطنهم، وحسنت ظواهرهم، فكانوا كالأخشاب الجوفاء الّتي نخرها السّوس، فهي مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل[4]. فيصفهم له؛ فإذا "رأيتهم تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها، وهم يشبهون الخشب المسنّدة، لا خير عندهم، ولا فقه لهم، ولا علم، وإنّما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول"[5]. وكان عبد الله بن أبي رجلا جسيما صبيحا فصيحا ذلق اللّسان، وقوم من المنافقين، يحضرون مجلس رسول الله فيستندون فيه. "وقد شُبِّهُوا في استنادهم – وما هم إلاّ أجرام خاليّة عن الإيمان والخير –، بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظانّ الانتفاع. وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبّهوا به في عدم الانتفاع. ويجوز أن يراد بالخشب المسنّدة الأصنام المنحوتة من الخشب المنسدة إلى الحيطان، شبّهوا بها في حسن

---

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج13/23.
2 ـ المنافقون/4.
3 ـ "النّفاق مظهر من مظاهر الضّعف والجبن والغدر وفقد الثّقة بالذّات، وهو دليل على اضطراب صاحبه وقلقه وحيرته، فلا يستقرّ على حال بسبب ضعف في غيمانه أو تفكيره، أو بسبب الحرص على مصالحه الّتي يريد تحقيق أكبر قدر نفعيّ منها على حساب الجماعات القويّة في المجتمع". التّفسير الوسيط. وهبة الزّحيليّ. ج1/356.ط2. 1427هـ/2006م. دار الفكر. دمشق. سورية.
4 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج10/91.
5 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج28/120.

صورهم وقلّة جدواهم"[1]، وفي نفاقهم وفساد بواطنهم، وفي عدائهم الكامل للرّسول وللمسلمين.

يقول تعالى: ﴿ تَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فهم يعرفون أنّهم منافقون ومتيقّنون من هذه الحقيقة إلاّ أنّهم "مستورون بستار رقيق من التّظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون في كلّ لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف. والتّعبير يرسمهم أبدا متلفّتين حواليهم؛ يتوجّسون من كلّ حركة ومن كلّ صوت ومن كلّ هاتف، يحسبونه يطلبهم، وقد عرف حقيقة أمرهم"[2]. وأعدى الأعداء العدو المداجي الّذي يبدي من طرف اللّسان حلاوة، وتحت ضلوعه الدّاء الدّويّ.

❁ يقول تعالى: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[3]، فمن البشر من يأتي بالقبائح، والباطل القوليّ والفعليّ، ويطمئنّ إليه، ويحبّ أن يُحمَدَ ويُشكرَ على الخير الّذي لم يفعله[4]، أو "يأتي بالفعل الّذي لا ينبغي ويفرح به، ثمّ يتوقّع من النّاس أن يصفوه بسداد السّيرة واستقامة الطّريقة والزّهد والإقبال على طاعة الله"[5]. فهؤلاء إمّا أن يكونوا منافقين يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين وتوصّلهم بذلك إلى أغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الّذي لم يفعلوه على الحقيقة[6]، وفي هذه المناسبة تخلّفوا عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين حين ذهبوا إلى الجهاد، ولّما عادوا أسرعوا إلى الرّسول ﷺ وقدّموا له

1 ـ الكشّاف. الزّمخشري. مج4/109.
2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج28/3574-3575.
3 ـ آل عمران/188. قيل في سبب نزول هذه الآية ما يأتي: "وأخرج الشّيخان عن أبي سعيد الخدري؛ أنّ رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلّفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ . فإذا قدم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ ﴾ الآية". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطيّ. 67. "وقال آخرون: عُنِيَ بذلك قوم من أحبار اليهود كانوا يفرحون بإضلالهم النّاس، ونسبة النّاس إياهم إلى العلم". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/248.
4 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعديّ. 141.
5 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج9/116.
6 ـ ينظر تفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفيّ. مج1/278.

اعتذارهم، وأحبّوا أن يكونوا في حكم المجاهدين، ولكنّ العذر حبسهم[1]. أو هم من أحبار اليهود سألهم الرّسول ﷺ عن شيء، فكتموه الحقّ، وقالوا له غير ذلك، ففرحوا بما فعلوا من التّدليس. وكانوا يفرحون بما أتوا من التّأويل والتّحريف للكتاب، ويرون لأنفسهم شرفا فيه، ويحبّون أن يحمدوا بأنّهم حفّاظ الكتاب وعلماؤه[2]، وبأنّهم حفظة الشّريعة وحرّاسها والعالمون بتأويلها، وذلك خلاف الواقع[3]، ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحقّ والإخبار بالصّدق[4].

وكان هؤلاء اليهود أجدر النّاس بدفع المطاعن والشّبه عن نبوّة محمّد ﷺ وصدق رسالته، وأحقّهم بتأييده والذّود عن دينه، لِمَا في كتبهم من البشارة وتوكيد دعوته[5]. وهذه هي حال من يفعل الشّرّ والخسّة ويصرّ عليهما ثمّ لا يتوب، ولا يقف عند حدّ الانكسار لما فعل أو تطلّب السّتر على شنعته؛ بل يرتقي فيترقّب ثناء النّاس على سوء صنعه[6].

إنّ مثل هؤلاء البشر الّذين لا يفعلون شيئا ذا بال، أو عملا مفيدا، ويحبّون أن يحمدهم النّاس بأنّهم أهل البرّ والتّقوى والصّدق والدّيانة، وأن يشكروهم على أمر لم يفعلوه؛ إنّ مثل هؤلاء لكثيرون في كلّ زمان وفي كلّ مكان. ولا شكّ أنّ الإنسان يتأذّى بمشاهدة مثل هذه الأحوال، ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي بمنجاة من العذاب، وفائزين بالنّجاة. فأمر الله تعالى نبيه بالمصابرة، وبيّن ما لهم من الوعيد الشّديد[7].

❁ يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج247/4.
2 - ينظر التّفسير الوسيط. وهبة الزّحيليّ. دمشق. سورية. دار الفكر. ط2. 1427هـ/2006م. ج272/1.
3 - ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج2/ج193/4.
4 - ينظر تفسير البيضاويّ. البيضاويّ. ج128/2.
5 - ينظر تفسير المراغيّ. أحمد مصطفى المراغيّ. مج128/2.
6 - ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج2/ج193/4.
7 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج115/9، والتّصوير الفنّيّ في القرآن. سيد قطب. 220.

﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[1]. إنّهم المنافقون، ينتظرون ما يتجدّد للمؤمنين من ظفر أو إخفاق[2]، وما يحدث لهم من خير أو شرّ؛ فإن انتصروا على الكافرين أن يكونوا معهم، وإن دارت الدّائرة عليهم فانتصر الكافرون أن ينحازوا إلى صفّهم. فإذا تغلّب المؤمنون وفتح الله تعالى عليهم فتحا على عدوّهم ونصرهم، وأفاء عليهم فيئا من المغانم، قال لهم المنافقون: ألم نؤيّدكم ونظاهركم، ألم نكن نجاهد معكم عدوّكم، ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيبا من الغنيمة. وإذا كان للكافرين نصيب من الظّفر، قالوا لهم: ألم نغلب عليكم حتّى قهرتم المؤمنين، ونمنعكم منهم بتخذيلنا إياهم، وثبّطناهم عنكم، وخيّلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم في قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم حتّى امتنعوا منكم فانصرفوا[3]، فهاتوا نصيبا لنا ممّا أصبتم منهم.

إنّها صورة زريّة منفّرة للمنافقين، وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفّار بوجه آخر، ويَتَلَوَّوْن كالدّيدان والثّعابين. وهم يكنّون للمسلمين من الشّرّ.. ويتظاهرون بمودّتهم حين يكون لهم فتح من الله ونعمة، ويظاهرون عليهم أعداءهم إن كان لهم نصيب عليهم[4]. ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ حيث لا مجال للكيد والتّآمر، ولا مجال لإخفاء مكنونات الصّدور، وزيغ النّفوس وتذبذبها[5]. وجعل الأمر في الدّنيا دُوَلاً تَغلِبُ الكفّار تارة وتُغلب أخرى، بما رأى من الحكمة وسبَقَ من الكلمة[6].

فكم هم الّذين يأكلون على جميع الموائد ويُداجون أصحابها، ويجاملونهم لأجل أغراضهم، ويتظاهرون بأنّهم أولياء كلّ فريق، ومناصروه، وبأنّهم ضروريّون لكلّ فريق، ولا مناص من وجودهم إلى جنبه[7]، وهم حيث تميل الرّيح يميلون.

---

1 ـ النّساء/141.
2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج1/573.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج5/404، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/573، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج5/418 -419، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد النّسفيّ. مج1/358-359، والتّفسير البسيط. وهبة الزّحيليّ. ج1/397-398.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج5/781.
5 ـ ينظر المرجع نفسه. مج2/ج5/782.
6 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج419 -420.
7 ـ ينظر التّصوير الفنّيّ في القرآن. سيد قطب. 220

❁ يقول تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[1]. هذه صفة أخرى من صفات اليهود الّتي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم إلى صفات سبقت في الآيات السّالفة ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]. فهؤلاء اليهود أشدّ النّاس حرصا على الحياة الدّنيا من الّذين كفروا وأشدّهم كراهة للموت، لعلمهم بالبعث يوم القيامة، ولعلمهم بما لهم في الآخرة من الخزي والهوان الطّويل، وأنّهم صائرون إلى النّار لا محالة، وفي هذا توبيخ عظيم. أمّا أهل الشّرك فلا يصدّقون بالبعث، ولا بالعقاب[3]، ولا يعرفون إلاّ هذه الحياة لأنّها جنّتهم، ولا علم لهم من الآخرة[4]. فاليهود أحرص على أية ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ بهذا التّجهيل والتّنكير والإبهام؛ لأنّه أريد بها فرد نوعيّ، وهي الحياة المتطاولة غير معلومة المقدار[5]، أو بهذا التّحقير والتّصغير؛ لأنّه أريد بها الحياة بأي ثمن، كيفما تكن، فهم يحرصون عليها ويقبلون في سبيلها ما لا يقبله ذو عزّة نفس وكرامة، والحياة الحقيقيّة هي الأخرويّة[6] ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴾[7] أي؛ حياة باقية لا موت فيها.

1 ـ البقرة/96. لقد نزلت هذه الآية والآيات الّتي سبقتها في اليهود. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج1/ج1/549.
2 ـ البقرة/94 -95.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج1/ج1/549-550، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/298.
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج2/34، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/298.
5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/298، وروح المعاني. محمود الألوسيّ. مج1/ج1/457.
6 ـ التّصوير الفنّيّ في القرآن. سيد قطب. 222.
7 ـ العنكبوت/64.

ب – نفوس فيها خير:

❁ يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[1]. إنّ الله تعالى لا يُضيع أجر المؤمنين "الّذين دعاهم الرّسول ﷺ إلى الخروج معه كرّة أخرى غداة المعركة المريرة [معركة أُحُد]. ومنهم مُثخنون بالجراح. وهم ناجون بشقّ الأنفس من الموت أمس في المعركة. وهم لم ينسوا بعد هول الدّعكة، ومرارة الهزيمة، وشدّة الكرب. وقد فقدوا من أعزّائهم من فقدوا، فقلّ عددهم، فوق ما هم مُثخنون بالجراح.. ولكنّ الرّسول ﷺ دعاهم.. ولعله ﷺ شاء ألاّ يكون آخر ما تنضمّ عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم، هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش، وتعقّبها، كي يقرّ في أخلادهم أنّها تجربة وابتلاء، وليست نهاية المطاف. وأنّهم بعد ذلك أقوياء.. متى نفضوا عنهم الضّعف والفشل، واستجابوا لدعوة الله والرّسول"[2]. ولقد استجاب هؤلاء الّذين قال لهم النّاس: إنّ النّاس قد جمعوا لكم الجموع والرّجال للقائكم وخوّفوكم بكثرة الأعداء[3]، والكرّة إليكم لحربكم، فاحذروهم، واتّقوا لقاءهم، فإنّه لا طاقة لكم بهم[4].

---

1 ـ آل عمران/173. قال تعالى في الآيتين السّابقة واللاحقة: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ آل عمران/172- 174. ذكر في سبب نزول هذه الآيات ما يأتي: "أخرج الطّبراني بسند صحيح عن ابن عبّاس قال: لمّا رجع المشركون من أُحُدٍ، قالوا: لا محمّدًا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله فندب المسلمين فانتدبوا حتّى بلغ حمراء الأسد أو بئر أبي عتبة، فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ الآية. وقد كان أبو سفيان قال للنّبيّ ﷺ : موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأمّا الجبان فرجع، وأمّا الشّجاع فأخذ أهبة القتال والتّجارة، فأتوه فلم يجدوا به أحدا وتسوّقوا فأنزل الله: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطيّ. 66. وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج87/9.

2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج519/4.

3 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج160/2، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج3/ج216/4.

4 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها، والمصدر نفسه، والصّفحة نفسها.

لقد ترتّب على تخويفهم لهذا الجمع الّذي جمعوه، شيئان؛ أحدهما: قلبيّ إيمانيّ، يتمثّل في حصول طمأنينة في القلب تقابل الخشية، والثّاني: أنّ الله تعالى كافيهم شرّ النّاس[1]، فما اكترث هؤلاء المؤمنون لذلك التّخويف والتّثبيط، بل زادهم الأمر إيمانا، ويقينا إلى يقينهم، وتصديقا لله تعالى ولوعده ووعد رسوله ﷺ. وساروا لما أمرهم الله تعالى به، وقالوا: حسبنا الله، وكفانا، وهو نعم الوكيل[2]. فتلك النّفوس لا تعرف إلاّ الله وكيلا، وترضى به وحده، وتزداد إيمانا به في ساعة الشّدّة[3]. وهذه الصّفة النّفسيّة واحدة من صفات الّذين استجابوا لله تعالى والرّسول ﷺ.

❁ يقول تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمٗا ﴾[4]. إنّهم عباد مؤمنون ذكرهم الله بعد أن "ذكر جهالات المشركين وطعنَهم في القرآن والنّبوّة، وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته تشريفا لهم؛ فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الّذي يستحقّ اسم العبوديّة، ومن كان عكس هذا شمله قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَـٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ ﴾[5]، يعني في عدم الاعتبار"[6]. وصفات عباد الرّحمن ليست في سواهم، يختصّون بها دون غيرهم. الصّفة الأولى الّتي يتحلّون بها، هي أنّهم؛ إذا مشوا في الأرض، يمشون هونا، بالحلم والتّؤدة والسّكينة والوقار واللّين والرّفق والتّواضع وحسن سمت، لا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا، يمشون بسجاياهم الّتي جبلوا عليها غير متكلّفين لما لا يُلحق بهم غضاضة

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج124/3.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج3/ج216/4.
3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج520/4. ويقول الفخر الرّازي: "هذه الواقعة تدلّ دلالة ظاهرة على أنّ الكلّ بقضاء الله وقدره، وذلك لأنّ المسلمين كانوا قد انهزموا من المشركين يوم أحد، والعادة جاريّة بأنّه إذا انهزم أحد الخصمين عن الآخر، فإنّه يحصل في قلب الغالب قوّة وشدّة استيلاء، وفي قلب المغلوب انكسار وضعف، ثمّ إنّه سبحانه قلب القضية ههنا، فأودع قلوب الغالبين وهم المشركون الخوف والرّعب، وأودع قلوب المغلوبين القوّة والحمية والصّلابة، وذلك يدلّ على أنّ الدّواعي والصّوارف من لله تعالى، وأنّها متى حدثت في القلوب وقعت الأفعال وفقها". تفسير الفخر الرّازي. مج4/ج87/9.
4 ـ الفرقان/63.
5 ـ الأعراف/179.
6 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج67/13.

وهو الممدوح[1]، ولا مستكبرين، ولا متجبّرين، لا يجهلون على من يجهل عليهم، ويحيون بطاعة الله تعالى والعفاف غير ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله[2].

❁ يقول تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[3]. لقد خاطب الله تعالى المؤمنين بذلك بعد الهجرة "وأخبرهم بذلك قبل وقوعه تطمينا لقلوبهم، لأنّه إذا تقدّم العلم بالواقع كان قد استعدّ له بخلاف الأشياء الّتي تفاجئ فإنّها أصعب على النّفس، وزيادة ثواب وأجر على ما يحصل لهم من انتظار المصيبة وإخبارا بمغيب يقع وفق ما أخبر، وتمييزا لمن أسلم مريدا وجه الله ممّن نافق، وازدياد إخلاص في حال البلاء على إخلاص في حال العافية، وحملا لمن لم يسلم على النّظر في دلائل الإسلام إذا رأى هؤلاء المبتلين صابرين على دينهم ثابتي الجأش فيه مع ما ابتلوا به"[4]. وهذا الخطاب لا يراد به خاصّ معين بل عامّ لجميع المؤمنين لا يتقيّد بزمان ولا مكان.

إنّ الله تعالى يخبر المؤمنين بأنّه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور ليعلم من يتّبع الرّسول ممّن ينقلب على عقبيه[5]، وأنّه معلمهم بهذا ليكونوا على يقين منه أنّه يصيبهم، فيوطّنوا أنفسهم على الصّبر ويكونوا أبعد لهم من الجزع[6]؛ فيختبرهم بشيء من خوف ينالهم من عدوّ، وبسنة تصيبهم ينالهم فيها مجاعة وشدّة، وتعذر المطالب عليهم فتنقص لذلك أموالهم، وبحروب تكون بينهم وبين أعدائهم من الكفّار، فينقص لها عددهم. – ولقد

---

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج19/37-38، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج99/3، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج163/5، وروح المعاني. محمود الألوسيّ. مج10/ج57/19.

2 - ينظر المصدر نفسه.37-39. وورد في تفسير قول تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ عن الحسن قوله: "إنّ المؤمنين قوم ذُلّلٌ، ذلّت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح، حتّى يحسبهم الجاهل مرضى، وإنّهم لأصحّاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدّنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن، والله ما حزنهم حزن الدّنيا، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنّة، أبكاهم الخوف من النّار، وإنّه من لم يتعزّ بعزاء الله، تقطّع نفسه على الدّنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلاّ في مطعم ومشرب، فقد قلّ علمه، وحضر عذابه". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج39/19.

3 - البقرة/155-156.

4 - تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/ج623/1.

5 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج2/ج50/2.

6 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج173/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج146/4.

امتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، كما امتحن أصفياءه قبلهم[1] – والصّبر على هذه الأمور واجب إذا كان من قبله تعالى لأنّه يعلم أنّ كلّ ذلك عدل وحكمة[2]، وبشّرهم بالثّواب على الصّبر إذا صبروا – والصّبر ثوابه غير مقدّر[3] – وعلموا أنّ جميع ما بهم من نعمة فمن الله، فيقرّون بعبوديّته، ويوحّدونه بالرّبوبيّة، ويصدّقونه بالمعاد والرّجوع إليه فيستسلمون لقضائه، ويرجون ثوابه ويخافون عقابه، ويقرّون بأنّهم مماليك الله، وأنّهم إليه صائرون بعد الممات، تسليما بقضائه ورضًا بأحكامه[4].

❁ يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[5]. هذه طائفة المتّقين أعدّ الله تعالى لهم – كما ورد في الآية الّتي قبلها – مغفرةً وما يستر عليهم ذنوبهم من رحمته، وما يغطّيها عليهم من عفوه عن عقوبتهم عليها، وأعدّ لهم أيضا جنّة عرضها كعرض السّموات السّبع، والأرضين السّبع – في السّعة والعظم –، إذا ضمّ بعضها إلى بعض[6].

أمّا الآية الّتي بين أيدينا ففيها تفصيل الصّفات الّتي تُمَيِّزُ هؤلاء المتّقين عن غيرهم، فهم: الّذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى في حال السّراء واليسر والمنشط والصّحة والسّعة ورخاء العيش، وفي حال الضّيق والعسر والمكره والمرض والشّدّة والجهد في العيش[7]، ولا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه[8]، وافتتح بذكر الإنفاق لأنّه أشقّ

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج2/ج2/51.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج4/148.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج2/174.
4 ـ ينظر جامع اليان عن تأويل أي القرآن. الطّبريّ. مج2/ج2/52، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج2/176.
5 ـ آل عمران/134. وقال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران/133.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/111.
7 ـ ينظر المصدر نفسه. مج3/ج4/113-114، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج4/206، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج9/7.
8 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/113.

شيء على النّفس وأدلّه على الإخلاص[1]. والّذين يتجرّعون غيظهم عند امتلاء نفوسهم منه[2]، ويسكتون عليه بالصّبر ولا يظهرونه لا بقول ولا بفعل مع قدرتهم على إيقاعه بعدوّهم[3]. والّذين يعفون ويصفحون عن النّاس عقوبة ذنوبهم إليهم، وهم على الانتقام منهم قادرون، فتركوها لهم[4]، وكلّ من استحقّ عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِيَ عنه، والعفو على النّاس أجلّ ضروب فعل الخير[5]. والله تعالى يحب من عمل بهذه الأمور، وهم بذلك محسنون، وإحسانهم عملهم بها[6]، ويكون الإحسان – أيضا – بدفع الضّر عن الغير، مثلما يكون بإيصال النّفع إليهم[7].

سادسا: مميّزات القرآن في هذه المواقف :

تمتاز هذه المواقف النّفسيّة الإنسانيّة بجملة من المميّزات الّتي لا نجدها إلاّ في القرآن الكريم، أهمّها كما يأتي:

1 – تمتاز المواقف النّفسيّة الإنسانيّة في القرآن الكريم بأنّها مواقف صادقة الوقوع؛ أي أنّ احتمال وقوعها مرّة أخرى في حياة النّاس وارد، فهي حقيقيّة تاريخيّة في حياة الإنسان، ولذا فهي وثائق علميّة في تاريخ السّلوك الإنسانيّ للنّفس[8].

2 – تُقدّم بعض المواقف – على الرّغم من صدقها الواقعيّ – أنموذجا نفسيّا وسلوكيّا لبعض النّفوس. فبعض تلك المواقف تقدّم مواطن القوّة في النّفس تأييدا وتعزيزا

---

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/464.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/114، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/113.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج4/206، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/464، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج9/7. ويقول القرطبيّ في موضع آخر: "والغيظ أصل الغضب، وكثيرا ما يتلازمان لكن فُرْقَانُ بينهما، أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنّه يظهر في الجوارح ... ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم. وقد فسّر بعض النّاس الغيظ بالغضب؛ وليس بجيّد. والله أعلم". الجامع لأحكام القرآن.ج4/207.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/114، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/113.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج4/207.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/114.
7 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج9/8.
8 ـ ينظر لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 130-131، والتّصوير الفنّي في القرآن. سيد قطب. 216 وما بعدها.

كما تبين مواطن الضّعف إرشادا لصلاحها واجتنابا لها. هي نماذج إنسانيّة سلوكيّة في مواقف نفسيّة قابلة للوقوع في كلّ جيل[1].

3 – ليست المواقف النّفسيّة في القرآن الكريم واردة لمجرد العرض الفنّيّ الأدبيّ، أو لمجرد التّسجيل التّاريخيّ البحت، بل إنّ جميع المواقف إنّما كانت هادفة لغرض الدّعوة الإسلاميّة والإرشاد والتّربيّة[2].

1 ـ ينظر لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 132.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. 134.

الباب الثّاني

أسماء الأعضاء الظّاهرة في السّياق القرآنيّ

الفصل الأوّل: ملامح الوجه ودلالاتها في السّياق القرآنيّ

الفصل الثّاني: دلالات اليد وحركاتها في السّياق القرآنيّ

الفصل الثّالث: دلالات أعضاء أخرى في السّياق القرآنيّ

الفصل الأوّل

ملامح الوجه ودلالاتها في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "وجه" في القرآن الكريم:

ثانيّا: تعريف لفظ "وجه":

ثالثا: لفظ "وجه" في السّياق القرآنيّ:

1 – إسلام "الوجه" لله تعالى:

2 – وجه الرّسول ﷺ :

أ – تقلّب وجه الرّسول ﷺ في السّماء وتوجيهه إلى البيت الحرام:

ب – إسلام وجه الرّسول ﷺ لله تعالى:

ج – إقامة "وجه" الرّسول ﷺ للدّين حنيفا:

3 – وجه يعقوب عليه السلام :

4 – وجه امرأة عمران عليهما السّلام:

5 – حقيقة البرّ:

6 – علامة وجوه المؤمنين:

7 – موقع الوجه في العبادة:

8 – الوجه في النعيم والعذاب:

أ – الوجه في النّعيم:

ب – الوجه في العذاب:

الفصل الأوّل: ملامح الوجه ودلالاتها في السّياق القرآنيّ

إنّ تقرير الكلام هو أنّ أشرف الأعضاء في جسم الإنسان "الوجه"؛ لأنّه محلّ الحسن والصّباحة، وهو أيضا صومعة الحواسّ، وإنّما يتميّز بعض النّاس عن بعض بسبب الوجه، وأثر السّعادة والشّقاوة لا يظهر إلاّ في الوجه[1].

أوّلا: إحصاء لفظ "وجه" في القرآن الكريم:

ورد لفظ "وجه" في القرآن الكريم اثنتين وسبعين مرّة، في ثمان وثلاثين سورة (ستّ وعشرين سورة مكّيّة، واثنتي عشرة سورة مدنيّة)، وورد بصيغ متباينة ما بين مفرد وجمع، ومضاف وغير مضاف، وإعراب مختلف. والجدول الآتي يبيّن الصّيغ المتنوّعة للفظ "وجه" في القرآن الكريم:

عدد ألفاظ "وجه" في القرآن الكريم[2]					
اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده
وَجْهُ	11	وَجْهَهَا	02	وُجُوهًا	01
وَجْهِكَ	07	وَجْهِيَ	02	وُجُوهَكُمْ	08
وَجْهُهُ	12	وُجُوهٌ	12	وُجُوهُهُمْ	17
المجموع = 72					

ولقد أشرت إلى الموضوعات المختلفة الّتي كان لفظ "وجه" متعلّقا بها، مثل: إسلام الوجه لله تعالى، ووجه الرّسول ﷺ، والوجه في العبادة، والوجه في النّعيم وصوره المختلفة، والوجه في العذاب وحالاته المتنوّعة.

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرّازي. مج253/26/9.
2 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. 743-744. مادة (وجه).

ثانيّا: تعريف لفظ "وجه":

ذكر ابن منظور: الوجه: معروف، والوجه: المحيا[1]. من "وَجُهَ وَجَاهَةً فهو وَجيهٌ، إذا كان له حظّ ورتبة والوَجهُ مُستقبل كلّ شيء، وربّما عُبِّر بالوَجْهِ عن الذّات، ويقال: واجهتَهُ إذا استقبلتَ وجْهَهُ بوجهكَ، ووجّهْتُ الشّيءَ جعلتُهُ على جِهةٍ واحدَةٍ، ووجّهْتُهُ إلى القبلة فتوجّه إليها"[2]. فالمادّة تدلّ على الاستقبال والتّوجّه، ولعلّ هاتين الدّلالتين ملتصقتان بالوجه لأنّ الإنسان إذا وجّه جسمه كان الوجه أوّلا، وإذا استقبل غيره كان بالوجه أوّلا أيضا.

أما في الاصطلاح فالوجه "ما برز من بَدَنِه وواجَه غيره به، وهو أبْينُ من أن يُبيَّن، وأوجهُ من أن يُوَّجه، وهو عند العرب عضو يشتمل على جملة أعضاء، ومحلٌّ من الجسد فيه اربع طرق للعلوم، وله طول وعرض"[3]، وهو الجزء الأعلى من جسم الإنسان وبه العينان والأذنان والفم والأنف، ويعرف به، وهو الّذي يميّز صاحبه ويفرّقه عن غيره، وأول ما يراه الآخرون منه، فيتعرّفون من خلاله على ما يعتمل بداخله. ويرد ذكر هذا اللّفظ عند الشّعراء في سياق المدح للرّجال، والغزل للنّساء[4]. ويمثّل الوجه بملامحه وقسماته مرآة تظهر من خلالها انفعالات ومشاعر المتكلّم والمخاطب[5]. وهذه الخصائص هي الّتي جعلته مميّزا ما بين البشر، وأوّل ما يفرّق بين الشّعوب الوجه بما فيه من القسمات.

يكوّن الوجه في مجموعه نظاما متكاملا؛ وتوجد ما بين عناصره جميعها؛ الجبهة، والعينين والأنف والأذنين والشّفتين والذّقن والفم، علاقة متبادلة، وأعمال وظيفيّة تؤدّيها معا. بالإضافة إلى ما يُسهم به كلّ منها في تكوين المظهر الخارجيّ الكلّي للوجه. وتؤدّي تعابير

---

1 ـ ينظر لسان العرب. مج161/15. مادّة (وجه).
2 ـ المصباح المنير. أحمد بن محمد بن علي الفيومي. 335. مادة (و ج هـ).
3 ـ أحكام القرآن. العربيّ. ج36/2.
4 ـ ينظر التّحليل الدّلالي، إجراءاته ومناهجه. كريم زكي حسام الدّين 193. وينظر المعجم الوسيط. إبراهيم أنيس،وآخرون. ج1015/2. مادة (وجه)، والإشارات الجسمية، دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل. كريم زكي حسام الدين. 170.
5 ـ ينظر الإشارات الجسميّة، دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل. كريم زكي حسام الدّين. 234.

الوجه دورا هامّا في إبراز الحالات الانفعاليّة للإنسان، كالفرح والخوف والدّهشة والحزن والغضب والاشمئزاز والازدراء، وغالبا ما تكون المشاعر الإنسانيّة مقروءة في صفحة الوجه، فالوجه يعبّر كما يعبّر اللّسان[1].

ولقد عبّر القرآن الكريم على كثير من الحالات النّفسيّة عبر قسمات الوجه مثل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ ﴾[2]، وقوله تعال: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[5]. وستأتي الإشارة إلى هذه الآيات في أماكنها.

ثالثا: لفظ "وجه" في السّياق القرآنيّ:

1 – إسلام "الوجه" لله تعالى:

معنى إسلام الوجه لله، إطاعته، وإذعانه وانقياده لله تعالى بامتثال أمره، واجتناب نهيه في حال كونه محسنا، أي مخلصا عمله لله لا يشرك فيه شيئا، مراقبا الله كأنّه يراه، فإن لم يكن يراه، فالله تعالى يراه. والعرب تطلق إسلام الوجه، وتريد به الإذعان والانقياد التّامّ[6]. قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ

1 ـ ينظر أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانيّة في ضوء القرآن الكريم. عودة عبد عودة عبد الله. عمّان. الأردن. دار النّفائس للنّشر والتوزيع. ط1. 1425هـ/2005م. 119-120.
2 ـ البقرة/144.
3 ـ الذاريات/29.
4 ـ يونس/26.
5 ـ الزخرف/17.
6 ـ ينظر فتح القدير. الشوكاني. مج130/1، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشّنقيطيّ. ج309/1.

عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[1]. أسلم بمعنى: استسلم وخضع. وقيل: أخلص عمله[2]. وخصّ الوجه بالذّكر دون سائر جوارحه لكونه أشرف ما يرى من الإنسان؛ وأكرم جوارح ابن آدم عليه، ولأنّه موضع الحواسّ، وفيه يظهر العزّ والذّلّ، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الّذي دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه[3].

يذكر الفخر الرّازي لتخصيص الوجه بالذّكر وجوها: أحدها: لأنّ الوجه أشرف الأعضاء من حيث هو معدن الحواسّ والفكر والتّخيّل، فإذا تواضع كان غيره أولى أن يتواضع. وثانيها: أنّ الوجه قد يكنّى به عن النّفس والذّات. وثالثها: أنّ أعظم العبادات السّجدة، وإنّما تحصل بالوجه[4]. فلا عجب أن يخصّ الوجه بالذّكر والإسلام والاستسلام.

قال تعالى: ﴿ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي تذلّل لطاعته، وأذعن لأمره، واستسلم له وخضع، وإنّما سُمِّيَ المسلمُ مسلماً بخضوع جوارحه وانقيادها لطاعة ربّه[5]، وقد أخلص نفسه كلّها له، لا يشرك به غيره[6]، ولا يعرف له ربّا ولا معبودا سواه[7].

ويقول سيد قطب: "إنّه الاستسلام المطلق لله – مع إحسان العمل والسّلوك – الاستسلام بكامل معناه، والطّمأنينة لقدر الله، والانصياع لأوامره وتكاليفه وتوجيهاته مع الشّعور بالثّقة والطّمأنينة للرّحمة، والاسترواح للرّعاية، والرّضى الوجداني، رضى السّكون والارتياح...كلّ أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله، والوجه أكرم وأعلى ما في

---

1 ـ البقرة/112. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾. النّساء/125، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾. لقمان/22.

2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج75/2.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج1/ج631/1، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج75/2.

4 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. مج2/ج4/4.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج1/ج630/1. وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج393/5، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج455/2.

6 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج305/1. وفتح القدير. الشوكاني. مج519/1، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج78/1.

7 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج566/1.

الإنسان"[1]. فإسلام الوجه لله هو تسليم الذّات لكلّ الأوامر الّتي تأتي من الله تعالى أي شدّة الامتثال والانصياع[2].

2 – وجه الرّسول ﷺ :

أ – تقلّب وجه الرّسول ﷺ في السّماء وتوجيهه إلى البيت الحرام:

قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[3].

كان النّبيّ ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس ويهوى القبلة نحو البيت الحرام[4]، لأنّ اليهود كانوا يكثرون اللّجاج والحجاج – وهم حينئذ أكثر سكان المدينة المنوّرة[5] – ويقولون عنه ﷺ: يتبع قبلتنا، ويخالفنا في ديننا[6]. ووجدوا في ذلك – تجاه المسلمين – وسيلة للتّمويه والتّضليل والبلبلة والتّلبيس[7]. فشقّ ذلك على النّبيّ ﷺ، فرفع وجهه إلى السّماء ينتظر من الله جلّ ثناؤه أمره بالتّحويل نحو الكعبة[8]، فأجابه الله تعالى ووجّهه إلى ما كان يهوي ويشتهي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تردّد الوجه الكريم للرّسول ﷺ، في السّماء، وتحوّله في جميع جهاته، لزيادة اهتمامه في البحث عن قبلة أخرى، ولأنّ تقليب الوجه يستلزم تقليب

---

1 ـ في ظلال القرآن. مج5/ج2793/21.
2 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ج674/1.
3 ـ البقرة/144. يقول ابن كثير: "كان أوّل ما نسخ من القرآن الكريم القبلة، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه سلّم، لمّا هاجر إلى المدينة المنوّرة كان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾". تفسير القرآن العظيم. ج338/1.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج25/2.
5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج338/1.
6 ـ يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج26/2.
7 ـ يراجع في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج133/2.
8 ـ يراجع جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج26/2.

البصر[1]. وقد خُصَّت السّماء بالذّكر لأنّها مختصّة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها كالمطر والرّحمة والوحي[2].

إنّنا نجد – في الآية الكريمة – تعبيرا مصوّرا لحاله ﷺ، ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ "وهو يشي بتلك الرّغبة القويّة في أن يوجّهه ربّه قبلة غير القبلة الّتي كان عليها... فكان صلّى الله عليه وسلّم يقلّب وجهه في السّماء ولا يصرّح بدعاء، تأدّبا مع ربّه، وتحرّجا أن يقترح عليه شيئا، أو يقدّم بين يديه شيئا"[3]. لقد أشارت الآية إلى حال الرّسول ﷺ، دون مقاله، وخصّ الوجه بالذّكر لأنّه أكرم ما في الإنسان وأشرفه.

لقد أجاب الله تعالى نبيه إلى ما يرضيه: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ أي فلنوجّهنّك إلى قبلة تحبّها، وكنت تهواها وتشتهيها، ليخالف اليهود وتطمئنّ نفسه ﷺ. ولابدّ أن يتّجه إليها بكلّه وذاته، وجاء الأمر: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ والوجه يمثّل هذا الكلّ وهذه الذّات.

تكرّرت الآية ثلاث مرّات في سورة البقرة وفي مواضع متقاربة[4]، وتكرّر معها الأمر باستقبال القبلة بيت الله الحرام[5]، وتكرّر ذكر وجه الرّسول الكريم أيضا[6].

---

1 ـ ينظر فتح القدير. الشوكاني. مج153/1، وتيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 64.

2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج158/2.

3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج133/2/ج1.

4 ـ قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ البقرة/144، و﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ البقرة/149، و﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة/150.

5 ـ قال ابن كثير: " وقد اختلفوا في حكمة هذا التّكرار ثلاث مرّات، فقيل: تأكيد لأنّه أوّل ناسخ وقع في الإسلام على ما نصّ عليه ابن عبّاس. وغيره، وقيل هو منزّل على الأحوال، فالأمر الأوّل لمن هو مشاهد الكعبة، والثّاني لمن هو في مكّة غائبا عنها، والثّالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهة فخر الدّين الرّازي. وقال القرطبيّ: الأوّل لمن هو بمكّة، والثّاني لمن هو في بقية الأمصار، والثّالث لمن خرج في الأسفار، ورجّح هذا الجواب القرطبيّ، وقيل: إنّما ذكر ذلك لتعلّقه بما قبله أو بعده من السّياق". تفسير القرآن العظيم. ج343/1.

6 ـ وقال سيد قطب عن سبب تكرار الأمر: "هو إبطال حجّة أهل الكتاب، وحجّة غيرهم ممّن كانوا يرون المسلمين يتوجّهون إلى قبلة اليهود، فيميلون إلى الاقتناع بما يذيعه اليهود من فضل دينهم على دين محمّد، وأصالة قبلتهم ومن

ب – إسلام وجه الرّسول ﷺ لله تعالى:

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1].

إنّ الله تعالى يلقّن نبيه ﷺ فصل الخطاب في موقفه من أهل الكتاب والمشركين من العرب إنْ هم حاجّوه – في التّوحيد وفي الدّين – ليُحسم الأمر بينهم على بيّنة[2] ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أي أخلصت نفسي وجملتي[3]، وذاتي[4] لله وحده، وانقدت له وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي[5]، وأخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له[6]. "وإنّما خصّ جلّ ذكره بأمره بأن يقول: أسلمت وجهي لله، لأنّ الوجه أكرم جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الّذي اتّبعني أيضا وجهه لله معي"[7]. وإذا أسلم الوجه فإنّما صورة من صورة الانقياد لله والخضوع له.

ج – إقامة "وجه" الرّسول ﷺ للدّين حنيفا:

لقد سبق أن أشرنا إلى أنّ الوجه هو الذّات وهو الشّخص نفسه. وحين يأتي الأمر– في القرآن الكريم – إلى الرّسول ﷺ بأن يقيم وجهه للدّين حنيفا، فإنّما المقصود هو شخصه

ثمّ منهجهم، ومن مشركي العرب الذين كانوا يجدون في هذا التّوجيه وسيلة لصدّ العرب الذين يقدّسون مسجدهم وتنفيرهم من الإسلام الذي يتّجه أهله شطر قبلة بني إسرائيل". في ظلال القرآن. مج1/ج137/2.

1 ـ آل عمران/20.

2 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج380/3.

3 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج1/419، وروح المعاني. الألوسيّ. مج2/ج161/3.

4 ـ ينظر فتح القدير. الشوكاني. مج326/1.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج262/3.

6 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج23/2.

7 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج262/3، وينظر فتح القدير. الشوكاني. مج326/1.

ﷺ، ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[1] أي: "فتوجّه بكلّيتك إلى الدّين المستقيم في الإسلام"[2]، فإذا خضع الوجه خضع معه البدن كلّه، والحواسّ وكلّ الجوارح. ولقد جاء الأمر الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3]، في مقام الرّدّ على المشركين الّذين شكّوا في أنّ الدّين الّذي يدعوهم إليه الرّسول ﷺ هو الحقّ، وفي قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4]، بمناسبة الكلام على الأهواء المتفرّقة، والأحزاب المختلفة، وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾[5]، بمناسبة الكلام على الشّركاء والرّزق ومضاعفته، وعلى الفساد. والمقصود أن: أقم نفسك على دين الإسلام حنيفا مستقيما عليه[6]، وسدّد وجهك نحو الوجه الّذي وجّهك إليه ربّك لطاعته[7]، والملّة المستقيمة الّتي لا اعوجاج فيها عن الحقّ[8]، مائلا عن كلّ ما عداه، مستقيما على نهيه دون سواه[9]، واستمر على الدّين الّذي شرعه الله لك ولقومك من الحنيفيّة ملّة إبراهيم عليه السلام [10]، وأخلص العبادة لله وحده[11]، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا[12]، فإنّ من اهتمّ بالشّيء عقد عليه طرفه وسدّد إليه نظره وقوّم له وجهه مقبلا به عليه[13]. فهذا الدّين هو العاصم من الأهواء المتفرّقة الّتي لا تستند على حقّ، ولا تستمدّ من علم[14].

---

1 - يونس/105.
2 - صفوة التفاسير. محمد علي الصّابوني. ج443/2.
3 - يونس/105.
4 - الروم/30.
5 - الروم/43.
6 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج204/11 .
7 - ينظر المصدر نفسه. مج11/ج43/21، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج358/5.
8 - ينظر المصدر نفسه. مج11/ج55/21.
9 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2767/21.
10 - ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج358/5.
11 - ينظر المصدر نفسه ج532/3-533
12 - ينظر الكشاف. الزّمخشري. مج256/2.
13 - ينظر المصدر نفسه. مج222/3.
14 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2767/21.

إنّ إقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوّة على الجدّ في أعمال الدّين[1]. يقول سيد قطب: "والصّورة الّتي يُعبرُ بها عن الاتّجاه إلى الدّين القيّم صورة موحيّة معبّرة عن كمال الاتّجاه وجدّيته، واستقامته: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ ﴾، فيها الاهتمام والانتباه والتّطلّع، واستشراف الوجهة السّامية والأفق العاليّ والاتّجاه السّديد"[2]. وعندما يتّجه الوجه لله تعالى، فلا محالة يتّجه معه الكيان كلّه، ويستقيم على الطّريقة.

3 – وجه يعقوب عليه السلام :

لقد ورد ذكر وجه يعقوب عليه السلام في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم:

أ – حين تحاور إخوة يوسف عليه السلام وتشاوروا في حلٍّ يمكّنهم من القضاء على يوسف والاستئثار بحبّ أبيهم. قال تعالى: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾[3]، أي أعدموا الّذي يزاحمكم في حبّ أبيكم[4] ليخلو لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف[5]، ويقبل عليكم بكلّيته[6] إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم[7]، فعند ذلك يخلص ويصفو لكم وجه أبيكم[8]، ويتفرّغ لكم، ويقبل عليكم بالشّفقة والمحبّة[9]. ولقد ذكر الوجه لتصوير معنى أن يُقبل يعقوب عليه السلام عليهم وأن يخلو إليهم، لأنّ الرّجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه[10].

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج24/14.
2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2773/21.
3 ـ يوسف/9.
4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج11/4.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج180/12.
6 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج131/9.
7 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج305/2.
8 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمد علي الصّابوني. ج38/2.
9 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 372.
10 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج305/2.

أمّا بعد الجريمة فيتوبون ويصلحون ما أفسدوا ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾ أي تحدثوا توبة بعد ذلك فيتقبلها الله منكم[1]، ويعفو عنكم وتكونوا قوما صالحين.

ب – حين أمر يوسف عليه السلام إخوته بإلقاء القميص على وجه أبيه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[2]، فلقد أرسل يوسف عليه السلام إخوته – بعدما تعرّفوا عليه – بقميصه ليلقوه على وجه أبيه، والمقصود بهذا السّلوك العين[3]، أي ليلمس القميص عيني يعقوب عليه السلام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَأۡتِ بَصِيرٗا ﴾.

ج – في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[4]، حين ألقى البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام – أي على عينيه – ﴿ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ ﴾؛ أي عاد بصيرا لما حدث له من السّرور والانتعاش[5].

4 – وجه امرأة عمران عليهما السّلام:

قال تعالى: ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾[6]. إنّ الإقبال في هذه الآية ليس إقبال نقلة من موضع إلى موضع، وإنّما هو كقول من يقول: أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي[7]. فلقد أقبلت زوجة عمران عليه السلام مندهشة متعجّبة من البشارة

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج131/9.
2 ـ يوسف/93.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج261/9.
4 ـ يوسف/96.
5 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمّد علي الصّابوني. ج62/2.
6 ـ الذاريات/29.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج13/ج244/26.

الّتي حملتها إليها الملائكة في قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾[1]. وقوله جل جلاله: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ على عادة النّساء لأنّ الأمر غريب وهي عجوز عقيم. وقال المفسّرون كلاما متشابها متقاربا في تفسير فعلها، فقال بعضهم لطمت إياه[2] أي وجهها، وقال آخرون: "جمعت أصابعها، فضربت بها جبهتها"[3]، فعل تعجّب، وذلك ما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجّب منه[4]، و"هذا من جنس ما يجري للنّساء عند السّرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطّبيعة والعادة"[5]، إذا تعجّبن من شيء.

5 – حقيقة البرّ:

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[6]. لمّا وجّه الله تعالى رسوله محمّدا ﷺ تلقاء مكّة وجعل قبلته المسجد الحرام، كثُر لجاج اليهود من أهل الكتاب، وزعموا أنّ البرّ كلّه هو التّوجّه إلى القدس، وردّ عليهم المسلمون بأنّ البرّ هو استقبال الكعبة، "فأنزل الله تعالى بيان حكمته من ذلك وهو أنّ المراد هو طاعة الله عزّ

1 ـ الذاريات/28.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج244/26، وينظر صفوة التفاسير. محمّد علي الصّابوني. ج236/3.
3 ـ المصدر نفسه. الصّفحة نفسها، وينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج18/4. وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج421/6.
4 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج138/8.
5 ـ تيسير الكريم الرحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 776، وينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ ج3383/27، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج138/8.
6 ـ البقرة/177.

وجلّ، وامتثال أمره، والتّوجّه حيثما وجّه، واتّباع ما شرع. فهذا هو البرّ والتّقوى، والإيمان الكامل، وليس لزوم التّوجّه إلى جهة من المشرق أو المغرب برّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه"[1].

6 – علامة وجوه المؤمنين:

يقول الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾[2]؛ تشير الآية الكريمة إلى علامات تميّز وجه المؤمن عن وجه غيره، ولا يعرف بها أحد إلاّ هو ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ والسّمة: العلامة؛ وفيها لغتان: المدّ والقصر[3]، وقيل: " ﴿ سِيمَاهُمْ ﴾ علاماتهم، وقرئ سيماؤهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسّيمياء، والمراد بها السّمة الّتي تحدث في جبهة السّجّاد من كثرة السّجود"[4]. ولقد لاحت في وجوههم علامات من أثر السّجود يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة يُعرفون بها لما كان من سجودهم له في الدّنيا[5].

وذكر بعضهم أنّ ذلك أثر يكون في وجوه المصلّين في الدّنيا، مثل أثر السّهر، الّذي يظهر في الوجه مثل الكَلَفِ والتّهيّج والصّفرة، وما أشبه ذلك ممّا يظهر السّهر والتّعب في الوجه[6].

---

1 ـ تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج365/1، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج2/ج114/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج237/2-238، والكشاف. الزمخشري. مج331/1، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ ج159/2، وتيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 754.

2 ـ الفتح/29.

3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج293/16-294.

4 ـ الكشاف. الزمخشري. مج550/3.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج128/26.

6 ـ ينظر المصدر نفسه. مج13/ج129/26.

وقال بعضهم عن سيما الوجه: "وذلك خشوعه وهديه وزهده وسَمْتُهُ، وآثار أداء فرائضه وتطوّعه، وفي الآخرة ما أخبر أنّهم يعرفون به، وذلك الغرّة في الوجه والتّحجيل في الأيدي والرجل من أثر الوضوء. وبيان الوجوه من أثر السّجود"[1]. وقيل: "سيماهم في وجوههم يعني السّمت الحسَنُ"[2]. وقيل: "هو الخشوع والتّواضع... وقيل: هو نور في وجوههم من الخشوع. وقيل هو صفرة الوجه من قيام اللّيل... وقد أثّرت العبادة من كثرها وحسنها في وجوههم حتّى استنارت، لمّا استنارت بالصّلاة بواطنهم، استنارت بالجلال ظواهرهم"[3]. وقال الرّسول ﷺ : ﴿ **مَنْ كَثُرَتْ صَلاَتُهُ باللَّيلِ حَسُنَ وجهُهُ بِالنَّهَارِ** ﴾[4].

يقول سيد قطب: "سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصّفاء والشّفافيّة، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللّطيف. وليست هذه السّيما هي النّكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذّهن عند سماع قوله: ﴿ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ .. فالمقصود بأثر السّجود هو أثر العبادة. واختيار لفظ السّجود لأنّه يمثّل حالة الخشوع والخضوع والعبوديّة لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء، والكبرياء، والفراهة، ويحلّ مكانها التّواضع النّبيل، والشّفافيّة الصّافيّة، والوضاءة الهادئة، والذّبول الخفيف الّذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا"[5]. فيصير وجه المؤمن ذا علامة تميّز صاحبها عن غيره، ولا يكون ذلك إلا في وجوه المؤمنين، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه.

7 – موقع الوجه في العبادة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج130/26.
2 ـ تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج364/6، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج293/16-294.
3 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج293/16-294.
4 ـ المصدر نفسه. ج225/19-226.
5 ـ في ظلال القرآن. مج6/ج3332/26.

ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1].

ذُكر الوجه في الآية الكريمة مرّتين اثنتين؛ واحدة في مقام الوضوء حين "ذكر الله تعالى الوجهَ وفرضَه الغسل ولابدّ في غسله من نقل الماء إليه، وإمرار اليد عليه"[2]، وفي هذا أمر يقتضي ظاهره غسل الوجه للصّلاة[3]؛ وأخرى في موضع التّيمّم، حين يفقد المصلي الماء أو لا يكون قادرا على استعماله، ومثلها ورد في سورة النّساء: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴾[4]. أي؛ "فإن لم تجدوا ماءً أيّها النّاس، وكنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النّساء، فأردتم أن تصلّوا فتيمّموا، يقول: فتعمّدوا وجه الأرض الطّاهرة، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم"[5]. فالتّيمّم ليس بدلا عن الوضوء في جميع أعضائه، بل يكفي أن يُمْسَحَ الوجه واليدان فقط بإجماع العلماء[6].

8 – الوجه في النعيم والعذاب:

أ – **الوجه في النّعيم**: لفظ الوجه يحمل دلالة النّعيم من خلال موقعه داخل السّياق اللّغويّ القرآنيّ. تترجم هذا النّعيم صفات تميّزه أو حالات يكون عليها، وقد وردت مفصّلة في الآيات الكريمة، أذكرها فيما يأتي:

1 ـ المائدة/6.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج83/6.
3 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج38/2.
4 ـ النساء/43.
5 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج4/ج140/5.
6 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج301/2.

❁ وجوه لا قتر عليها ولا ذلّة:

قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1]؛ تتحدّث الآية الكريمة على الّذين أحسنوا في الدّنيا، وعلى الحسنى الّتي تلحقهم يوم القيامة وزيادة الثّواب من الله تعالى، وعلى أهمّ المظاهر الّتي تلاحظ فيها نعمة الجزاء، وهي وجوههم الّتي لا يلحقها غبار في الحشر إلى الله و لا تغشاها ذلّة[2]، ولا أثر هوان وكسوف بال، ولا يرهقهم ما يرهق أهل النّار[3]، ولا يعتري وجوههم ما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة[4]. "والتّعبير يوحي بأنّ في الموقف (الحشر) من الزّحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه، فالنّجاة من هذا كلّه غنيمة، وفضل من الله يضاف إلى الجزاء المزيد فيه"[5]. فإذا وقع بالإنسان مكروه، تبيّن ذلك في وجهه، وتغيّر، وتكدّر.

❁ وجوه ناضرة وناظرة:

قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[6]. النّضْرة نعيم الوجه، والنّضارة، حسن الوجه والبريق[7]. وقال الفرّاء في قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾: مشرقة بالنّعيم[8]. "يقال من ذلك: نَضُرَ وجهُ فلان: إذا حسن من النّعمة، ونضَّر الله وجهَه: إذا حسَّنه كذلك"[9]. وقال الزّجّاج في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: نَضَرَتْ بنعيم الجنّة والنّظر إلى ربّها عزّ وجلّ[10]. وقال القرطبي: "الأوّل من

1 ـ يونس/26.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القر آن. القرطبي. ج331/8.
3 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج234/2.
4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج498/3.
5 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1779/21.
6 ـ القيامة/22-23.
7 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج281/14-282. مادة (نضر).
8 ـ ينظر مشكل إعراب القرآن ومعانيه. الفراء. مج780/2.
9 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج14/ج205/29.
10 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج282/14. مادة (نضر).

النّضْرة الّتي هي الحسن والنّعمة، والثّاني من النّظر، أي وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة... و﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ أي تنظر إلى ربّها"[1]، وهذا خير ما يُعطاه العبد المؤمن في الجنّة يوم القيامة.

إنّ هذه الوجوه "النّاضرة" تأتي يوم القيامة؛ حسنة جميلة من النّعيم والسّرور والغبطة[2]، مشرقة مضيئة، من أثر النّعيم، وبشاشة الفرح عليها[3]، بهيّة لها رونق ونور وبياض وصفاء ممّا هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النّفوس ولذّة الأرواح[4]. و"النّاظرة" تنظر إلى ربّها وخالقها، وتهيم في جماله، وأعظم نعيم لأهل الجنّة رؤية المولى جلّ وعلا والنّظر إلى وجهه الكريم[5]. وحقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق[6].

ولقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى تشير إلى النّظر في وجهه العلي الكريم يوم القيامة منها قوله ﷺ: "إنّ أدنى أهل الجنّة مترلة، لمن ينظر في ملكه ألفي سنة، قال: وإنّ أفضلهم مترلة لمن ينظر في وجه الله كلّ يوم مرّتين"؛ قال: ثمّ تلا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال: "بالبياض والصّفاء"، قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال: تنظر كلّ يوم في وجه الله عزّ وجلّ"[7]. وهذا أفضل ما يعطى العبد المؤمن في الجنّة.

❁ وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة:

قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾[8]. مسفرة تعني بيّنة مشرقة مضيئة لا تخفى[9]، ومتهلّلة منيرة من البهجة والسّرور[10] وهي وجوه المؤمنين الّذين قد

1 ـ الجامع لأحكام القرآن. ج107/19.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج14/ج205/29.
3 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج462/3.
4 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 854.
5 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج462/3.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج14/ج207/29.
7 ـ المصدر نفسه. مج14/ج208/29.
8 ـ عبس/38-39.
9 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج197/7. مادة (سفر)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج68/30-69، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج225/19-226، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج219/7، والكشاف. الزمخشري. مج220/4.
10 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج496/3.

رضي الله عنهم[1]، وعلمت ما لها من الفوز والنّعيم[2]، وهي "ضَاحِكَةٌ من السّرور بما أعطاها الله من النّعيم والكرامة، و"مُسْتَبْشِرَةٌ" لما ترجو من زيادة الثّواب[3]، لقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [4]، وهي مطمئنّة بما تستشعره من رضا ربّها عنها.

❁ وجوه ناعمة راضية:

قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾[5]. إنّ الوجوه في الآية الكريمة هي وجوه أهل الإيمان والخير، ناعمة يوم القيامة بتنعيم الله أهلها في جنانه[6]، متنعّمة وذات بهجة وحُسنٍ[7]، وذات إشراق ونضارة، يفيض منها الرّضى. "قد جرت عليهم نضرة النّعيم فنضرت أبدانهم واستنارت وجوههم وسُرّروا غاية السّرور"[8]. وإنّما حصل لها ذلك بسعيها وممّا عَايَنَتْ من عاقبة أمرها وعملها الصّالح في الدّنيا[9]، لأنّ هذا العمل أورثها الفردوس دار المتّقين[10]. وهي وجوه "رَاضيةٌ" في الآخرة حين أُعطيت الجنّة بعملها[11]، وهي تستمتع بهذا الشّعور الرّفيع، شعور الرّضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها[12].

❁ وجوه مُنَعَّمَةٌ:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ. عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ. تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾[13]. إنّ أصحاب الوجوه في هذا المقام هم الأبرار، والجمع بَرٌّ، و"هم الّذين

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج30/68-69.
2 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج19/225-226.
3 - ينظر جامع البيان. الطبري. مج15/ج30/68-69.
4 - يونس/26.
5 - الغاشية/8-9.
6 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج30/178.
7 - ينظر الكشاف. الزمخشري. مج4/247.
8 - تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 874.
9 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج20/32.
10 - ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج3/525.
11 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج20/32.
12 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج30/3597.
13 - المطففين/24.

بَرُّوا الله بأداء فرائضه، واجتناب محارمه"[1]، يجلسون على سرر مزيّنة "بفاخر الثّياب والسّتور، ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من أنواع الكرامة والنّعيم في الجنّة"[2]، تعرف فيهم صفة النّعيم الّتي ذكر الله تعالى: ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾، يعني حسنه وبريقه وتلألؤه[3]، وبهجته وغضارته ونوره[4]، وبهاءه ونضارته ورونقه[5]. "وهم في هذا النّعيم ناعمو النّفوس والأجسام، تفيض النّضرة على وجوههم وملامحهم"[6]، ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾؛ "أي تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النّعيم أي صفة التّرافة والحشمة والسّرور والدّعة والرّياسة ممّا هم فيه من النّعيم العظيم"[7]، فإنّ توالي اللّذّات والمسرّات والأفراح، يكسب الوجه نورا وحسا وبهجة[8].

❁ وجوه بيضاء[9]:

قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾[10]. وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[11].

---

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج111/30.
2 ـ صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج508/3.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج115/3.
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج264/19.
5 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 869.
6 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3859/30.
7 ـ تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج242/7.
8 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 869.
9 ـ أمّا اللّون الأبيض فقد كان منذ القديم مقدّسا، وقد ورد في القرآن الكريم إحدى عشرة مرّة، ورد بعضها بمعناه الحقيقيّ وبعضها الآخر رمزا للصّفاء والنّقاوة، أو رمزا للفوز في الآخرة نتيجة العمل الصّالح في الدّنيا، مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ آل عمران/107، وقوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ . بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ الصّافات/45-46. ينظر اللّغة واللّون. أحمد مختار عمر. القاهرة. ج. م. ع. عالم الكتب. ط2. 1997. 221.
ويقول كريم زكي حسام الدّين:"إنّ لون الجلد [والوجه جزء منه] كثيرا ما يتغيّر تحت تأثير الانفعالات والمواقف المختلفة الّتي يمرّ بها الإنسان فيحمرّ الوجه خجلا، أو يصفرّ خوفا، أو يشحب مرضا، أو يسودّ غيضا وكمدا، أو يبيضّ فرحا وبشرا، ونجد في القرآن الكريم ما يصوّر لنا بعض هذه المواقف". الإشارات الجسميّة؛ دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء جسم الإنسان في التّواصل.160.
10 ـ آل عمران/106.
11 ـ آل عمران/107.

تذكر الآية الكريمة الأولى أن وجوه العباد يوم القيامة تكون على صفتين؛ وجوه بيضاء وأخرى سوداء، والبياض من النّور والسّواد من الظّلمة[1]، فمعلوم إذا لم يكن إلاّ هذان الفريقان، أن يدخل جميع الكفّار في فريق من سوّد الله وجهه، وأن يدخل جميع المؤمنين في فريق من بيّض الله وجهه بالإيمان والطّاعة[2].

فأمّا البياض فهو إشراق الوجوه بالنّعيم[3]، "فمن كان من أهل نور الحقّ وسم ببياض اللّون وإسفاره وإشراقه، وابيضّت صحيفته وأشرقت، وسعى النّور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللّون وكسوفه وكمده واسودّت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظّلمة من كلّ جانب"[4]. ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ من أهل الطّاعة ﴿ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ؛ أي في جنّته وكرامته خالدون باقون[5].

نلاحظ في الآيتين الكريمتين تصويرا ممتدّا "للخلائق يوم الحشر العظيم بما يمتليء به من مشاهد سيقت مساق العظة والاعتبار، ويصادفنا وجوه آخذة في التّحوّل إلى البياض وأخرى مسودّة، ليصبح هذان اللّونان رمزين كثيفي الإيحاء بالنّجاة والفوز العظيم، وبالهلاك والخسران المبين... ويغدو كلّ لون منهما ذا قدرة على دفع المتلقّي إلى تمثيل الأعمال المكتسبة في الدّنيا، قبل هذه الدّلالة اللّونيّة، وإلى توقّع المصير والمآل في الحساب والجزاء بعدها"[6]. واللّون يحمل من الدّلالات ما لا يحمله اللّفظ في كثير من الأحيان.

وفي الآيتين "طائفة من الثّنائيّات المتقابلة المتوازيّة، فثنائيّة البياض والسّواد توازي ثنائيّة الكفر والإيمان، وكلّ من هاتين الثّنائيّتين توازيان بدورهما ثنائية العذاب والرّحمة"[7]،

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج6/453.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج4/51، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج4/166.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج4/167.
4 ـ الكشاف. الزمخشري. مج6/453.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج4/167.
6 ـ بلاغة الصّورة القرآنيّة؛ (الجماليّات – التّجليّات). طارق سعد شبي. القاهرة. جمهوريّة مصر العربيّة. دار البراق. (د. ط). (د. ت). 139.
7 ـ بلاغة الصّورة القرآنيّة. طارق سعد شبلي. 140.

لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1].

ب – الوجه في العذاب: الآيات الكريمات الّتي تصف الوجه في العذاب متعدّدة، ومختلفة السّياقات، بحيث يعرض كلّ سياق حالا من أحوال العذاب لا تشبه الأخرى. ولفظ الوجه – كما في دلالات النّعيم – يأخذ دلالة التّنوّع من موقعه ما بين الألفاظ الّتي تتقدّمه أو تتأخّر.

❁ **وجوه تضربها الملائكة:** وردت هذه الحال في موضعين اثنين، هما كالآتي:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[2]. تصوّر هذه الآية الكريمة نوعا من العذاب الّذي يقع على الوجه يوم القيامة حين يكلّف الملائكة بضرب وجوه الكافرين وأدبارهم، فيقول الله تعالى لنبيه ﷺ : "ولو تعاين يا محمّد حين يتوفّى الملائكة أرواح الكفّار فتنزعها من أجسادهم، وتضرب الوجوه منهم والأستاه[3]، ويقولون لهم ذوقوا عذاب النّار الّتي تحرقكم يوم ورودكم جهنّم"[4]. ولقد خصّ الوجوه والأدبار لأنّ الخزي والنّكال في ضربهما أشدّ.

يقول محمد علي الصابوني: "أي لو رأيت وشاهدت أيّها المخاطب أو أيّها السّامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين، وجواب (لو) محذوف للتّهويل أي لرأيت أمرا فضيعا وشأنا هائلا، قال أبو حيان؛ وحذف جوب (لو) جائز، بليغ

1 - آل عمران/ 106-107.
2 - الأنفال/50.
3 - الأستاه: الأدبار. جمع الأست. ينظر معجم الصحاح. إسماعيل بن حماد الجوهري. ص474. مادة (سته)، ولسان العرب. ابن منظور مج122/7. مادة (سته).
4 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج28/ج6/10، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج28/8، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج335/3. وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج1534/ج3/10، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج482/1 -483.

حذفه في مثل هذا لأنّه يدلّ على التّهويل والتّعظيم، أي لرأيت أمرا فضيعا لا يكاد يوصف ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم، على وجوههم وأدبارهم بمقامع من حديد"[1]. وليس أشنع ولا أبشع وأكثر إهانة من الضّرب على الوجه.

الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ. فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴾[2].

إنّه مشهد مفزع مرعب مهين، وهؤلاء الّذين ارتدّوا على أدبارهم، يحتضرون، ولا حول ولا قوّة لهم، يخرجون من الحياة الدّنيا، ويستهلّون الحياة الآخرة[3]، وقد جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر وضرب الوجوه والأدبار بمقامع من حديد[4]، في لحظة الوفاة، والضّيق والكرب والمخافة[5]. إنّ الوجوه – هنا – في سياق لغويّ آخر وفي لون آخر من العذاب.

❁ وجوه تغشاها قطع من اللّيل مظلما:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[6].

---

1 - صفوة التفاسير. ج1/482 -483، وينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 303.
2 - محمد/25-27.
3 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3298/26.
4 - ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج322/6، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج197/3.
5 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3298/26.
6 - يونس/27.

لّما ذكر الله تعالى أصحاب الجنّة، ذكر بعدهم أصحاب النّار، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ فكانت هي الرّبح الّذي خرجوا به من صفقة الحياة الدّنيا..[1] الأعمال السّيّئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي[2]، فكان الجزاء ﴿ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ أي ينالهم عدل الله، فلا يضاعف لهم الجزاء ولا يزاد عليهم السّوء، ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ في قلوبهم، وتغشاهم وتركبهم وتكربهم[3]، وتتجلّى تلك الذّلّة الباطنة في ظاهرهم، فتكون سوادا في وجوههم[4]، ﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ فكأنّما ألبست وجوه هؤلاء الكفّار الّذين كسبوا السّيّئات لفرط السّواد قطعا من اللّيل... وكأنّما أغشيت وجه كلّ إنسان منهم قطعة من سواد اللّيل[5]، أوكأنّما "أخذ من اللّيل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه.. وهكذا يغشى الجوّ كلّه ظلام من ظلام اللّيل المظلم ورهبة من رهبته، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا اللّيل البهيم"[6]. والآية تخبرنا عن سواد وجوه هؤلاء الكفّار في الدّار الآخرة. ولّما ألبست وجوههم السّواد، ولّما كانت ظلمة اللّيل نهاية في السّواد، شبّه سواد وجوههم بقطع من اللّيل حال اشتداد ظلمته.

❁ وجوه تغشاها النّار من كلّ جانب:

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ . لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[7]. تصف هذه الآيات الكريمات حال المجرمين يوم القيامة ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ

1 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1779/11، وينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 341.
2 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 341.
3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1779/11.
4 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السعدي. 341.
5 ـ ينظر جامع البيان. الطبري. مج7/ج130/11، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج333/8، وصفوة التفاسير. ج541/1.
6 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1779/11.
7 ـ إبراهيم/49 -51.

يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ. سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فهؤلاء المجرمون مقرّنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال والسلاسل[1] يقادون إلى العذاب في أذلّ صورة وأشنعها وأبشعها[2]، وَ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ ﴾؛ "أي ثيابهم الّتي يلبسونها من قطران وهي مادّة يسرع فيها اشتعال النّار، وتطلى بها الإبل الجربى فيحرق الجرب بحرّه، وهو أسود اللّون منتن الرِّيح"[3]، وهذه صورة بشعة من صور العذاب الّتي يلاقيها المجرمون على سوء عملهم في الحياة الدّنيا.

وقال تعالى: ﴿ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ الّتي هي أشرف ما في أبدانهم، وتحيط بها (النّار) وتعلوها، وتصلاها من كلّ جانب. إنّه مشهد من مشاهد العذاب المذلّ المخزي المتلظّي المشتعل جزاء المكر والاستكبار[4]. ويمكن التّأمّل في الفعل (يغشى) داخل سياق الآية لفهم دلالته على الإحاطة من كلّ جانب.

❁ وجوه طمست معالمها:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾[5]. هذا نوع آخر من العذاب يلحق وجوه غير المؤمنين من أهل الكتاب، وهو جزاء من جنس ما كانوا يعملون، "فكما تركوا الحقّ، وآثروا الباطل، وقلّبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقّا، والحقّ باطلا، جُوزُوا من جنس ذلك، بطمس وجوههم كما طمس الحقّ، وردّها على أدبارها بأن تجعل في أقفائهم"[6]، ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج8/ج299/13.
2 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 407.
3 ـ صفوة التّفاسير. محمد علي الصابوني. ج94/2.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2113/13.
5 ـ سورة النساء/47.
6 ـ تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 161.

عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ ﴾ أي؛ من قبل أن نغيّرها عن هيئتها الّتي هي بها[1]، وهذا أشنع ما يكون العذاب خصوصا إذا فقد الوجه معالمه. والطّمس استئصال الشّيء[2]، ومنه "طمستُ عَيْنَهُ أَطْمِسُهَا وأَطْمُسُهَا طَمْسًا وطُمُوسًا، وقد تستعمل العرب الطَّمسُ في العُفُوِّ والدُّثُور وفي الاندقاق والدُّروسِ"[3]، والإزالة والتّغيير التّامّ.

إنّ المراد في الآية الكريمة أن تجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقرى، وتجعل لأحدهم عينان من قفاه،[4] أو لا يبقى لهم سمع ولا بصر ولا أنف، ومع ذلك ترد إلى ناحية الأدبار، وهذا أبلغ في العقوبة والنّكال[5]، وتشويه عظيم لمحاسن الإنسان[6]. وقال القرطبي: "واختلف العلماء في المعنى المراد بهذه الآية؛ هل هي حقيقة فيجعل الوجه كالقفا فيذهب بالأنف والفم والحاجب والعين. أو ذلك عبارة عن الضّلالة في قلوبهم وسلبهم التّوفيق"[7]. وإلى مثل هذا الاتّجاه يذهب سيد قطب في بيان دلالة موقع لفظ "الوجه" في السّياق.

يقول سيد قطب: "وطمس الوجوه إزالة معالمها المميّزة لآدميتها؛ وردّها على أدبارها، دفعها لأن تمشي القهقرى، وقد يكون المقصود هو التّهديد بمعناه المادّي؛ الّذي يفقدهم آدميّتهم ويردّهم يمشون على أدبارهم... كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم، وردّهم إلى كفرهم وجاهليّتهم، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب"[8]. ويعتبر الكفر بعد الإيمان، والهدى بعد الضّلال، طمساً للوجوه والبصائر، وارتداد على الأدبار دون كلّ ارتداد، وفي كلا المعنيين تهديد رعيب وعنيف[9].

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج182/11.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج244/5.
3 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج182/11.
4 ـ ينظر المصدر نفسه. مج4/ج155/5، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج307/2.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج155/5، والكشّاف. الزّمخشري. مج531/1، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج307/2.
6 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمّد علي الصّابوني. ج257/1.
7 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج244/5.
8 ـ في ظلال القرآن. مج2/ج677/5.
9 ـ ينظر المرجع نفسه. الصّفحة نفسها.

❁ وجوه يحشر أصحابها عميّا وبُكما وصمّا في النّار:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[1]. إنّ لفظ الوجه في هذا السياق وقع موقعا تُؤَدَّى به دلالةٌ مشابهة للدّلالة الّتي وقعت في الآية السّابقة من فقد الحواسّ، في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾.

إنّ الله تعالى هو القادر وحده والمتفرّد بالهداية والضّلال، فمن يهده، ييسّره لليسرى ويجنّبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله، يخذله ويكله إلى نفسه[2]، ويحشره يوم القيامة" في صورة ذليلة مهينة مزعجة ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ يتكفّأون ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ مطموسين محرومين من جوارحهم الّتي تهديهم في هذا الزّحام جزاء ما عطّلوا هذه الجوارح في الدّنيا عن إدراك دلائل الهدى"[3]. وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾: "فيه وجهان: أحدهما: أنّ ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنّم؛ من قول العرب: قَدِمَ القومُ على وجوههم إذا أسرعوا. والثّاني: أنّهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنّم كما يفعل في الدّنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه، وهذا هو الصّحيح؛ لحديث أنس أنّ رجلا قال: يا رسول الله، الّذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: ﴿ **أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ قَادِرًا عَلَى أن يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَومَ القِيَامَةِ** ﴾. قال قتادة حين بلغه: بلى وعزّة ربّنا. خرّجه البخاري

1 - الإسراء/97.
2 - ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 445.
3- في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2251/15.

ومسلم"[1]. وفي الحديث إشارة بليغة إلى العذاب الّذي يلحق الإنسان العاصي وهو يحشر على وجهه في النّار يوم القيامة.

❁ وجوه يحشر أصحابها عليها:

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا. وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا. ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[2]. فلقد برز في حياة الأنبياء والرّسل مجرمون يحاربون الدّعوات بوسائل شتّى مثل الحروب والحصار والتّعذيب والجدال، لوقفها والقضاء على أهلها، وكان الله تعالى في كلّ مرّة ينصُر مَن بنصُرُه ويخذل الكفار المجرمين. والموضوع في هذه الآيات يتمثّل في موقف من مواقف مشركي قريش تجاه الدّعوة المحمديّة، حين أرادوا تعجيزه إذ قالوا: ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾. و"لقد جاء هذا القرآن ليربي أمّة، وينشيء مجتمعا، ويقيم نظاما. والتّربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثّر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التّاثّر والانفعال إلى واقع. والنّفس البشريّة لا تتحوّل تحوّلا كاملا شاملا بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل للمنهج الجديد"[3]. وقد نزل القرآن الكريم منجّما ليثبّت به الله تعالى قلب نبيّه ﷺ على طريقه، ويؤيّده بنصره، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾.

إنّ جزاء هؤلاء الكفّار المجرمين أن يحشروا في معادهم يوم القيامة على وجوههم في النّار، في أسوأ الحالات وأقبح الصّفات، على غير عادة آخرين من أهل العذاب لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي يسحبون ويجرّون إلى النّار على

1 - الجامع لأحكام القرآن. ج333/10.
2 - الفرقان/33-34.
3 - في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2562/19.

وجوههم[1]، في أبشع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب، "ومشهد الحشر على الوجوه فيه من الإهانة والتّحقير والانقلاب، ما يقابل التّعالي والاستكبار، والإعراض عن الحقّ. وهو يضع هذا المشهد أمام الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – تَعزيةً له عمّا يلقاه منهم، ويضعه أمامهم تحذيرا لهم ممّا ينتظرهم"[2]. وإنّ مجرّد عرض هذا المشهد يُذلّ كبرياء الكفّار ويزلزل عنادهم، ويهزّ كيانهم ويحطّ من علوّهم وشأنهم[3].

❁ وجوه تشوى بماء كالمهل:

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾[4]. إنّ هذه الآية الكريمة تعرض نوعا آخر من العذاب يفهم من نظم لفظ الوجه داخل السّياق ﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾، فإذا جاع أهل النّار استغاثوا بشجر الزّقّوم، فأكلوا منها، فاختلست جلود وجوههم، ثم يصبّ عليهم العطش، فيستغيثون بماء كالمهل، وهو الّذي قد انتهى حرّه، فإذا أدنوه من أفواههم انشوت من حرّه لحوم وجوههم الّتي قد سقطت عنها الجلود[5].

إنّ المهل الّذي تعذّب به وجوه أهل النّار كالمهل، وهو ماء غليظ شديد الحرارة مثل دردري الزّيت، أو ماء أسود في جهنّم، أو هو ما أذيب من جواهر الأرض من حديد

1 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج332/2.
2 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2563/19.
3 ـ ينظر المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.
4 ـ الكهف/29.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج7/ج268/15.

ورصاص ونحاس وقزدير، فتموّج بالغليان، أو هو ضرب من القطران، أو عكر الزّيت، وهو الّذي انتهي حرّه، فإذا قرّبه الكافر في جهنّم إلى وجهه سقطت فروة وجهه[1].

❁ وجوه لا تُكَفُّ النّار عنها:

قال تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ. وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ. لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[2]. سأل المشركون الرّسول ﷺ على سبيل الاستهزاء والسّخرية: متى يقع هذا العذاب الّذي تعدنا به إن كنت وأتباعك صادقين[3]، وهم يستعجلون به تكذيبا وجحودا وكفرا وعنادا واستعبادا[4]. فردّ عليهم الله تعالى: ﴿ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ ﴾، أي لو تيقّنوا أنّها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولا يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم[5]، ولو يعلم هؤلاء الكفّار المستعجلون فظاعة عذاب ربّهم وماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النّار، وهم فيها كالحون، فلا يكفّون، ولا يستطيعون دفعها عن وجوههم، ولا عن ظهورهم، لأنّ العذاب محيط بهم من جميع الجهات، لما استعجلوا الوعيد[6].

---

1 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج2/482 -483، وتفسير القرآن العظي. ابن كثير. ج384/4، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج394/10، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج175/2، وتيسير الكريم الرحمن. السعدي. 453.

2 ـ الأنبياء/37-39.

3 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج240/2.

4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج564/4.

5 ـ ينظر المصدر نفسه. الصفحة نفسها.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج10/ج34/17، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2380/17، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج240/2.

لقد ذكر الله تعالى الوجوه في هذا الموضع الدّالّ على العذاب الشّديد لأنّها أشرف ما في الإنسان ومحلّ حواسّه، والإنسان أحرص على الدّفاع عنه من غيره ومن أعضائه. ثم عطف عليها الظّهور، للدّلالة على أنّ النّار ستعمّ جميع أبدانهم ولا أحد يمنعهم من العذاب[1].

❁ وجوه تلفحها النّار:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾[2].

إنّ الّذي تخفّ موازين حسناته، وترجح بها موازين سيئاته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ ؛ أي غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله[3]، و"هم الأشقياء الّذين خسروا سعادتهم الأبديّة بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي"[4]، وفي جهنّم ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾، يقال: "تلفح وتنفح، إلاّ أنّ تلفح أبلغ بأساً، يقال: لفحته النّار والسّموم بحرّها وأحرقته"[5]. والمنظر بشع والمشهد مؤذٍ أليم؛ لأنّ النّار تغشاهم من كلّ جانب، فتصيب وجوههم وتحرقها بشدّة حرّها[6]، وتشوّه هيئتها ويكدر لونها[7]، وتسيل لحومهم على أعقابهم[8]، وهم كالحون عابسون وقد تقلّصت شفاههم من شدّة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، وسال منهم الصّديد[9].

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. مج6/ج6/292.
2 ـ المؤمنون/103-104.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج10/ج18/64-65.
4 ـ صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج2/293.
5 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج12/152.
6 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج2/293، وتيسير الكريم الرحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 535.
7 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج18/2481.
8 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج4/41.
9 ـ ينظر الجامع لأحكم القرآن. القرطبي. ج12/152، وتيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 535.

❁ وجوه كُبَّتْ في النّار:

قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ . وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1]. تبيّن الآيتان حالين لفريقين مختلفين يوم القيامة؛ فريق كثرت حسناته ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾، وفريق ﴿ جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي؛ يكبّ في جهنّم على وجهه منكوسا، ويلقى فيها مقلوبا[2]، "ويعبّر عن الجملة بالوجه والرّأس والرّقبة، فكأنه قيل: فكُبُّوا في النّار...ويجوز أن يكون ذكر الوجه إيذانا بأنّهم يكبّون على وجوههم فيها منكوسين"[3]. وهو مشهد مفزع، يزيد عليهم التّبكيت والتّوبيخ[4].

❁ وجوه تقلّب في النّار:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾[5]. يرتبط بلفظ "الوجه" دلالة أخرى تتعلّق بنوع آخر من العذاب ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ "وهذا التّقليب تغيير ألوانهم بلفح النّار، فتسودّ مرّة وتخضرّ أخرى"[6]، ويقول الزّمخشري: "ومعنى تقليبها تصريفها في الجهات، كما تُرى البضعة تدور في القدر إذا غلت فترامى بها الغليان من جهة على جهة أو تغييرها على أحوالها وتحويلها عن هيئاتها أو طرحها في النّار مقلوبين منكوسين. وخصّت الوجوه بالذّكر لأنّ الوجه أكرم موضع على

1 ـ النمل/89-90.
2 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج386/2.
3 ـ الكشاف. الزمخشري. مج162/3.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2669/20.
5 ـ الأحزاب/64-66.
6 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج249/14.

الإنسان من جسده"[1]. ويسحبون في النّار على وجوههم فتلوى على جهنّم، فيذوقون حرّها، ويشتدّ عليهم أمرها، وتتقلّب من جهة إلى جهة كاللّحم يشوى بالنّار[2]. "والتّعبير على هذا النّحو يراد به تصوير الحركة وتجسيمها، والحرص على أن تصل النّار إلى كلّ صفحة من صفحات وجوههم زيادة في النّكال"[3]. فالتّعبير في هذه الآية هو غيره في آية أخرى موضوعها تسليط العذاب على الوجه.

❁ وجوه تُسْحَبُ في النّار:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾[4]. إنّ الّذين أكثروا في الدّنيا من فعل الجرائم والذّنوب العظيمة والشّرك وغيرها من المعاصي، يكونون يوم القيامة ﴿ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ أي؛ في هلاك ونيران، أو في ضلال عن الحقّ في الدّنيا ونيران في الآخرة[5]، ضُلاَّلٌ عن العلم، وضُلاَّلٌ عن العمل الّذي ينجيهم من العذاب[6]، وكما كانوا في سعر وشكّ وتردّد أورثهم الله لذلك النّار[7].

إنّ هؤلاء "في ضلال يعذّب العقول والنّفوس، وفي سُعُر تكوي الجلود والأبدان... في مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾[8] ليعرفوا أين يكون الضّلال وأين يكون السّعر"[9]. ويسحبون في النّار على وجوههم الّتي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، في عنف وتحقير، مقابل الاعتزاز بالقوّة

1 ـ الكشاف. مج275/3.
2 ـ ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. 495.
3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2883/22ج5.
4 ـ القمر/47 -48.
5 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج41/4.
6 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 791.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج479/6.
8 ـ القمر/24.
9 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3436/26ج6.

والاستكبار والعناد[1]. ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي؛ ذوقوا ألم النّار وأسفَها وغيظَها ولهبَها[2].

❁ وجوه سِيئَت لّما رأت وعد الله:

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾[3].

لقد كذّب الكافرون بعذاب يوم القيامة وجادلوا الرّسول ﷺ فيه جدالا عنيفا وقالوا: ﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾، وجاء الرّدّ من الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾. فلقد كان تكذيب الكفّار وغرورهم به حين كانوا في الدّنيا، فإذا كان يوم القيامة؛ يوم الجزاء ورأوا العذاب منهم (زلفة) أي قريبا[4]، مواجهها لهم، حاضرا أمامهم دون توقّع ودون تمهيد، ساءهم حضور الوعد، وأفظعهم وأقلقل أفئدتهم، فتغيّرت لذلك وجوههم، وسيئت، وبدا عليها مظاهر الاستياء، فعلتها الكآبة والغمّ والحزن، وغشيها الذّلّ والانكسار، والكسوف والقترة وكلحوا، كما يكون وجه من يُقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب، ووجّه إليهم التّأنيب ووُبِّخُوا على تكذيبهم[5]، وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾، فاليوم رأيتموه عيانا ماثلا أمامكم،

1 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3436/27، وتيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 791.
2 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 791.
3 ـ الملك/25 ـ 27.
4 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 835.
5 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج139/4، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3647/29، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج397/3، وتيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 835.

وانجلى لكم الأمر وتقطّعت بكم الأسباب، و لم يبق إلاّ مباشرة العذاب[1]، وقد كنتم تطلبونه في الدّنيا وتستعجلونه استهزاء وتكذيبا[2].

❁ وجوه باسرة:

قال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[3]. وُجُوهٌ بَاسِرَةٌ؛ من بَسَرَ يَبْسُرُ بَسْرًا وبُسُوراً؛ عَبَسَ. وجهٌ بَسْرٌ وبَاسِرٌ. وبَسَرَ الرّجلُ وجهَهُ بُسُوراً أي؛ كَلَحَ، وبَسَر؛ نَظَرَ بكراهةٍ شديدَةٍ[4]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أي عابسة، مُقَطِّبَةٌ[5]، كاسفةٌ[6]، شديدة العبوس، متقبّضة تعيسة، محجوبة عن النّظر والتّطلّع بخطاياها[7]، كَدِرةٌ خاضعة ذليلة[8]، وكالحة وقد تغيّر لونها[9].

إنّها وجوه أهل الجحيم، الفجّار، الأشقياء، قد تأكّد أصحابها من أنّ شرّا كبيرا، وهلاكا، وداهية، وأمرا عظيما[10]، وأنّ عقوبة شديدة تكسر فقار الظّهر، وعذابا أليما واقع بهم يومئذ، لذلك تغيّرت وجوههم وعبست[11].

❁ وجوه عليها غبرة ترهقها قترة:

قال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾[12]. إنّها وجوه الكفّار تعلوها يوم القيامة غبرة[13]؛ "فأمّا في الدّنيا فإنّ القترة: ما

1 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 835.
2 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج139/4، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج397/3.
3 ـ القيامة/24-25.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج83/2. مادة (بسر).
5 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها. مادة (بسر).
6 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج110/19.
7 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج 6/ج3772/29.
8 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 854.
9 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج176/7.
10 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج110/19.
11 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 854.
12 ـ عبس/40 ـ 42.
13 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج69/30.

ارتفع فلحق بالسّماء، ورفعته الرّيح، تسمّيه العرب القترة، وما كان أسفل في الأرض فهو الغبرة"[1]. فيعلو تلك الوجوه غبار ويغشاها كسوفٌ وذلّةٌ وشدّةٌ وظلمةٌ وسوادٌ كالدّخان، ولا يُرى أوحش ولا أقبح مِنِ اجتماع الغبرة والسّواد في الوجه[2]. غبرة الحزن والحسرة، وسواد الذّلّ والانقباض. وقد عرفت ما قدّمت، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾، أي الّذين لا يؤمنون بالله ورسالاته[3]، الجامعون بين الكفر والفجور[4].

ويقول الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾[5]. لأنّ الأعراض النّفسيّة تظهر على الوجه؛ ففي الفرح يظهر الإسفار والإشراق، وفي الحزن يظهر الكلوح والغبرة، وكنّي بالوجه عن الجملة، لكونه أشرفها، ولظهور أثر السّرور والحزن فيه[6].

❁ وجوه خاشعة عاملة ناصبة:

قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً . تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾[7]. هذه أيضا وجوه الكفّار كلّهم[8]. خاشعة متعبة مُرهقة في النّار، ذليلة فيها، عاملة ناصبة؛ تعمل وتتعب فيها. لقد تكبّرت عن طاعة الله في الدّنيا فأعملها وأنصبها

1 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج69/30، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج226/19.
2 - ينظر الكشاف. الزمخشري. مج221/4، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج219/7، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج226/19.
3 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3834/30.
4 - ينظر صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج496/3.
5 - يونس/26
6 - ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج149/5.
7 - الغاشية/2 - 5.
8 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج176/30، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج29/20.

في النّار، وزادت مضضا وإرهاقا وتعبا، ولا أحد أنصب ولا أشدّ من أهل النّار[1]، "تعمل في النّار عملا تتعب فيه وهو جرّها السّلاسل والأغلال، وخوضها في النّار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار، وهبوطها في حدور منها. وقيل عملت في الدّنيا أعمال السّوء والتذّت بها وتنعّمت، فهي في نصب منها في الآخرة"[2]، فيكون الجزاء في الآخرة من جنس ما عملت في الدّنيا من أعمال السّوء.

تَرِدُ هذه الوجوه نارا حامية قد حميت واشتدّ حرّها، ووصل غليانها درجة النّهاية. وتُسقى من شراب عين قد أتى حرّها، فبلغ غايته في شدّة الحرّ[3]. وليست الوجوه مقصودة في ذاتها، وإنّما هم أصحابها الكفّار، لأنّ ما يعانيه هؤلاء لا يلبث أن يترجم على صفحات وجوههم وينعكس عليها.

❁ **وجوه سّوداء:** ورد لفظ "وجه" موصوفا بالسّواد في خمسة مواضع – في ثلاثة مواضع تتعلّق بالعذاب، وفي موضعين يتعلّقان بمن بشّر بالأنثى –، وسأقتصر على ثلاثة منها فقط، وهي الآتيّة:

الموضع الأوّل: اسوداد[4] وجوه في الموقف:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ . يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾[5]. لقد دعا الله تعالى

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج176/30، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج275، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3896/30.
2 ـ الكشاف. الزمخشري. مج246/4، وينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 874.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج15/ج176/30، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج525/3.
4 ـ اللّون الأسود: عكس الأبيض: وهو لا لون، وامتصاص كلّ ألوان الطّيف... وهو فقدان الضّوء واللّون، وهو رمز للظّلام ولعدم الطهر وللحزن، ولون الخطيئة والخراب... وهو من أكثر الألوان كآبة وقتامة في معظم الأمور...وقد ورد في القرآن الكريم بمشتقّاته اللّغويّة اسما وفعلا، ومفردا وجمعا، معرّفا ومنكرا. بنظر الضّوء واللّون في القرآن الكريم؛ (الإعجاز الضّوئيّ واللّونيّ). نذير حمدان. دمشق. سورية. بيروت. لبنان. دار ابن كثير. ط1. 1422هـ/2002م. 45 -46.
5 ـ آل عمران/105-106.

عباده المؤمنين لأن تكون منهم أمّة داعية إلى الخير، وآمرة بالمعروف، وناهية عن المنكر، فقال جلّ شأنه: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]، ونهاهم عن أن يتّبعوا الّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم رسلهم بالبيّنات من الله تعالى. فسيتفاوت الخلق يوم القيامة في السّعادة والشّقاء، فستبيضّ وجوه الّذين آمنوا بالله، وصدّقوا رسله، وامتثلوا أمره، وتسودّ وجوه الّذين كذّبوا رسله، وعصوا أمره، واختاروا الكفر بعد الإيمان[2] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ ﴾؛ فلقد جعل الله تعالى جميع أهل الآخرة فريقين: فريق سوداء وجوههم، والآخر بيضاء وجوههم[3].

إنّ أهل ظلمة الباطل وُسِمُوا بسواد اللّون وكسوفهم وكمدهم واسوداد صحائفهم وظلمتها، وأنّ الظّلمة قد أحاطت بهم من كل جانب[4]، "في مشهد يفيض بالحركة والحيويّة، يتمثّل في وجوه كمدت من الحزن، واغبرّت من الغمّ، واسودّت من الكآبة وما يرهقها من العذاب الأليم. وزادها التّأنيب والتّبكيت"[5]، لقوله تعالى: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

الموضع الثّاني: اسوداد وجوه الّذين كذبوا على الله تعالى: قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ . وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ

1 ـ آل عمران/104.
2 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 125، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج202/1.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج3/ج51/4.
4 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج453/1.
5 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج445/4.

تَحۡزَنُونَ ﴾[1]. يخبر الله تعالى في الآيتين الكريمتين عن فريقين يوم القيامة؛ فريق تسودّ وجوههم هم أهل الفرقة والاختلاف والتّكذيب لقوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ ﴾، ممّا أحاط بهم من غضب الله ونقمته[2]، وفريق ناجٍ هم أهل الصّدق والإيمان لقوله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

إنّ الّذين كذبوا على الله تعالى وزعموا أن له ولدا، وأن له شريكا، وعبدوا آلهة من دونه[3]، أخزاهم الله يوم القيامة بكذبهم وافترائهم، وَجَعَلَ وُجوهَهم مسودّة كأنّها اللّيل البهيم[4]، ممّا أحاط بهم من غضب الله ونقمته[5]، فكما سوّدوا وجه الحقّ بالكذب، سوّد الله وجوههم[6]. هم "فريق المتكبّرين في هذه الأرض، الّذين دُعُوا إلى الله وظلّت الدّعوة قائمة حتّى بعد الإسراف في المعصيّة، فلم يلبّوا هاتف النّجاة، فهم اليوم في خزي تسودّ له الوجوه"[7]. وهذا هو المصير الأخير لفريق موسدّ الوجوه من الخزي، ومن الكَمَد، ومن لفح الجحيم[8].

يقول الفخر الرّازي على التّعبير بسواد الوجوه في هذا السّياق: "الكلام في كيفية السّواد الحاصل في وجوههم، والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السّواد، وهو سواد يدلّ على الجهل بالله والكذب على الله، وأقول إنّ الجهل ظلمة، والظّلمة تُتَخيّل كأنّها سوادّ، فسواد قلوبهم أَوْجَبَ سواد وجوههم، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث

1 ـ الزمر/60-61.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج274/15.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج25/24، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج105/6.
4 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 700.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج274/15.
6 ـ ينظر تيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 700.
7 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج3059/24.
8 ـ ينظر المرجع نفسه.الصّفحة نفسها.

القيامة"[1]. فالتّعبير بسواد الوجوه أفضل ما يعكس الغمّ الّذي يعانيه الكفّار، والضّيق الّذي يصيبهم يوم القيامة، والإحباط الّذي يتملّكهم بسبب ما افتروا على الله تعالى في الدّنيا.

الموضع الثّالث: اسوداد وجه من بُشّر بالأنثى: لقد أثبتّ في المقام الوجوه الّتي بُشّر أصحابها بالأنثى، لأنّها تشترك مع غيرها – تحت هذا العنوان – في السّواد.

قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[2]. لقد جعل هؤلاء الكفّار المشركون لله تعالى بنات، أو جعلوا الملائكة الّذين عند الرّحمن إناثا، فقرع الله أسماعهم في آيات أخر، بقوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾[3] ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾[4]. واصطفوا أنفسهم بالبنين، لأنّ من عادة الإنسان العربيّ في جاهليته – في بعض القبائل – الاعتزاز بالذّكر وذمّ الأنثى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي؛ وإذا بشر أحد هؤلاء المشركين من الّذين جعلوا لله تعالى البنات بولادة ما يضيفه إليه من ذلك له، ظلّ وجهه مسودّا من كراهته له[5]، متغيّرا[6]، كئيبا من الهمّ[7]، ومُربدَه من الكآبة والحياء من النّاس[8]، "وليس يريد السّواد الّذي هو ضدّ البياض، وإنّما هو كناية عن غمّه بالبنت. والعرب تقول لكلّ من لقي مكروها: قد اسودّ وجهه غمّا وحزنا"[9]، لأنّ شدّة

1 ـ تفسير الفخر الرازي. مج9/ج9/27.
2 ـ النحل/57 ـ 59.
3 ـ الزّخرف/16.
4 ـ الطور/39.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج8/ج14/146.
6 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج10/116.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج4/200.
8 ـ ينظر الكشاف. الزمخشري. مج2/414.
9 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج10/116.

الحزن والكآبة بسوّد لون الوجه[1]. وقد كظم الحزن، وامتلأ غمّا بولادته له[2]، وضيقا، على امرأته الّتي ولدت له الأنثى[3].

يقول فخر الدّين الرّازي عن التّعبير باللّون في هذا المقام ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾: "فالمعنى أن يصير متغيّرا تغيّر المغتمّ، ويقال لمن لقي مكروها قد اسودّ وجهه غمّا وحزنا، وأقول إنّما جعل اسوداد الوجه كناية عن الغمّ، وذلك لأنّ الإنسان إذا قوي فرحه انشرح صدره وانبسط قلبه من داخل القلب، ووصل على الأطراف، ولا سيما إلى الوجه لما بينهما من التّعلّق الشّديد، وإذا وصل الرّوح على ظاهر الوجه أشرق الوجه وتلألأ واستنار، وأما إذا قوي غمّ الإنسان احتقن الرّوح في باطن القلب و لم يبق منه أثر قوي في ظاهر الوجه، فلا جرم يربد الوجه ويصفرّ ويسودّ ويظهر فيه أثر الرضية والكثافة، فثبت أنّ من لوازم الفرح استنارة الوجه وإشراقه، ومن لوازم الغمّ كُمُودة الوجه وغبرته وسواده، فلهذا السّبب جعل بياض الوجه وإشراقه كناية عن الفرح، وكُمُودته وسواده كناية عن الغمّ والحزن والكراهية"[4]. إنّ للتّعبير باللّون في القرآن الكريم مجالا واسعا، وإن للسّواد والبياض نصيبا خاصّا للتّعبير عن الفرح والحزن، وقد سبقت آيات كثيرة خصوصا فيما يتعلّق بالوجه.

إنّ مثل هذه الدّلالة الّتي يحملها اسوداد وجوه من يبشّرون بالأنثى من العرب الجاهليّين، نجده في قوله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[5].

1 ـ ينظر أضواء البيان. محمد الأمين الشنقيطي. ج192/3.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج8/ج146/14.
3 ـ ينظر أضواء البيان. محمد الأمين الشنقيطي. ج192/3.
4 ـ تفسير الفخر الرازي. مج7/ج47/20.
5 ـ الزخرف/17.

❁ وجوه يُتّقى بها سوء العذاب:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ . أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾[1]. إنّ الله تعالى قد حكم – في الآيتين – على القاسيّة قلوبهم حكمين اثنين، الأوّل في الدّنيا يتمثّل في الضّلال التّام ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾، والثّاني في الآخرة في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ وهو العذاب الشّديد[2].

وقد اختلف في التّأويل في صفة اتّقاء هذا الضّال بوجهه سوء العذاب، فقال بعضهم: هو أن يُرمى به في جهنّم مكبوبا على وجهه. وقال آخرون: يخرّ على وجهه في النّار[3].

وورد في تفسير الزّمخشريّ قول أوضح: "ومعناه: أنّ الإنسان إذا لقي مخوفا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه لأنّه أعزّ أعضائه عليه، والّذي يلقى في النّار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتّقي النّار إلاّ بوجهه الّذي كان يتّقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه"[4]، فعبّر عن ذلك بالاتّقاء من باب المجاز التّمثيلي[5]، أو كناية عن العجز والاتّقاء[6].

1 ـ الزمر/23-24.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج9/26/252-253.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج12/ج23/225.
4 ـ الكشاف. مج3/396، وينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج9/26/253.
5 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.
6 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج9/26/253.

لقد ارتبط لفظ"وجه" في الآيات الكريمة السّابقة باللّون (الأبيض والأسود) مرّات عديدة (سبعا وعشرين مرّة، أي ستّ مرّات للبياض وإحدى وعشرين مرّة للسّواد)، فذُكِر اللّونان باللّفظ المميّز سبع مرّات؛ مرّتين تتعلّق باللّون الأبيض[1]، وخمس مرّات باللّون الأسود[2]، بينما ورد هذان اللّونان ملتصقين بالوجه بمفردات أخرى وجمل، اقتضى مقام الآية وسياقها أن تكون بدلاً عن الأبيض والأسود، مثل: ناضرة، ناظرة، ومسفرة ضاحكة[3] مستبشرة، وناعمة راضية[4]، مثل قوله تعالى: ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾[5] للدّلالة على البياض والطّهر، والنّقاوة والصّفاء، والفوز في الآخرة نتيجة العمل الصّالح، ومثل: غبرة، قترة، باسرة، خاشعة، عاملة ناصبة، لقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ ﴾[6] للدّلالة على السّواد، والخسران في الآخرة، وفي كلٍّ حكمة إلهيّة[7].

---

1 ـ يقول الله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ آل عمران/106، ويقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ آل عمران/107

2 ـ يقول الله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ آل عمران/106، ويقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ آل عمران/107، ويقول أيضا: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ النحل/58، ويقول أيضا: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ الزخرف/17، ويقول أيضا: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الزمر/60.

3 ـ الضّحك يقتضي ظهور الأسنان وهذا يزيد في جمال الوجه حين بروزها ولمعانها.

4 ـ الرّضى أوّل ما ينعكس على الوجه، فتنشرح أساريره.

5 ـ المطففين/24.

6 ـ يونس/27.

7 ـ لقد ورد في تفسير الفخر الرازي لقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ آل عمران/106 شرح واف يتعلّق بدلالة اللونين الأبيض والأسود، فيقول: "إذا عرفت هذا فنقول: في هذا البياض والسّواد والغبرة والقترة والنّضرة قولان، **أحدهما:** أنّ البياض مجاز عن الفرح والسّرور، والسّواد عن الغمّ، وهذا مجاز مستعمل، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾ النحل/58. ويقال: لفلان عندي يد بيضاء، أي جلية سارّة". الرّازي. مج3/ج156/8.

إنّ الوجه في القرآن الكريم خاضع كباقي أعضاء جسم الإنسان لأغراض الدّعوة الإسلاميّة؛ فهو في العبادة، وفي الدّنيا والآخرة، وفي الجزاء والعقاب، وفي الجنّة والنّار، وتظهر من خلال ملامح النّهاية السّعيدة للعبد أو النّهاية الشّقيّة، وهو مخالف للوجه في الأعمال الأدبيّة والفكريّة الّتي يكتبها الإنسان.

"وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيضّ وجهه ومعناه الاستبشار والتّهلّل، وعند التّهنئة بالسّرور يقولون: الحمد لله الّذي بيّض وجهك، ويقال لمن وصل إليه مكروه: اربدّ وجهه واغبرّ لونه وتبدّلت صورته، فعلى هذا معنى الآية أنّ المؤمن يردُّ يوم القيامة على ما قدّمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيضّ وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضدّ ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسودّ وجهه بمعنى شدّة الحزن والغمّ". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج157/8.

"و**القول الثّاني**: إنّ هذا البياض والسّواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين، وذلك لأنّ اللّفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة، فموجب المصير إليه، قلت لأبي مسلم أن يقول: الدّليل دلّ على ما قلناه، وذلك لأنّه تعالى قال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ عبس/38 -41 فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضّحك والاستبشار، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز، لما صحّ جعله مقابلا، فعلمناه أنّ المراد من هذه الغبرة والقترة الغمّ والحزن حتّى يصحّ هذا التّقابل، ثمّ قال القائلون بهذا القول: الحكمة من ذلك أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنّه من أهل الثّواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح من ذلك من وجهين: **أحدهما:** أنّ السّعيد يفرح بأن يعلم قومه أنّه من أهل السّعادة، قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ يس/26-27.

والثّاني: أنّهم إذا عرفوا ذلك خصّوه بمزيد التّعظيم فثبت أنّ ظهور البياض في وجه المكلّف سبب لمزيد سروره في الآخرة، وبهذا الطّريق يكون ظهور السّواد في وجه الكفّار سببا لمزيد غمّهم في الآخرة، فهذا وجه الحكمة في الآخرة، وأمّا في الدّنيا فالمكلّف حين يكون في الدّنيا إذا رأى حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغّبا له في الطّاعات وترك المحرّمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيضّ وجهه لا من قبيل من يسودّ وجهه. فهذا تقرير هذين القولين". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج157/8.

الفصل الثّاني

دلالات اليد وحركاتها في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "يد" في القرآن الكريم:

ثانيا: تعريف "اليد":

ثالثا– لفظ "يد" في السّياق اللّغويّ القرآنيّ:

1 – حركات اليد وأفعالها في القرآن الكريم:

أ – عمل اليد:

ب – كتابة الكتاب والافتراء على الله:

ج – بسط اليد:

د – كَفُّ اليد:

هـ – تقطيع الأيدي:

و – قطع يد السّارق وإقامة الحدود:

ز – حركة اليد الدّالّة على البخل والشّحّ:

ح – حركة اليد الدّالّة على النّدم والحيرة:

ط – شهادة الأيدي:

ي – كلام الأيدي:

ك – العبادة والطّهارة:

ل – معجزة اليد عند موسى عليه السلام:

م – شدّة الظّلمة والعذاب:

ن – حركة ردّ اليد إلى الفم:

س – اليد وحركة اللّمس الدّالّة على العناد والكفر:

ع – تعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين:

ف – "اليد" وحركتا الأخذ والضّرب:

ص – حركة اغتراف الماء:

ق – التّعبير على حركة اليد في الصيد:

ر – التّعبير على الأسر:

2 – تصديق الّذي بين اليدين:

3 – علم ما بين الأيدي:

4 – من بين الأيدي واليدين:

5 – الدّعاء:

6 – القوّة على عبادة الله تعالى:

7 – الإلقاء باليد إلى التّهلكة:

8 – الّذي بيده عقدة النّكاح:

9 – إعطاء الجزية عن يد:

الفصل الثّاني: دلالات اليد وحركاتها في السّياق القرآنيّ

أوّلا: إحصاء لفظ "يد" في القرآن الكريم:

لقد ورد لفظ "يد" في القرآن الكريم عشرين ومائة مرّة، في إحدى وخمسين سورة (اثنتين وثلاثين سورة مكّيّة، وتسع عشرة سورة مدنيّة)، وورد بصيغ متباينة ما بين مفرد ومثنّى وجمع، ومضاف وغير مضاف، وإعراب مختلف. والجدول الآتي يبيّن الصّيغ المتنوّعة للفظ "يد" في القرآن الكريم:

عدد ألفاظ "يد" في القرآن الكريم[1]					
اللّفظ	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**
يَدٌ	05	يَدَاكَ	01	يَدَيَّ	03
يَدَكَ	07	يَدَاهُ	03	أيْدٍ	01
يَدَهُ	08	يَدَيْ	07	أَيْدِي	05
يَدِيَ	01	يَدَيْهِ	17	أَيْدِيكُمْ	16
يَدَا	01	يَدَيْهَا	01	أيْدِينا	03
أَيْدِيهِمْ	37	أيْدِيَهُمَا	01	أَيْدِيَهُنَّ	03
المجموع = 120					

وأشرتُ إلى أنواع اليد، والدّلالات المتنوعة الّتي في القرآن الكريم.

1 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. 770 - 772. مادة (ي د ي).

ثانيا: تعريف "اليد":

اليد من أعضاء الجسم، وهي من المنكب إلى أطراف الأصابع[1]، واليد: الكَفُّ، وقال أبو إسحق: اليَدُ من أطراف الأصابع إلى الكَفِّ، وهي أنثى، وزنها فَعْلٌ يَدْيٌ، والنّسب إليه على مذهب سيبويه يَدَوِيٌّ، والأخفش يخالفه فيقول: يَدِيٌّ كَنَدِيٌّ. والجمع أَيْدٍ، ويُدِيٌّ، وجمع الجمع: أَيَادٍ، وتصغير اليدُ: يُدَيَّةٌ[2].

ولقد دلّ لفظ "يد" في القرآن الكريم على أنّ العضو المعروف من جسم الإنسان يمتدّ من الكتف إلى الكفّ، يقوم في النّظام الإشاريّ الجسميّ مقام اللّسان في النّظام اللّغويّ الصّوتيّ[3]. واليد آلة للقيام بأنواع الأعمال المفيدة مثل التّطبيب والبناء والغراسة والزّراعة والقتال في دفع اعتداء الأعداء وغير المفيدة مثل البطش والسّرقة وغيرها كثير. ويد الإنسان أعظم آلة عرفها العلم، وكلّ تقدّم هو نتيجة دقّة اليد الإنسانيّة ومرونتها[4]. كما دلّ لفظ "يد" على معان مجازيّة تفهم من السّياق مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[5]، للدّلالة على البخل، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾[6]، للدّلالة على النّدم والحيرة وغيرهما من الدّلالات.

---

1 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج1063/2. مادّة (يدَاه).

2 ـ ينظر كتاب العين (مرتّب على حروف المعجم). الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ). مج410/4. مادّة (يدي)، ينظر معجم الصّحاح. إسماعيل بن حماد الجوهري. اعتنى به خليل مأمون شيحا. 1167 وما بعدها، ينظر القاموس المحيط. الفيروزآبادي (ت817هـ). رتّبه وفصّله: حسّان عبد المنّان. عمّان. الأردن. بيت الأفكار الدّوليّة. (د. ط). 2004م. 1911. مادّة (يدي)، ولسان العرب. ابن منظور. مج309/15. مادّة (يدي). ولليد معان كثيرة مثل: اليد: النّعمة السّابغة، ويد الفأس: مقبضها، ويد القوس: سِيَتُها، ويد الدّهر: مدُّ زمانه، ويد الرّيح: سُلطانها. واليد: القوّة، واليد: الغِنَى والقُدرة، واليد: السُّلطان والمِلك، واليد: الطّاعة، واليد: النّدم، واليد: الغِياثُ، واليد: منعُ الظّلم، واليد: الاستسلام، واليدُ: الكفالة في الرّهن، وطول اليد: العطاء والصّدقة، والجاه، والوقار، والحَجْرُ على من يُستَحِقُّهُ، والطّريق، وبلاد اليمن، والجماعة، والكل، والدّلّ، والإحسان تصطنعه. ينظر القاموس المحيط. الفيروزآباديّ. 1911. مادّة (يدي)، ولسان العرب. ابن منظور. مج311/15. مادّة (يدي)، والمعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج1063/2. مادّة (يداه).

3 ـ ينظر الإشارات الجسميّة. كريم زكي حسام الدّين. 190

4 ـ ينظر كتاب لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 81.

5 ـ التوبة/67.

6 ـ الأعراف/149.

ولقد دلّ لفظ "يد" أيضا على "النّفس" في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]. قال المبرّد: بأيديكم أي بأنفسكم[2]، والتّقدير: لا تلقوا بأنفسكم إلى التّهلكة[3]، وقال قوم آخرون: بل ههنا حذف والتّقدير: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التّهلكة[4]، فعبّر بالبعض عن الكلّ؛ كقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ من الآية: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ من الآية: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[6]. فتكون "اليد" في المواضع الثلاثة بمعنى النّفس.

ثالثا: لفظ "يد" في السّياق اللّغويّ القرآنيّ:

1 – حركات اليد وأفعالها في القرآن الكريم:

اليد آلة للقيام بالأعمال – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – وأكثر جوارح الإنسان تصرّفا وفعلا، وعضو فعّال في النّظام الإشاريّ للتّواصل التّامّ ما بين المرسل وما بين المتلقّي، وكم هي الإشارات ذات الدّلالات المتقاربة الّتي يعرفها كثير من المجتمعات الإنسانيّة، مثل مدّ اليد مع بسط الكفّ للدّلالة على التّرحيب، ورفع اليد إلى أعلى مع بسط الكفّ وهزّها للدّلالة على التّوديع[7].

ويصوّر لنا القرآن الكريم إشارات جسميّة لليد والحركات الّتي تقوم بها، مثل التّعبير عن الدّهشة والتّعجّب والنّدم لقوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ

1 ـ البقرة/195.
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج363/2.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج131/5.
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج363/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج131/5.
5 ـ الشّورى/30.
6 ـ الحج/10.
7 ـ ينظر الإشارات الجسميّة. كريم زكي حسام الدّين. 190.

أَنفَقَ فِيهَا ﴾[1]، والتّعبير عن النّدم والأسف لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[2]، والتّعبير عن البطش بالآخرين[3] لقول الله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[4]. وتسند العرب الفعل إلى الأيدي لأنّ أكثر الأعمال تزاول بها، ويجعلون المراد بها الشّخص[5].

إنّ الآيات الّتي بين أيدينا تحمل كثيرا من التّعابير على الأعمال الّتي تنجزها اليد إنجازا حقيقيّا، أو تعابير مجازيّة تشير إلى دلالات معيّنة تفهم من السّياق القرآنيّ.

أ – عمل اليد: لقد ذكر لفظ "اليد" في القرآن الكريم وأسند إليه فعل دالّ على عمل مثل؛ قدّم، وعمل، وكسب.

❁ بلفظ "قدّمت":

قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[6].

إنّ الشّاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ فإنّه يعني به بما أسلفته أيديهم، وبما كسبت من الذّنوب، وبما أسلفوا من موجبات النّار[7]، وبما أتوا من المعاصي سواء كان باليد أم بغيرها بقرينة المقام[8]، وإنّما قيل ذلك بإضافته إلى اليد، لأنّ أعظم جنايات النّاس تكون بأيديهم، والمعنى بما قدّموه إذ كانت اليد أكثر الجوارح تصرّفا في الخير والشّرّ[9] فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات الّتي يجنيها النّاس إلى أيديهم حتّى أضيف كلّ ما

1 ـ الكهف/42.
2 ـ الفرقان/27.
3 ـ ينظر الإشارات الجسميّة. كريم زكي حسام الدّين. 191.
4 ـ المائدة/28.
5 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج1/146.
6 ـ البقرة/95.
7 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج1/297.
8 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ج1/615-616.
9 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/480.

عوقب عليه الإنسان ممّا جناه بسائر أعضاء جسده إلى أنّها عقوبة على ما جنته يده[1]؛ "وإنّما ذلك مثل على نحو ما تتمثّل به العرب في كلامها، فتقول للرّجل يؤخذ بجريرة جرّها أو جناية جناها فيعاقب عليها: نالك هذا بما جنت يداك، وبما كسبت يداك، وبما قدّمت يداك؛ فتضيف ذلك إلى اليد، ولعلّ الجناية الّتي جناها فاستحقّ عليها العقوبة كانت باللّسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سوى اليد"[2]. فلذلك قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.

إنّ اليهود – بما جُبِلوا عليه من العِنَادِ – لن يتمنّوا الموت بما قدّموا "أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله في مخالفتهم أمره وطاعته في اتّباع محمّد ﷺ وبما جاء به من عند الله، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التّوراة، ويعلمون أنّه نبيّ مبعوث. فأضاف الله تعالى ما انطوت عليه قلوبهم وأضمرته أنفسهم ونطقت به ألسنتهم من حسد محمّد ﷺ والبغي عليه، وتكذيبه، وجحود رسالته على أيديهم، وأنّه ممّا قدّمت أيديهم، لِعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها، إذ كان جلّ ثناؤه إنّما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها"[3]. ولقد كثر هذا الاستعمال في القرآن الكريم "ذلك بما قدّمت يداك"، "بما قدّمت أيديكم"، "فبما كسبت أيديكم"[4]. ولقد ورد تعبير "ما قدّمت اليد" في مواضع كثيرة من القرآن الكريم[5].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج1/ج1/548.

2 ـ المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

3 ـ المصدر نفسه، الصّفحة نفسها، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/480، وروح المعاني. الألوسي. مج1/ج1/457، ومج2/ج4/488، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ج1/615-616.

4 ـ وقيل: " اليد كناية عن نفس الشّخص". روح المعاني. الألوسي. مج1/ج1/457، و"المراد من الأيدي الأنفس، والتّعبير بها عنها من قبيل التّعبير عن الكلّ بالجزء الّذي مدار جلّ العمل عليه ". روح المعاني. الألوسي. مج2/ج4/488، و"عبّر باليد هنا عن الذّات مجازا". تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ ج1/ 615 -616.

5 ـ قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾. النساء/62. (بما قدّمت أيديهم) فهؤلاء المنافقون احتكموا إلى الطّاغوت وأعرضوا عن الله تعالى. ينظر جامع البيان. الطّبري. مج4/ج5/195. "إنّهم يتحاكمون إلى الطّاغوت مع أنّهم أمروا بالكفر به، ويصدّون عن الرّسول مع أنّهم أمروا بطاعته" تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج10/136. أمّا المواضع الأخرى التي ورد فيها قوله تعالى: (بما قدّمت أيديهم)، فهي: آل عمران/182، الأنفال/51، الحج/10، القصص/47، الرّوم/36، الشّورى/48، الجمعة/7.

❁ **بلفظ "كسبت"**: هذا الجزء تابع للجزء السّابق في معنى "قدّمت أيديهم".

قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[1]، أي؛ بما عمل الإنسان، إذ ظهرت معاصي الله في كلّ مكان، من برّ وبحر، بذنوب النّاس، وانتشر الظّلم فيهما[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[3].

❁ **بلفظ "عملت"**:

قال تعالى: ﴿ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾[4]. تظهر في الآية الكريمة حركة العمل والاجتهاد؛ والمراد: ليأكلوا من ثمر الجنّات الّتي أنشأها الله تعالى وأبدعها، وما عملت أيديهم من الغرس والزّرع[5]، والسّقي والآبار وغير ذلك من الأعمال؛ فالثّمر نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كدّ بني آدم[6].

يقول الفخر الرّازي: "أي والّذي عملت أيديهم من الغراس بعد التّفجير يأكلون منه أيضا ويأكلون من ثمر الله الّذي أخرجها من غير سعي النّاس، فعطف الّذي عملته الأيدي على ما خلقه الله من غير مدخل للإنسان فيه... معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله... أو بمعنى وما عملته أي بالتّجارة كأنّه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما، وهما الزّراعة والتّجارة، ومن النّبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي، كالعنب والتّمر وغيرهما، ومنه ما يعمل فيه عمل الصّنعة، فيؤكل كالأشياء الّتي لا تؤكل إلاّ مطبوخة أو كالزّيتون الّذي لا يؤكل إلاّ بعد

---

1 - الرّوم/41.
2 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج54/21.
3 - الشّورى/30.
4 - يس/35. قال تعالى في الآيتين قبلها: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ . وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴾ يس/33-34.
5 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/ج6/23.
6 - ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج322/3.

إصلاح، ثمّ لمّا عدّد النعم أشار إلى الشّكر بقوله: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾"[1]. فإنّ الله تعالى لا يسلب الإنسان قدرته على الفعل والعمل والحركة والإنتاج، فهو يجتهد ويتّخذ من الأسباب ما هو متاح أمامه في بيئته ليكسب قوته وقوت عياله، والله تعالى هو المتمّم المحقّق الّذي ينبتها ويخلق ثمرها.

ب – كتابة الكتاب والافتراء على الله:

قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[2]. الكذب على الله تعالى. تبدو في الآية الكريمة حركة الكتابة الّتي مارسها هؤلاء اليهود؛ فلقد عمد أحبارهم إلى كتابة الكذب والفرية على الله بأيديهم على علم منهم... ثمّ نسبوه إلى الله تعالى وإلى كتابه تكذّبا عليه وافتراءً[3]. "فكتبوا كتابا على ما تأوّلوه من تأويلاتهم مخالفا لما أنزل الله على نبيّه موسى ﷺ، ثمّ باعوه من قوم لا علم لهم بها ولا بما في التّوراة جهّال بما في كتب الله لطلب عرض من الدّنيا خسيس... وقيل: كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب، ويحدّثونهم أنّه من عند الله ليأخذوا به ثمنا قليلا... وقيل: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمّد ﷺ، فحرّفوه عن مواضعه يبتغون بذلك عرضا من عرض الدّنيا... وقيل: عمد اليهود إلى التّوراة فحرّفوها وزادوا فيها ما يحبّون، ومحو منها ما يكرهون، ومحوا اسم محمّد ﷺ من التّوراة"[4]. وقيل: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمّد ﷺ، فحرّفوه عن مواضعه يبتغون بذلك عرضا من عرض الدّنيا[5].

1 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج63/26.
2 ـ البقرة/79.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج1/ج1/490.
4 ـ المصدرنفسه. مج1/ج1/488-489
5 ـ وينظر روح المعاني. الألوسي. مج1/ج1/422.

ج – بسط اليد:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1]. إنّ حركة اليد في هذا المقام للتّعبير عن الصّولة والضّرب[2]؛ فبسط اليد؛ مدّها إلى المبطوش به[3]، والبسط في الأصل مطلق المدّ[4]، وبسط إليه لسانه إذا شتمه[5].

قال تعالى: ﴿ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾، فالله تعالى يذكّر المؤمنين بنعمه عليهم بدفع الشّرّ والمكروه عن نبيّهم، فلقد شارف الأعداء أن يمدّوا أيديهم إليهم بصنوف البلاء من قتل ونهب وإهلاك، فإنّه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى الّتي تصيب المسلمين[6]. ولكن رحمة الله تعالى بالمؤمنين تحوطهم من كلّ جانب ﴿ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ بلطفه ورحمته فلم يستطيعوا تنفيذ ما همّوا به[7]، ومنعها أن تمدّ إليهم وردّ مضرّتها عنهم[8]، عقيب همّهم بذلك وعصمهم منهم، وفي ذلك ما لا يخفى من إكمال النّعمة ومزيد اللّطف[9].

---

1 ـ المائدة/11.ذكر أنّ النّبيّ دخل على اليهود حائطا لهم، وأصحابه وراء جدار لهم، فاستعانهم في مغرم دية غرمها، فائتمروا بينهم بقتله: "فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟"، فقام من عندهم، وخرج يمشي القهقرى ينظر إليهم، ثمّ دعا أصحابه رجلا رجلا حتّى تتامّوا إليه. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج180/6، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج523/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج154/11-155.

2 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الأصفهانيّ. 56. مادّة (بسط).

3 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج599/1، و تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج154/11-155.

4 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج3/ج360/6.

5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج154/11-155.

6 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفي المراغي. مج398/2، و تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج304/2، روح المعاني. الألوسي. مج3/ج360/6.

7 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.

8 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج304/2، والكشّاف. الزّمخشري. مج599/1، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج154/11-155.

9 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج3/ج361/6.

يقول سيد قطب: "إنّ صورة و(حركة) بسط الأيدي وكفّها أكثر حيوية من ذلك التّعبير المعنوي الآخر.. والتّعبير القرآنيّ يتبع طريقة الصّورة والحركة. لأنّ هذه الطّريقة تطلق الشّحنة الكاملة في التّعبير؛ كما لو كان هذا التّعبير يطلق للمرّة الأولى، مصاحبا للواقعة الحسّيّة الّتي يعبّر عنها مبرزا لها في صورتها الحيّة المتحرّكة.. وتلك طريقة القرآن"[1]. في إعطاء الكلمة حياة وحركة حتّى كأنّ الصّورة ماثلة[2].

د – كَفُّ اليد:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾[3]. فالشّاهد في الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾. كفّ الرّجل صاحبه؛ أي منعه. من كَفَّه عن الأمر يَكُفُّهُ كَفًّا[4]. ولقد كفّ الله تعالى المسلمين عن مقاتلة الكفّار ما داموا بمكّة، وكانوا يتمنّون أن يؤذن لهم فيه[5].

---

1 ـ في ظلال القرآن. مج2/ج855/6.

2 ـ ولقد وردت عبارة (بسط اليد) في مواضع أخرى من القرآن الكريم: المائدة/28، الأنعام/93، الممتحنة/2.

3 ـ النساء/77. "ذكر أنّ هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا قد آمنوا به وصدّقوه قبل أن يفرض عليهم الجهاد، وقد فرض عليهم الصّلاة والزّكاة، وكانوا يسالون الله أن يفرض عليهم القتال، فلمّا فرض عليهم القتال شقّ عليهم ذلك وقالوا ما اخبر عنهم كتابه". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج211/5. وقال جلال الدّين السّيوطي (ت911هـ) : "أخرج النّسائي والحاكم عن ابن عبّاس أنّ عبد الرّحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: يا نبيّ الله كنّا في عزّ ونحن مشركون. فلمّا آمنّا صرنا أذلّة. قال: إنّي أمر ت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلمّا حوّله الله إلى لمدينة أمره بالقتال فكفّوا. فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية". لباب النّقول وأسباب النّزول. 84، وقول الفخر الرّازي: "إنّ هذ الآية نازلة في حقّ المنافقين، واحتجّ الدّاهبون إلى هذا القول بأنّ الآية مشتملة على أمور تدلّ على أنّها مختصّة بالمنافقين لأنّ تعالى قال في وصفهم: ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ومعلوم أنّ هذا الوصف لا يليق إلاّ بالمنافق، لأنّ المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من النّاس أزيد من خوفه من الله تعالى". تفسير الفخر الرّازي.مج4/ج159/10.

4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج89/13. مادّة (كفف).

5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج543/1.

جاء فريق من المسلمين عند رسول الله ﷺ " كانوا يلقون من المشركين أذى شديدا وهم بمكّة قبل الهجرة فيشكون إلى رسول الله ﷺ ويقولون: ائذن لنا في قتال هؤلاء فإنّهم قد آذوننا، والنّبيّ ﷺ يقول: كفّوا أيديكم وكفّوا عن القتال فإنّي لم أومر بذلك، وفي رواية: إنّي أمرت بالعفو"[1]، وكان صلّى الله عليه وسلّم يوجّههم إلى الأمور الّتي تبني عقيدة المؤمن وتقوّي صلتهم بربّهم، والأفعال الّتي تقوّي صلتهم بعضهم ببعض فيقول لهم: "أدُّوا الصّلاة الّتي فرضها الله عليكم بحدودها.. وأعطوا الزّكاة أهلها، الّذين جعلها الله لهم من أموالكم، تطهيرا لأبدانكم وأموالكم"[2]. أي أمسكوا أيديكم وامتنعوا عن حرب هؤلاء المشركين.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ "يعجب الله – سبحانه – من أمر هؤلاء النّاس؛ الّذين كانوا يتدافعون حماسة على القتال ويستعجلونه وهم في مكّة، يتلقّون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين. حين لم يكن مأذونا لهم القتال للحكمة الّتي يريدها الله. فلمّا أن جاء الوقت المناسب الّذي قدّره الله، وتهيّأت الظّروف المناسبة وكتب عليهم القتال – في سبيل الله – إذا فريق منهم شديد الجزع، شديد الفزع"[3]. ولقد وردت عبارة (كفّ اليد) في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ

1 ـ روح المعاني. الألوسي. مج3/ج118/5.
2 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج211/5.
3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج712/5.

وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَوۡلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾[1]. فالشّاهد قوله تعالى: ﴿ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ ﴾ أي؛ لم يكفّوا أيديهم عن قتالكم[2].

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾[3]. والشّاهد في الآية قوله: ﴿ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ أي؛ وكفّ الله أيدي المشركين عن المؤمنين وعن عيالهم فلم يقاتلوهم[4]، وكان في ذلك آية وعبرة لهم ليعلموا "أنّ الله هو المتولّي حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتّقوا الله في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحفظ وحسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته، منتهين إلى أمره ونهيه"[5]. فما أصابهم من خير أو شرّ فبإذن الله تعالى.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[6]. لقد كفّ الله تعالى أيدي المشركين الّذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية يريدون

---

1 ـ النساء/91. "اختلف أهل التّأويل في الّذين عنوا بهذه الآية، فقال بعضهم: هم أناس كانوا من أهل مكّة اسلموا على ما وصفهم الله به من التّقية وهم كفّار، ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم، يقول الله: ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا ﴾ يعني: كلّما دعاهم إلى الشّرك بالله ارتدّوا، فصاروا مشركين مثلهم ليأمنوا عند هؤلاء وهؤلاء". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج247/5.

2 ـ ينظر المصدر نفسه. مج4/ج248/5.

3 ـ الفتح/20. "اختلف أهل التّأويل في الّذين كفّت أيديهم عنهم من هم؟ فقال بعضهم: هم اليهود كفّ الله أيديهم عن عيال الّذين ساروا من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية وإلى خيبر". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج105/26.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج105/26.

5 ـ المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

6 ـ الفتح/24. "أخرج مسلم والتّرمذي والنّسائي عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ثمانون رجلا في السّلاح من جبل التّنعيم يريدون غرّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأُخِذُوا فأعتقهم. فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم ﴾ الآية". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطيّ. 263.

غرّهم ومباغتتهم ليصيبوا منهم بالقتل والأسر، فبعث رسول الله ﷺ فأتى بهم أسرى، فلم يلبث أن خلّى عنهم رسول الله ﷺ ، ومنّ عليهم و لم يقتلهم، فقال الله تعالى للمؤمنين: وهو الّذي كفّ أيدي هؤلاء المشركين عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكّة، من بعد أن أظفركم عليهم ووفّقكم لتأسروهم[1].

هـ – تقطيع الأيدي:

قَطَعَهُ يَقْطَعُهُ قَطْعًا وقَطِيعَةً وقُطُوعًا، والمصدرُ القَطْعُ. والقَطْعُ: إبانة بعض أجزاء الجرم من بعضٍ فصْلاً[2]، أو هو: فصل الشّيء مُدرَكًا بالبصر كالأجسام أو مُدرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة. فمن ذلك قطع الأعضاء نحو قوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلاً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4]... وقطع الوصل هو الهُجران، وقطع الرّحم بالهجران ومنع البرّ[5]، قال: ﴿ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾[6].

إنّ الآيات الّتي تأتي، فيها ما يشير على ما يلحق الأيدي من الأذى والتّقطيع، في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، مثل تقطيع الأيدي باعتباره وجها من العذاب كالّذي قام به فرعون تجاه المؤمنين، أو الّذي توعّد به الله تعالى من حارب الله ورسوله، أو باعتباره شماتة كالّذي قامت به امرأة العزيز تجاه النّسوة اللاّتي رأين يوسف عليه السلام. وأهمّ هذه المواضع هي كالآتي:

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج108/26.
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج138/12. مادّة (قطع).
3 ـ الأعراف/124.
4 ـ المائدة/38.
5 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهاني. 455. مادّة (قطع).
6 ـ محمّد/22.

الموضع الأوّل: جزاء من حارب الله ورسوله: قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]. فالشّاهد قوله تعالى: ﴿ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ ﴾؛ أي أن تقطّع أيديهم تقطيعا مخالفا في قطعها قطع أرجلهم، وذلك أن تقطع أيمن أيديهم وأشمل أرجلهم، فذلك الخلاف بينهما في القطع[2]، وفي هذا تعبير عن العذاب وسوء الجزاء[3].

الموضع الثّاني: تعذيب فرعون المؤمنين: قال تعالى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[4]. أي: إنّ الله تعالى ذكره يخبر عن قِيل فرعون للسّحرة إذ آمنوا بالله وصدّقوا رسوله موسى عليه السلام: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ

---

1 ـ المائدة/33. لقد وردت روايات كثيرة ومختلفة فيمن نزلت هذه الآية. ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج62/2 وما بعدها، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج182/11 وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج148/6 وما بعدها.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج269/6.

3 ـ لقد ورد في تفسير الآية : "المحاربون لله ولرسوله، هم الّذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا الأرض، بالكفر، والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السّبل. والمشهور أنّ هذه الآية الكريمة، في أحكام قطّاع الطّريق، الّذين يعرضون للنّاس، في القرى والبوادي، فيغصبون أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع النّاس من سلوك الطّريق، الّتي هم بها، فتنقطع بذلك. فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم ـ عند إقامة الحدود ـأن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

ولقد اختلف المفسّرون: هل ذلك على التّخيير، وأنّ كلّ قاطع طريق، يفعل به الإمام أو نائبه، ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللّفظ. أو أنّ عقوبتهم، تكون بحسب جرائمهم، فكلّ جريمة لها قسط يقابلها، كما تدلّ عليه الآية، بحكمها وموافقتها لحكمة الله تعالى، وأنّهم وأخذوا مالا تحتّم قتلهم وصلبهم، حتّى يشتهروا ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا، ولم يقتلوا، تحتّم أن تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى، والرّجل اليسرى. وإن أخافوا النّاس، ولم يقتلوا، ولم يأخذوا مالا، نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد، حتّى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عبّاس رضي الله عنه، وكثير من الأئمّة، على اختلاف في بعض التّفاصيل". تيسير الكريم الرّحمن في تفسير الكريم المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 208-209، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج151/6 وما بعدها.

4 ـ الأعراف/124. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ . قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾. الأعراف/120-123.

خِلَٰفٍ ﴾ وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع، فمخالفته في ذلك بينهما هو القطع من خلاف[1]... وإنّ أول من صلب وسنّ قطع الأيدي والرجل من خلاف فرعون[2]. ولقد وردت العبارة نفسها في قوله تعالى: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ في مواضع أخرى[3].

الموضع الثّالث: تقطيع أيدي نسوة يوسف: قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[4]. لقد قطّعت النّسوة الأيدي بتلك السّكاكين وسالت الدّماء وهنّ لا يشعرن إعجابا وإكبارا لجمال يوسف، الّذي أكبرنه وأعظمنه وبُهِتْنَ لِطَلْعَتِه، ودُهِشنَ[5]، بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل المقرون بتلك الهيبة والهيئة، ووقع الرّعب والمهابة منه في قلوبهنّ[6]. وقيل: أريد بالقطع الجرح، وأطلق عليه القطع مجازا للمبالغة في شدّته حتّى كأنّه قطع قطعة من لحم اليد[7].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج27/9، وروح المعاني. الألوسي. مج3/ج407/6، وتيسير الكريم الرحمن. عبد الرحمن بن ناصر السعدي. 279.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج27/9.

3 ـ إنّ معنى قوله: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ الّذي في الآية السّابقة ورد مثله في الآيتين الآتيتين. قال تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ . قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ طه/70 و71، وقال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الشّعراء/49. في إشارة إلى التّعذيب الّذي سلّطه فرعون على المؤمنين.

4 ـ يوسف/31.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج239/12.

6 ـ ينظر تفسير الفخر الرازي. الرازي. مج6/ج106/18-107.

7 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج263/12/5.

ولقد ورد قوله تعالى: ﴿ قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ مرّة أخرى حين أراد الملك أن يستخلصه لنفسه في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾[1].

و – قطع يد السّارق وإقامة الحدود:

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]؛ أي ومن سرق من رجل أو امرأة، فاقطعوا أيّها النّاس يده، إقامة حدود الله[3]. وحقيقة السّرقة، هي: أخذ المال على خفية من الأعين[4]. وأمّا السّارق، فهو: من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهذا الفعل من كبائر الذّنوب، الموجبة، للعقوبة الشّنيعة، وهي: قطع اليد[5].

والحكمة في هذه العقوبة؛ حفظ للأموال، واحتياط لها.. والقطع نكال من الله وترهيب للسّارق ولغيره، وردع للجميع – إذا علموا – أنّهم سيقطعون إذا سرقوا[6]. لأنّ السّارق يفكّر في أن يزيد كسبه بكسب غيره؛ فهو يستصغر ما يكسبه من طرق الحلال، ولا يكتفي بثمرة عمله، ويريد أن ينميه من طريق الحرام، فيطمع في ثمرة عمل غيره. ولقد حاربت الشّريعة هذا الدّافع في النّفس بتقرير عقوبة القطع[7]، وفي ذلك (القطع) رحمة بمن تحدّثه نفسه بها، لأنّه يكفّه عنها، ورحمة بالجماعة كلّها لأنّه يوفّر لها الطّمأنينة[8].

---

1 ـ يوسف/50.
2 ـ المائدة/38.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج284/6.
4 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج70/2.
5 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 209.
6 ـ ينظر المرجع نفسه. 210. وللعلماء أقوالهم وآراؤهم في حدّ قطع اليد لا يسمح المقام للخوض فيها، تراجع في مصادرها.
7 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2/ج884/6.
8 ـ ينظر المرجع نفسه. مج2/ج886/6. ويقول سيد قطب في موضع آخر: "وعلّة فرض عقوبة للسّرقة أو السّارق حينما يفكّر في أن يزيد كسبه بكسب غيره. فهو يستصغر ما يكسبه عن طرق الحلال، ويريد أن ينميه من طريق الحرام. وهو لا يكتفي بثمرة عمله، فيطمع في ثمرة عمل غيره. وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظّهور، أو ليرتاح من عناء الكدّ والعمل. أو ليأمن على مستقبله. فالدّافع الذي يدفع إلى السّرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثّراء.. وقد حاربت الشّريعة هذا الدّافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع.

ز – حركة اليد الدّالّة على البخل والشّحّ:

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1]. الشّاهد في الآية، قوله تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي؛ يقبضون أيديهم عن كلّ خير، ولا يبسطونها بنفقة في حقّ، ولا في سبيل الله، ومرضاته[2]، وتظهر فيها حركة القبض الدّالة على البخل، وكناية عن الشّحّ في النّفقات والمبارّ والواجبات[3]، كما أنّ بسطها كناية عن الجود؛ لأنّ من يعطي يمدّ يده بخلاف من يمنع[4]. وقيل: يقبضون أيديهم عن الرّفع في الدّعاء[5]، وقيل: قبض الأيدي عن الجهاد في سبيل الله وحمل السلاح في قتال أعداء الدّين[6].

إنّهم المنافقون، يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم ويسرّون الكفر بالله ورسوله ﷺ، هم صنف واحد، في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر، يأمرون بالمنكر، وهو الكفر بالله وبمحمّد ﷺ ، وبما جاء به وتكذيبه، وينهون عن الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به من عند

لأنّ قطع اليد أو الرّجل يؤدّي إلى نقص الكسب، إذ اليد والرّجل كلاهما أداة العمل أيا كان. ونقص الكسب يؤدّي إلى نقص الثّراء. وهذا يؤدّي إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظّهور، ويدعو إلى شدّة الكدح وكثرة العمل، والتّخوّف الشّديد على المستقبل". في ظلال القرآن. مج2/ج6/884.

﴿ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يقول أيضا سيد قطب: "فهي تنكيل من الله رادع. والرّدع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدّثه نفسه بها، لأنّه يكفّه عنها.ورحمة بالجماعة كلّها لأنّه يوفّر لها الطّمأنينة.. ولن يدّعي أحد أنّه ارحم بالنّاس من خالق النّاس، إلاّ وفي قلبه عمى، وفي روحه انطماس.. والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبّق في خلال قرن من الزّمان في صدر الإسلام إلاّ في آحاد، لأنّ المجتمع بنظامه، والعقوبة بشدّتها، والضّمانات بكفايتها لم تنتج إلاّ هذه الآحاد. ثمّ يفتح الله باب التّوبة لمن يريد أن يتوب، على أن يندم ويرجع ويكفّ؛ ثمّ لا يقف عند هذه الحدود السّلبيّة، بل يعمل عملا صالحا، ويأخذ في خير إيجابي: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. المائدة/39". في ظلال القرآن. مج2/ج6/886.

1 - التوبة/67.

2 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/203، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/418، وروح المعاني. الألوسي. مج5/ج10/443.

3 - ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج5/69، وروح المعاني. الألوسي. مج5/ج10/443.

4 - ينظر روح المعاني. الألوسي. مج5/ج10/443.

5 - ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج5/69.

6 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج8/199، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج5/69، وروح المعاني. الألوسي. مج5/ج10/443.

الله. ويمسكون أيديهم عن النّفقة في سبيل الله، فيمنعون الّذين فرض الله لهم في أموالهم ما فرض من الزّكاة حقوقهم[1]. والله لا يذمّهم إلاّ بترك الواجب ويدخل فيه ترك الإنفاق في الجهاد، ونبّه بذلك على تخلّفهم عن الجهاد[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[3]. فحركة إمساك اليد المغلولة إلى العنق للدّلالة على البخل الشّديد، وحركة اليد المبسوطة جدًّا للدّلالة على التّبذير. "وهذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق الّتي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، الّذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء"[4]، وضرب بسط اليد مثلا لذهاب المال، فإنّ قبض الكفّ يحبس ما فيها، وبسطها يُذهب ما فيها[5]. فيدعو الله تعالى نبيه محمّدا إلى عدم إمساك يده بخلا عن النّفقة في حقوق الله، فلا ينفق فيها شيئا إمساك المغلولة يده إلى عنقه، الّذي لا يستطيع بسطها، ولا يبسطها بالعطية كلّ البسط، فيبقى لا شيء عنده، فلا يستطيع أن يعطي سائله، وتلومه نفسه على الإسراع في ماله وذهابه[6]. وهذا كلّه خطاب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمراد أمّته.

يقول الفخر الرّازي: "غلّ اليد وبسطها مجاز مشهور عن البخل والجود...والسّبب فيه أنّ اليد آلة لكثرة العمل، لا سيما لدفع المال ولإنفاقه، فأطلقوا اسم السّبب على المسبّب، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والبنان والكف والأنامل، فقيل للجواد فياض الكفّ مبسوط اليد، وبسط البنان، تره الأنامل. ويقال للبخيل: كزّ الأصابع، مقبوض الكفّ، جعد

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/203.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج16/109. ويقول سيد قطب: "المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة.. وتنبع من واحد. سوء الطّوية ولؤم السّريرة، والغمز والدّسّ، والضّعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة. تلك سماتهم الأصليّة. أمّا سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، والبخل بالمال إلاّ أن يبذلوه رئاء النّاس". في ظلال القرآن. مج3/ج10/1673.
3 ـ الإسراء/29.
4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/89.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج10/251.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/90.

الأنامل"[1]. وهذا تمثيل بديع لإنسان شدّت يده على عنقه، أو إنسان ألقى كلّ ما في يده من المال، لمنع شحّ الشّحيح، وإسراف المبذّر[2]. قال الأعشى في مدح رجل منفق[3]:

يدَاكَ يدَا مجْدٍ فكفٌّ مفيدةٌ ❁ وكفٌّ إذا ضُنَّ بالزّاد تُنْفِقُ.

ح – حركة اليد الدّالّة على النّدم والحيرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[4]. فالشّاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ للدّلالة على الحيرة والنّدم. أي: (سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ) لّما ندم الّذين عبدوا العجل الّذي وصف الله جلّ ثناؤه صفته عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم[5]؛ أي ندموا على جنايتهم واشتدّ ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل[6]. وفي الآية كناية لطيفة عن شدّة النّدم، وكذلك تقول العرب لكلّ نادم متحسّر[7]، أو لكلّ نادم على أمر فات منه أو سلف وعجز عن شيء[8]، أو إذا عدم الحيلة في دفع ما هو بصدده من أمر[9]: (قد سقط في يديه) و(سُقِطَ في يدِهِ).

---

1 ـ تفسير الفخر الرّازي. مج4/ج36/11.
2 ـ ينظر الإبداع البيانيّ في القرآن الكريم. محمّد عليّ الصّابونيّ. 184
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج6/369 و370.
4 ـ الأعراف/149. قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ الأعراف/148.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج75/9.
6 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج437/1.
7 ـ ينظر الإبداع البيانيّ في القرآن الكريم. محمّد عليّ الصّابونيّ. 98.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج75/9.
9 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج437/1.

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾[1]. فالشّاهد في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ فهو كناية عن شدّة النّدم لأنّ النّادم يعضّ على يده غمّا[2].

يصوّر هذا المشهد ندم الظّالمين الضّالّين يوم القيامة.."مشهد الظّالم يعضّ على يديه من شدّة النّدم والأسف والأسى...ويصمت كلّ شيء من حوله؛ ويروح يمدّ صوته المتحسّر، ونبراته الأسيفة، والإيقاع الممدود يزيد الموقف طولا ويزيد أثره عمقا، فلا تكفيه يد واحدة يعضّ عليها، إنّما هو يداول بين هذه وتلك، أو يجمع بينهما لشدّة ما يعانيه من النّدم اللاذع المتمثّل في عضّه على اليدين. وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسيّة فيُجسِّمها تجسيما"[3]. ويقول: ليتني اتّخذت مع الرّسول طريقا إلى النّجاة[4].

إذا جمعنا الآيتين الأُوليين إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[5]،

---

1 ـ الفرقان/27. قال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا . ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ الفرقان/25-26. وقال تعالى في الآيتين الآتيتين بعدها: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ الفرقان/28و29.

2 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج437/1، والإبداع البيانيّ في القرآن الكريم. محمّد علي الصّابونيّ. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة. ط1. 1426هـ/2006م. 98.

3 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج2561/19/5.

4 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج7/7.

5 ـ الكهف/42. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا . وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا . لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا . وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ . الكهف/35- 41.

وجدنا ظاهرة التّرادف في الحركة الجسديّة في تلك الحركات الثلاث تلتقي على معنىً واحد هو النّدامة والأسف[1].

أمّا الحركة الأولى في سورة الكهف[2]، فهي حكاية رجل ظالم لنفسه أصبح يقلّب كفّيه ندامة على ما أنفق في جنّتيه وهي خاوية، وأمّا الحركة الثّانيّة في سورة الفرقان[3]، فهي حكاية حال ظالم يعضّ على يديه ندامة، وغمّا، وتفجّعا، وأمّا الحركة الثّالثة في سورة الأعراف[4]، فهي الحركة الثّالثة فهي حكاية حال قوم اتّخذوا من حليهم عجلا جسدا من دون الله، فلمّا عادوا إلى رشدهم، سقط في أيديهم، واعترفوا بذنوبهم. وقد وقف الزّمخشري عند هذه الحركات مشيرا إلى ذيوعها بين النّاس، وتواضعهم عليها[5].

ط – شهادة الأيدي:

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[6].

تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم "حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدّنيا من الذّنوب عند تقرير الله إياه بها، فيختم الله على أفواههم، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون"[7]، وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم بما تكلّموا، وتتكلّم الجوارح بما عملوا

---

1 - ينظر البيان بلا لسان؛ دراسة في لغة الجسد. مهدي أسعد عرّار. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1428هـ. 2007م. 177.

2 - يقول تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴾ الكهف/42.

3 - يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ الفرقان/27.

4 - يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الأعراف/149.

5 - ينظر البيان بلا لسان؛ دراسة في لغة الجسد. مهدر أسعد عرّار. 177-178.

6 - النور/24. قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور/23، وقال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ النور/25.

7 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج10/ج126/18.

في الدّنيا[1]. "ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنّه عزّ وجلّ ينطقها بقدرته فتخبر كلّ جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها، وأعمال سيّئة، وجنايات قبيحة"[2]. لتكون تلك الجوارح هي الشّاهدة على صاحبها أوّلا وهي الأقرب غليه، قبل أن يشهد عليه غيرهما

إنّ قلب الكافر يأبى الشّهادة يوم القيامة، فينطق الله الجوارح والألسنة والأيدي والأرجل بما عملوا في الدّنيا، ويقدرها على ذلك، ولا تكون الحياة شرطا لوجود الكلام... "فتكون تلك الشّهادة من الله في الحقيقة، إلاّ أنّه تعالى أضافها إلى الجوارح توسّعا، وقيل: إنّه تعالى ينشيء هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه، ويلجئها أن تشهد على الإنسان، وتخبر عنه بأعماله"[3]. ويكون ذلك بقدرة من الله تعالى.

ي – كلام الأيدي:

قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[4]. لقد جعل الله تعالى الشّهادة للأرجل والكلام للأيدي، لأنّ الأفعال تسند للأيدي قال تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡ ﴾[5]، فإذا الأيدي كالعاملة، والشّاهد على

1 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج210/12.

2 - روح المعاني. الألوسي. مج9/ج343/18.

3 - تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج405/6. وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج175/23. ويقول الزّمخشريّ: "ولو قلبت القرآن كلّه وفتّشت عمّا أوعد به العُصَاةَ لم تر الله عزّ وجلّ قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشّديد، والعتاب البليغ، والزّجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه من على طرق مختلفة وأساليب متقنة، كلّ واحد فيها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين، في الدّارين جميعا، وتوعّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا به، وأنّه يوفّيهم جزاء الحقّ الذي هم أهله". الكشّاف. مج3/56-57.

4 - يس/65. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلاّٗ كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ . هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ . ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ يس/62-64 وقال تعالى في الآيتين بعدها: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ . وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴾ يس/66-67.

5 - يس/35.

العامل (أي: الأيدي) ينبغي أن يكون غيره، فجعل الله تعالى الأرجل والجلود من جملة الشّهود لبعد إضافة الأفعال إليها[1].

ولا يوجد تعارض بين هذه الآية (في سورة يس) وبين قوله تعالى في الآية السّابقة (في سورة النّور)؛ لأنّ هذه الآية متعلّقة بأحوال المشركين، وآية سورة النّور بأحوال المنافقين[2].

ك – اليد في العبادة والطّهارة:

❁ **اليد في الوضوء والتّيمّم:** قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[3]. لقد ذكر العلماء أنّ هذه الآية من أعظم آيات القرآن مسائل وأكثرها أحكاما في العبادات، فإنّها شطر الإيمان[4]. وفيها إشارة إلى اليد والوضوء والتّيمّم معا.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَيۡدِيَكُمۡ ﴾ من الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ "اليد: عبارة عمّا بين المَنْكِبِ والظّفر،

---

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج95/26. ويقول الفخر الرّازي في موضع آخر: "الختم لازم الكفّار في الدّنيا على قلوبهم وفي الآخرة على أفواههم، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم... فلمّا ختم على أفواههم أيضا لزم أن يكون قولهم بأعضائهم، لأنّ الإنسان لا يملك غير القلب واللّسان والأعضاء، فإذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والأركان". تفسير الفخر الرّازي. مج9/ج95/26.

2 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج9/ج50/23. ويقول الطّاهر بن عاشور أيضا: "والمراد بتكلّم الأيدي تكلّمها بالشّهادة، والمراد بشهادة الرجل نطقها بالشّهادة، ففي كلتا الجملتين احتباك (قوّة). والتّقدير: وتكلّمنا أيديهم فتشهد وتكلّمنا أرجلهم فتشهد". تفسير التّحرير والتّنوير. مج9/ج50/23.

3 ـ المائدة/6.

4 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربيّ. ج32/2.

وهي ذات أجزاء وأسماء؛ منها المَنْكَبُ، ومنها الكفّ، والأصابع، وهو محلّ البطش والتّصرّف العامّ في المنافع، وهم معنى اليد، وغسلها في الوضوء مرّتين: إحداهما عند أوّل محاولة الوضوء وهو سنّة، والثّانيّة في أثناء الوضوء، وهو فرض. ومعنى غسلها عند النّوم تنظيف اليدين لإدخالهما الإناء ومحاولة نقل الماء بهما، ولا سيما الاستيقاظ من النّوم، وتحقيقه أنّ قوله تعالى: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ يقتضي بمُطلَقه من الظّفر إلى المَنْكِب، فلمّا قال: ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ أسقط ما بين المنكب والمِرْفَق، وبقيت المرافق مغسولة إلى الظّفر وهذا الكلام صحيح يجري على الأصول لغة ومعنى"[1].

أمّا قول الله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾، ففيه إشارة إلى موضع اليد في التّيمّم. وهذا الأخير بدل عن الماء، وفيه تطهير عضوين فقط فإذا كان العضدان غير معتبرين في الوضوء فبأن لا يكونا معتبرين في التّيمّم أولى، وإنّما ترك تقييد التيمّم في اليدين بالمرفقين لأنّه بدل عن الوضوء، فتقييده بهما في الوضوء يُغني عن ذكر هذا التّقييد في التّيمّم[2].

❁ **اليد في سياق التيمّم:** قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً

1 ـ أحكام القرآن. ابن العربيّ. ج2/40-41. ويقول الفخر الرّازي: "يقتضي وجوب غسل اليدين إلى المرفقين، فإذا سقط بعضه بالقطع وجب غسل لباقي بحكم الآية، وأمّا إن كان أقطع ممّا فوق المرفقين لم يجب شيء لأنّ محل التّكليف لم يبق أصلا". تفسير الفخر الرّازي. مج4/ج11/134. ويقول أيضا: "﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ يقتضي تحديد المر لا تحديد المأمور به، يعني أنّ قوله: ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾ أمر بغسل اليدين إلى المرفقين، فإيجاب الغسل محدود بهذا الحدّ، فبقي الواجب هو هذا القدر فقط، أمّا نفس الغسل فغير محدود بهذا الحدّ لأنّه ثبت بالأخبار أنّ تطويل الغرّة سنّة مؤكّدة". تفسير الفخر الرّازي. مج4/ج11/134.

2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج11/144.

فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[1]. في الآية إشارة إلى اليد والتّيمّم. و"فيها ثمان وثلاثون مسألة. وهي: خطاب الله سبحانه وتعالى بالصّلاة وإقامتها عامٌّ في المسلم والكافر.. وإنّما خصّ الله سبحانه ها هنا المؤمنين بالخطاب لأنّهم كانوا يقيمون الصّلاة وقد أخذوا من الخمر، وتلفتْ أذهانهم، فخُصُّوا بهذا الخطاب، إذ الكفار لا يفعلونها صُحاةً ولا سُكارى"[2].

قال تعالى: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾ المقصود عند جلّ المفسّرين الوجه واليدين إلى الكوعين، وعند أكثر الفقهاء يجب مسح اليدين إلى المرفقين، لأنّ اسم اليد يتناول العضو إلى الإبطين، إلاّ أنّهم أخرجوا المرفقين منه بدلالة الإجماع، فبقي اللّفظ متناولا للباقي. ويختم الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وهو كناية عن التّرخيص، والتّيسير، فالله تعالى يعفو عن المذنبين، ويرخّص للعاجزين[3].

لقد رفع الله تعالى عن المسلمين الحرج والمشقّة فيما كلّفهم به من العبادات... ورفع الحرج هو أن يكلّفهم الله سبحانه بما في طاقتهم... "لأنّ الغرض من العبادات جميعها إنّما

---

1 ـ النساء/43. روي في سبب نزول هذه الآية عن "عبد الرّحمن بن مهدي، عن سفيان، عن عطاء بن السّائب، عن أبي عبد الرّحمن السّلمي، عن علي ـ أنّه صلّى بعبد الرّحمن بن عوف ورجل آخر فقرأ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فخلط فيها، وكانوا يشربون من الخمر، فنزلت: ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾". أحكام القرآن. ابن العربي. ج450/1، وينظر لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدين السّيوطي. 77.

2 ـ أحكام القرآن. ابن العربيّ. ج450/1.

3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج100/10. ويقول ابن جرير الطّبري في قوله تعالى: ﴿ فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ ﴾ "يعني بذلك جل ثناؤه: فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم، ولكنّه ترك ذكر (منه) اكتفاء بدلالة الكلام عليه. والمسح منه بالوجه أن يضرب المتيمّمُ بيديه على وجه الأرض الطّاهر، أو ما قام مقامه، فيمسح بما علق من الغبار وجهه، فإن كان الّذي علق به الغبار كثيرا، فنفخ عن يديه أو نفضه، فهو جائز. وغن لم يعلق بيديه من الغبار شيء،وقد ضرب بيديه أو إحداهما الصّعيد، ثمّ مسح بهما أو بها وجهه أجزأه ذلك، لإجماع جميع الحجّة على أنّ ذلك مجزئه، لم يخالف لمتيمّم لو ضرب بيديه الصّعيد وهو أرض رمل فلم يعلق بيديه منها شيء فتيمّم به أنّ ذلك مجزئه، لم يخالف ذلك م، يجوز أن يعتدّ بخلافه. فلمّا كان ذلك إجماعا منهم كان معلوما أنّ الّذي يراد به من ضرب الصّعيد باليدين مباشرة الصّعيد بهما بالمعنى الّذي أمر الله بمباشرته بهما، لا لأخذ تراب منه. وأمّا المسح باليدين، فإنّ أهل التّأويل اختلفوا في لحدّ الّذي أمر الله بمسحه من اليدين، فقال بعضهم: حدّ ذلك الكفّان إلى الزّندين، وليس على المتيمّم مسح ما وراء ذلك من السّاعدين". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج4/ج140/5.

هو امتثال أمر الله تعالى، وإشعار القلوب بعظمته، وأنّه هو وحده الّذي يقصد بالعبادة"[1]. وإنّ الله تعالى يحبّ أن يأتي عباده رخصه، كما يحب أن يأتوا عزائمه.

أمّا الغرض من التّيمّم فإنّما هو التّخفيف، فيكفي فيه أن يأتي ببعض صورة الوضوء، "على أنّ العضوين اللّذين يجب غسلهما دائما في الوضوء هما الوجه واليدان: أمّا الرّأس فإنّه يمسح في جميع الأحوال، وأمّا الرّجلان فتارة يغسلان، وتارة يمسحان، وذلك فيما إذا كان لابسا الخفّ، فالله سبحانه أوجب التّيمّم في العضوين اللّذين يجب غسلهما دائما، ولا يخفى ما في ذلك من التّخفيف"[2]. ولا يخفى ما في المسح والاكتفاء بعضوين اثنين من التّوسّع على العباد في ممارسة العبادة المفروضة من لله تعالى.

ل – معجزة اليد عند موسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴾[3]. أي اضمم يا موسى يدك، فضعها تحت عضدك، وكان عليه السّلام رجلا آدم[4]، ثمّ أخرجها بيضاء مثل الثّلج[5]، أو مشرقة مثل البرق، أو مشرقة تضيء كشعاع الشّمس، يغشى البصر عن الإدراك، ويسدُّ الأفق[6]. وبيضاء ﴿ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ﴾[7] من غير برص[8]، ومن غير عيب وقبح، لما أنّ الطّباع تعافه وتنفر منه. ثمّ ردّها، فخرجت كما كانت

1 ـ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة. عبد الرحمن الجزيري. بيروت. لبنان. دار إحياء التراث العربي. ج1. ط3 (د. ت). ج1/148-150.
2 ـ المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.
3 ـ طه/22. قال تعالى في الآية الّتي بعدها: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴾. طه/23.
4 ـ أدِمَ أدَمًا وأُدمةً: اشتدّت سمرته، فهو آدم، وهي أدماء. ينظر جامع البيان عن تأويل القرآن. الطّبري. مج9/ج16/174.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل القرآن. الطّبري. مج9/ج16/173-175.
6 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرَريّ الشّافعيّ. مج17/274.
7 ـ "السّوء الرّداءة والقبح في كلّ شيء، فكنّى به عن البرص كما كنّى عن العورة بالسّوأة. والبرص أبغض شيء إلى العرب، فكان جديرا بأن يكنّى عنه. يروى أنّه ـ أي موسى ـ عليه السّلام كان شديد الأدمة فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشّمس من غير برص، ثمّ إذا ردّها عادت إلى لونها الأوّل بلا نور". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج22/29.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل القرآن. الطّبري. مج9/ج16/173-175.

على لونه. وحال تلك اليد البيضاء ﴿ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴾ أي؛ معجزة أخرى غير العصا[1]، لكي نريك من أدلّتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقدرتنا[2].

قال تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[3]. وهذه من معجزات موسى عليه السلام حين أدخل يده في جيبه ثمّ أخرجها "فإذا هي بيضاء للنّظارة، ولا تكون بيضاء للنّظارة إلاّ إذا كان بياضها عجيبا خارجا عن العادة يجتمع النّاس للنّظر إليه كما تجتمع النّظارة للعجائب"[4]. إنّ اليد في حركة وتغيّر لونها في الآيتين جقيقيّة، تعدّ واحدة من الأدّلة الكبرى الّتي واجه بها موسى عليه السلام فرعون وبني إسرائيل حين كذّبوه وبالغوا في جحودهم وإعراضهم. ولقد وردت الإشارة إلى (يد موسى عليه السلام) في عدة مواضع من القرآن الكريم[5].

م – اليد في سياق الظّلمة والعذاب:

قال تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[6]. فالشّاهد في الآية قوله سبحانه تعالى: ﴿ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا ﴾ للدّلالة على حركة اليد داخل ظلام دامس، وظلمة شديدة. وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لأعمال الكفّار، الّتي عملت على خطأ وفساد وضلالة وحيرة من عمّالها وعلى غير

1 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج17/274.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل القرآن. الطّبري. مج9/ج16/173- 175.
3 ـ الأعراف/108. "أمّا قوله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ فالنّزع في اللّغة عبارة عن إخراج الشّيء عن مكانه. فقوله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ ﴾ أي أخرجها من جيبه أو من جناحه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ ﴾ النمل/12. وقوله: ﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ طه/22". تفسير الفخ ر الرّازي. الرّازي. مج5/ج14/171.
4 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج14/171.
5 ـ منها: النّمل/12، القصص/32، الشّعراء/33.
6 ـ النّور/40. وقال تعالى في الآية الّتي قبلها: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ النور/39.

هدى، يرسم الله تعالى فيه لحال الكافرين مشهدا عجيبا حافلا بالحركة والحياة ويمثّل هول الظّلمات في بحر لُجّيٍّ عميق كثير الماء، يغشاه موج، ومن فوق الموج موج آخر يغشاه، ومن فوق الموج الثّاني الّذي يغشى الموج الأوّل سحاب...إذا أخرج النّاظر يده في هذه الظّلمات، لم يكد يراها، مع شدّة الرّعب، والظّلمة التّي وصف الله تعالى[1]. ومن العادة في اليد أنّها من أقرب ما يراها صاحبها. إنّ الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون[2].

يقول سيد قطب: "هنا صور فنيّة ساحرة، فيها روح القصّة، وفيها تخييل قويّ... وهي بعد في حاجة إلى ريشة مبدعة، لو أريد تصويرها بالألوان، وإلى عدسة يقظة، لو أريد تصويرها بالحركات. بل أين هي الرّيشة، أو أين هي العدسة، الّتي تستطيع أن تبرز هذه الظّلمات؟"[3]. فاليد هي أقرب عضو إلى نظر الإنسان، وفي خضم تلك الظّلمات لا يكاد يراها إذا رفعها فوق رأسه.

ن – حركة ردّ اليد إلى الفم:

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾[4].

في الآية إشارة إلى حركة اليد الدّالة على الحيرة والغيظ والضّجر ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ

---

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج10/ج18/180-181، و في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج18/2521. ويقول الفخر الرّازي: "أمّا تقرير المثل فهو أنّ البحر اللّجّيّ يكون قعره مظلما جدّا بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت عليه الأمواج ازدادت الظّلمة، فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظّلمة النّهاية القصوى، فالواقع في قعر هذا البحر اللّجّيّ يكون في نهاية شدّة الظّلمة، ولمّا كانت العادة في اليد أنّها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظنّ أنّه لا يراها فقال تعالى: ﴿ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا ﴾ وبيّن سبحانه بهذا البلوغ تلك الظّلمة إلى أقصى النّهايات، ثمّ شبّه به الكافر في اعتقاده وهو ضدّ المؤمن في قوله تعالى: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ ﴾ النور/35". تفسير الفخر الرّازي. مج8/ج24/9.

2 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج18/2521.

3 - التّصوير الفنّي في القرآن. مج4/ج18/246-247.

4 - إبراهيم/9.

أَفْوَٰهِهِمْ ﴾، فعضّوا على أصابعهم تغيّظا على الرّسل والأنبياء في دعائهم إياهم ما دعوهم إليه[1]. وقيل: إنّهم لمّا سمعوا كتاب الله عجبوا منه، ووضعوا أيديهم على أفواههم[2]. ولقد وصف الله تعالى إخوانهم من المنافقين، فقال: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[3]. فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم من ردّ اليدّ إلى الفم[4].

قال تعالى: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ قيل: ردّوها في أفواههم غيظا وضجرا ممّا جاءت به الرّسل أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضّحك فوضع يده على فيه، وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطا لهم من التّصديق، وهذا قول قويّ. وقيل: وضعوها على أفواههم ليقولوا للأنبياء أطبقوا أفواهكم واسْكُتُوا، وقيل: ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السّكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلّمون[5]. وقيل: ردّوا

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج217/13.
2 ـ ينظر المصدر نفسه. مج8/ج218/13.
3 ـ آل عمران/119.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج220/13.
5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج369/2. ويقول الفخر الرّازي:" إذا كان المراد باليد والفم الجارحتين المعلومتين، يكون الضّمير في (أيديهم) و(أفواههم)، وعلى هذا التّقدير ففيه احتمالات: الأوّل: أنّ الكفّار ردّوا أيديهم في أفواههم فعضّوها من الغيظ والضّجر من شدّة نفرتهم عن رؤية الرّسل واستماع كلامهم، ونظيره قوله سبحانه وتعالى: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ آل عمران/119... والثّاني: أنّهم لمّا سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السّخرية، فعند ذلك ردّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضّحك فوضع يده على فيهن والثّالث: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كُفُّوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث، والرّابع: أنّهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلّموا به من قولهم (إنّا كفرنا بما أرسلتم به)، أي هذا هو الجواب عندنا عمّا ذكرتموه، وليس عندنا غيره إقناطا لهم من التّصديق ألا ترى إلى قوله: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾." تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج78/19-79. وقال في موضع آخر: "أنّ الكفّار أخذوا أيدي الرّسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم... أنّ الرّسل لمّا أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم؛ فإنّ من ذكر كلاما عند قوم وأنكروه وخافهم، فذلك المتكلّم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه، وغرضه أن يعرّفهم أنّه لا يعود على ذلك الكرم البتّة ... أنّ الكفّار لمّا سمعوا وعظ الأنبياء عليهم السّلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إل أفواه الرّسل تكذيبا لهم وردّا عليهم... أنّ الكفّار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء عليهم السّلام منعا لهم من الكلام، ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك". تفسير الفخر الرّازي. مج7/ج79/19.

أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصّوت ليسمع عن بعد، ويظهر السّياق حركة تدلّ على الجهر بالتّكذيب والشّكّ، ولا يخفى ما فيها من سوء الأدب والذّوق الوضيع[1].

س – اليد وحركة اللّمس الدّالّة على العناد والكفر:

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[2]. في الآية حركة لمس ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾، ولكن لا يمكن فصل هذا الجزء عن موقعه من الآية، لأنّه مرتبط في دلالته بكلّ ما قبله وما بعده من الألفاظ ولا يدلّ على شيء ذي بال إلاّ أنّهم لمسوا شيئا. ففي الآية الكريمة يخبر الله تعالى ذكره نبيه محمّدا ﷺ عن هؤلاء القوم الّذي يعدلون بربّهم الأوثان والآلهة والأصنام، وكيف يتفقّهون الآيات، وكيف يستدلّون على بطلان ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، وجحود نبوّتك بحجج الله وآياته وأدلّته، وهم لعنادهم الحقّ وبعدهم من الرّشد، لو أنّ الله تعالى أنزل على محمّد الوحي الّذي أنزله في قرطاس؛ كتابا مكتوبا على الورق، فعاينوه ولمسوه بأيدهم ونظروا إليه وقرأوا منه حقيقة ما يدعوهم إليه وصحّة ما يأتيهم به من التّوحيد والتّنزيل، ليرتفع عنهم كلّ إشكال ويزول كلّ شكّ وارتياب لّما صدّقوا وآمنوا، ولم يقتصر بهم على الرّؤية لئلاّ يقولوا: ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا ﴾[3]، ولا تبقى علّة، لكي لا يقول الّذين يعدلون بالله غيره ويشركون في توحيده سواه عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنّتا وعنادا: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾؛ أي ما هذا الّذي جئتنا به إلاّ سحر واضح سُحرت به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحّة[4]؛ وإنّما خُيِّلَ إلينا أنّنا رأينا كتابا ولمسناه بأيدينا، وما ثَمَّ كتاب نزّل، ولا

1 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2090/13.

2 ـ الأنعام/7. وقال تعالى في الآية التي سبقتها: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾. الأنعام/6.

3 ـ الحجر/15.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج181/9، والكشّاف. الزّمخشري. مج6/2، وصفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج352/1.

قرطاس رُئِيَ، ولا لُمِسَ... فلم يعملوا بما شاهدوا ولمسوا[1]، ﴿ مُّبِينٌ ﴾ يقول: مبين لمن تدبّره وتأمّله أنّه سحر لا حقيقة له[2]. والغرض أنّهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدّلائل[3].

وإذا كان هذا حال الكفّار المشركين فيما هو مرئيّ محسوس يلمس باليد، فكيف فيما هو مجرّد وحي يتنزّل على رسول الله ﷺ بواسطة ملك لا يرونه ولا يحسّونه؟ وإنّما قال: ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾، لأنّ اللّمس أقوى اليقينيّات الحسّيّة وأبعدها عن الخداع؛ لأنّ البصر يُخدع بالتّخيّل[4].

ع – تعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[5]. تظهر في الآية حركة التّخريب باليد ﴿ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، لمّا أيقن اليهود من بني النّضير بالجلاء، حسدوا المسلمين أن

---

1 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج8/204.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج9/181، والكشّاف. الزّمخشري. مج2/6، وصفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج1/352.

3 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج1/352.

4 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج8/204. ويقول سيد قطب: "إنّه ليس الّذي يجعلهم يعرضون عن آيات الله، أنّ الرهان على صدقها ضعيف، أو غامض، أو تختلف فيع العقول. إنّما الّذي يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصّفيق. وهو الإصرار مبدئيّا على الرّفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النّظر إليه أصلا.. ولو أنّ الله سبحانه نزّل على رسول الله ـ صلّى الله عليم وسلّم ـ هذا القرآن، لا عن طريق الوحي الّذي لا يرونه؛ ولكن في ورقة منظورة ملموسة محسوسة؛ ثمّ لمسوا هم هذه الورقة بأيدهم ـ لا سماعا عن غيرهم، ولا مجرّد رؤية بعيونهم ـ ما سلّموا بهذا الّذي يرونه ويلمسونه، ولقالوا جازمين: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ ". في ظلال القرآن. مج2/ج7/1039.

5 ـ الحشر/2.

يسكنوا مساكنهم ومنازلهم، فجعلوا يخربونها من داخل، والمسلمون من خارج [1]؛ فكانوا ينظرون إلى الخشبة فيما ذُكر في منازلهم ممّا يستحسنونه، أو العمود أو الباب، فيترعون ذلك منها بأيديهم وأيدي المؤمنين. كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها، وتخرّبها اليهود من داخلها[2]. "فإن قلت: ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قلت: لمّا عرّضوهم لذلك وكانوا السّبب فيه فكأنّهم أمروهم به وكلّفوهم إياه"[3]، ليزيلوا تحصّنهم بها، ويكون في ذلك عظيم التّنكيل والغيظ لهم.

وقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾[4]؛ يدعو الله تعالى المؤمنون إلى قتال هؤلاء المشركين الّذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم وأخرجوا رسول الله ﷺ من بين أظهرهم[5]، ويقول: ﴿ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ "أي يقتلهم الله بأيديكم، ويذلّهم بالأسر والقهر، فيعطيكم الظّفر عليهم والغلبة، ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله (من غيظهم المكظوم) بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم وإذلالكم وقهركم إياهم"[6]. ويجعل الله ستار قدرته، وأداء مشيئته، فيعذّبهم ويخزيهم بالهزيمة بأيدكم[7].

---

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج263/29.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج34/28.
3 ـ الكشّاف. الزّمخشري. مج4/80، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج263/29. ويقول أحمد مصطفى المراغي: "أي يخربون بيوتهم بأيديهم ليسدّوا بما نقضوا منها من الخشب والحجارة أفواه الأزقة حتّى لا يدخلها العدو، وحتّى لا تبقى صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم، ولينقلوا بعض أدواتها الّتي تصلح للاستعمال في جهات أخرى كالخُشُبِ والعَمَدِ والأبواب، ويخربها المؤمنون من خارج ليدخلوها عليهم، ويزيلوا تحصّنهم بها، وليتّسع محال القتال، ويكون في ذلك عظيم التّنكيل والغيظ لهم". تفسير المراغي. مج10/31.
4 ـ التوبة/14. لقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه "أبو الشّيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أنّ هذه الآية نزلت في خزاعة حين جعلوا يقتلون بني بكر بمكّة. وأخرج عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في خزاعة. وأخرج عن السّدّي: ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ قال: هم خزاعة حلفاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يضف صدورهم من بني بكر". لباب النّقول في أسباب النّزول. السّيوطي. 137، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج106/10.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج106/10.
6 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج106/10.
7 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1612/10.

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[1]، فالمنافقون ينتظرون بالمؤمنين إحدى الحسنيين؛ إمّا ظفرا بالعدوّ وفتحا، فيه الأجر والغنيمة والسّلامة، وإمّا قتلا من العدوّ، فيه الشّهادة والفوز بالجنّة والنّجاة من النّار. والمؤمنون ينتظرون بهم أن يصيبهم الله بعقوبة من عنده عاجلة، أو يصيبهم بأيديهم فيقتلونهم[2]؛ فإمّا عذاب من الله تعالى يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذّبين، أو بطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين[3].

1 ـ التوبة/52. قال الله تعالى في الآيات التي سبقت هذه الآية وفيها إعلام من الله تعالى نبيّه ﷺ سيما المنافقين وأنّ من علاماتهم: ﴿ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ . عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ . لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ . لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ . لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ . وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ . إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ . قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾. التّوبة/42-51.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج177/10.

3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1664/10.

ف – "اليد" وحركتا الأخذ والضّرب:

قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[1]. اعلم أنّ هذا الكلام يدلّ على تقدّم يمين منه[2]، وأنّه حلف على أهله[3]؛ فلقد عرض لامرأة أيوب عليه السلام أمر، وأرادها إبليس على شيء.. فبلغ ذلك أيوب عليه السلام فحلف: لئن الله شفاه ليجلدنّها مئة جلدة؛ قال: فأُمر بغصن فيه تسعة وتسعون قضيبا من الشّجر الرّطب، والأصل تكملة المئة، أو بحزمة صّغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك[4]، فضربها ضربة واحدة[5]، فأبرّ نبيّه الله. وهو اليوم في النّاس يمين أيوب[6]. وفي الآية ما يدلّ على أنّه لم يكن في شرع أيوب عليه السلام كفّارة، وإنّما كان البرّ أو الحنث[7].

ص – حركة اغتراف الماء:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ

---

1 ـ ص/44. قال تعالى في الآيات التي سبقت هذه الآية: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ص/41-43.

2 ـ لقد "اختلفوا عن السّبب الذي أوجب حلفه ـ أيوب ـ ومحصول أقوالهم هو تمثّل الشّيطان لها ـ زوجة أيوب ـ في صورة ناصح أو مداو. وعرض لها شفاء أيوب على يديه على شرط لا يمكن وقوعه من مؤمن، فذكرت ذلك له، فعلم أنّ الذي عرض لها هو الشّيطان وغضب لعرضها ذلك عليه، فحلف. وقيل غير ذلك من الأسباب، وهي متعارضة. فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها". تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/385، وينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج3/377، وأحكام القرآن. ابن العربي. ج4/51.

3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج26/199.

4 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها، وروح المعاني. الألوسي. مج12/ج23/268.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/ج23/181.

6 ـ ينظر المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

7 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج4/52.

فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1]. هنا يتجلّى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرّجل المقدم على معركة، وهو يواجه جيشا قويًّا، فلابدّ من قوّة كامنة في ضمير جيشه. هذه القوّة الكامنة الّتي لا تكون إلاّ في الإرادة الّتي تضبط الشّهوات والنّزوات، وتصمد للحرمان والمشاقّ، وتؤثر الطّاعة وتحتمل تكاليفها. فلابدّ للقائد المختار أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره، واختار هذه التّجربة وهم عطاش[2]. قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ ﴾؛ "ومعنى هذا الابتلاء اختبارهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنّه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلبته شهوته في الماء وعصى الأمر فهو بالعصيان في الشّدائد أحرى"[3]. وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي ﴾ أي ليس من أتباعي في هذه الحرب، ولا أشياعي، و لم يخرجهم بذلك عن الإيمان[4].

وأمّا قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ ﴾ أي فلا بأس عليه[5]، استثناء، والمعنى أنّ من اغترف غرفة بيده أو كفّا من الماء دون الكروع ليبلّ عطشه وينقع غلّته فهو منّي[6]. فأذن لهم برشفة من الماء تَذْهَبُ بالعطش[7]. فالغَرْفةُ بفتح الغين؛ أخذ الماء باليد، والغُرفة بضمّه؛ المقدار المغروف من الماء، ووجه تقييده بقوله: ﴿ بِيَدِهِۦۚ ﴾ ؛ لأنّ الغرف لا يكون إلاّ باليد[8]. فالفتح اسم والضّمّ مصدر[9]. تظهر في هذه الآية حركة اليد وهي تتقعّر في وسط الرّاحة ليتمكّن صاحبها من حمل مقدار من الماء.

---

1 ـ البقرة/249.
2 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج1/ج2/268.
3 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج2/273.
4 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها.
5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/536.
6 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج2/274، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/760.
7 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابوني. ج1/142.
8 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ج2/498.
9 ـ ينظر تفسير البغويّ. أبو محمّد الحسين بن مسعود البغويّ (ت516هـ). 152.

ق – التّعبير على حركة اليد في الصيد:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[1].

إنّ الله تعالى يختبر المؤمنين ببعض الصّيد في حال إحرامهم، كي يعْلمَ أهلُ طاعته والإيمان به والمنتهون إلى حدوده وأمره ونهيه، من الّذي يخاف الله، فيتّقي ما نهاه عنه من الصّيد وغيره، ويجتنبه خوف عقابه بالغيب؛ بحيث لا يراه ولا يعاينه، ومن يتجاوز حدّ الله، فيستحلّ ما حرّم عليه من الصّيد بأخذه وقتله.

وفي قوله تعالى: ﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ﴾ بيان لحكم صغار الصّيد وكباره[2].

إنّ هذا الصّيد قد تناله أيديهم، كالبيض والفراخ وما لا يستطيع أن يفرّ من الصّيد، وقد تنال رماحهم كبير الصّيد، أو ما يستطيع أن يفرّ[3]. وكان الصّيد أحد معايشهم يحبّونه ويمارسونه، وشائعا عند الجميع منهم، مستعملا جدّا، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام والحرم[4]. والصّيد كلّ شيء يناله الإنسان بيده أو برمحه أو بشيء من سلاحه فقتله[5].

---

1 ـ المائدة/94. يقول تعالى في الآيتين بعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ. أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ المائدة/95-96. أمّا على سبب نزول الآية 94، "قيل: إنّها نزلت في غزوة الحديبيّة، أحرم بعض النّاس مع النّبيّ ﷺ ولم يحرم بعضهم؛ فكان إذا عرض صيد اختلفت فيه أحوالهم، واشتبهت أحكامه عليهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية بيانا لأحكام أحوالهم وأفعالهم ومحظورات حجّهم وعمرتهم". أحكام القرآن. ابن العربي. ج2/119-120، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج6/299 وما بعدها.

2 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج2/119، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج6/300.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج7/48.

4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج6/299.

5 ـ ينظر المصدر نفسه. ج6/300.

ر – التّعبير على الأسر:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[1]. فالشّاهد قوله: ﴿ لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم ﴾ أي: في ملكتكم واستيلائكم ووثاقكم[2]، وسلطتكم وقهركم[3]، كأنّ أيديكم قابضة عليهم[4]، فهم أسرى من الأعداء وقعوا تحت سيطرتكم. فالأيدي مستعارة للمُلك، وجمعها باعتبار عدد المالكين[5]. إن يعلم الله تعالى في قلوبكم إسلاما[6]، وخلوص إيمان وصحّة نية[7]، يؤتكم خيرا ممّا أخذ منكم من الفداء، إمّا أن يخلفكم في الدّنيا أضعافه أو يثيبكم في الآخرة[8]. وسيغفر لكم ما اجترحتموه، فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله[9].

2 – تصديق الّذي بين اليدين: أي ما هو كائن بين اليدين، موجود من الكتب والأنبياء الّذين كانوا قبل محمّد ﷺ . والآيات الّتي وردت فيها عبارة (تصديق الّذي بين

---

1 ـ الأنفال/70. قال تعالى الله في الآيتين بعدها: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ الأنفال/71-72. أمّا على سبب نزولها فقد "روى الطّبرانيّ في الوسط عن ابن عبّاس قال: قال العبّاس: فيّ والله نزلت حين أخبرت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية الّتي وجدت معي. فأعطاني بها عشرين عبدا كلّهم تاجر بمالي في يده مع ما أرجو من مغفرة الله". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطيّ. 134 135، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج59/10، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج52/8 وما بعدها، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج349/3 وما بعدها.

2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج169/2، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج516/4، وروح المعاني. الألوسيّ. مج5/ج320/10.

3 ـ ينظر تفسير حدائق الروح والريحان. الهرويّ الشّافعيّ. مج95/11.

4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج169/2، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج516/4، وروح المعاني. الألوسيّ. مج5/ج320/10.

5 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج5/ج80/10.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج58/10.

7 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج169/2.

8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج58/10، والكشّاف. الزّمخشري. مج169/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج53/8 وما بعدها.

9 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج516/4.

اليدين) عديدة[1]، منها قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]. أي: لقد نزّل جبريل القرآن على قلب محمّد مصدّقا لما بين يدي القرآن، يعني بذلك مصدّقا لما سلف من كتب الله أمامه[3]، الّتي نزلت على رسله الّذين كانوا من قبل محمّد ﷺ وتصديقه إياها موافقة معانيه معانيها في الأمر باتّباع محمّد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهي تصدّقه. أو مصدّقا لما قبله من الكتب الّتي أنزلها الله، والرّسل الّذين بعثهم الله تعالى بالآيات نحو موسى ونوح وهود وصالح وأشباههم من الرّسل عليهم السّلام[4].

3 – علم ما بين الأيدي:

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[5]. فالشّاهد هو قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾[6]؛ إنّ الله تعالى هو المحيط بكلّ ما كان وبكلّ

---

1 ـ منها: آل عمران/3، آل عمران/50، المائدة/46، المائدة/48، الأنعام/92، يونس/37، يوسف/111، فاطر/31، الأحقاف/30، الصّفّ/6.

2 ـ البقرة/97.

3 ـ قال الرّازي: "﴿ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ فمحمول على ما أجمع عليه أكثر المفسّرين من أنّ المراد ما قبله من كتب الأنبياء ولا معنى لتخصيص كتاب". تفسير الفخر الرّازي. مج1/ج3/192. وفي معنى الهاء في قوله تعالى: ﴿ بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾: "فالهاء في (بين يديه) يحتمل أن تكون عائدة على القرآن، ويحتمل أن تعود على جبريل، فالمعنى مصدّقا لما بيديه من الرّسل والكتب". تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/489، وينظر روح المعاني. الألوسي. مج1/ج1/462.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج1/ج1/562.

5 ـ البقرة/255.

6 ـ "الضّميران في (أيديهم) و(خلفهم) عائدان على كلّ من يعقل ممّن تضمّنه قوله: (له ما في السّموات وما في الأرض)". ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج2/289، وتفسير حدائق الروح والريحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج4/21 -22، وتفسير سورة البقرة. د. أمير عبد العزيز. عمّان. الأردن. دار الفرقان للنّشر والتّوزيع. ومؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. لبنان. بيروت. ط1/1405هـ/1985م/450، والمحرّر الوجيز في

ما هو كائن علما، لا يخفى عليه شيء منه، في الدّنيا والآخرة، أو يعلم ما مضى من الدّنيا، ويعلم من الآخرة، أو ما مضى أمامهم من الدّنيا، وما يكون بعدهم من الدّنيا والآخرة[1]؛ لأنّ ما بين اليد هو كلّ ما تقدّم الإنسان، وما خلفه هو كلّ ما يأتي بعده[2].

ولقد قيل في: (ما بين أيديهم): هو ما قبل خلقهم، وفي: (ما خلفهم): هو ما بعد خلقهم، وقيل: (ما بين أيديهم): ما أظهروه، و(ما خلفهم): ما كتموه، وقيل: (ما بين أيديهم): الحاضر من أفعالهم وأحوالهم، و(ما خلفهم): ما سيكون، أو عكسه[3].

يقول سيد قطب:"وهذه الحقيقة بطرفيها تساهم كذلك في تعريف المسلم بإلهه، وفي تحديد مقامه هو من إلهه. فالله يعلم ما بين أيدي النّاس وما خلفهم. وهو تعبير عن العلم الشّامل الكامل المستقصي لكلّ ما حوله. فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم؛ ويشمل غيبهم الّذي كان ومضى والّذي سيكون وهو عنهم محجوب. كذلك هو يشمل ما يعلمونه من الأمور وما يجهلونه في كلّ وقت... علم الله الشّامل بما بين أيديهم وما خلفهم... من شأنه أن يحدث في النّفس رجّة وهزّة"[4]. ويقول أيضا: "النّفس تقف عارية في كلّ لحظة أمام بارئها الّذي يعلم ما بين يديها وما خلفها. يعلم ما تضمر علمه بما تجهر. ويعلم ما يعمله بما تجهل. ويعلم ما يحيط بها من ماض وآت ممّا لا تعلمه هي ولا تدريه.. شعور النّفس بهذا خليق بأن يحدث فيها هزّة الّذي يقف عريانا بكلّ ما في سريرته أمام الدّيان؛ كما أنّه خليق بأن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه"[5]. ويظهر أنّ هذا في

تفسير الكتاب العزيز. القاضي أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية (ت546هـ). تح: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1/1422هـ/2001م. ج1/341.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج3/12-13، والمحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية. ج1/341.

2 ـ ينظر المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية. ج1/341.

3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج2/289، وتفسير حدائق الروح والريحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج4/21-22، وتفسير سورة البقرة. أمير عبد العزيز. 450.

4 ـ في ظلال القرآن. مج1/ج3/289.

5 ـ المرجع نفسه، الصّفحة نفسها. ويقول الفخر الرّازي: "إنّه سبحانه عالم بأحوال الشّافع والمشفوع له فيما يتعلّق باستحقاق العقاب والثّواب، لأنّه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه خافية، والشّفعاء لا يعلمون من أنفسهم أنّ لهم من الطّاعة ما يستحقّون به هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى، ولا يعلمون أنّ الله تعالى هل أذن لهم في تلك الشّفاعة وأنّهم يستحقّون المقت والزّجر عن ذلك، وهذا يدلّ على أنّه يس لأحد من الخلائق أن يقدم على الشّفاعة إلاّ بإذن الله تعالى". تفسير الفخر الرّازي. مج3/ج11/7.

الآية كناية عن إحاطة علم الله تعالى بسائر المخلوقات، من جميع الجهات، وكني بهاتين الجهتين عن سائر جهات من أحاط علمه به، فلا يعزب عنه شيء، ولا يراد بما بين الأيدي، ولا بما خلفهم شيء معيّن[1].

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[2]. أي: يعلم الله تعالى من أمر هؤلاء الّذين يسيرون خلف داعي الله الّذي يدعوهم إلى موقف يوم القيامة، وما يصيرون إليه من الثّواب والعقاب، ويعلم أمر ما خلّفوه وراءهم من أمر الدّنيا[3].

4 – من بين الأيدي واليدين: تختلف دلالة هذه العبارة (بين الأيدي أو اليدين) من آية إلى آية ومن سياق قرآنيّ إلى آخر، ولقد وردت في مواضع كثيرة ومتنوّعة. وسنتابع دلالتها في هذه النّماذج من الآيات:

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾[4]. في الآية تعبير عن جهة الأمام ﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾، وتعبير عن الجهات الأخرى الّتي يأتي منها الشّيطان الإنسان ليوسوس له. ففي قوله: ﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ "من قِبَلِ الدّنيا فيزيّنها لهم، حتّى يكذّبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السّالفة، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من قِبَلِ الآخرة يبطّئهم عنها، حتّى يكذّبوا بها، ﴿ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ من قِبَلِ الحقّ يصدّهم عنه، ويشكّكهم فيه، أو الحسنات فيزهّدهم فيها

---

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج289/2، وتفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج21/4-22، وتفسير سورة البقرة. أمير عبد العزيز. 450.

2 ـ طه/110. وقال تعالى في الآيتين اللّتين سبقتا هذه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ طه/108-109.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج235/16.

4 ـ الأعراف/17. قال تعالى في الآيات الّتي سبقت هذه الآية: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ . قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ . قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾. الأعراف/13- 16.

﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ من قِبَلِ الباطل فيخفّفه عليهم ويرغّبهم فيه، ويزيّنه لهم، أو مساوىء الأعمال فيحسّنها إليهم. فهو يأتيهم من جميع وجوه الحقّ والباطل. وهذا بعد قوله تعالى: ﴿ لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾"[1]. ففي الآية الكريمة يذكر الله تعالى عن الشّيطان تعداد الجهات الأربع الّتي يستطيع أن يأتي منها الإنسان ويوسوس له بجميع الاعتبارات الممكنة[2].

وقيل: "من بين أيديهم": الآخرة؛ لأنّهم يَرِدُون عليها ويصلون إليها، فهي بين أيديهم، والدّنيا خلفهم لأنّهم يخلفونها. فهو يشكّكهم في صحّة البعث والقيامة، وأفترهم عن الرّغبة في سعادات الآخرة. "ومن خلفهم" يعني يقوّي رغبتهم في لذّات الدّنيا وطيّباتها ويُحسّنها في أعينهم، في تكذيب من تقدّم من الأنبياء والرّسل. ويأتيهم "عن أيمانهم" في الكفر والبدعة، أو الصّرف عن الحقّ، "وعن شمائلهم" في أنواع المعاصي، أو التّرغيب في الباطل، يقوّي دواعيهم في السّيّئات[3]. إنّ الظّاهر: أنّ إتيانه من هذه الجهات الأربع كناية عن وسوسته وإغوائه له والجدّ في إضلاله من كلّ جهة يمكن[4].

---

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج5/ج158/8- 160، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج176/7، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج150/3-151.

2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج37/14.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. مج5/ج36/14. ويقول الفخر الرّازي في موضع آخر: "(من بين أيديهم ومن خلفهم) فذكر هاتين الجهتين بكلمة (مِنْ)، ثمّ قال: (وعن أيمانهم وعن شمائلهم) فذكر هاتين الجهتين بكلمة (عَنْ) ولابد في هذا الفرق من فائدة. فنقول: إذا قال القائل: جلس عن يمينه، معناه أنّه جلس متجافيًا عن صاحب اليمين غير ملتصق به. قال تعالى: ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ق/17، فبيّن أنّه حضر على هاتين الجهتين ملكان، ولم يحضر في القدّام والخلف ملكان، والشّيطان يتباعد عن الملك، فلهذا المعنى خصّ اليمين والشّمال بكلمة ﴿ عَنْ ﴾ لأجل أنّها تفيد البعد والمباينة، وايضا فقد ذكرنا أنّ المراد من قوله: ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ الخيال، والوهم، والضّرر النّاشيء منهما هو حصول العقائد الباطلة، وذلك هو حصول الكفر، وقوله: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ الشّهوة، والغضب، والضّرر النّاشيء منهما هو حصول الأعمال الشّهوانيّة والغضبيّة، وذلك هو المعصية، ولا شكّ أنّ الضّرر الحاصل من الكفر لازم، لأنّ عقابه دائم. أمّا الضّرر الحاصل من المعصية فسهل، لأنّ عقابه منقطع، فلهذا السّبب خصّ هذين القسمين بكلمة ﴿ عَنْ ﴾ تنبيها على أنّ هذين القسمين في اللّزوم والاتّصال دون القسم الأوّل. والله أعلم بمراده". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج36/14، وينظر تفسير لتّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج4/ج49/8- 50.

4 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج277/4.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[1]. ﴿ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ ﴾[2] في ردّ الشّفاعة[3]، يوم القيامة ﴿ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ فسعي النّور: امتداده وانتشاره[4]، أي؛ نورهم يسعى أمامهم (أو قدّامهم) في موضع الأقدام عند المشي يوم الحساب[5]، ويحفّ بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم[6]، ويتمتّعون بضيائه وبروحه وراحته. "إنّه نور إيمانهم وطاعتهم يضيء ويمشي بين أيديهم... يُعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرّهيب. ونور يهتدون به في الزّحام المريج. ونور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنّة في نهاية المطاف"[7]، ويسألون الله أن يتمّ لهم نورهم[8]، فيستجيب لهم، ﴿ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ أي بكتابهم وفيه نور وخير[9]، ولأنّ خلفهم وشمالهم طريق الكفرة[10]. "وإنّما خصّ بالذّكر من الجهات الأمام واليمين لأنّ النّور إذا كان بين أيديهم تمتّعوا بمشاهدته وعرفوا بأنّه كرامة لهم

---

1 ـ التحريم/8.
2 ـ "تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر". تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج8/289.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/43. "قال رسول الله ﷺ : (أنا أوّل من يؤذن له في السّجود يوم القيامة، وأوّل من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمّتي من بين الأمم وأنظر عن يميني فأعرف أمّتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمّتي من بين الأمم)، فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمّتك من بين الأمم؟ قال: (غرّ محجّلون من آثار الوضوء ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السّجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم)". تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج7/62.
4 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج11/ج28/ 370-371.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج28/188، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/43.
6 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج11/ج28/ 370- 371.
7 ـ تفسير حدائق الرّوح والرّيحان. الهرويّ. مج29/480.
8 ـ ينظر تيسير الكريم الرّحمن. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 832.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج28/188، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/43.
10 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/43.

ولأنّ الأيدي هي الّتي تمسك بها الأمور النّفيسة وبها بايعوا النّبيّ ﷺ على الإيمان والنّصر. وهذا النّور نور حقيقيّ يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة"[1]، وفيه إشارة إلى كمال اللّمعان.

إنّ ضمير (نورهم) عائد إلى النّبي ﷺ والّذين آمنوا معه، وإضافة نور إلى ضمير (هم) للدّلالة على أنّهم يختصّون بالنّور في ذلك اليوم بحيث يميّزه النّاس من بين الأنوار يومئذ[2]. وذلك النّور من علامات النّبيّ والّذين آمنوا معه؛ يسألون ربّهم أن يبقي لهم نورهم فلا يُطفئه حتّى يجوزوا الصّراط، حين يقول المنافقون والمنافقات للمؤمنين امنحونا من نوركم[3] لقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[5]. في الآية استفهام من الله تعالى إلى هؤلاء الكفّار فيه تقريع شديد: أفلم ير الّذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم ﴾ فحيث ما تصرّفوا فالسّماء والأرض قد أحاطتا بهم، ولا يقدرون على الخروج عن ملكوت الله فيهما[6]، فإنّ الإنسان أينما توجّه وحيثما نظر رأى السّماء والأرض من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، وهما يدلاّن على وحدانيّة الصّانع[7]، وهما دليل على قدرته على الخلق وعلى البعث وعلى تعجيل العقوبة. فكيف يأمن هؤلاء الكفّار الخسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة؟[8]

---

1 ـ تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج11/ج28/ 370-371.
2 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.
3 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج139/10.
4 ـ الحديد/13.
5 ـ سبأ/9. وقال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ . أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴾ سبأ/7-8.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/ج71/22، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج251/7.
7 ـ ينظر المصدر نفسه، الصّفحة نفسها، وصفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج501/2.
8 ـ ينظر المصدر نفسه، الصّفحة نفسها، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج264/14.

أفلا يرتدعوا عن جهلهم، ويتزجروا عن تكذيبهم بآيات الله تعالى؟ ولقد وردت عبارة (بين الأيدي واليدين) في القرآن الكريم في آيات عديدة يستطيع الباحث الوصول إلى دلالاتها من خلال البحث في التّفاسير القرآنيّة[1].

5 – اليد في سياق الدّعاء:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]. وقال سبحانه تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ يخبر الله تعالى عن جراءة اليهود على ربّهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته، فقالوا ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ أي بخيل[3] وإنّ خير الله مُمْسَكٌ، وعطاءَه محبوسٌ عن الاتّساع على خلقه بخلا، كالمغلولة يده لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف، فردّ عليهم الله تعالى مكذّبهم ومخبرهم بسخطه عليهم[4]، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه...فإنّ عندهم من البخل والحسد والجبن والذّلّة أمر عظيم[5]: ﴿ غُلَّتْ

---

1 ـ منها: قوله تعالى في السّور الآتيّة: البقرة/66، الرّعد/11، مريم/64، سبأ/46،31،12، يس/45،9، فصّلت/14، 25، 42، الأحقاف/21، الحديد/12، الممتحنة/12، الجنّ/27.

2 ـ المائدة/64. ذكر في لباب النّقول في أسباب النّزول ما أخرجه "الطّبرانيّ عن ابن عبّاس قال: قال رجل من اليهود يبيقال له النّباش بن قيس: إنّ ربّك بخيل لا ينفق. فأنزل الله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ الآية. وما أخرجه أبو الشّيخ من وجه آخر عنه قال: نزلت: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ في فنحاص رأس يهود قينقاع". جلال الدّين السّيوطيّ. 108.

3 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج605/2.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج6/69-70، وينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج627/1، ومعجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 406. مادّة (غل).

5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج605/2.

أَيۡدِيهِمۡ ﴾ – وهو الشّاهد في الآية – دعاء عليهم بغلّ الأيدي[1]؛ وبالبخل والنّكد والفقر[2]، وبعدم القدرة والمسكنة، سواء حصل ذلك بسبب العجز أو الفقر أو البخل[3]، و"أُمسكت أيديهم عن الخيرات، وقُبِضت عن الانبساط بالعطيات، ولُعِنُوا بما قالوا، وأُبعدوا من رحمة الله ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ بالبذل والإعطاء وأرزاق عباده وأقوات خلقه، غير مغلولتين ولا مقبوضتين"[4]، وهو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء[5]. وإنّ كلاّ من غلّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود أو كناية عن ذلك[6].

وقال تعالى أيضا: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾[7]، فالتّباب: الاستمرار في الخسران[8].

وفي الآية دعاء على أبي لهب وما أجرم في حقّ الرّسول ﷺ، والمسلمين والدّين الإسلاميّ. أي: خسرت يداه وشقيَ، وتبّ عمله[9]، وخسر خسرانا أدّى إلى الهلاك[10]، وأهلك جملتُهُ بما

---

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج3/534. ويقول البيضاوي: "أو بغلّ الأيدي حقيقة يغلون أسارى في الدّنيا ومسحوبين إلى النّار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللّفظ وملاحظة الأصل". تفسير البيضاوي. البيضاويّ (ت 791هـ). مج5/345.

2 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. مج5/345.

3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج11/36.

4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج6/69-70، وينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج1/627.

5 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج1/325. ويقول محمّد علي الصّابونيّ: "وتضييق الرّزق ليس لقصور في فيضه بل لأنّ أنفاقه تابع لمشيئته المبنيّة على الحِكَم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شُؤم المعاصي أن يضيِّق عليهم". صفوة التّفاسير. ج1/325.

6 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج3/ج6/487. ويقول الألوسيّ أيضا: "دعاء عليهم بالبخل المذموم... دعاؤه بذلك عبارة عن خلقه الشّحّ في قلوبهم والقبض في أيديهم، ولا استحالة في ذلك على مذهب أهل الحقّ، ويجوز أن يكون دعاء عليهم بالفقر والمسكنة، وقيل: تغلّ الأيدي حقيقة في الدّنيا أسارى، وفي الآخرة معذّبين في أغلال جهنّم". روح المعاني. مج3/ج6/488.

7 ـ المسد/1. "أخرج البخاريّ وغيره عن ابن عبّاس قال: صَعِدَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم على الصّفا فنادى: يا صاحباه، فاجتمعت إليه قريش. قال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ مُصبحكم أو مُمسيكم أكنتم تصدّقوني؟ قالوا: بلى. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطيّ. 343، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج30/380وما بعدها

8 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 82. مادّة (التّبّ).

9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج30/380.

10 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج32/154.

قدّمت يداه[1]. وقيل: صفرت يداه من كلّ خير[2]. ولقد كان يعتقد أنّ يده هي العليا، وأنّه يخرج محمّدا من مكّة ويُذلّه ويغلب عليه[3].

وقد خصّ القرآن الكريم اليدين بالتّباب، لأنّ العمل أكثر ما يكون بهما؛ أي خسرتا وخسر هو[4]. والتّبّ الأولى دعاء، والثّانيّة خبر وتقرير لوقوع هذا الدّعاء؛ كما يقال: أهلكه الله وقد هلك[5]. "ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السّورة تصدر الدّعوة وتتحقّق، وتنتهي المعركة ويُسدل السّتار"[6]. فلم يغن عنه ماله وسعيه.. وهلك.

6 – القوّة على عبادة الله تعالى:

قال سبحانه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[7]. فالشّاهد قوله تعالى: ﴿ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ ويعني بالأيدي: القوّة والأعمال والفكر[8]، والمراد: أولي القوّة في الطّاعة والبصيرة في الدّين[9]، و"أهل القوّة على عبادة الله، وطاعته، وأمره، والأعمال الصّالحة، فجعل الله أعمالهم الصّالحة الّتي عملوها في الدّنيا أيدًا لهم عند الله تمثيلا لها باليد. ويعني بالأبصار: أنّهم أهل أبصار القلوب، يعني به: أولي العقول للحقّ"[10]. فعبّر الله تعالى بالأيدي عن الأعمال لأنّ أكثرها بمباشرتها وبالأبصار عن المعارف لأنّها أقوى مباديها[11].

---

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج296/4.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج154/32.
3 ـ ينظر المصدر نفسه والصّفحة نفسها.
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج235/20-236.
5 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج6ج4000/30.
6 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6ج4000/30.
7 ـ ص/45. ويقول الله تعالى في الآيتين بعدها: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ . وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ ص/46 -47.
8 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج377/3.
9 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. مج5 / 49-50.
10 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/ج182/23-183، وينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج69/6، وتفسير البغويّ. أبو محمّد الحسين بن مسعود البغويّ (ت516هـ). 1117. وقيل: "وقيل: الأيدي النّعم أي أولي النّعم الّتي أسداها الله تعالى إليهم من النّبوّة والمكانة، أو أولي النّعم والإحسانات على النّاس بإرشادهم وتعليمهم إياهم، وفيه ما فيه". روح المعاني. الألوسيّ. مج12/ج270/23.
11 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. مج5 / 49 -50.

يقول الفخر الرّازي: "واعلم أنّ اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى المدركات، فحسن التّعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر. إذا عرفت هذا فنقول النّفس النّاطقة الإنسانيّة لها قوّتان عاملة وعالمة، أمّا القوّة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله، وأمّا القوّة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فالعبث والباطل، فقوله: ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ إشارة إلى هاتين الحالتين"[1]. فكأنّ الّذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في سبيل الله ولا يفكّرون أفكار ذوي الدّيانات ولا يستبصرون، يظلّون في حكم الّذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم والمسلوبي العقول[2].

7 – الإلقاء باليد إلى التّهلكة:

قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3]. لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالإنفاق في سبيله بقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وسبيله: طريقه الّذي وضّحه لعباده، لإعزاز دينه الّذي شرعه لهم بجهاد عدوّهم الكفّار والمشركين وألاّ يلقوا بأيديهم إلى التّهلكة، فقال: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾؛ ولا تستسلموا للهلكة فتعطوها أزمتكم فتهلكوا؛ فمن ترك النّفقة في سبيل الله عند وجوبها، فمستسلم للهلكة وملقٍ بيديه للتّهلكة بتركه أداء فرض الله عليه في ماله. ومَنْ أَيسَ من رحمة الله لذنب سلف منه، فملق بيديه إلى التّهلكة، ومَنْ ترك غزو المشركين وجهادهم في حال وجوب ذلك عليه، فهو مضيِّع فرضا، ملقٍ بيده إلى التّهلكة.

---

1 ـ تفسير الفخر الرّازي. مج9/ج200/26.

2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج377/3. ويقول الزّمخشريّ: وفيه تعريض بكلّ من لم يكن من عمّال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتّأمّل في كونهم متمكّنين منهما". الكشّاف. الزّمخشري. مج377/3، وينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. مج5 / 49-50.

3 ـ البقرة/195. "روى البخاري عن حذيفة قال: نزلت هذه الآية في النّفقة. وأخرج أبو داود والتّرمذي وصحّحه وابن حبان والحاكم وغيرهم عن أبي أيوب الأنصاري قال: نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لمّا أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّا: إنّ أموالنا قد ضاعت، وإنّ الله قد أعزّ الإسلام فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله يردّ علينا ما قلنا: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ ﴾ فكانت التّهلكة الإقامة على الموال وإصلاحها وتركنا الغزو". لباب النّقول في أسباب النّزول. جلال الدّين السّيوطي. 36.

فإذا كانت هذه المعاني كلّها يحتملها قوله: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ و لم يكن الله تعالى خصّ منها شيئا دون شيء، فغير جائز لأحد منّا الدّخول في شيء يكره الله منّا ممّا نستوجب بدخولنا فيه عذابه[1]. وقيل المراد بالأيدي: الأنفس، والتّقدير: ولا تلقوا بأنفسكم إلى التّهلكة، وقال آخرون: بل ههنا حذف. والتّقدير: ولا تلقوا أنفسكم بأيدكم إلى التّهلكة[2].

8 – الّذي بيده عقدة النّكاح:

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3]. تتعلّق هذه الآية بالمطلّقة قبل المسيس وبعد الفرض، فلها نصف المفروض واجبا[4]. إنّ الشّاهد في الآية هو قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ اختلف أهل التّأويل فيمن عنى الله تعالى ذكره بقوله[5]، فقيل: هو الزّوج، وقيل: هو الوليّ[6]، وقيل: الأظهر هو الولي لأنّ

---

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/252-253، وينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج362/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج5/131-132، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج1/405 -406. ويقول الطّبري: "غير أنّ الأمر وإن كان كذلك، فإنّ الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا أيّها المؤمنون في سبيل الله، ولا تتركوا النّفقة فيها فتهلكوا باستحقاقكم بترككم ذلك عذابي. والعرب تقول للمستسلم للأمر: أعطى فلان بيديه، وكذلك يقال للممكن من نفسه ممّا أريد به: أعطى بيديه". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج2/ج2/252-253.

2 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج5/131. ونقل الفخر الرّازي أقوالا أخرى لعلماء آخرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾: ومن قائل بأنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾: "أن لا ينفقوا في مهمّات الجهاد أموالهم، فيستولي العدو عليهم ويهلكهم، وقيل: إنّه تعالى لمّا أمره بالإنفاق نهاه عن أن ينفق كلّ ماله، فإن أنفق كلّ المال يفضي إلى التّهلكة عند الحاجة الشّديدة إلى المأكول المشروب والملبوس، وقيل: لا تقتحموا في الحرب، بحيث لا ترجون النّفع، ولا يكون لكم فيه إلاّ قتل أنفسكم، فإنّ ذلك لا يحلّ، وإنّما يجب أ، يقتحم إذا طمع في النّكاية وإن خاف القتل، فأمّا إذا كان آيسا من النّكاية، وكان الأغلب أنّه مقتول، فليس أن يقدم عليه". تفسير الفخر الرّازي. مج2/ج5/132.

3 - البقرة/237.

4 - ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج1/249.

5 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/665.

6 - ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج1/251، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج6/132، و جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/666. وما بعده، والجامع لحكام القرآن. القرطبيّ. ج3/206-207، والكشّاف. الزّمخشري. مج1/374-375.

الزّوج قد طلّق؛ فليس بيده عقدة[1]. فإذا قيل: بيده عقدة؛ فلا إشكال في أنّ الزّوج بيده عقدة النّكاح لنفسه، والوليّ بيده عقدة النّكاح لوليته، على القول بأنّ الّذي يباشر العقد هو الوليّ، لأنّ الزّوجين يتراضيان فلا ينعَقِدُ لهما أمرٌ إلاّ بوليّ[2]، فصحّة القول أنّه بيد الوليّ الّذي إليه عقد النّكاح إليها[3]، بل وله عقدة النّكاح وعقده[4]، فيكون تأويل الكلام ما ظنّه القائلون أنّه الوليّ: وليّ المرأة[5]. وأراد القرآن أن يميّز الوليّ عن الزّوج والزّوجة بمعنىً يخصّه، فكنّى بقبوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ بكناية مستحسنة، فكان ذلك أبلغ في الفصاحة، وأتمّ في المعنى، وأجمع للفوائد[6].

9 – إعطاء الجزية عن يد:

قال تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[7]. يأمر الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ بأن يقاتلوا القوم الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدّقون بالجنّة ولا بالنّار، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يطيعون الله حقّ الطّاعة، وهم اليهود والنّصارى، حتّى يعطوا الخراج – أي الجزية – الّذي يبذلونه عن رقابهم للمسلمين دفعا عنها[8]. فحينئذ يقرّون على ما هم، ويكونون عند ذلك من أهل الذّمّة والعهد[9]. والجزية: هي ما يعطي المعاهد على عهده، وهي فعلة من جزى يجزي إذا قضى ما عليه[10]. ولقد أحلّ الله تعالى هذه الجزية، بعدما حرّم على

1 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج1/252.
2 ـ ينظر المصدر نفسه. ج1/253.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/675.
4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج6/133.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/675.
6 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج1/253.
7 ـ التّوبة/29. "ذُكِرَ أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في أمره بحرب الرّوم، فغزا رسول الله ﷺ بعد نزولها غزوة تبوك". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/128.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/127-128.
9 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج16/24.
10 ـ ينظر المصدر نفسه. مج6/ج16/26.

الكفّار أن يقربوا المسجد الحرام لأنّهم نجس، ووجد المسلمون في أنفسهم ضيقا بما قُطِع عنهم من التّجارة الّتي كان المشركون يوافون بها، فجعل الجزية عوضا ممّا منعهم منهم[1].

وأمّا قوله تعالى: ﴿ عَن يَدٍ ﴾؛ فإنّه يعني: من يد المعطي إلى يد من يدفعه إليه، وكذلك تقول العرب لكلّ معط قاهرا له شيئا طائعا له أو كارها: أعطاه عن يده وعن يد؛ وكذلك أعطيته عن يد ليد وذلك نظير قولهم كلّمتُه فمًا لفمٍ[2].

ولقد ورد في تفسير الفخر الرّازي: "﴿ عَن يَدٍ ﴾ إمّا أن يراد به يد المعطي أو يد الآخذ، فإن كان المراد به المعطي، ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون المراد: عن يد مؤاتيّة غير ممتنعة، لأنّ من أبى وامتنع لم يعط يده بخلاف المطيع المنقاد، ولذلك يقال: أعطى يده إذا انقاد وأطاع، ألا ترى إلى قولهم: نزع يده عن الطّاعة، كما يقال: خلع ربقة الطّاعة من عنقه. وثانيهما: أن يكون المراد حتّى يعطوها عن يد إلى يد نقدا غير نسيئة ولا مبعوثا على يد أحد، بل على يد المعطي إلى يد الآخذ"[3]. هذا يتعلّق بيد المعطي، أمّا فيما يتعلّق بيد الآخذ فيقول: "وأمّا إذا كان المراد يد الآخذ ففيه أيضا وجهان: الأوّل: أن يكون المراد حتّى يعطوا الجزية عن يد قاهرة مستولية للمسلمين عليهم كما تقول: اليد في هذا لفلان. وثانيهما: أن يكون المراد عن إنعام عليهم، لأنّ قبول الجزية منهم وترك أرواحهم عليهم نعمة عظيمة"[4]. ويحتمل أن يكون المراد باليد الحقيقة، أو المجاز؛ فإن كان المراد به الحقيقة فيرجع ذلك على من قال: يدفعها بنفسه غير مستنيب أحد في دفعها، وإن كان المراد المجاز، فيحتمل أن يراد بذلك؛ التّعجيل، أو القوّة، أو المنّة والإنعام[5].

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج109/8.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج128/10.
3 ـ تفسير الفخر الرّازي. مج6/ج26/16-27.
4 ـ المصدر نفسه. مج6/ج26/16-27، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج128/10 وما بعدها، والكشّاف. الزّمخشري. مج184/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج115/8، وأحكام القرآن. ابن العربي. ج370/2-371. وللفقهاء أحكام كثيرة مذكورة في كتب الفقه.
5 ـ أحكام القرآن. ابن العربي. ج2371.

وأمّا قوله: ﴿ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾؛ أي أذلاّء مقهورون، ويقال للذّليل الحقير: صاغر[1]؛ "فالمعنى أنّ الجزية تؤخذ منهم على الصّغار والذّلّ والهوان بأن يأتي بها بنفسه ماشيّا غير راكب، ويسلّمها وهو قائم والمتسلّم جالس، فيقال له: أدّ الجزية"[2]. فيحفظ الحاكم المسلم أرواحهم ولا يخفى ما في ذلك من نعمة وفضل عليهم.

إنّ عضو "اليد" في القرآن الكريم له ميزات خاصّة يكتسبها من الغرض الدّينيّ العام للكتاب؛ فهو عضو فعّال في العبادة، والعمل، والدّعاء، وفي البطش، وفي الدّلالة على النّدم، والبخل، وإقامة الحدود، وغيرها من الموضوعات ذات الصّلة بالدّعوة الإسلاميّة.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/128 وما بعدها.
2 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج16/26-27، وينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج10/128 وما بعدها، والكشّاف. الزّمخشري. مج2/184، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج8/115، وأحكام القرآن. ابن العربي. ج2/371-372. وللفقهاء أحكام كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

الفصل الثّالث

دلالات أعضاء أخرى في السّياق القرآنيّ

أوّلا: الجسم والبدن والجسد في القرآن الكريم:

1 – الجسم:

2 – البدن:

3 – الجسد:

ثانيّا: "رأس" و"ناصية" في القرآن الكريم:

1 – الرأس في القرآن الكريم:

أ – الرّأس في سياق الرّؤيا:

ب – الرّأس في العبادة (الوضوء):

جـ – الرّأس في العبادة (الحجّ):

د – الرّأس في حال الغضب:

هـ – الرّأس في سياق الإهانة:

و – حركة الرّأس في موقف الارتداد عن الحق:

ز – الرّأس في العذاب:

ح – حركة الرّأس في حال العناد والاستهزاء:

ط – الرّأس في سياق الكِبَر:

2 – الناصية:

أ – ناصية أبي لهب:

ب – النّواصي والأقدام في العذاب:

جـ – الناصية في قبضة الله تعالى:

ثالثا: اللّحية والجبين والجباه والخدّ في السّياق القرآنيّ:

1 – اللّحية:

2 – الجبين:

3 – الجباه:

4 – الخدّ:

رابعا: لفظ "لسان" في القرآن الكريم:

1 – اللّسان بمعنى جارحة الكلام:

2 – اللّسان بمعنى اللّغة:

3 – اللّسان بمعنى الثّناء الحسن:

4 – اللّسان بمعنى القرآن:

خامسا: الرّقبة والعنق والجيد في القرآن الكريم:

1 – الرّقبة:

2 – العنـــق:

3 – الجيد:

سادسا: ملحقات اليد في السّياق القرآنيّ:

1 – الذِّراع:

2 – العَضُدُ:

3 – المرافق:

4 – الكفّ:

5 – الأصابع:

6 – البنان:

7 – الأنامل:

8 – ما دلّ على اليد اليمنى واليد اليسري:

الفصل الثّالث: دلالات أعضاء أخرى في السّياق القرآنيّ

أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم أربعة وستّون عضوا واردة في تعسين وتسع مائة موضع، وقد سبق أن أشرنا إلى أنّ المقام لا يسمح بذكرها كلّها، فلذا اكتفينا – في الفصول السّابقة – بدراسة الدّلالات المتعلّقة بأعضاء "القلب" و"النّفس" و"اليد" و"الوجه" لأنّها تمثّل الإنسان من حيث ذاته وإيمانه ونوازعه النّفسيّة وعمله، ووقفنا في هذا الفصل الأخير على دلالات أعضاء أخرى في السّياق القرآنيّ.

أوّلا: الجسم والبدن والجسد في القرآن الكريم[1]:

ذُكرتُ هذه الألفاظ في القرآن الكريم ستّ مرّات؛ في ستّ سور، وهي على النّحو الآتي: ورد ذكر "البدن" في موضع واحد، والجسم في موضعين، والجسد في أربعة مواضع؛ موضعين يتعلّقان بالإنسان، وموضعين يتعلّقان بالعجل الّذي عبده قوم موسى عليه السلام من بعده. والجدول الآتيّ يبيّن عدد المرّات والصّيغ المختلفة لهذه الألفاظ.

إحصاء ألفاظ "بدن"[2] و"جسم"[3] و"جسد"[4] في القرآن الكريم			
اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده
الجِسْمِ	1	أَجْسَامُهُمْ	1
بَدَنِكَ	1	جَسَدًا	4
المجموع: **6**			

1 ـ لقد سبق التّعريف بالكلمات الثلاث في المدخل. 11 وما بعدها.
2 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمّد فؤاد عبد الباقي. 116.
3 ـ ينظر المرجع نفسه. 247.
4 ـ ينظر المرجع نفسه، والصّفحة نفسها.

1 – الجسم:

أ – يتعلّق الموضع الأوّل بطالوت وقد اصطفاه الله تعالى ليكون ملكا على بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. لقد كان في بني إسرائيل سبطان؛ سبط نبوّة، وسبط مملكة، و لم يكن طالوت من سبط النّبوّة ولا من سبط المملكة، فلمّا بعثه الله ملكا عليهم تعجّبوا وأنكروا وقالوا: كيف يكون له الملك علينا ولا هو من أهل النّبوّة ولا من أهل المملكة، ونحن أحقّ بهذا الملك منه[2]. فردّ الله تعالى عليهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾، يعني: إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي اختار طالوت وهو أعلم بالصّالح من العباد، وذكر مصلحتين أنفع ممّا ذكروا من النّسب والمال وهما العلم المبسوط والجسامة أمّا العلم فيجوز أن يكون المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب، أو العلم بالدّيانات، والملك لابدّ أن يكون من أهل العلم [3]، أو آتاه من العلم فضلا على ما أتى غيره من الّذين خُوطبوا بهذا الخطاب، وذلك أنّه ذكر أنّه نبيء وأتاه الله تعالى من وحيه[4].

---

1 ـ البقرة/247. قال تعالى في الآية السّابقة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. البقرة/246.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج742/2، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج379/1، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج160/6/ج2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج245/3-246، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج173/1.

3 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج379/1، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج173/1.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج743/2، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج379/1، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج161/6/ج1، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج173/1.

أمّا في الجسم، فإنّ طالوت أوتي من الزّيادة في طوله عليهم وفي قوّة جسمه وشدّته وحسن شكله ما لم يؤته غيره منهم[1]؛ فهو جسيم يملأ العين جهارة لأنّه أعظم في النّفوس وأهيب في القلوب، والبسطة السّعة والامتداد[2]. وقيل: أريد ببسطة في الجسم معاني الخير والشّجاعة وقهر الأعداء، فإنّ لذلك عظما في النّفوس وهيبة وقوّة[3].

إنّ الصّفات الّتي يُحتاج إليها في سياسة أمور الأمّة ترجع إلى أصالة الرّأي، ومعرفة مواطن ضعف الأمّة وقوّتها وجودة الفكر في تدبير شؤونها وقوّة البدن الّتي يثبت بها الجيش وقائده في مواقع القتال[4]. وبسطة الجسم مستلزمة لصحّة الفكر وللشّجاعة والقدرة على المدافعة والهيبة والوقار[5].

ب – ويتعلّق الموضع الثّاني بوصف المنافقين؛ أقوالهم وأفعالهم وأجسامهم وحركاتهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[6].

وجّه الله تعالى الخطاب إلى الرّسول ﷺ يصف له فيه المنافقين إذا جاءوه يحدّثونه؛ فقد يُعجَب بأجسامهم لاستواء خلقها وضخامتها، ولصباحتها وحسن صورها، ويسمع لكلامهم الفصيح البليغ وحسن منطقهم وذلاقتهم، فهم يتمتّعون بجهارة المناظر وفصاحة الألسن، كأنّهم خشب مسنّدة لا خير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنّما هم صور بلا أحلام[7]، والخشب لا تعقل ولا تفهم، فكذلك أهل النّفاق كأنّهم في ترك التّفهّم،

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج743/2، وتفسير القر آن العظيم. ابن كثير. ج535/1، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج173/1.

2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج379/1، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج1/ج161/6، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج247/3.

3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج266/2-267.

4 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج1/ج491/2، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج368/1.

5 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج368/1.

6 ـ المنافقون/4. قال تعالى في الآية السّابقة: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾. المنفقون/3.

7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج120/28، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج14/30، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج341/5.

والاستبصار بمنزلة الخشب[1]. والمنافقون مع ذلك في غاية الضّعف والخور والهلع والجزع والجبن[2]، يحسبون من خبثهم وسوء ظنّهم وقلّة يقينهم كلّ صيحة عليهم، فلربّما يفضحهم القرآن ويهتك أستارهم[3]. وإشارة الآية إلى "أجسامهم" واقعة موقع الاحتراس للتّنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم، وعلى خبث دخائلهم، فإنّها أجسام خالية عن كمال الأنفس، والآية موجّهة إلى غير معيّن يشمل كلّ من يراهم ممّن يُظَنُّ أن تَغُرُّه صورُهُم فإذا انكشفت له سرائرهم صُدِمَ لحقيقة خزيها[4].

2 – البدن:

أمّا لفظ "البدن" فقد ورد في سياق التّمثيل لكّل جبّار عنيد لا يؤمن بالله تعالى ومكابر جاحد لا يعترف بألوهيّة الله تعالى. قال تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[5]. فلمّا أدرك فرعونَ الغرقُ وعلته الأمواج من كلّ ناحية وغشيته كرب الموت[6]، أوحى اللّه تعالى إلى البحر أن ارم بدنه كاملا سويّا إلى الشّاطيء على نجوة من الأرض، لم ينقص منه شيء ولم يتغيّر[7]، ولم تأكله الأسماك، ولم يذهب مُنْكَرًا مع التّيار لا يُعرفُ للنّاس[8]، لكي ينظر إليه هالكا مِنْ غير روح مَنْ كذّب بهلاكه، ويُدرِك مَنْ وراءه كيف كان مصيرُه، وليكون عبرة يعتبرون به، ويتزجرون عن معصية الله والكفر به والسّعي في أرضه بالفساد، ويروا عاقبة

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج14/30.
2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج16/7.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج120/28، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج14/30.
4 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج11/ج238/28-239.
5 ـ يونس/92. قال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ .ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾. يونس/90-91.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج190/11.
7 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج252/2.
8 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1818/11.

التّصدّي لقوّة الله ووعيده بالتّكذيب[1]. وقيل: ببدنك؛ أي بدرعك، وكان على فرعونَ درع من ذهب يُعرف بها، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدّرع ليُعرَفَ وتزول الشّبهة من قلوب الّذين اعتقدوا فيه الألوهية، ويشاهدوا ما لحقه من الذّلّ والمهانة[2]. وأمّا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ نُنَجِّيكَ ﴾ ففيه تهكّم بفرعون وسخريّة وتخييب، والتّعبير بالتّنجية مجاز[3].

3 – الجسد:

وأمّا لفظ "جسد" فقد ورد في سياق الحديث عن الأنبياء والرّسل الّذين خلقهم الله يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق، ويحيون ويموتون، وعن العجل الجسد الّذي عبده قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى الجبل لمناجاة ربّه، وعن الجسد الّذي ألقي على كرسّ سليمان عليه السلام.

أ – الجسد في سياق الحديث عن الرّسل؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾[4]. أي لم نجعل هؤلاء الأنبياء والرّسل جسدا ليس فيهم أرواح لا يأكلون الطّعام، ولكن جعلناهم جسدا فيها أرواح يأكلون الطّعام، ولا كانوا أربابا خالدين في الدّنيا لا يموتون ولا يفنون، ولكنّهم كانوا بشرا أجسادا فماتوا[5]، و"الجسد يقع على ما لا يغتذي من الجماد، وقيل: على المغتذي وغيره، فعلى القول الأوّل يكون النّفي قد وقع على الجسد، وعلى الثّاني يكون مثبتا، والنّفي إنّما وقع على صفته"[6]، وصفته هي:

---

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج190/11، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1818/11، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج189/5، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج273/4.

2 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج133/17، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج189/5.

3 - ينظر روح المعاني. الأوسيّ. مج6/ج235/11.

4 - الأنبياء/8. قال تعالى في الآيتين السّابقة واللاحقة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾. الأنبياء/7-9.

5 - ينظر جامع البيان عن أويل آي القرآن. الطّبريّ. مج10/ج8/17، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج564/2، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج554/4، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج135/22.

6 - تفسير البحر المحيط. أبو حيّان الأندلسيّ. مج277/6.

﴿ لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾[1]، فهؤلاء الرّسل، بشر وبشريّتهم تقتضي الجسميّة الحيوانيّة[2]. ونبّه القرآن الكريم على أنّ الأمر الّذي صار به الرّسل رسلا غير ذلك؛ وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم من الصّفات القادحة في التّبليغ وعصمتهم منه[3].

ب – الجسد في سياق الحديث عن عجل بني إسرائيل؛ قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾[4]. فلمّا مضى موسى عليه السلام إلى ربّه لمناجاته ووفاء للوعد الّذي كان ربّه قد وعده، اتّخذ قومه من بعده إلاها آخر كان ﴿ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ يعبدونه ويخلصون له، ولقد ضلّوا بما لا يضلّ بمثله أهل العقل، لأنّ الرّبّ سبحانه لا يجوز أن يكون جسدا له صوت، لا يكلّم أحدا ولا يرشد إلى الخير[5]، و"قد اختلف المفسّرون في هذا العجل؛ هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمرّ على كونه من ذهل إلاّ أن يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقر؟"[6] فاختار الزّمخشري الرّأي القائل بأنّه صار بدنا ذا لحم ودم كسائر الأجساد[7]، واختار آخرون الرّأي الثّاني؛ فقيل: كان جثّة جمادا، وقيل: كان بدنا بلا رأس ذهبا مصمتًا، وقيل: صُنِعَ أجوفَ ووُضِعَ في مهبّ الرّيح، فتدخل فيه فيظهر صوت يشبه الخوار[8]، وقيل: "المراد أنّه كجسم العجل في الصّورة والمقدار، إلاّ أنّه ليس بحي، وما وقع في القصص: أنّه كان لحما ودما يأكل ويشرب، فهو من وضع

1 ـ ينظر الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج134/22.
2 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيّان الأندلسيّ. مج277/6.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج135/22، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج277/6.
4 ـ الأعراف/148. وقال تعالى قبل الآية: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾. الأعراف/149.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج6/ج75/7، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج7/15.
6 ـ تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج223/3، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج285/7.
7 ـ ينظر الكشّاف. مج118/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج285/7.
8 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج390/4، وروح المعاني. الألوسيّ. مج5/ج85/9.

القصّاصين"[1]. وكلّ من كان كذلك ﴿ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ كان إمّا جمادا أو حيوانا عاجزا، وعلى التّقديرين، فإنّه لا يصلح للإلهيّة، لأنّ الإله هو الّذي خلق السّموات والأرض، وهو المدبّر لشؤون الخلق، وهو الّذي له الأمر والنّهي[2].

ولقد ورد الحديث عن العجل الجسد الّذي عبده قوم موسى عليه السلام من بعده في موضع آخر أيضا، في قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾[3].

ج – الجسد في سياق الحديث عن الجسد الّذي ألقي على كرسيّ سليمان؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[4]. قال أبو حيان الأندلسيّ في هذه الآية وفي تأويل لفظ ﴿ جَسَدًا ﴾: "نقل المفسّرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها يوقف عليها في كتبهم، وهي ممّا لا يحقّ نقلها، وإمّا هي من أوضاع اليهود والزّنادقة. ولم يبيّن الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الّذي ألقاه على كرسيّ سليمان. ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه كتمثّل الشّيطان بصورة نبي حتّى يلتبس أمره عند النّاس ويعتقدون أنّ ذلك المتصوّر هو النّبي، وإنّما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائيّة نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها"[5]. فلقد فتن الله تعالى سليمان عليه السلام بسبب مرض شديد ألقاه عليه، وألقى على كرسيه جسدا لشدّة المرض وشدّة وطأته عليه، ثمّ

---

1 ـ تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج4/ج110/9.
2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج7/15.
3 ـ طه/88.
4 ـ ص/34. وقال تعالى بعد هذه الآية: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾. ص/35.
5 ـ تفسير البحر المحيط. مج7/381، ومثل هذا الرّأي ذهب إليه الفخر الرّازي في تفسيره. مج9/ج193/26، وقال الطّاهر بن عاشور: "وقد أشارت الآية إلى حدث عظيم حلّ بسليمان، واختلفت أقوال المفسّرين في تعيين هذه الفتنة، فذكروا فصصا هي بالخرافات أشبه، ومقام سليمان عن أمثالها أنزه". تفسير التّحرير والتّنوير. مج9/ج259/23، وينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج3020/23.

تاب وأناب ورجع بعدُ إلى سابق عهده من الصّحّة واستقامت له الأمور[1]، وقيل: إنّ الله تعالى ابتلاه بتسليط الخوف عليه وتوقّع البلاء من جهات مجهولة، فصار عليه السلام بسبب قوّة ذلك الخوف كالجسد الضّعيف الملقى على ذلك الكرسيّ، ثمّ إنّ الله أزال عنه ذلك الخوف، وأعاده إلى ما كان عليه من العافية[2].

ثانيّا: "رأس" و"ناصية" في القرآن الكريم:

ترددت كلمتا "الرأس" و"الناصية" في القرآن الكريم بدلالات متنوعة، وقبل الإفاضة فيها، نحصي ورودها في الجدول الآتي من حيث العدد والصّيغ المختلفة:

إحصاء لفظي "رأس[3]" و"ناصية[4]" في القرآن الكريم			
اللّفظ	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**
الرّأسُ	1	رأسِ	1
رأسِي	2	رأسِه	3
رؤوسَهُمْ	6	رؤوسَكُمْ	3
النَّاصية	1	ناصيتها	1
النَّواصي	1		
تكرّر لفظ "رأس" 16 مرّة ولفظ "ناصية" 3 مرّات والمجموع: 19 مرّة			

1 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج193/26، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج223/8، وروح المعاني. الألوسيّ. مج12/ج257/23.
2 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.
3 ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمّد فؤاد عبد الباقي. مادّة (رأس). 280.
4 ـ المرجع نفسه. مادّة (النّاصية). 704.

1 – الرأس في القرآن الكريم:

الرأس في المعجم هو عُضوٌ معروفٌ وهو مُذكّر وجمعهُ أَرْؤُسٌ ورُؤُوسٌ[1]. والرّأس من رَأَسَ فُلاَنٌ رَآسَةً، ورِيَاسَةً، ورِئَاسَةً أي؛ شَرُفَ قدْرُهُ، ورأسُ كلّ شيء أعلاه[2]. أما في الاستعمال القرآني فقد تعددت دلالاته وسياقاته، منها:

أ – الرّأس في سياق الرّؤيا:

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3]. ففي هذه الآية نص الرّؤيين اللّتين رآهما الفتيان[4] اللّذان دخلا مع يوسف عليه السلام السّجن، فقال الأوّل: إنّي أرى في المنام أنّي أعصر خمرا يعني عنبا أي تسمية العنب بما يؤول إليه، لأنّ الخمر ممّا لا يعصر إذ عَصْر الشّيء إخراج ما فيه من المائع بقوّة، وقيل: هو بلغة أهل عُمَان، يسمُّون العنب خمرا، وقال الثّاني: إنّي أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطّير منه[5]. وقد ذكر الرّأس في هذا السّياق جزءا من كل الرّؤيا.

أمّا في الآية الثّانيّة فقد ورد التّعبير وشرع يوسف عليه السلام يفسّر للفتيين ما عجزا عن فهمه وتأويله. قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[6]. أي إنّ

---

1 - ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 206. مادّة (رأس)، والمصباح المنير. أحمد بن محمّد بن عليّ الفيّوميّ. 128. مادّة (ر أ س).

2 - ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى وآخرون. ج319/1. مادّة (رَأسَ).

3 - يوسف/36.

4 - هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه، ورفع إليه أنّ صاحب طعامه يريد أن يسمّه وظنّ أنّ الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج12/248-249، وتفسير الفخر الرّتازي. الرّازي. مج6/ج18/111.

5 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج12/250، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/319، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج9/198-190، وروح المعاني. الألوسيّ. مج6/ج12/578.

6 - يوسف/41.

أحد الفتيين سيطلق سراحه يعود إلى خدمة الملك وسيهتمّ بشرابه كما كان من قبل، وأمّا الآخر فسيصلب وستأكل الطّير من لحم رأسه[1].

ب – الرّأس في العبادة (الوضوء):

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2]. النّداء إلى المؤمنين إذا قاموا إلى الصّلاة وهم على غير طهر الصّلاة من وضوء أو تيمّم، فأمّا قوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ ﴾ فتأويله: إذا قمتم إلى الصّلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم[3]. والشّاهد في الآية قول الله تعالى: ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾، فالمسح: "عبارة عن إمرار اليد على الممسوح خاصّة، وهو في الوضوء عبارة عن إيصال الماء إلى الآلة الممسوح بها، والغسل عبارة عن إيصال الماء إلى المغسول، وهذا معلوم من ضرورة اللّغة"[4]، وبعد أن حدّد ابن العربي معنى المسح والغسل في الوضوء، صرّح

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج12/255، والكشّاف. الزّمخشري. مج2/321، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج9/193، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج18/119، وروح المعاني. الألوسيّ. مج6/ج12/586.

2 ـ المائدة/6. في الآية الكريمة اثنتان وخمسون مسألة ذكر العلماء في أولاها أنّ هذه الآية من أعظم آيات القرآن مسائل وأكثرها أحكاما في العبادات. ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج2/31-32.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج6/156.

4 ـ أحكام القرآن. ابن العربي. ج2/41.

بأنّ مسألة مسح الرّأس في الوضوء معضلة، وأنّ العلماء اختلفوا فيها على أحد عشر قولاً[1]، أهمّها: الوجوب في مسح الرّأس أقلّ شيء يسمّى مسحا للرّأس عند الشّافعيّ، ووجوب مسح الكلّ عند مالك، ووجوب مسح ربع الرّأس عند أبي حنيفة[2].

جـ – الرّأس في العبادة (الحجّ):

لقد ورد لفظ "رأس" في هذه الآية بمعنى الشّعر قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[3]. تتعلّق هذه الآية بموضوع المُحْصَر[4] في الحجّ وعدم جواز الحلق قبل أن يبلغ الهدي محلّه، إلاّ إذا كان الحاجّ أو المعتمر مريضا أو به جروح ونحوها[5]، "فإنّه يحلق وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاةً أو

---

1 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج41/2.

2 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج134/11. ويعدّد ابن العربي الأقوال كلّها كما يأتي: "الأوّل: أنّه إن مسح منه شعرة واحدة أجزأه. الثاني: ثلاث شعرات. الثالث: ما يقع عليه الاسم. ذكر لنا الأقوال الثلاثة فخرُ الإسلام بمدينة السّلام في الدّرس عن الشّافعيّ. الرّابع: قال أبو حنيفة: يمسح النّاصية. الخامس: قال أيضا: إنّ الفرض أن يمسح الرّبع. السّادس: قال أيضا في روايته الثالثة: لا يجزيه إلاّ أن يمسح النّاصية بثلاث أصابع أو أربع. السّابع: قال مالك: يمسح الجميع. الثامن: أنّ ترك اليسير من غير قصد أجزأه، أملاه عليّ الفهريّ. التّاسع: قال محمّد بن مسلمة: إنّ ترك الثالث أجزأه. العاشر: قال أبو الفرج: إن مسح ثلثه أجزأه. الحادي عشر: قال أشهب: إن مسح مقدّمه أجزأه". أحكام القرآن. ج41/2 -42.

3 ـ البقرة/196. "قال ابن عبّاس: نزلت هذه الآية في كعب بن عجرة، قال كعب: مرّ بي رسول الله ﷺ زمن الحديبية، وكان في شعر رأسي كثير من يالقمل والصّئبان وهو يتناثر على وجهي، فقال ﷺ : تؤذيك هوامّ رأسك؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: (أحلق رأسك)، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمقصود منها أنّ المحرم إذا تأذّى بالمرض أو بهوامّ رأسه أبيح له المداواة أو الحلق بشرط الفدية والله أعلم". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج145/5، وينظر لباب النّقول في أسباب النّزول. السّيوطي. 36-37.

4 ـ المُحْصَرُ: من الإحصار: المنع والحبس. ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج139/4. مادّة (حصر). والإحصار عند علماء الشّرع: "هو كلّ مانع أو حابس منع المحرم وحبسه عن العمل الّذي فرضه الله عليه في إحرامه ووصوله إلى البيت الحرام". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج262/2.

5 ـ ينظر تفسير المر اغي. أحمد مصطفى المراغي. مج266/1-267.

يتصدّق بِفَرَقٍ على ستّة مساكين [والفَرَقُ: مكيال بالمدينة يزن ستّة عشر رطلا] فإذا زال الخوف من العدوّ، فمن أتمّ العمرة وتحلّل وبقي متمتّعا إلى زمن الحجّ ليحجّ من مكّة فعليه دمٌ، لأنّه أحرم بالحجّ من غير الميقات، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحجّ، وسبعة إذا رجع إلى بلده غلاّ إذا كان مسكنه وراء الميقات"[1]. والشّاهد في الآية قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ ﴾، ومعنى ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ ﴾ أي: شعر رؤوسكم[2] حتّى يبلغ الهدي الّذي أوجبه الله على المؤمنين لإحلالهم من إحرامهم الّذي أحصروا فيه قبل تمامه وانقضاء مشاعره ومناسكه محلّه، وذلك أنّ حلق الرّأس إحلال من الإحرام الّذي كان المحرم قد أوجبه على نفسه وأمارة الخروج من الحجّ أو العمرة[3]، والحِلاَقُ نُسك مقصود[4]، كما أن الإحرام بنية النّسك عند الابتداء به بالتّلبية ولبس غير المخيط وكشف الرّأس للرّجل أمارة على الدّخول فيهما[5].

وأمّا في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴾[6]. فقد كان الرّسول ﷺ يرى أنّه يدخل مكّة ويطوف بالكعبة، فأخبر أصحابه وخرج في ألفٍ وأربعمائة من أصحابه إلى العمرة، ولّما بلغ الحديبية صدّه المشركون وصالحوه على أن يدخل في العام المقبل والسّيوف في أغمادها. ولّما كان في العام القابل دخل الرّسول ﷺ وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين[7].

---

1 ـ تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج1/267.
2 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج2/42.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج2/ج2/272.
4 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج1/157.
5 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج1/268.
6 ـ الفتح/27. "أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في (الدّلائل) عن مجاهد قال: أُريَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو بالحديبية أنّه يدخل مكّة هو وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين. فلمّا نحر الهديَ بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت الآية: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ ﴾". لباب النّقول في أسباب النّزول. السّيوطي. 263.
7 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربي. ج4/99، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج26/124 ومابعدها.

د – الرّأس في حال الغضب:

قال تعالى: ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[1]. وذلك يدلّ على أنّه لشدّة غضب موسى عليه السلام أراد أن يمسك برأس أخيه ولحيته[2]، وكان موسى رجلا حديدا مجبولا على الحدّة والخشونة والتّصلّب في كلّ شيء، شديد الغضب لله ولدينه، خصوصا بعدما رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى، فأقبل عليه يجرّه إليه من شعر رأسه وشعر وجهه[3].

هـ – الرّأس في سياق الإهانة:

قال الله تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[4]. ذكر الله تعالى للنّبيّ ﷺ قبل هذه الآية أنّه سبحانه ليس غافلا عمّا يعمل هؤلاء المشركون الظّالمون الّذين يكذّبونه ويجحدون نبوّته[5]، بل هو عالم بما يفعلون لا يخفى عليه منه شيء، وسيعاملهم معاملة الرّقيب عليهم، المحاسب على النّقير والقطمير[6]، وأَعْلَمَ المشركين أنّ تأخير العذاب ليس للرّضا بأفعالهم، بل سنّة الله إمهال العصاة مدّة[7]، وسيجزيهم جزاءهم على أعمالهم في الوقت الّذي سبق في علمه أنّه يجزيهم فيه[8]، وفي الآية وعيد للظّالم وتعزية للمظلوم[9]، وتثبيت للرّسول ﷺ على ما كان عليه وتسلية[10].

---

1 ـ طه/93- 94. ولقد أشرت إلى هاتين الآيتين في موضع الحديث عن لفظ "الحية".
2 ـ ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين الشّنقيطيّ. ج354/4.
3 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج550/2-551.
4 ـ إبراهيم/43. قال تعالى في الآية الّتي سبقتها: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾. إبراهيم/42.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج274/13.
6 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج382/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج122/19.
7 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج376/9، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج143/4، تسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 406.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج274/13.
9 ـ ينظر المصدر نفسه، الصّفحة نفسها، والكشّاف. الزّمخشري. مج382/2.
10 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج382/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج376/9.

سيؤخّر الله تعالى المشركين إلى يوم القيامة ليجزيهم؛ يوم تشخص فيه أبصار الخلق في شدّة لا يطرفون؛ فعيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان[1] لهول ما يُرى في ذلك اليوم[2]، وقد رفعوا رؤوسهم ينظرون في ذلّ وخشوع[3]، وقيل: قد نكسوا رؤوسهم وطأطؤوها في ذلّة وخضوع[4]، وهم يخبّون منطلقين عامدين إلى الدّاعي، وأفئدتهم قد انتزعت من صدورهم وبلغت حناجرهم، و لم تخرج من أفواههم، وظلّت تتردّد في أجوافهم لا تستقرّ في مكان، ليس فيها عقل ولا منفعة ولا شيء من الخير، فهي كالخربة[5].

أمّا في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[6]. فإنّ المجرمين يقفون بين يدي الله تعالى يوم القيامة ساعة الحساب والجزاء، وهم ناكسو رؤوسهم في حياءٍ وحزنٍ وندم وذلّ وخزيٍ وغمٍّ للّذي سلف منهم من معاصيه في الدّنيا، ويقرّون بأنّ الله تعالى هو المستحق للعبادة والتّوحيد، ويسألونه سبحانه أن يردّهم إلى الحياة الدّنيا لعلّهم يعملون صالحا يرضاه منهم[7]. "إنّه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة، والإقرار بالحقّ الّذي جحدوه، وإعلان اليقين بما شكّوا فيه، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى"[8].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج274/13، الكشّاف. الزّمخشريّ. مج382/2.

2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج143/4، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج376/9، وتيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 406، وفي ظلال القرآن. سيد قطب. مج2112/ج4/13.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج280/13، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج143/4، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج122/19.

4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج377/9.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج280/13، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج143/4، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج122/19، ، وتيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 406.

6 ـ السجدة/12. قال تعالى قبل هذه الآية: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ . قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾. السجدة/10-11.

7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج104/21، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج95/14، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج158/25، وتيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 628.

8 ـ في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج2811/21.

والخطاب الإلهيّ في هذه الآية موجّه إلى الرّسول ﷺ ليسلّيه ويثبّته، لأنّه تجرّع من هؤلاء الغصص ومن عداوتهم وضرارهم، فجعل الله له تمني أن يراهم على تلك الصّفة الفظيعة[1].

و – حركة الرّأس في موقف الارتداد عن الحق:

قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ . فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾[2]. لقد مال إبراهيم عليه السلام إلى أصنام قومه فراغ عليها ضربا باليمين فجعلها جُذاذا فُتاتًا إلاّ الصّنم الكبير، ولّما سأله قومه عمّن فعل بالآلهة هذه الفعلة، أجابهم: إنّه كبيرهم هذا وعظيمهم الّذي حوّلهم إلى قطع صغيرة، فاسألوهم إن كانوا ينطقون[3]، فعلّق فعل الكبير بنطق الآخرين، تنبيها لهم على فساد اعتقادهم[4]، و"نسب الفعل إلى كبيرهم وقصده تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضيّ تبكيتا لهم وإلزاما للحجّة عليهم لأنّهم إذا نظروا النّظر الصّحيح علموا عجز كبيرهم و أنّه لا يصلح إلها"[5]، لعلّه يقرع قومه به، ويحتجّ به عليهم، ويعرّفهم موضوع خطئهم، وسوء نظرهم، فرجعوا إلى أنفسهم وعقولهم رجوع المنقطع عن الحجّة، وأدركوا أنّهم على باطل[6]، وتفكّروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق[7]، وتفطّنوا لصحّة حجّة خصمهم[8]، قال تعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

---

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج242/3.

2 ـ الأنبياء/ 62-65. تتحدّث الآيات عن حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في موضوع عبادة الأصنام وهي تمتدّ في سورة الأنبياء من الآية 51 إلى الآية 73.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. يالطّبري. مج10/ج17/46-47، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج11/299-300.

4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج300/11.

5 ـ تفسير النّسفيّ. عبد الله أحمد بن محمود النّسفي. مج1047/2.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج10/ج17/46-47، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج301/1.

7 ـ ينظر تفسير النّسفيّ. عبد الله أحمد بن محمود النّسفي. مج1049/2.

8 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج301/1.

ولّما علموا أنّهم غُلبوا في الحجّة، انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطّغيان[1]، واحتجوا على إبراهيم بما هو حجّة له عليهم حين جادلهم، فقالوا: لقد علمت ما هؤلاء الأصنام ينطقون[2]، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾؛ فنكس الشّيء على رأسه يعني: قَلْبُهُ على رأسه وتصيير أعلاه أسفله، و"معلوم أنّ القوم لم يُقلبُوا على رؤوس أنفسهم، وأنّهم إنّما نكست حجّتهم، فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر على حجّتهم. وإذا كان ذلك كذلك، فنكْس الحجّة لا شكّ إنّما هو احتجاج المُحتجّ على خصمه بما هو حجّة لخصمه"[3]. فلقد انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلّت أحلامهم[4]، وعادوا إلى جهلهم وعنادهم، ورُدُّوا إلى ما كانوا عليه في أوّل الأمر، وأدركهم الشّقاء والعجز وحيرة السّوء خجلا وانكسارا ممّا بهتهم به إبراهيم عليه السلام فعادوا إلى كفرهم[5]. فلقد كانت الأولى رجعة إلى النّفوس، وكانت الثّانية نكسة على الرّؤوس[6].

ز – الرّأس في العذاب:

قال تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ . يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴾[7].

---

1 - ينظر صفوة التّفاسير. محمّد علي الصّابوني. ج243/2.
2 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج10/ج48/17.
3 - المصدر نفسه. مج10/ج49/17، ومباحث لسانيّة في ظواهر قرآنيّة. مهدي أسعد عرّار. 175.
4 - ينظر تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. 503.
5 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج302/1، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج572/4، والكشّاف. والزّمخشريّ. مج577/2-578.
6 - ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج2387/17.
7 - الحجّ/19- 20. قال تعالى في الآيات الّتي بعدها: ﴿ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ . وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ . كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾. الحج/20 - 22. قال الطّبري في نزول هذه الآيات: "اختلف أهل التّأويل في المعنيّ بهذين الخصمين للّذين ذكرهما الله، فقال بعضهم: أحد الفريقين: أهل الإيمان، والفريق الآخر: عبدة الأوثان من مشركي قريش الّذين تبارزوا يوم بدر". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج10/ج155/17.
وقال في موضع آخر: "هم أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله، وأقدم منكم كتابا، ونبيّنا قبل نبيّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقّ بالله، آمنّا بمحمّد ﷺ، وآمنّا بنبيّكطم وبما أنزل الله من كتاب، فأنتم كتابنا ونبيّنا، ثمّ تركتموه وكفرتم به حسدا. وكان ذلك خصومتهم في ربّهم". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مج10/ج156/17.

أي: هذان خصمان من أهل الإيمان وأهل الكفر والعناد اختصموا في دين الله تعالى، وقد عادى كلّ فريق منهم الفريق الآخر وحاربه على دينه في الحياة الدّنيا[1].

أمّا يوم القيامة فقد قُطِعت وفصِّلت للّذين كفروا ثياب من نار ونحاس على قدر أجسادهم، وليس شيء من الآنية أحمى وأشدّ حرّا منه[2]، وشُبِّهت النّارُ بالثِّياب لأنّها قد أحاطت بهم من كلّ جانب كإحاطة الثّياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم؛ فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنّها بالإحاطة كالثّياب[3]، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من التّهكّم واحتقار شأنهم، والتّعبير بالثّياب للإشارة إلى تراكم طبقات النّار المحيطة بهم وكون بعضها فوق بعض[4]، وذُكر الفعل ﴿ قُطِّعَتۡ ﴾ بلفظ الماضي لأنّ ما كان من أخبار الآخرة، فالموعود منه كالواقع المحقَّقِ[5]. ويُصبّ على رؤوسهم ماءٌ حارٌّ مُغَلّى، يُذاب به ما في بطونهم من الشّحوم والأمعاء، وتشوى جلودهم منه فتتساقط في مشهد عنيف صاخب حافل بالحركة، فيكون تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظّاهر[6]. قال ابن عبّاس ﷺ : لو سقطت منه قطرة على جبال الدّنيا لأذابتها[7].

وقد ورد مثل هذا الوصف لهذا النّوع من العذاب في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴾[8]، أي صبّوا فوق رأس هذا الأثيم من الماء السّاخن الحارّ إذا اشتدّ غليانه فصار يكوي ويشوي[9].

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج10/ج158/17.
2 ـ ينظر المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج26/12-27، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج21/23
4 ـ ينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج226/6.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج26/12- 27، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج21/23.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري. مج10/ج158/17-160، والكشّاف. الزّمخشري. مج9/3. وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج21/23، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج120/4.
7 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج21/23.
8 ـ الدّخان/48. يقول تعالى في الآيتين السّابقة واللاحقة: ﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ . ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾. الدّخان/47-49.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج153/25، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج150/16- 151، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج111/9.

ح – حركة الرّأس في حال العناد والاستهزاء:

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا. أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا. يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[1]. لمّا سمع المشركون القرآن الكريم وسمعوا أمر البعث[2]، تساءلوا – قبل هذه الآيات – في عناد وإنكار وجحد عن مصيرهم إذا صُيِّروا إلى القبور وصاروا رفاتا منحطمة في التّراب، هل يعودون خلقا آخر جديدا كما كانوا قبل الممات؟ فردّ الله تعالى عليهم ليعرّفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا على أي حال كانوا[3]، حتّى لو كانوا حجارة أو حديدا في الشّدّة والقوّة ولم يكونوا عظاما فإنّه قادر على إحيائهم وردّهم إلى رطوبة الحيّ وغضاضته بعدما كانوا عظاما يابسة[4].

قال تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾[5] وإذا تساءل هؤلاء المعاندون المكابرون في تجاهل عمّن يعيد خلقهم من جديد فسيجيبهم الرّسول ﷺ بأنّه الله

---

1 - الإسراء/50-52.. قال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا . وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾. الإسراء/48-49.

2 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج273/10.

3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج111/15، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج273/10، وتفسير البغويّ. ابن مسعود البغويّ. 745.

4 - ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج452/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج274/10. يقول الفخر الرّازي: "فإنّ المنافاة بين الحجريّة والحديديّة وبين قبول الحياة أشدّ من المنافاة بين العظميّة وبين قبول الحياة، فبتقدير أن تثير أبدان النّاس موصوفة بصفة الحجريّة والحديديّة بعد الموت، فإنّ يالله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيّا عاقلا كما كان". تفسير الفخر الرّازي. مج7/ج189/20.

5 - "ينغضون: يحرّكون. وكذلك النّغض في كلام العرب، إنّما هو حركة بارتفاع ثمّ انخفاض، أو انخفاض ثمّ ارتفاع، ولذلك سمّي الظّليم [وهو ذكر النّعام] نَغْضاً؛ لأنّه إذا عجّل المشي ارتفع وانخفض، وحرّك رأسه". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج115/15

تعالى الّذي فطرهم أوّل مرّة[1]، فسيحركون رؤوسهم نحوك تعجّبا واستهزاءً وتكذيبا واستبعادا[2] برفع وخفض كالمتعجّب من الشّيء.[3] ويتساءلون مرّة أخرى: متى يكون هذا البعث؟ وكيف يكون؟ وفي أي حال؟ فيردّ عليهم الرّسول ﷺ هو قريب، لأنّ عسى من الله تعالى واجب، وكلّ ما هو آت فقريب[4].

أمّا في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[5]. فإنّ في حركة الرّأس في هذا السّياق تعبير عن الاستهزاء والإعراض والاستكبار والإباء، وهذه حركة جسديّة شائعة معناها بيِّنٌ، لأنّ هؤلاء المنافقين الّذين دعاهم الرّسول ﷺ لأن يستغفر لهم لّما افتضح أمرهم بنزول القرآن الكريم، أعرضوا برؤوسهم عنه ﷺ وحرّكوها بهزّ متكرّر، وقيل فعلوا ذلك مرّة واحدة[6]. فلقد أمالوا إلى جانب غير وجهة الرّسول ﷺ، إعراضا عن كلامه وأبوا أن يستغفر لهم، لأنّهم ثابتون على النّفاق، أو لأنّهم ثابتون على ما قالوا من كلام بذيء على المسلمين، أو لأنّهم لم يعترفوا بما نسب إليهم من النّفاق[7].

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/113، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/452، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج10/275.

2 - ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/453، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج4/317، تفسير الفخر الرّازي. مج7/ج20/190، وتفسير النّسفيّ. عبد الله أحمد بن محمود النّسفي. 911.

3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/115، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج10/275، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج4/317، ومباحث لسانيّة في ظواهر قرآنيّة. مهدي أسعد عرّار. 177.

4 - ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج10/275، تفسير الفخر الرّازي. مج7/ج20/190-191.

5 - المنافقون/5.

6 - ينظر المصدر نفسه. مج14/ج28/121، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج7/17، ومباحث لسانيّة في ظواهر قرآنيّة. مهدي أسعد عرّار. 176.

7 - ينظر تفسر التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج11/ج28/244.

ط – الرّأس في سياق الكِبَر:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[1]. لقد نادى زكريا عليه السلام ربّه بنداء خفيّ[2]، واستمرّ في الدّعاء طويلا لا يريد رياء، و لم يَشْقَ بدعاء ربه سبحانه أبدا، فلم يخيبه من قبل حين كان يدعوه في حاجاته، فالله يعلم القلب النّقيّ، ويسمع الصّوت الخفيّ، ويجيب المضطرّ إذا دعاه[3]. فلقد وهن العظم من زكريا عليه السلام، وهذه إحدى أمارات الكبر، وفي هذا كناية عن ذهاب القوّة، وضعف الجسم، والوصول لسنّ الشّيخوخة[4]. وأُسند الوهن "إلى العظم دون غيره ممّا شمله الوهن في جسده لأنّه أوجز في الدّلالة على عموم الوهن جميع بدنه لأنّ العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلاّ وقد بلغ ما فوقه"[5]. واشتعل رأسه شيبا، و"شبّه عموم شيب شعر رأسه أو غلبته عليه بإشعال النّار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود"[6]، وأُخرج مخرج الاستعارة[7] وأُسند الاشتعال إلى الرّأس وهو مكان الشّيب؛ لأنّ الرّأس لا يعمّه الشّيب بالكامل إلاّ إذا توغّل الإنسان في الكِبَرِ[8].

2 – الناصية:

وقد ورد هذا اللّفظ في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، ستأتي الإشارة إليها، و"النّاصية" واحدة النّواصي، هي: قُصَاصُ الشّعر في مقدَّم الرّأس، وقيل: هي منبت الشّعر في

---

1 ـ مريم/4. قال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾. مريم/2-3.

2 ـ لقد نادى زكريا ربّه نداء خفيّا، لأنّ الإخفاء أولى وأبعد من الرّياء وأدخل في الإخلاص، وقيل: لئلا يلام على طلب الولد في إبّان الكبر والشّيخوخة ، وقيل: أسرّ دعاءه من مواليه الّذين خافهم، وقيل: خفت صوته لضعفه وهرمه. ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج502/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج164/21.

3 ـ ينر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج51/16/9- 52.

4 ـ ينظر الإبداع البيانيّ في القرآن الكريم. محمّد عليّ الصّابوني. 196.

5 ـ تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج7/ج64/16، وينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج502/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج164/21.

6 ـ المصدر نفسه، .الصّفحة نفسها.

7 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج502/2، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج164/6.

8 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج7/ج64/16، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج502/2.

مُقدَّم الرّأس، وسمّي الشّعر ناصية لنباته من ذلك الموضع[1]. وقيل: النّاصية: جميع الإنسان، وخَصُّ النّاصية بالذّكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته[2].

أ – ناصية أبي لهب:

تتعلّق الآية الأولى بوصف جزاء أبي جهل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾[3]. لقد كان أبو جهل بن هشام ينهى محمّدا ﷺ عن عبادة الله تعالى، والصّلاة له، فقال جلّ شأنه: أرأيت يا محمّدا أبا جهل الّذي ينهاك عن الصّلاة لربّك، وهو معرض عن الحقّ، فلئن لم ينته عن فعلته الّتي يفعل لنأخذنّ بمقدَّم رأسه ولنجذبنّه إلى النّار بشدّة، ولنذلنّه، ولنسوِّدنّ وجهه[4]. وقيل: السفع: الضّرب؛ أي لنلطمنّ وجهه، وقيل: السّفعة: سواد في الخدّين، وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والإهانة[5].

وقد اكتفى السّياق القرآني بذكر النّاصية من الوجه كلّه، إذ كانت النّاصية في مقدّم الوجه من الوجه[6]. وقيل: أطلق النّاصية، وأريد صاحبها على أسلوب إطلاق البعض وإرادة

---

1 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج276/14. مادّة (نصا).
2 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج124/20.
3 ـ العلق/15- 16. قال تعالى بعد هاتين الآيتين: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾. العلق/17- 19. فلقد أنزل هذه الآيات في أبي جهل بن هشام، وذلك أنّه قال: لئن رأيت محمّدا يصلّي، لأطأنّ رقبته، وكان الرّسول ﷺ يصلّي عند المقام. ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج280/30، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج327/7.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج281/30، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج272/4، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج460/10.
5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج22/32.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج281/30، ولسان العرب. ابن منظور. مج276/14. مادّة (نصا).

الكلّ[1]. وقد وصفت النّاصية بالخطأ والكذب مجازا، وهما في الحقيقة لصاحبها، وفي السّياق القرآنيّ من الحسن ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطيء[2].

ب – النّواصي والأقدام في العذاب:

ويتعلّق الأمر في هذا المقام بكيفية أخذ المجرمين يوم الحساب، وهو المعنى المبسوط في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾[3]. إن هؤلاء المجرمين لا تسألهم الملائكة الموكّلة يوم القيامة عن ذنوبهم الّتي أجرموها في الدّنيا، بل تَعرِفهم بعلاماتهم وسيماهم التي يَسِمهم الله بها من اسوداد الوجوه، وازرقاق العيون، فتأخذهم بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى جهنّم[4]، وقيل: تجمع الملائكة بين نواصيهم وأقدامهم فتربط نواصيهم بأقدامهم، أو تسحبهم فتأخذهم تارة بالنّواصي، وتأخذهم تارة بالأقدام[5]، وتقذفهم في النّار إذلالاً وإهانةً[6]. وفي كيفية الأخذ ظهور نكالهم لأنّ في الأخذ بالنّاصية والأقدام إذلالا وإهانة أيضا[7].

---

1 ـ ينظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين الشّنقيطيّ. ج160/9. وقال محمّد الأمين الشّنقيطيّ أيضا: "والّذي ينبغي التّنبيه عليه من جهة البلاغة: أنّ البعض الّذي يطلق ويراد به الكلّ لابدّ في هذا البعض من مزيد للمعنى المساق فيه الكلام. فمثلا: هنا ذمّ الكذب وأخذ الكاذب بكذبه، فجاء ذكر الناصية وهي مقدم شعر الرّأس، لأنّها أشدّ نكارة على صاحبها ونكالا به، وذ الصّدق يرفع الرّأس والكذب ينكّسه ذلّة وخزيا. فكانت هي الأنسب من اليد أو غيرها". أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. ج160/9.

2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج272/4، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج281/ج15/30، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج126/20، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفي. مج1983/3.

3 ـ الرحمن/41. قال تعالى في الآيتيت السّابقتين: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ . فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. الرحمن/39- 40.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبريّ. مج163/ج13/27، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج495/6.

5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج48/4، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج495/6، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج116/29/10.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج163/ج13/27.

7 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج115/29/10.

جـ – الناصية في قبضة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]. أي؛ إنّ الله تعالى خصّ النّاصية بالأخذ دون سائر أعضاء الجسد، لأنّ العرب كانت تستعمل ذلك في وصفها من وصفته بالذّلّة والخضوع، فتقول: ما ناصية فلان إلاّ بيد فلان، أي أنّه له مُطِيع يصرفه كيف شاء، فخاطبهم الله تعالى بما يعرفون في كلامهم[2]. والسياق اللّغوي القرآنيّ يعني أنّ كلّ دابّة في قبضة الله تعالى وملكه وتحت قهره وغلبته وهيمنته وسلطانه، فلا إله إلاّ هو ولا ربّ سواه، والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك[3]، وفي السّياق أيضا صورة محسوسة للقهر والقدرة تصوّر القدرة الآخذة بناصية كلّ دابّة على هذه الأرض، بما فيها الدّوابّ من النّاس، في صورة حسّيّة تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم [قوم هود] وشدّتهم، وصلابة أجسامهم وبنيتهم، وغلظ حسّهم ومشاعرهم[4]. ولكنّه سبحانه لا يظلم أحدا؛ بل يجزي المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته[5]، فلا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به[6].

---

1 ـ هود/56. قال تعالى قبل الآية وبعدها: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾. هود/53-57.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج12/70، وتفسير البغوي. ابن مسعود البغوي. 622، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج9/53، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج18/12.

3 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج2/276، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/560. وقال القرطبيّ: "وإنّما سمّيت ناصية لأنّ العمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة في المقادير، قد نفذ بصر الخالق في جميع حركات الخلق بقدرة، ثمّ وضعت حركاتن كلّ من دبّ على الأرض حيا في جبهته بين عينيه، فسُمِّي ذلك الموضع منه ناصية؛ لأنّها تنصّ حركات العباد بما قدّر، فالنّاصية مأخوذة بمنصوص الحركات التي نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها. ووصف ناصية ابي جهل فقال: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ".

الجامع لأحكام القرآن. ج9/53.

4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج12/1899.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج7/ج12/70.

6 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج2/277.

ثالثا: اللّحية والجبين والجباه والخدّ في السّياق القرآنيّ:

إحصاء ألفاظ "لحية"[1] و"جبين"[2] وجباه"[3] و"خدّ"[4] في القرآن الكريم			
عدده	اللّفظ	عدده	اللّفظ
لِحْيَتِي	1	خَدَّكَ	1
الجَبِينِ	1	جِبَاهُهُمْ	1
المجموع = 4			

1 – اللّحية:

لقد ورد لفظ "لحية" في القرآن الكريم مرّتين اثنتين؛ مرّة بلفظه الصّريح في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي .قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[5]. ومرّة بلفظ "رأس" الّذي معناه "لحية" كما في تفسير القرطبي[6] في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[7].

---

1 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمّد فؤاد عبد الباقي. 646.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. 164.
3 ـ ينظر المرجع نفسه، الصّفحة نفسها. 164.
4 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمّد فؤاد عبد الباقي. 227.
5 ـ طه/93 و94.
6 ـ أي بلحيته وذؤابته. ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج289/7.
7 ـ الأعراف/150. يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾: "وللعلماء في أخذ برأس أخيه أربع تأويلات: الأول: أنّ ذلك كان متعارفا عندهم؛ كما كانت العرب تفعله من قبض الرّجل على لحية أخيه وصاحبه إكراما وتعظيما، فلم يكن ذلك على طريق الإذلال. الثاني: أنّ ذلك إنّما كان ليسرّ إليه نزول الألواح عليه، لأنّها نزلت

تشير الآيتان إلى حال الغضب وشدّة الغيظ الّتي سيطرت على موسى عليه السلام في الله، والغيرة الّتي ملكته في دينه، حين أخذ بشعر رأس أخيه بيمينه ولحيته بشماله[1]، و"كان موسى صلوات الله عليه رجلا حديدا مجبولا على الحدّة والخشونة والتّصلّب في كلّ شيء، شديد الغضب لله ولدينه، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله بعدما رأوا من الآيات العظام أن ألقى ألواح التّوراة لما غلب ذهنه من الدّهشة العظيمة غضبا لله واستنكافا وحمية وعنفا بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدوّ المكاشف قابضا على شعر رأسه .. وشعر وجهه يجرّه إليه"[2]. فقال له أخوه هارون استعطافا وترقيقا: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ﴾، فيتوهّموا أنّه منك استخفاف أو عقوبة[3].

يقول سيد قطب في وصف حال هارون عليه السلام – وهو يستعطف أخاه في هدوء ولين بعد أن أمسكه موسى عليه السلام من لحيته ورأسه بعنف –: "وهكذا نجد هارون أهدأ أعصابا وأملك لانفعاله من موسى، فهو يلمس في مشاعره نقطة حسّاسة، ويجيء له من ناحية الرّحم وهي أشدّ حساسيّة. ويعرض له وجهة نظره في صورة الطّاعة لأمره حسب تقديره، وأنّه خشي إن هو عالج الأمر بالعنف أن تتفرّق بنو إسرائيل شيعا، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا، فهي كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى"[4]. فلم يقابل هارون عليه السلام عنفا بعنف فيشتدّ الجدال ويحتدم الصّراع بينه وبين أخيه موسى عليه السلام ويطمئنّ بنو إسرائيل إلى عبادة العجل.

عليه في هذه المناجاة وأراد أن يخفيَها عن بني إسرائيل قبل التوراة. فقال له هارون: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، لئلا يشتبه سرارُه على بني إسرائيل بإذلاله. الثالث: إنّما فضل ذلك به لأنّه وقع في نفسه أنّ هارون مائل مع بني إسرائيل فيما فعلوه من أمر العجل، ومثل هذا لا يجوز على الأنبياء. الرابع: ضمّ إليه أخاه ليعلم ما لديه، فكره ذلك هارون لئلاّ يظنّ بنو إسرائيل أنّه أهانه؛ فبيّن له أخوه أنّهم استضعفوه، يعني عبدة العجل، وكادوا يقتلونه أي قاربوا. فلمّا سمع عذره قال: ربّ اغفرلي ولأخي". الجامع لأحكام القرآن. ج289/7.

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج239/11، وصفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. ج224/2، وأضواء البيان. الشنقيطي. ج354/4.

2 ـ الكشاف. الزمخشري. مج551/2.

3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج239/11.

4 ـ في ظلال القرآن. مج4/ج2348/6.

2 – الجبين:

الجبينان جانبا الجبهة[1]، وقيل: الجبين فوق الصّدغ، والجبينان حرفان مُكْتنِفا الجبهة من جانبيها عن يمينها وشِمالها فيما بين الحاجبين مُصْعِدًا إلى قُصاص الشّعر، وقيل: هما ما بين القُصاص إلى الحاجبين، وتكون الجبهة بين جبينين، وجمع جبين؛ جُبُنٌ وأَجْبِنَةٌ[2].

لقد ورد لفظ "الجبين" في القرآن الكريم بلفظه الصّريح مرّة واحدة فقط بصيغة المفرد المعرّف بالألف واللاّم في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾[3]. فلقد بُشِّر إبراهيم عليه السلام بغلام حليم إذا كَبُرَ، وفي ذلك مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، لأنّ الغلام إذا كان في المهد لا يقال عنه حليم، وهذا الغلام الّذي وُهِبَه إبراهيم عليه السلام سيكبر وسيكون له شأن عظيم[4]. ولمّا بلغ الغلام أشدّه امتحن الله تعالى الوالد إبراهيم عليه السلام حين أمره بذبح ابنه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ أي لمّا ترعرع وشبّ وبلغ السّنّ الّذي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه وصار سندا له[5]، جاء البلاء المبين. وكان الابن راضيا بأمر الله وقدره، فقال لوالده: امض لما أمرك الله به من ذبحي، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. أي؛ سأصبر وأحتسب ذلك عند الله تعالى[6]، وهذا كلام من أوتي الحلم والصّبر والامتثال لأمر الله والرّضا بما أمر الله[7].

---

1 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 99. مادّة (جبن).
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج71/3. مادّة (جبن)، والمصباح المنير. أحمد بن محمّد بن علي الفيّوميّ. 52. مادّة (ج ب ن)، والمعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى وآخرون. ج106/1. مادّة (جَبَنَ).
3 ـ الصافات/103. قال تعالى قبل هذه الآية وبعدها: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ . فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ . وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ . قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾. الصّافات/101-106.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/جج81/23.
5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج24/6، وصفوة التّفاسير. محمّد علي الصّابوني. ج36/3.
6 ـ ينظر المصدر نفسه. ج25/6.
7 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسّي. مج355/7.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ أي فلمّا أسلم هذا ابنه وهذا نفسه[1]، وفوّضا إلى الله تعالى في قضائه وقدره[2]، واستسلما وانقادا، إبراهيم عليه السلام امتثل أمر الله تعالى وإسماعيل عليه السلام طاعة لله ولأبيه، وتشهّدا وذكرا الله تعالى، الوالد على الذّبح والولد شهادة الموت[3].

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾ أي؛ كبّه على وجهه[4]، وحوّله إلى القبلة[5]، وقيل:صرعه على شقّه فوقع أحد جبينيه على الأرض تواضعًا على مباشرة الأمر بصبر وجلد ليُرضيا الرّحمن ويُخزيا الشّيطان[6]، وقيل: كبّه على وجهه بإشارته لئلاّ يرى فيه تغيّرا يرقّ له فلا يذبحه[7]. وللوجه جبينان، والجبين أحد جانبي الجبهة، والجبهة بينهما[8]، والجبين فوق الصّدغ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، والجبينان حرفان مكتَنِفا الجبهة من جانبيها فيما بين الحاجبين مُصعِدا إلى قُصاص الشّعر[9].

قال تعالى بعد هذا الموقف وهذا الانقياد لأمره: ﴿ وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ . قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ . إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾. ولا يخفى ما في هذا الموقف العظيم من كمال طاعة إبراهيم عليه السلام لهذا التكليف الشّاقّ الشّديد من الله تعالى، وكمال طاعة ولده إسماعيل عليه السلام وانقياده لأمر الله تعالى أيضا[10].

---

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج348/3.
2 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج355/7.
3 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج25/6، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج104/15، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج9/ج152/23.
4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج25/6.
5 ـ ينظر جامع الأحكام. القرطبيّ. ج104/15.
6 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج348/3، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج145/26.
7 ـ ينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج22/5، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج9/ج152/23.
8 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج145/26، وروح المعاني. الألوسيّ. مج12/ج167/23.
9 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج71/3. مادّة (جبن).
10 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج146/26.

3 – الجباه:

الجِبَاهُ مفردها الجبهة؛ وهي موضع السّجود من الرّأس[1]، وقيل: هي مستوى ما بين الحاجبين إلى النّاصيّة[2]. ولقد ورد لفظ "جباههم" في القرآن الكريم مرّة واحدة فقط بصيغة الجمع المعرّف بالإضافة إلى ضمير جمع الغائبين في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[3]. يبشّر الله تعالى الّذين يكترون الذّهب والفضّة ولا ينفقونهما في سبيل الله بعذاب أليم يوم القيامة، حين يوقد عليهما في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، وتحرق جزاء منعهم فرائض الله الواجبة في كنوزهم[4]، وأنّهم لم يطلبوا بأموالهم إلاّ الأغراض الدّنيويّة من وجاهة عند النّاس وتقدُّمٍ[5]، ولم يؤثروا بها رضا ربّهم ولا قصدوا الخلاص من عقابه وعذابه[6]. والتّبشير في هذا المقام من باب التّهكّم لأنّ البشارة لا يتكون حينئذ[7]، فأصل التّبشير لا يكون بالعذاب.

تكون الجبهة للإنسان وغيره، وهي موضع السّجود، ومستوى ما بين الحاجبين إلى النّاصية[8]. ولقد خصّها الله تعالى بالكيّ لأنّه في الوجه أشهر وأشنع، وفي الجنب والظّهر آلم

1 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 99. مادّة (جبه)، ولسان العرب. ابن منظور. مج73/3. مادّة (جبه)، والمصباح المنير. أحمد بن محمّد بن علي الفيّوميّ. 52. مادّة (ج ب هـ).
2 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج73/3، والمصباح المنير. أحمد بن محمّد بن علي الفيّوميّ. 52. مادّة (ج ب هـ)، والمعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى وآخرون. ج106/1. مادّة (جَبَهَهُ).
3 ـ التوبة/34- 35.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج144/10- 145.
5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج188/2.
6 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج43/16.
7 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج129/8.
8 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج72/3. مادّة (جبه). والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج129/8.

وأوجع. وذكر بعض العلماء: إنّما خصّ هذه الأعضاء بالكي[1]؛ "لأنّ الغنيّ إذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه وقبض وجهه، وإذا سأله طوى كشحه، وإذا زاده في السّؤال وأكثر عليه ولاّه ظهره. فرتّب الله العقوبة على حال المعصية"[2]. وقيل: إنّ كمال حال بدن الإنسان في جماله وقوته، أمّا الجمال فمحلّه الوجه، وأعزّ الأعضاء في الوجه الجبهة، وأمّا القوّة فمحلّها الظّهر والجنبان، وحصول الكي في تلك الأعضاء يوجب زوال الجمال والقوّة، وإنّما طلب الإنسان المال لحصول الجمال والقوّة[3]. فها هي أموالهم من الذّهب والفضّة قد حميت في نار جهنّم حتّى احمرّت، وصارت مهيّأة لتعذيب هؤلاء، وها هي ذي جباههم تكوى، ثمّ يدارون فتكوى جنوبهم، ثمّ يدارون وتكوى ظهورهم، بهذا التّرتيب، وينتهي العذاب، ويتبعه التّأنيب والتّرذيل والتّوبيخ[4] من الله تعالى بقوله: ﴿ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾. وفي الآية حثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وتحذير شديد من الكتر والتّقتير ومنع ما كتب الله في أموالهم المسلمين من الزّكاة والصّدقات.

4 – الخدّ:

لقد ورد لفظ "خدّك" في القرآن الكريم مرّة واحدة فقط بصيغة المفرد المعرّف بإضافته إلى ضمير المفرد المتكلّم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[5]. يوصي لقمان عليه السّلام ابنه فيوجّه إليه مجموعة من الوصايا القيّمة الّتي ورد مثلها في كتب الأنبياء والرّسل ورسالاتهم من قبل، أوّلها؛ إقامة الصّلاة بحدودها وفروضها وأوقاتها، ثمّ الأمر بالمعروف

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج129/8.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج129/8.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج6/ج42/16، وروح المعاني. الألوسي. مج5/ج386/10.
4 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج3/ج1646/10.
5 ـ لقمان/18. قال تعالى في الآيتين اللتين قبلها وبعدها: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾. لقمان/17-19.

والنّهي عن المنكر، ثمّ الصّبر على ما يصيبه من النّاس إذا هو أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر[1]، وذلك ممّا عزمه الله من الأمور وقطعه قطع إيجاب وإلزام[2].

وأمّا في مجال المعاملات مع الآخرين فينهاه عن أن يصعّر خدّه للنّاس، ويعرض بوجهه عمّن يكلمّه ويولّه شقّه وصفحته إعجابا وتكبّرا واستحقارا[3]، ويوصيه بأن يقبل عليهم بوجهه تواضعا لهم[4]، مؤنسا مستأنسا، إذا حدّثه صغيرهم فليصغ إليه حتّى يكمل حديثه[5]. والصّعر داء يصيب الإبل في أعناقها حتّى تُلوى عن رؤوسها، فيشبّه به الرّجل المتكبّر على النّاس[6].

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ ﴾ يعني؛ متبخترا متكبّرا مختالا معجبا في نفسه، في غير شغل وفي غير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخُيَلاء[7]. وجاءت هذه الوصية بعد أن وصّى لقمان ابنه بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقد تمثّلهما في نفسه، وها هو الآن ينهاه عن منكر هو التّكبّر واحتقار الغير، ويغريه بمعروف هو التّواضع في التّعامل ولين الجانب.

رابعا: لفظ "لسان" في القرآن الكريم:

ورد لفظ "لسان" في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرّة بصيغ مختلفة، والجدول الآتيّ يبيّن هذا العدد وتلك الصّيغ:

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج79/21.
2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج233/3.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج79/21، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج385/5، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج183/7، وروح المعاني. الألوسي. مج11/ج117/21.
4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج235/3، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج385/5.
5 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج70/14، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج183/7.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج79/21، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج235/3، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج385/5، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج69/14.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج385/5، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج70/14.

إحصاء لفظ "لسان"[1] في القرآن الكريم					
اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده
لِسَانٌ	7	لِسَانًا	3	لِسَانِي	2
لِسَانَكَ	3	أَلْسِنَةٍ	1	أَلْسِنَتُكُمْ	3
أَلْسِنَتِهِمْ	6				
المجموع = 25					

اللِّسان جارحة الكلام، والكلام، وقد يُكْنَى بها عن الكلمة فيؤنّث حينئذ، واللِّسان واللِّسْنُ: اللّغة، يقال: فلانٌ يتكلّم بلسان قومه، وحكى أبو عمرو: لكلّ قوم لِسْنٌ أي لغة يتكلّمون بها. واللّسان: الرّسالة والمقالة. واللَّسَنُ: الفصاحة، واللّسنُ: جودة اللّسان وسلاطته[2]. واللّسان: الثّناء، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[3]؛ معناه: اجعل لي ثناءً حسنا باقيًّا على آخر الدّهر[4]. أمّا في المعجم الوسيط فاللّسان: هو جسم لحميّ مستطيل متحرّك، يكون في الفم، ويصلح للتّذوق والبلع، والنّطق، مذكّر وقد يُؤنّث، والجمع ألسنة، وأَلْسُنٌ، ولُسُنٌ. واللّسان: اللّغة، والثّناء الحسن[5].

أمّا في استعمال القرآن الكريم فقد ورد لفظ "لسان" بمعانٍ متعدِّدة منها؛ بمعنى جارحة الكلام في سياقات متنوّعة، وبمعنى اللّغة، والثّناء الحسن.

1 – اللّسان بمعنى جارحة الكلام وقع في مواضع متعدّدة ومتنوّعة، مثل قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ

1 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمّد فؤاد عبد الباقي. 647.
2 ـ ينظر معجم المقاييس في اللّغة. ابن فارس. 953. مادّة (لسن)، ولسان العرب. ابن منظور. مج197/13. مادّة (لسن).
3 ـ الشّعراء/84.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج197/13. مادّة (لسن).
5 ـ إبراهيم أنيس، وآخرون. ج824/2. مادّة (لسَنَ).

بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾[1]، فالمراد باللّسان هنا الجارحة، لا اللّغة[2]، أي لُعِنوا بلسان داود، أي بكلامه الملابس للسانه[3]، ولُعِنوا بكلّ لسان؛ لعنوا على عهد موسى في التّوراة، ولعنوا على عهد داود في الزّبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمّد في القرآن، وكان لعنُ الله إياهم على ألسنتهم[4].

لعنهم الله تعالى بسبب عصيانهم وكفرهم، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ أي لم يكن ذلك اللّعن الشّنيع إلاّ لأجل عصيانهم لله تعالى واعتدائهم على خلقه[5]، ومجاوزتهم الحدّ وتماديهم في العصيان ومبالغتهم فيه[6]، فالّذين لعنوا على لسان داود هم أصحاب السّبت، والّذين لعنوا على لسان عيسى هم الّذين كفروا بالمائدة بعد نزولها[7]، وكان لا ينهى أحد منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم[8]، فكان الرّجل أوّل ما يلقى الرّجل ينهاه عمّا يصنع، فإذا لقيه في الغدّ لا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيله وشَرِيبه وقعِيده[9].

---

1 ـ المائدة/78. وقال تعالى في الآية السّابقة واللاّحقة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ . لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾. المائدة/77-79. كما وردت دلالة "لسان" على الجارحة في: آل عمران/78، النّساء/46، والنّحل/116،62، وطه/27، والنّور/24،15، والشّعراء/13، والأحزاب/19، والفتح/11، والممتحنة/2، البلد/9، وغيرها.

2 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج3/548، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج3/ج6/292، ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن. محمّد الأمين بن عبد الله الهرريّ الشّافعيّ. مج7/429.

3 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج3/ج6/292.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج4/ج6/389، والكشّاف. الزّمخشري. مج2/636، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/618، الجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج6/252، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج2/355.

5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/618، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج1/636، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج2/355، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود لنّسفيّ. مج1/415، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج4/ج12/56.

6 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن. محمّد الأمين بن عبد الله الهرريّ الشّافعيّ. مج7/429.

7 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج6/252، والكشّاف. الزّمخشري. مج1/636.

8 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج2/618.

9 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج6/253.

2 – اللّسان بمعنى اللّغة، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]؛ فقد دلّت هذه الآية على أنّ إرسال جميع الرّسل لا يكون إلاّ بلغة قومهم[2]، فما أرسل الله تعالى من رسول إلاّ بلسان القوم الّذين أُرسل إليها، ليكون بيانه لهم تلك الشّرائع بلسانهم الّذي ألفوه واعتادوه، وليفهمهم ويثبّت حجّة الله تعالى عليهم[3]، وليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، ويكون إدراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل، فلا يكون لهم حجّة على الله تعالى، ولا يقولوا لم نفهم ما خوطبنا به[4].

3 – اللّسان بمعنى الثّناء الحسن، ورد في موضع واحد لقوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[5]. لقد أقرّ إبراهيم عليه السلام بنعم ربّه عليه في الآيات الّتي سبقت؛ فالله تعالى هو الّذي خلقه ويهديه للصّواب من القول والعمل ويسدّده للرّشاد، ويغذوه بالطّعام والشّراب، ويرزقه الأرزاق، وإذا سقم جسمه واعتلّ، فهو يبرئه ويعافيه، وهو الّذي يميته ويحييه بعد الممات، ويغفر خطيئته يوم القيامة، ولقد كان هذا الكلام احتجاجا من إبراهيم عليه السّلام على قومه[6].

---

1 - إبراهيم/4. كما ورد دلالة "لسان" على اللّغة في: النّحل/103، مريم/97، والشّعراء/195، والقصص/34، والرّوم/22، الدّخان/58، وغيرها.

2 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج19/70، والكشّاف. مج2/367.

3 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج8/ج13/208، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج19/72.

4 - ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/366، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج19/70. ويقول الزّمخشريّ في مقام آخر: "فإن قلت: لم يُبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى العرب وحدهم وإنّما بُعث إلى النّاس جميعا، بل إلى الثّقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجّة فلغير هم الحجّة، وإن لم تكن لغيرهم حجّة، فلو نزل بالعجميّة لم تكن للعرب حجّة أيضا. قلت: لا يخلو إمّا أن ينزّل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأنّ التّرجمة تنوب عن ذلك وتكفي التّطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرّسول لأنّهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبيّنوه وثُوقِل عنهم وانتشر قامت التّراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التّراجم ف يكلّ أمّة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتّفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلّم لفظه وتعلّم معانيه، وما يتشعّب من ذلك من جلائل الفوائد". الكشّاف. مج2/366-367.

5 - الشّعراء/84. قال تعالى قبل الآية وبعدها على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ . وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ . وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾. الشّعراء/83-85.

6 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج17/92-93.

ويسأل إبراهيم عليه السلام الله تعالى أن يجعله رسولاً إلى خلقه، وأن يُلحقه بذلك بعداد من أرسله من رسله، واتمنه على وحيه، واصطفاه لنفسه، وأن يجعل له لسان صدق في الآخرين، أي؛ أن يجعل له في النّاس ذكرا جميلا، وثناء حسنا صالحا، باقيّا فيمن يجيء من القرون بعده[1]، يُذكر به ويُقتدى به في الخير[2]، وقيل: أراد الدّعاء الحسن إلى يوم القيامة، وقد فعل الله تعالى ذلك فليس أحد يصلّي على النّبيّ ﷺ إلاّ هو يصلّي على إبراهيم[3]، وقال ابن عطية: لسان الصّدق هو؛ الثّناء وتخليد المكانة بإجماع المفسّرين[4].

وقال الألوسي: "أي: اجعل لنفعي ذكرا صادقا في جميع الأمم إلى يوم القيامة، وحاصله خلد صيتي وذكري الجميل في الدّنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسّنن المُرضيّة لديه تعالى، المُستحسنة الّتي يقتدي بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير وهم صادقون، فاللّسان مجاز عن الذّكر بعلاقة السّببيّة واللاّم للنّفع ومنه يستفاد الوصف الجميل"[5]. ولقد أجابه الله تعالى، وفضّله بالخُلّة حين اتّخذه خليلا[6]، وكانت كلّ الملل تحبّه وتتولاّه وتتمسّك به وتعظّمه[7].

4 – اللّسان بمعنى القرآن، في قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾[8]. أي؛ من قِبْله كتاب موسى إماما ورحمة أنزلناه عليه، وهذا كتاب أنزلناه لسانا عربيّا[9]. ولقد اختلف في تأويل ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ، فقال بعض المفسّرين: "ويراد بـــ ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج17/93-94، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج112/13، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1196/2.
2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج189/5.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج113/13.
4 ـ ينظر المصدر نفسه. ج112/13، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج24/7.
5 ـ روح المعاني. مج10/ج127/19، وورد في الجامع لأحكام القرآن: "والمراد باللّسان القول، وأصله جارحة الكلام. قال القتبي: وموضع اللّسان موضع القول على الاستعارة". القرطبيّ. ج113/13.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج11/ج17/93-94.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج189/5، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج112/13، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1196/2.
8 ـ الأحقاف/12.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج16/26.

القرآن ووضعت الإشارة موضع الضّمير للتّعظيم، والأصل وهو مصدِّق لسانا عربيًّا، وقيل: هو منصوب بنزع الخافض أي مصدِّق بلسان عربيٍّ"[1]. وردّ بعضهم هذا الرّأي بقوله: "ويبعُدُ أن يكون اللّسان القرآن؛ لأنّ المعنى يكون يُصَدِّقُ نفسه"[2]، فهذا قول لا معنى له، ولا معنى لِأَنْ يُقال: وهذا كتاب يُصَدِّق نفسه، لأنّ اللّسان العربيّ هو هذا الكتاب[3].

أمّا الرّأي الآخر فذكر أصحابه أنّ القرآن الكريم لسان عربيّ فصيح بيِّنٌ واضحٌ[4]، عظيم الشّأن مصدِّق للكتب قبله، وصدّق التّوراة عربيّا مُبينًا[5]، "وزاده ثناء بكونه ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾؛ أي لغة عربيّة فإنّها أفصح اللّغات وأنفذها في نفوس السّامعين، وأُدمج لفظ ﴿ لِّسَانًا ﴾ للدّلالة على أنّ المراد بعربيّته عربيّة ألفاظه، وغلب إطلاق اللّسان على اللّغة لأنّ أشرف ما يستعمل فيه اللّسان هو الكلام"[6]؛ أي إنّ ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ حال لكون هذا القرآن ملفوظا به على لسان العرب؛ لكون القوم عربا[7]. ويقول الطّبريّ: "والصّواب عندي: وهذا القرآن يصدّق كتاب موسى بأنّ محمّدا نبيّ مرسل لسانا عربيّا"[8]. فنصب اللّسان والعربيّ، لأنّه من صفة الكتاب، فانتصب على الحال[9].

وأمّا الرّأي الثّالث فيؤوِّل ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ بالرّسول ﷺ ويقول: "إلاّ أن يُجعل اللّسان العربي محمّدا عليه الصّلاة والسّلام، ويوجّه تأويله إلى: وهذا كتاب وهو القرآن يصدّق محمّدا، وهو اللّسان العربيّ"[10]، فيكون ذلك وجها من التّأويل.

---

1 ـ روح المعاني. الألوسيّ. مج13/ج233/26.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج191/16.
3 ـ ينظر جامع البيان عن أويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج17/26، وقال الأخفش، سعيد بن مسعدة: "فنصب اللّسان والعربيّ لأنّه ليس من صفة الكتاب، فانتصب على الحال أو على فعل مضمر كأنّه قال: أعني لسانا عربيًّا". معاني القرآن. تح: عبد الأمير محمّد أمين الورد. 588.
4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج279/6.
5 ـ ينظر مشكل إعراب القرآن ومعانيه. الفرّاء. تح: محمّد بن عيد الشّعبانيّ. مج664/2.
6 ـ تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج10/ج25/26.
7 ـ ينظر تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن. محمّد الأمين بن عبد الله الهرريّ الشّافعيّ. مج31/27.
8 ـ جامع البيان عن أويل آي القرآن. مج13/ج17/26، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج12/28.
9 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.
10 ـ المصدر نفسه. الصّفحة نفسها.

خامسا: الرّقبة والعنق والجيد في القرآن الكريم:

ذُكرت هذه الألفاظ في القرآن الكريم تسع عشرة مرّة؛ وهي على النّحو الآتي: ورد ذكرت "الرّقبة" في تسعة مواضع، وذكر"العنق" في تسعة مواضع أيضا، و"الجيد" في موضع واحد، ؛ والجدول الآتيّ يبيّن عدد المرّات والصّيغ المختلفة الّتي لهذه الألفاظ.

إحصاء ألفاظ "جيد"[1] و"رقبة"[2] و"عنق"[3] في القرآن الكريم					
اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده	اللّفظ	عدده
جِيدِهَا	1	رَقَبَةٍ	6	الرِّقابِ	3
عُنُقِكَ	1	عُنُقِه	1	الأَعْنَاقِ	3
أَعْنَاقُهُمْ	4				
المجموع = 19					

1 – الرّقبة:

فالرِّقَابُ جمع رقبة وهي أصل العنق[4]، أو هي: مُؤخّرُ أصل العُنُقِ، وقيل: هي أعلاها، وقيل: هي العُنُقُ، والجمع: رُقَبٌ، ورَقَبَاتٌ، ورِقَابٌ[5]. ومكانها من البدن مكان الرّقيب المشرف على القوم[6]. وقد ورد لفظا "رقبة" و"رقاب" في مواضع متعدّدة في سياق الحديث عن تحرير العبيد، ولفظ "رقاب" وحده في سياق الحديث عن الجهاد.

1 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. محمّد فؤاد عبد الباقي. 191.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. 323- 324.
3 ـ ينظر المرجع نفسه. 492.
4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج42/5.
5 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج200/6. مادّة (عنق).
6 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج42/5.

السّياق الأوّل: قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

اختلف العلماء في تأويل "البرّ"، فقيل: ليس البرّ الصلاة وحدها، ولكنّ البرّ الخصال الّتي بيّنها الله تعالى في الآية، وقيل: ليس البرّ أن تصلّوا وتكتفوا بالصّلاة ولا تعملوا غير ذلك، وهذا حين تحوّل الرّسول ﷺ من مكّة إلى المدينة، فأنزل الله الفرائض وحدّ الحدود، وأمر بالفرائض أن يؤخذ بها[2]، وهذا لّما ظنّ المؤمنون أنّهم قد نالوا البغية بالتّوجّه إلى الكعبة من حيث كانوا يحبّون ذلك فخُوطبوا بهذا الكلام[3]، وقيل: كانت اليهود تُصليّ قِبَلَ المغرب، والنّصارى تصلّي قِبَلَ المشرق، فأنزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم فيها أنّ البرّ غير العمل الّذي يعملونه، ولكنّه ما بيّنه الله تعالى في هذه الآية[4]. والبرّ اسم جامع للطّاعات، وأعمال الخير المقرّبة إلى الله تعالى، وما يُؤجر عليه الإنسان[5].

إنّ الشّاهد في الآية هو قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾؛ والمعنى: أن يُؤتى المال في عتق الرّقاب[6]، وقيل في ذلك قولان: أحدهما أنّ ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ هم المكاتِبون الّذين لا يجدون ما يؤدّونه في كتابتهم[7]، والثّاني أنّه العتق، فيشتري الإمام رقيقا ويعتقهم، ويكون ولاؤهم لجميع المسلمين[8]، وذكر أبو حيان الأندلسيّ العتق والمكاتبة وفكّ الأسرى[9].

---

1 ـ البقرة/177. ومثله في الآيات الآتيّة: النّساء/92، والمائدة/89، والتّوبة/ والمجادلة/3، والبلد/13.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/115، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج2/237.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج5/34.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج2/ج2/115، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج2/237.
5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج2/ج5/36.
6 ـ ينظر المصدر نفسه. مج2/ج5/42.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كير. ج1/367، وأحكام القرآن. ابن العربيّ. ج2/409.
8 ـ ينظر أحكام القرآن. ابن العربيّ. ج2/409.
9 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. مج2/7-8. وقال الفخر الرّازي: "واختلف النّاس في الرّقاب المذكورين في آية الصّدقات، فقال قائلون: إنّه يدخل فيه من يشتريه فيعتقه، ومن يكون مكاتبها فيعينه على أداء كتابته، فهؤلاء أجازوا

السّياق الثّاني: لفظ"رقاب" في موضع الجهاد مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾[1]. لقد بيّن الله تعالى في الآيات السّابقة بأنّه جعل أعمال الّذين جحدوا توحيده وعبدوا غيره، وكذّبوا رسوله ﷺ وصدّوا من صدّقه ضلالا على غير هدى وغير رشاد، وبارك أعمال الّذين صدّقوه وعملوا بطاعته، واتّبعوا أمره ونهيه، وصدّقوا نبيه ﷺ فمحا عنهم سيء ما عملوا ولم يؤاخذهم عليها، وأصلح شأنهم وحالهم في الدّنيا وفي الآخرة[2]. ويقول للمؤمنين بعد ذلك: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أي؛ إذا واجهتم الّذين كفروا بالله تعالى وبرسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم[3]، واحصدوهم حصداً بالسّيوف[4]، وأصل الكلام فاضربوا الرّقاب ضربا، ومعناه القتل، ذلك أنّ قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته، ولا يخفى ما في "هذه العبارة من الغلظة والشّدّة ما ليس في لفظ القتل، لِمَا فيه من تصوير القتل بأبشع صورة وهو حزّ العنق وإطارة العضو الّذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه"[5]. والرّقبة أظهر عضو في المقاتل، لأنّ قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيّأ ذلك، وبما أن الرّقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حزّ العنق ووقوع الموت بخلاف سائر الأعضاء[6].

شراء الرّقاب من الزّكاة المفروضة، وقال قائلون: لا يجوز صرف الزّكاة إلاّ في إعانة المكاتبين، فمن تأوّل هذه الآية على الزّكاة المفروضة فحينئذ يبقى فيه ذلك الاختلاف، ومن حمل هذه الآية على غير الزّكاة أجاز المرين فيها قطعا، ومن النّاس من الآية على وجه ثالث وهو فداء الأسارى". تفسير الفخر الرّازي. مج2/ج42/4.

1 ـ محمّد/4. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾. محمّد/1 – 3.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج 13/ج46/26.

3 ـ ينظر المصدر نفسه. مج 13/ج48/26.

4 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج309/6.

5 ـ الكشّاف. الزّمخشري. مج530/3.

6 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج40/28.

2 – العنـــق:

العُنْقُ والعُنُقُ: وُصلة ما بين الرّأس والجسد، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والعُنُقُ: الجماعة الكثيرة من النّاس، مذكّر، والجمع أعْنَاقٌ[1]. وقد ورد لفظ "عنق" في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، هي: "أعناق"، و"الأعناق"، و"أعناقهم"، و"عنقه"، و"عنقك". وذُكر في أسيقة مختلفة هي: الجهاد، والعذاب، والبخل، والخضوع لمشيئة الله، والذّلّ والإهانة.

السّياق الأوّل: الخضوع لمشيئة الله لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾[2]. أي: إنّ الله تعالى ألزم كلّ إنسان ما قضى له أنّه عامله، وهو صائر إليه من شقاء أو سعادة بعمله في عنقه لا يفارقه[3]، وأنّ عمله لازم له لزوم القلادة في العنق أو الغلّ لا يفكّ عنه[4]، محفوظ عليه قليله وكثيره، ويُكتب عليه ليلا ونهارا، صباحا ومساء، من خير وشرّ ويُجازى عليه[5]. ولّما كانت العرب تتفاءل وتتشاءم بسوانح الطّير وبوارحها[6]، "أعلمهم جلّ ثناؤه أنّ كلّ إنسان منهم قد ألزمه

---

1 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج305/10. مادّة (عنق).

2 ـ الإسراء/13. وقال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا . وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾. الإسراء/11-12.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج61/15، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج229/10.

4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج440/2، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج229/10، وتفسير النّسفي. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج900/2.

5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج285/4.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج61/15، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج13/6- 14، ويقول الفخر الرّازي: "في تفسير لفظ (الطّائر)ن قولان: القول الأوّل: إنّ العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم على خير أو إلى شرّ اعتبروا أحوال الطّير وهو أنّه يطير بنفسه، أو يحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار فهل متيامنا أو متياسرا أو صاعدا إلى الجوّ، إلى غير ذلك من الحوال التي كانوا يعتبرونها، ويستدلّون بكلّ واحد منها على الخير والشّرّ والسّعادة والنّحوسة، ولمّا كثر ذلك منهم سمّي الخير والشذرّ بالطّائر تسميةً للشّيء باسم لازمه ونظيره. والقول الثّاني: الطّائر عند العرب الحظّ وهو الّذي تسمّيه الفرس البخت، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطّائر ما طار من خير وشرّ، والتّحقيق في هذا الباب أنّه تعالى خلق الخلق وخصّ كلّ واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم والعمر والرّزق، والسّعادة والشّقاوة. والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه، بل لابدّ وأن يصل إلى ذلك القدر من الكمّية والكيفية، فتلك الأشياء المقدورة كأنّها تطير إليه وتصير إليه، فبهذا المعنى لا يبع أن يعبّر عن تلك الأحوال المقدّرة بلفظ طائر.

ربّه طائره في عنقه نحسا كان ذلك الّذي ألزمه من الطّائر، وشقاء يورده سعيرا، أو كان سعدا يورده جنّات عدن"[1]، وأخبرهم سبحانه في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أنّ جميع ما يلقى الإنسان من خير وشرّ فقد سبق به القضاء، وألزم حظّه وعلمه ومكسبه في عنقه[2]. وقد خُصَّ العنقُ بالذّكر "لأنّه موضع السّمات، وموضع القلائد والأطوقة، وغير ذلك ممّا يزين أو يشين، فجرى كلام العرب بنسبة الأشياء اللاّزمة بني آدم وغيرهم من ذلك إلى أعناقهم وكثر استعمالهم ذلك حتّى أضافوا الأشياء اللاّزمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداه"[3]. وفي قوله: ﴿ فِي عُنُقِهِۦ ﴾ " استعارة بديعة، شبَّه تعالى العمل بطائر، يطير إليه من عُشِّ الغيب، فيلازمه ملازمة الطّوق للعُنُقِ، والسّوار للمعصم، فيرى في حسناته وسيِّئاته"[4]، وقيل: هي كناية عن شدّة اللّزوم وكمال الارتباط، وأن كلّ ما قدّره الله تعالى ومضى في علمه حصوله، فهو لازم[5].

السّياق الثّاني: الذّلّ والإهانة: لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾[6]. لقد ظلّت أعناق القوم خاضعة من الذّلّة للآية الّتي أنزل الله عليهم من السّماء[7]، وقيل: إنّ الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون، فجُعِل الفعل أوّلا للأعناق، ثمّ خاضعين للرّجال، وقيل: الأعناق هي أعناق الرّجال، والمعنى: فظلّت أعناقهم ذليلة للآية الّتي يتزلّها الله عليهم من السّماء[8]، وقيل: أصل الكلام فظلُّوا لها خاضعين،

واعلم أنّ هذا من أدلّ الدّلائل على أنّ كلّ ما قدّره الله تعالى للإنسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم". تفسير الفخر الرّازي. مج7/ج140/20 – 141.

1 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج61/15.

2 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج13/6.

3 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج62/15 ، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج141/20، وروح المعاني. الألوسيّ. مج8/ج43/15.

4 ـ الإبداع البيانيّ في القرآن الكريم. محمّد عليّ الصّابونيّ. 183.

5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج141/20.

6 ـ الشّعراء/4. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ طسٓمٓ . تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾. الشّعراء/1 – 3.

7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج66/19.

8 ـ ينظر المصدر نفسه. مج11/ج68/19.

فأُقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع[1]، وقيل: لو شاء الله لأراهم أمرًا من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية[2]، وقيل: لو شاء الله لأنزل آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا، ولكنّه سبحانه وتعالى لا يفعل لأنّه جلّ جلاله لا يريد من أحد إلاّ الإيمان الاختياري[3]. وهناك من أوّل الأعناق تأويلا آخر فقال: أعناقهم بمعنى: ساداتهم وكبراؤهم[4]، وقيل: طوائفهم[5]، وقال ابن منظور: أعناقهم هي: جماعاتهم وبها فسّر الآية[6].

السّياق الثّالث: الجهاد لقوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[7]. لقد أوحى الله تعالى إلى ملائكته يوم بدر أن قوّوا عزم المسلمين، وصحّحوا نياتهم في قتال عدوّهم من المشركين، وكونوا إلى جنبهم في الحرب، وأعينوهم في قتال أعدائهم، فسأرعب قلوب الّذين كفروا بي من المؤمنون، وأملأها فَرَقًا حتّى ينهزموا[8]، ولا معونة أعظم من إلقاء الرّعب في قلوب الكفرة[9]، بعد أن ربط الله تعالى على قلوب الّذين المؤمنين وقوّاها وأزال الخوف عنها، وهذه من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين[10]. وأوحى إليهم أيضا أن اضربوا الأعناق[11]، أو أعالي الأعناق الّتي هي المذابح لأنّها

---

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج3/104.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج19/66.
3 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج5/176.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج19/66، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج3/104، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج2/1184.
5 ـ ينظر المصدر نفسه. مج11/ج19/68.
6 ـ ينظر لسان العرب. مج10/305. مادّة (عنق)، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج2/1184.
7 ـ الأنفال/12. وقال تعالى في الآية السّابقة: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾. الأنفال/11.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج9/236، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/291، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج7/387، وتفسير البغوي. ابن مسعود البغويّ. 515، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1/579.
9 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/148.
10 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج15/114.
11 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج9/236. قال القرطبي: هذا أمر للملائكة، وقيل: للمؤمنين. ينظر الجامع لأحكام القرآن. ج7/379، وتفسير البغوي. ابن مسعود البغويّ. 516.

مفاصل، فكان إيقاع الضّرب فيها حزّا وتطييرا للرّؤوس[1]، واضربوا منهم كلّ طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم[2]، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النّوعين واجتماعهما غاية النّصرة[3]، وقيل: إنّ يالله تعالى ذكر أشرف الأعضاء وهو الرّأس وأخسّها وهي الأنامل، وهي الآلات في أخذ السّيوف والرّماح وسائر الأسلحة[4].

السّياق الرّابع: العذاب قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[5]. لقد تعجّب الرّسول ﷺ من هؤلاء المشركين الّذين اتّخذوا من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضرّ، يعبدونها ويخلصون لها العبادة[6]، وكذّبوه بعد أن حكموا عليه أنّه من الصّادقين[7]، وأمّا العجب الأكبر فهو تكذيبهم بالله تعالى وبقدرته على إعادة الخلق بعد الموت وإنشائه خلقا جديدا[8]، وأنّ من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل[9]، والجحود للبعث والثّواب والعقاب[10]، وهذا تقرير موضع العجب[11]. وبعد هذا الكلام حكم الله تعالى عليهم بثلاثة أشياء، هي: أولئك هم الكافرون بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبالدّين، ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ [12] وصف بالإصرار، وهم الّذين في أعناقهم

---

1 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/148، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/291، وتفسير البغوي. ابن مسعود البغويّ. 516، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1/579.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج9/237، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/291، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج7/379، وتفسير البغوي. ابن مسعود البغويّ. 516، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1/579، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج15/115.

3 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/148، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1/579.

4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج15/115.

5 ـ الرّعد/5. ومثله في الآيات الآتية: يس/8، وغافر/71، وسبأ/33.

6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج13/120، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج9/284.

7 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج19/12.

8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج13/120، والجامع لأحكام القرآن. القرطبي. ج9/284.

9 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج4/68.

10 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج13/120.

11 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج19/12.

12 ـ ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ . فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾. غافر أو المؤمن/71-72.

الأغلال يوم القيامة يسحبون بها في نار جهنّم إذلالا لهم وإهانة[1]، ووعيد بسوقهم إلى الحساب سوق المذلّة والقهر[2]، وقيل: هي أغلال العقل والقلب، فالجزاء هو الأغلال في الأعناق، تنسيقا بين غلّ العقل وغلّ العنق[3]، وأولئك أصحاب النّار[4].

السّياق الخامس: البخل لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[5]. ضرب الله تعالى في هذه الآية مثلا للممتنع من الإنفاق في الحقوق الّتي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، لا يستطيع بسطها، فهو لا يقدر على الإنفاق[6]، بخيلا منوعا، لا يُعطي أحدا شيئا[7]، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ؛ وقيل: هو تعبير مجازيّ "عبّر به عن البخيل الّذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله؛ فضرب له مثل الغلّ الّذي يمنع من التّصرّف باليد"[8]، بحيث يضيق على نفسه وعلى أهله في وجوه صلة الرّحم وسبيل الخيرات[9].

أمّا في الجزء الثّاني من الآية فقد نهى الله تعالى المسرف عن إسرافه فلا ينفق في معصية الله، ولا فيما لا يصلح له، ولا ينبغي له[10]، ولا يعطي فوق طاقته ويتوسّع في الإنفاق توسّعا مفرطا، فينفذ ما معه، وما في يديه، فيأتيه من يريد أن يعطيه فيحسر به، فيلومه حين أعطيت

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج13/121، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج68/4.
2 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج6/ج13/91.
3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج4/ج13/2047.
4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج8/ج13/121، و تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج68/4.
5 ـ الإسراء/29. وقال تعالى في الآيات السّابقة واللاحقة: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾. الإسراء/26- 30.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/89.
7 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج303/4.
8 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج250/10.
9 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج20/164.
10 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/90.

هؤلاء، و لم تعطه[1]. ومتى بسط يده فوق طاقته، قعد بلا شيء ينفقه، فكان كالحسير، "وهو الدّابّة الّتي عجزت عن السّير فوقعت ضعفا وعجزا، فإنّها تسمّى: الحسير"[2]، وهذا مثل ضربه الله تعالى للّذي يبسط يده كلّ البسط. وذكر الحكماء أنّ لكلّ خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط[3].

3 – الجيد:

الجِيدُ: العُنُقُ، وقيل: مُقَلَّدُهُ، وقيل: مُقَدَّمُهُ، والجمع: أَجْيَاد وجُيُود. والمرأة جَيْدَاءُ إذا كانت طويلة العنق حسنةٌ، وجَيْدَانةٌ إذا كانت حسنة الجيد. وقد غلب على عنق المرأة، ولا ينعت به الرّجل[4]. وقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحد في الآية الآتيّة:

قال تعالى: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[5]. أي في عنق زوج أبي لهب حبل في النّار مثل طوق، طوله سبعون ذراعا، وقيل: في عنقها حبل جُمِع من أنواع مختلفة، وكذلك المسد الّذي في جيد امرأة أبي لهب[6]، فتل من أشياء شتّى، من ليف وحديد ولحاء فتلا شديدا، وجعل في عنقها طوقا كالقلادة[7]، وقيل: "في جيدها حبل ممّا مسد من الحبال، وأنّها تحمل تلك الحزمة من الشّوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطّابون تخسيسا لحالها وتحقيرا لها وتصويرا لها بصورة بعض الحطّابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في

---

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج91/15.
2 ـ تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج303/4.
3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج164/20.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج249/3-250. مادّة (جيد)
5 ـ المسد/5. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾. المسد/1-5. "وقيل: إنّ هذه السّورة نزلت في أبي لهب، لأنّ النّبيّ ﷺ لمّا خصّ بالدّعوة عشيرته، إذ نزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾.الشعراء/214. وجمعهم للدّعاء، قال له أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج380/30.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج385/30.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج15/ج386/30، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج160/32.

بيت العزّ والشّرف وفي منصب الثّروة والجدّة"[1]. وكانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأنفقنّها في عداوة محمّد، فأعقبها الله منها حبلا في جيدها من مسد النّار[2]، وقيل: "يكون حالها في نار جهنّم على الصّورة الّتي كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشّوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النّار من شجرة الزّقّوم وفي جيدها حبل من سلاسل النّار"[3]، فهذه حالها في الآخرة تشبه حالها في الدّنيا، عندما كانت تحمل حزم الحطب والشّوك فتضعه في طريق الرّسول ﷺ وأصحابه.

1 ـ الكشّاف. الزّمخشري. مج4/297، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج32/160، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج3/2009.

2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج7/401.

3 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج32/160. وقال الطّاهر بن عاشور عن لفظ الجيد: "والمعروف أن يذكر العنق إذا ذكر الحلي أو الحسن فإنّما حسن هنا ذكر الجيد في حكم البلاغة لأنّها امرأة و النّساء تحلي أجيادهنّ وأمّ جميل لا حلي لها في الآخرة إلاّ الحبل المجعول في عنقها فلمّا أقيم لها ذلك مقام الحلي ذكر الجيد معه، ألا ترى إلى قول الشّاعر: في عجز البيت ❁ وأحسن من عقد المليحة جيدها. ولم يقل: عنقها ولو قال لكان غثًّا من الكلام". تفسير التّحرير والتّنوير. مج12/ج30/606.

سادسا: ملحقات اليد في السّياق القرآنيّ:

ذُكرت هذه الألفاظ في القرآن الكريم إحدى عشرة مرّة؛ وهي على النّحو الآتي: ورد ذكر كلّ من "الذّراع" و"الكفّ"، و"العضد"، و"البنان" في موضعين، وذكر كلّ من "المرافق"، و"الأصابع"، و"الأنامل" في موضع واحد فقط، وكلّها ورد بصيغ مختلفة. والجدول الآتيّ يبيّن عدد المرّات والصّيغ المختلفة الّتي لهذه الألفاظ.

ألفاظ "ذراع"[1]، "عضد"[2]، "مرافق"[3]، "كفّ"[4]، "أصابع"[5]، "أنامل"[6]، "بنان"[7] في القرآن الكريم							
اللّفظ	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**	**اللّفظ**	**عدده**
ذِرَاعًا	1	ذِرَاعَيْهِ	1	عَضُدًا	1	عَضُدَكَ	1
المرافِقِ	1	كَفَّيْهِ	2	أَصَابِعَهُمْ	1	الأَنَامِلُ	1
بَنَانٍ	1	بَنَانَهُ	1				
المجموع = 11							

1 – الذِّراع:

الذِّراع في اللغة ما بين طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى.. والذّراع: ما يُذرعُ به. وذرع الثّوب وغيره يذْرعُه ذرعًا: قدَّره بالذّراع، فهو ذارع، وهو مذروع، وذرعُ كلّ شيء: قدره من ذلك. والتّذرّعُ أيضا: تقدير الشّيء بذراع اليد[8]. وقد ورد في القرآن الكريم

1 ـ ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمّد فؤاد عبد الباقي. 270.
2 ـ ينظر المرجع نفسه. 464.
3 ـ ينظر المرجع نفسه. 323.
4 ـ ينظر المرجع نفسه. 613.
5 ـ ينظر المرجع نفسه. 401.
6 ـ ينظر المرجع نفسه. 719.
7 ـ ينظر المرجع نفسه. 136.
8 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج26/6. مادّة (ذرع).

في قوله تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[1]، وفي هذه الآية يتعلّق العضو بالحيوان.

وأمّا الموضع الثّاني المتعلّق بالعضو فقد ورد في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[2]. "ذرعها"، الذّرع في اللّغة: التّقدير بالذّراع من اليد. والمراد: اسلكوه في سلسلة العذاب، ذرعها سبعون ذراعا، الله أعلم بقدر طولها، وقيل: كلّ ذراع: سبعون باعا، والباع: أبعد ما بينك وبين مكّة. وقيل: تدخل في فيه، وتخرج من دبره[3]، وقال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع هو[4]، وقيل: تلوى على جسده حتّى تلتفّ عليه أثناؤها وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة[5]. وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطّول، وليس التّقدير[6]، وفي الآية إشارة إلى كبر السّلسلة وضخامتها وشدّة العذاب الّذي يقع على من يؤتى كتابه بشماله.

2 – العَضُدُ:

العَضُدُ والعَضْدُ والعُضُدُ والعُضْدُ والعَضِدُ من الإنسان وغيره، ما فوق السّاعد وهو: ما بين المرفق إلى الكتف، والكلام الأكثر العَضُدُ. والعضد مؤنّثة لا غير، والجمع أعضادٌ، ولا يُكسَّرُ على غير ذلك. والعَضُد: القوّة، لأنّ الإنسان إنّما يقوى بعضده فسميت القوّة به. "تقول العرب إذا أعزّ رجل رجلا، وأعانه ومنعه ممّن أراده بظلم: قد شدّ فلان على عضد فلان، وهو من عاضده على أمره: إذا أعانه"[7]. وفي القرآن الكريم: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ

---

1 ـ الكهف/18.

2 ـ الحاقة/32. قال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾. الحاقة/30-31.

3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج14/ج67/29.

4 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج102/30، وروح المعاني. الألوسي. مج15/ج74/29. وقال الألوسي في موضع آخر: "والمعروف بها المعروفة عند العرب وهي ذراع اليد لأنّ الله سبحانه إنّما خاطبهم بما يعرفون". روح المعاني. مج15/ج74/29.

5 ـ الكشّاف. الزّمخشري. مج4/153-154، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج102/30.

6 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج4/153-154، والفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج102/30. وقال أبو حيان الأندلسيّ: "يجوز أن يراد ظاهره من العدد، ويجوز أن يراد المبالغة في طولها وإن لم يبلغ هذا العدد". تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج8/318.

7 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج20/84.

بِأَخِيكَ ﴾[1]؛ أي: سنعينك بأخيك[2]، ونأخذ عضدك فنقوّيك. ويُستعارُ العضدُ للمُعِينِ كاليدِ[3]، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[4]. ويقال في الخير: شدّ الله عضدك، وفي الشّرّ: فتّ الله في عضدك[5].

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ . وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[6]. إنّ موسى عليه السلام يخاف أن يأتي قوم فرعون فيقتلونه وقد قتل منهم نفسا، فلا يستطيع أن يبين عمّا في نفسه بحجّة، لأنّ في لسانه عقدة لا يستطيع معها الإبانة. ويسأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارونا عونا لأنّه أحسن بيانا فيبيِّنُ لقوم فرعون ما يريد أن يفصح عنه، ويكلّمهم به، لأنّه يفهم ما لا يفهمون، ولأنّ الاثنين إذا اجتمعا على الخبر، كانت النّفس إلى تصديقهما، أسكن منها على تصديق خبر الواحد[7].

وقوله تعالى: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾؛ اعلم أنّ العضد قوام اليد وبشدّها تشتدّ[8]. ومعنى الآية؛ سنقويّك ونُعينُكَ بأخيك[9]؛ "فإمّا أن يكون ذلك لأنّ اليد تشتدّ لشدّة العضد والجملة تقوى بشدّة اليد على مزاولة الأمور، وإمّا لأنّ الرّجل شبّه باليد في اشتدادها

1 ـ القصص/35.
2 ـ ينظر لسان العرب. لسان العرب. مج10/181-182. مادّة (عضد)، ومعجم مفردات ألفاظ الفر آن. الرّاغب الأصفهانيّ. 378. مادّة (عضد).
3 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ الفر آن. الرّاغب الأصفهانيّ. 378. مادّة (عضد).
4 ـ الكهف/51.
5 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/113، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج24/221.
6 ـ القصص/33- 35.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج20/82-83.
8 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج24/221.
9 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج20/84، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج24/221.

باشتداد العضد فجعل كأنّه يد مشتدّة بعضد شديد"[1]. ولا يخفى ما في الآية من بيان وتعبير دقيق على المعنى.

يقول الألوسيّ: "إجابة لمطلوبه وهو على ما قيل راجع لقوله: ﴿ فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ ﴾، والمعنى سنقوّيك به ونعينك، على أنّ شدّ عضده كناية تلويحيّة عن تقويّته لأنّ اليد تشتدّ بشدّة العضد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والجملة تشتدّ بشدّة اليد، ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول ﴿ بِأَخِيك ﴾ فيما جعل كناية، أو على أنّ ذلك خارج مخرج الاستعارة التّمثيليّة شبّه حال موسى عليه السلام في تقويّته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد، وجوّز أن يكون هناك مجاز مرسل من باب إطلاق السّبب على المسبّب بمرتبتين بأن يكون الأصل سنقوّيك به ثمّ سنؤيّدك ثمّ سنشدّ عضدك به"[2]. ولم يتكلّف العلماء في هذه التّخريجات، وإنّما يرجع ذلك إلى سموّ هذا النّصّ وانفتاحه على هذه الاحتمالات المختلفة الّتي تخدم غرض الآية.

قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾[3]. فإنّ الله تعالى لم يستحضر هؤلاء (الشّياطين أو الكفّار)[4] ليستعين بهم على خلق السّموات والأرض، ولا على خلق بعضهم، بل إنّ الله تعالى هو المتفرّد بخلق جميع ذلك دون معين. والله تعالى لا يتّخذ من لا يُهدى إلى الحقّ عونا ولا ظهيرا. ومن قول العرب: فلان يعضد فلانا إذا قوّاه وأعانه[5]، ومن قولهم أيضا: اعتضدتُ

1 ـ تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج8/ج24/221.
2 ـ روح المعاني. مج10/ج20/376.
3 ـ الكهف/51. قال تعالى في الآية التي سبقت: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾. الكهف/50.
4 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج2/11.
5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج9/ج15/291.

بفلان إذا استعنتُ به وتقوّيتُ. والأصل فيه عضد اليد، ثمّ يوضع موضع العون، لأنّ اليد قوامها العضد[1].

يقول الزّمخشري: "يعني أنّكم اتّخذتموهم شركاء في العبادة، وإنّما كانوا يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء في الإلهيّة، فنفى مشاركتهم بقوله: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لأعتضد بهم في خلقها ﴿ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض .. ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ أي أعوانا، فوضع المضلّين موضع الضّمير ذمّا لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضدا لي في الخلق فما لكم تتّخذونهم شركاء لي في العبادة؟"[2]. وقيل: ﴿ ٱلْمُضِلِّين ﴾ هم الشّياطين، وقيل: هم الكفّار..وقد خصّ المضلّين بالذّكر لزيادة الذّمّ والتّوبيخ[3].

3 – المرافق:

المِرْفَقُ في اليد؛ مُوصِلُ الذِّراع في العَضُدِ[4]، وفي المعجم الوسيط المَرْفِقُ، والجمع مَرَافِقُ. والمَرْفِقُ: كلّ ما يُرتَفَقُ به ويُنْتَفَعُ، ومنه مرافق المدينة، كأجهزة النّقل والشّرب والإضاءة[5]. قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ

1 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج2/11.
2 ـ الكشّاف. مج488/2، وينظر تفسير البحر المحيط. أبوحيان الأندلسيّ. مج129/6-130، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج504/3-505، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج412/5.
3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج2/11.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج195/6. مادّة (رفق).
5 ـ ينظر المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وآخرون. ج362/1. مادّة (رفق).

لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[1]. إن الشّاهد المطلوب في الآية، هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ ﴾؛ يعني ذلك أنّ "اليد عند العرب تقع على أطراف الأصابع إلى الكتف، فالمفرق داخل تحت اسم اليد، فلو كان المعنى مع المرافق لم يُفِدْ، فلمّا قال: ﴿ إِلَى ﴾ اقتطع من حدّ المرافق عن الغسل، وبقيت المرافق مغسولة إلى الظّفر. وقيل: "إلى المرافق": حدّ للمتروك من اليدين لا للمغسول فيهما، ولذلك تدخل المرافق في الغسل"[2]. وقال ابن العربي: "وتحقيقه أنّ قوله تعالى: ﴿ وَأَيۡدِيَكُم ﴾ يقتضي بمُطلقِهِ من الظّفر إلى المَنكِبِ، فلمّا قال تعالى: ﴿ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ أسقط ما بين المنكب والمِرْفَق، وبقيت المرافق مغسولة على الظّفر، وهذا كلام صحيح يجري على الأصول لغة ومعنى. ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ فاغسلوا أيديكم مضافةً إلى المرافق. وقد روى الدّارقطنيّ وغيره، عن جابر بن عبد الله أنّ النّبيّ ﷺ لمّا توضّأ أدار الماء على مِرْفقيه"[3]. وفي كتب الفقه ما يغني.

4 – الكفّ:

الكفّ، أو كفّ اليد، أنثى، تقول العرب: هذه كفٌّ واحدةٌ، والجمع أَكُفٌّ[4]. وكفّ الإنسان ما بها يُقبَضُ ويُبْسَطُ[5]. وقد ورد هذا اللّفظ في القرآن الكريم بصيغة المثنّى﴿ كَفَّيۡهِ ﴾ في موضعين اثنين سنشير إليهما فيما يأتي:

1 ـ المائدة/6.
2 ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج86/6.
3 ـ أحكام القرآن. ج40/2-41.
4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج88/13. مادة (كفف).
5 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 483. مادّة (كفّ).

قال تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[1]. ﴿ وَأُحِيطَ ﴾ به عبارة عن إهلاكه وأصله من أحاط به العدوّ، لأنّه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثمّ استعمل في كلّ إهلاك[2]...والشّاهد في الآية قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ فيها إشارة إلى حال النّادم وما يتعاطاه في حال ندمه، أو إلى حركة الكفّ الدّالّة على النّدم الشّديد[3]. فدخل الرّجل جنته وقد أعجبه ما كان فيها من الخيرات من قبل، واليوم قد أحاط الهلاك والخراب بصنوف ثمار جنّته الّتي كان يقول عنها: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ فأصبح يقلّب كفّيه ظهرا لبطن، "تلهّفًا وأسفًا على ما فاته، وعلى ذهاب نفقته الّتي أنفق في جنّته، وهي خاليّة على نباتها وبيوتها.. ويتمنّى بعد ما أصيب بجنّته أنّه لم يكن كان أشرك بربّه أحدا"[4]. وقد وقع بهذا الكافر ما كان يحذّره منه المؤمن ويخوّفه به، من إرسال الحسبان على جنّته الّتي اغترّ بها وألّهته عن الله عزّ وجلّ[5].

يقول سيد قطب: "وهو مشهد شاخص كامل: الثّمر كلّه مدمّر كأنّما أخذ من كلّ جانب فلم يسلم منه شيء. والجنّة خاويّة على عروشها مهشّمة محطّمة. وصاحبها يقلّب كفّيه أسفا وحزنا على ماله الضّائع وجهده الذّاهب. وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف

---

1 ـ الكهف/42. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا . وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا . قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا . لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا . وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا . أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ . الكهف/35-41.

2 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج2/485.

3 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 483. مادّة (كفّ).

4 ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج9/ج15/277. ولقد وجدت العبارة هكذا في التّفسير (لم يكن كان).

5 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج4/389، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج21/118، وينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج8/ ج15/ 378-379.

الآن بربوبيّته ووحدانيّته. ومع أنّه لم يصرّح بكلمة الشّرك، إلاّ أنّ اعتزازه بقيمة أخرى أرضيّة غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان"[1]. وتقليب الكفّين كناية عن النّدم والتّحسّر، لأنّ النّادم يقلّب كفّيه ظهرا لبطن[2]، كما كنّيّ عن ذلك بعضّ الكفّ[3] والسّقوط في اليد[4].

وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾[5]. فحركة كفّ تعبّر عن صورة إنسان يريد أن يشرب ماء بكفّيه ولا يستطيع. والمراد أكبر؛ فإنّ الله تعالى وحده هو الّذي "يستجيب لمن يدعوه، وينيله ما يرجوه؛ وأنّ الآلهة الّتي يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئا، ولا تنيلهم خيرا، ولو كان الخير قريبا، فيرسم لهذا المعنى هذه الصّورة العجيبة: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾.

وهي صورة تُلِحُّ على الحسّ والوجدان، وتجتذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحوّل عنها إلاّ بجهد ومشّقة؛ وهي من أعجب الصّور الّتي تستطيع أن ترسمها الألفاظ:

---

1 - في ظلال القرآن. مج4/ج2271/15.

2 - ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج485/2، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج118/21، وينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج8/ ج378/15-379، وحدائق الرّوح والرّيحان. الهرريّ. مج377/16. وقال الهرريّ الشّافعيّ: "قال السّمرقنديّ: تقليب الكفّين، وعضّ الكفّ، واليدين، والأنامل، واليدين، وأكل البنان، وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن النّدم والحسرة؛ لأنّها من روافدها، فتطلق الرّادفة على المردوف، فيرتقي الكلام به إلى الذّروة العليا، ويزيد الحسن بقبول السّامع". حدائق الرّوح والرّيحان. مج377/16، والإبداع البيانيّ في القرآن العظيم. محمّد عليّ الصّابونيّ. 189.

3 - قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾. الفرقان/27.

4 - قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾. الأعراف/149.

5 - الرعد/14.

شخص حيّ شاخص، باسط كفَّيه إلى الماء، والماء منه قريب، يريد أن يُبلغه فاه، ولكنّه لا يستطيع، ولو مدَّ مَدَّةً فربّما استطاع... وهذا معنى ذهنيّ خرج في صورة حسّيّة"[1]. فهو لا ينتفع بالماء الّذي لا لم يصل إلى فيه، الّذي جعله محلاّ للشّرب، فكذلك هؤلاء المشركون الّذين يعبدون مع الله آلهة أخرى، لا ينتفعون بهم أبدا في الدّنيا، ولا في الآخرة[2].

5 – الأصابع:

الأَصْبَعُ والإِصْبَعُ والأُصْبَعُ والأُصْبُعُ؛ والأَصْبَعُ واحدة الأصابع. مؤنث في المعنى ومذكّر في اللّفظ؛ لأنّه ليس فيه علامة التّأنيث[3]. والإِصْبُعُ "اسم يقع على السُّلامَى والظُّفرِ والأنملةِ والأُطْرَةِ والبُرْجُمَةِ معًا، ويُستعارُ للأثر الحسِّيِّ، فيقال: لك على فلان أَصبُعٌ كقولك لك عليه يدٌ"[4]. وقد ورد الاسم الدّال على الأصبع بصيغة الجمع ﴿ أَصَـٰبِعَهُم ﴾ في موضعين في القرآن الكريم، هما كالآتي:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴾[5].

---

1 ـ التّصوير الفنّي في القرآن. سيد قطب. 41.
2 ـ ينظر تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج80/4.
3 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج195/8-196. مادّة (صبع).
4 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 307. مادّة (صبع).
5 ـ البقرة/19. قال تعالى في الآيات السّابقة واللاحقة: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ . مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَـٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ . صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ . أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَـٰفِرِينَ . يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَـٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَـٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ البقرة/16-20. يقول سيد قطب: "إنّ هنا حشدا من الصّور المتتابعة في شريط متحرّك: هؤلاء هم قد أوقدوا النّار فأضاءت. وفجأة يذهب الله بنورهم، ويخيّم حولهم الظّلام.. أو ها هي ذي العاصفة: صيِّبٌ من السّماء فيه ظلمات ورعد وبرق. وهؤلاء هم مذعورون يتوقّعون الصّاعقة، ويخافون الموت فيجعلون أصابعهم في آذانهم؛ وما تغني الأصابع في الآذان؛ ولكنّها حركة الغريزة في هذا الأوان. وها هو ذا البرق يخطف البصر، ولكنّه ينير الطّريق لحظة، فهم يخطفون على ضوئه خطوة. وها هو ذا ينقطع فيظلّون واقفين، لا يدرون كيف يخطون ...

فحركة وضع الأصابع في الآذان تنبيء عن إعراض شديد عن الله تعالى؛ فلقد أخبر جلّ وعلا أنّ المنافقين الّذين نعتهم النّعت الّذي ذكر وضرب لهم الأمثال الّتي وصف، قد جعلوا أصابعهم في آذانهم حذار حلول الوعيد الّذي توعّدهم به في آي كتابه، وهذا الفعل غير منجيهم ذلك (الوعيد) من نزوله بِهِم وحلوله بساحتهم، إمّا عاجلا في الدّنيا، وإمّا آجلا في الآخرة، لما في قلوبهم من المرض والشّكّ في اعتقادها[1].

إنّ المراد بالأصابع في قوله: ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ بعضها، والأصبع الواحدة لا تجعل كلّها في الأذن، "إنّما تجعل فيها الأنملة، لكنّ هذا من الاتّساع وهو إطلاق كلّ على بعض، ولأنّ هؤلاء لفرط ما يهولهم من إزعاج الصّواعق كأنّهم لا يكتفون بالأنملة، بل لو أمكنهم السّدّ بالأصابع لفعلوا، وعدل عن الاسم الخاصّ لما يوضع في الأذن إلى الاسم العام وهو الأصبع"[2].

فالأصابع الموضوعة للأعضاء المعلومة، قد استعملت (في) أجزائها الّتي هي (الأنامل) مجازا مرسلا من باب تسمية الجزء باسم الكلّ، في قوله: ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾ أي: أنامل أصابعهم، للعلم بأنّ جعل الأصابع بتمامها في الآذان غير واقع، وقيل: إنّ هذا من باب نسبة الفعل الّذي في نفس الأمر للكلّ لجزئه، ولا يسمى مجازا، وفيه تعسّف، لأنّ نسبة مطلق الجعل إلى الأصابع كثيرا ما يراد به الكلّ، فلولا الآذان لجرى على الأصل[3].

إنّ في الآية مبالغة في التّعبير عن فرط دهشتهم وكمال حيرتهم، ويظهر ذلك في نسبة الجعل إلى كلّ الأصابع مع أنّ المقصود بعضها وهو الأنامل، ويظهر أيضا في الإبهام في

لو سجّلت عدسة الصّور المتحرّكة مشهدا كهذا، بما فيه من الحركة والتّتابع، لكانت موفّقة كلّ التّوفيق. فكيف والمنظر هنا تسجّله الألفاظ، فلا تنقص منه حركة واحدة تستطيع عدسة الصّور المتحرّكة إثباتها؟ لا بل تتيح للنّفس متعة أشهى، بأن تدع للخيال عملا؛ وهو يرسم الصّور ويمحوها؛ ويصنع الحركات ويتبعها؛ ويرسم الظّلال ويشهدها. النّفس تجيش، والوجدان ينفعل؛ والقلب يسر ع النّبضات، تحت تأثير ماذا؟ تحت تأثير الكلمات". التّصوير الفنّيّ في القرآن. 248.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج1/ج1/209.

2 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج1/223.

3 ـ ينظر شرح مواهب الفتّاح على تلخيص المفتاح. ابن يعقوب المغربيّ (ت1128هـ). تح: عبد الحميد هنداوي. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة. ط1/1426هـ/2006م. ج2/225-226، والإبداع البيانيّ في القرآن العظيم. محمّد علي الصّابونيّ. 373.

الأصابع والعادة إدخال السّبابة في الآذان، فكأنّهم من فرط دهشتهم يدخلون أي أصبع كانت ولا يسلكون المسلك المعهود[1]، "وفي ذكر الجعل موضع الإدخال، فإنّ جعلَ شيءٍ في شيءٍ أدلّ على إحاطة الثّاني بالأوّل من إدخاله فيه"[2].

الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾[3]. إنّ حركة وضع الأصابع في الآذان – في هذا الموضع أيضا – تنبيء عن إعراض شديد عن دين الله تعالى. فكلّما دعاهم نوح عليه السلام إلى الإقرار بوحدانيّة الله تعالى، والعمل بطاعته، والبراءة من عبادة كلّ ما سواه، ليغفر لهم الله، جعلوا أصابعهم في أذانهم لئلاّ يسمعوا دعاءه إياهم، وتغشّوا في ثيابهم، وتغطّوا بها لئلاّ يسمعوا دعاءه[4]، ولئلاّ يسمعوا الحجّة والبيِّنَةَ، وتغشّوا ثيابهم لئلاّ يبصروا وجهه، وإذا فعلوا ذلك صار المانع من السّماع أقوى[5]. وفي الآية تصوير بديع مؤثّر، للعناد والطّغيان الّذي كان عليه قوم نوح، حتّى وصل بهم الحال إلى إغلاق آذانهم عن سماع النّصح، وبُغض رؤية النّاصح، وقد أطلق لفظ (الأصابع) وأُرِيدَ بها (الأنامل) فهو (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الكلّ وإرادة الجزء)[6].

1 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج1/ج252/1. وفي تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: "يجعلون أصابعهم في آذانهم، والمراد: أناملهم، وفيه من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل، كأنّهم يُدخلون من شدّة الحيرة أصابعهم كلّها في آذانهم لا أناملها فحسب، كما هو المعتاد. ويجوز أن يكون هذا إيماءً إلى كمال حيرتهم، وفرط دهشتهم، وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النّهج المعتاد، وكذا الحال في عدم تعيين الأصبع المعتاد، أي: السّبّابة. وقيل: لرعاية الأدب؛ لأنّها فعّالة من السّبّ، فكأنّ اجتنابها أولى بآداب القرآن، وإطلاق الأصبع على بعضها ـ وهو الأنملة ـ مجاز مشهور، والعلاقة الجزئيّة والكلّيّة، لأنّ الّذي يجعل في الأذن إنّما هو رأس الأصبع لا كلّها". الهرريّ. مج1/194-195.

2 ـ روح المعاني. الألوسي. مج1/ج252/1.

3 ـ نوح/7. قال تعالى في الآياتين السّابقتين: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ نوح/5-6.

4 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج14/ج98/29.

5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج122/30.

6 ـ ينظر الإبداع البيانيّ في القرآن العظيم. محمّد علي الصّابونيّ. 373.

6 – البنان:

البنان: الأصابع[1]، وقيل: أطرافها، واحدتها: بَنَانَةٌ. والبَنَانَةُ الإِصْبع الواحدة، أو الإِصبع كلّها[2]. وسمِّيت البنان لأنّ بها صلاح الأحوال الّتي يمكن للإنسان أن يَبِنَّ بها، أي: يريد أن يُقِيم به.[3] ويقال: أبنَّ بالمكان إذا استقرّ به[4]. وصياغة بنان الإنسان فريدة لا يتماثل بها فردان إنسيّان ولو كانا توأمين مماثلين[5]. وقد ورد لفظ (بنان) في القرآن الكريم في موضعين اثنين، بصيغة المفرد ﴿ بَنَانَهُۥ ﴾، و﴿ بَنَان ﴾، وهما كالآتي:

الموضع الأوّل: قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ. بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[6]. أيظنّ الإنسان أن لن يقدر الله تعالى على جمع عظامه بعد تفرّقها، بل هو قادر على أعظم من ذلك، لقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ فبَنَانُهُ، هي: الأصابع أكثر العظام تفرّقا وأدقّها أجزاء[7]، أي: أصابع يديه ورجليه، فيجعلها الله سبحانه شيئا واحدا كخفّ البعير، أو حافر الحمار، فلا يستطيع استعمالها في حياته[8]، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئا ممّا يعمل بأصابعه المفرّقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتّأتّي لما يريد من الحوائج[9]، ولا يأخذ ما يأكل إلاّ بفيه كسائر

---

1 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج157/2. مادّة (بنن)، وينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 72. مادّة (بنّ).
2 ـ ينظر المصدر نفسه. الصّفحة نفسها. مادّة (بنن).
3 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 72. مادّة (بنّ).
4 ـ ينظر المصباح المنير. أحمد بن محمّد الفيومي. 37. مادّة (ب ن ا ن).
5 ـ ينظر كتاب لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. 81.
6 ـ القيامة/3-4. "المشهور أنّ المراد من الإنسان إنسان معيّن، روي أنّ عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق، وهما اللّذان كان رسول الله ﷺ يقول فيهما: (اللّهمّ اكفني سرّ جاري السّوء) قال لرسول الله ﷺ : يا محمّد حدّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمّد ولم أؤمن بك. كيف يجمع الله العظام؟ فنزلت هذه الآية: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾، وقال ابن عبّاس: يريد بالإنسان أبا جهل، وقال جمع من الأصوليّين: بل المراد بالإنسان المكذّب بالبعث على الإطلاق". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج195/30، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج375/8.
7 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج376/8.
8 ـ ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج14/ج189/29.
9 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج190/4.

البهائم، فتقلّ منفعته بها في الدّنيا.. وهذا القول فيه توعّد[1]. ولكنّه تعالى فرّق أصابع يدي الإنسان، يأخذ بها ويتناول، ويقبض إذا شاء ويبسط، فحسن خلقه[2]. فإذا كان الله تعالى قادرا على أن يسوي بنانه في الابتداء فوجب أن يبقى قادرا على تلك التّسوية في الانتهاء[3]، وهو سبحانه يجمعها ويسوّيها بعد تفرّقها ورجوعها رميما ورفاتا في بطون البحار وفسيحات القفار وحيثما كانت حال كونها[4].

إن الله تعالى قادر على أن يسوي أصابعه الّتي هي أطرافه وآخر ما يتمّ به خلقه، أو على أن يسوي سلامياته ويضمّها على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أوّلا من غير نقصان ولا تفاوت فكيف بكبار العظام[5].

الموضع الثّاني: قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[6]. ففي قوله تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾[7]، أي:

---

1 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج8/376.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج14/ج29/189، وفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج7/167.

3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/195، وينظر روح المعاني. الألوسي. مج15/ج29/195-196.

4 ـ ينظر روح المعاني. الألوسي. مج15/ج29/195-196.

5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج4/190. ولقد ذكر المفسّرون أوجها في قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾: "أحدها: أنّه نبّه بالبنان على بقية الأعضاء، أي نقدر على أن نسوي بنانه بعد صيرورته ترابا كما كان،وتحقيقه أنّ منم قدر على الشّيء في الابتداء قدر أيضا عليه في الإعادة وإنّما خصّ البنان بالذّكر لأنّه آخر ما يتمّ خلقه، فكأنّه قيل: نقدر على ضمّ سلاماته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أوّلا من غير نقصان ولا تفاوت، فكيف القول في كبار العظام. وثانيها: بلى قادرين على أن نسوي بنانه أي نجعلها مع كفّه صيفحة مستويّة لا شقوق فيها كخفّ البعير، فيعدم الارتفاق بالعمال اللّطيفة كالكتابة والخياطة وسائر الأعمال اللّطيفة يستعان عليها بالأصابع، والقول الأوّل اقرب إلى الصّواب". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج11/ج30/195، وينظر روح المعاني. الألوسي. مج15/ج29/195-196.

6 ـ الأنفال/12. يقول تعالى في الآية السّابقة: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ الأنفال /11.

7 ـ قيل: الأمر للملائكة، وقيل: للمؤمنين. ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج7/378.

اضربوا الأعناق، وقيل: اضربوا الرّؤوس[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أي: اضربوا أيّها المؤمنون من عدوّكم كلّ طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم[2]. وقيل: البنان، هي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء[3]. وقيل: هي الأطراف من اليدين والرّجلين، أُمِرَ المسلمون أن يضربوهم كما شاؤوا، لأنّ ما فوق العنق هو الرأس، وهو أشرف الأعضاء، والبنان عبارة عن أضعف الأعضاء، فذكر الأشرف والأخسّ تنبيها على كلّ الأعضاء[4]. وإنّما خصّت الأعناق والبنان لأنّ ضرب الأعناق هو: قتل المشركين وإتلاف لأجسادهم، وضرب البنان إبطال صلاحية المضروب للقتال، لأنّ تناول السّلاح إنّما يكون بالأصابع[5]، وهي الآلات في أخذ السّيوف والرّماح وسائر الأسلحة، فإذا قطع بنانهم عجزوا عن المحاربة[6]، وتعطّل عمل اليد.

7 – الأنامل:

المفرد: الأَنْمُلَةُ: وهي المفصل الأعلى الّذي فيه الظّفر من الإصبع، والجمع أَنَاملُ وأَنْمُلاتٌ، وهي رؤوس الأصابع[7]، أو أطراف الأصابع[8]. وقد ورد لفظ ﴿ ٱلۡأَنَامِلِ ﴾ في القرآن الكريم مرّة واحدة بصيغة الجمع. كما سيأتي:

قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ

---

1 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج9/236-237، وينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج2/148، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/15/114، وتفسير البيضاوي. البيضاوي. ج3/94.

2 - ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج6/ج9/237، وينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج3/94.

3 - ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج7/378.

4 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج14/115، وينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج5/ج9/232.

5 - ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج4/ج9/283.

6 - ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج14/115، وينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج5/ج9/232.

7 - ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج14/362. مادّة (نمل)، والمصباح المنير. أحمد بن محمّد الفيّوميّ. 322. مادّة (ن م ت).

8 - ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفانيّ. 562. مادّة (نمل).

ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[1]. إنّ المؤمنين يحبّون الّذين نهاهم الله تعالى عن حبّهم من الكفّار والمنافقين، فيوادّونهم ويواصلونهم، وهؤلاء لا يحبّون المؤمنين، ولا ينتظرون لهم إلاّ العداوة والغش. ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ ﴾ فإذا لقوا المؤمنين أعطوهم من ألسنتهم تقيةً، وإذا خلوا إلى حيث لا يراهم المؤمنون، عضّوا عليهم أناملهم وأيديهم تغيظا وحقدا على ما هم عليه من الألفة واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم[2]، وأظهروا عليهم شدّة العداوة، وشدّة الغيظ حتّى تبلغ الشّدّة إلى عضّ الأنامل. كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتدّ غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه. وأمّا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ ﴾ فهو دعاء على الكفّار بأن يزداد غيظهم بما يوجب لهم ذلك من قوّة الإسلام وعزّة أهله وما لهم في ذلك من الذّلّ والخزي، حتّى يهلكوا به[3].

8 – ما دلّ على اليد اليمنى واليد اليسري:

إنّ في القرآن الكريم – أيضا – ما يدلّ على اليد اليمنى واليد اليسرى، من الألفاظ غير لفظ (يد) مثل: (اليمين) و(الشّمال). وهذه نماذج عن الآيات الّتي ورد فيها اللّفظان:

أ – اليمين: بمعنى اليد اليمنى:

فلقد استعير لفظ "اليمين" لليد "الّتي يتوصّل بها الإنسان لقضاء حاجاته والقيام بأفعاله"[4]، والمقصود في هذه المواضع "اليد اليمنى". قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَوۡمَ نَدۡعُواْ

---

1 ـ آل عمران/119. قال تعالى في الآية التي قبلها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾. آل عمران/118.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج3/ج4/80، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج8/185. وقال الفرخ الرّازي: " ولما كثر هذا الفعل من الغضبان، صار كناية عن الغضب حتّى يقال في الغضبان: إنّه يعضّ يده غيظا وإن لم يكن هناك عضّ". تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج8/185.

3 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج3/ج8/185.

4 ـ الإشارات الجسميّة. كريم زكي حسام الدّين. 193.

كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾[1]. أي: الّذين يمسكون كتابهم باليد اليمنى يوم القيامة، أو من أُعطُوا كتابهم بأيمانهم، وهم السّعداء أولو البصائر والنّهى المتّقون لله[2]. وقيل: " يُدعى أحدُهم فيُعطى كتابه بيمينه، ويُمدُّ له في جسمه، ويبيّض وجهُهُ"[3]. والكتاب هو صحيفة أعمال بني آدم، والله سبحانه أعلم بحقيقتها،[4] ويكون إيتاء الكتاب باليمين بإلهام من الله تعالى، وتلك علامة عناية بالمأخوذ، وإبانة لخطر الكتاب المؤتى، لأنّ اليمين يأخذ بها من يعزم عملا عظيما[5]، وفي المقام تشريف لصاحب الكتاب المأخوذ باليمين، وتبشير له من أوّل الأمر بما في مطاويه[6]. ولا يكتفي بقراءة كتابه على أحسن الوجوه وأثبتها وحده[7]، بل يقول لأهل الحشر: ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[8].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[9]. فلو كان النّبيّ ﷺ يقرأ الكتاب أو يخطّه بيمينه – وهو الأمّيّ

---

1 ـ الإسراء/71.
2 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج157/2.
3 ـ تفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج331.0/4.
4 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج8/ج168/15.
5 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج6/ج168/15.
6 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج8/ج168/15.
7 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج16/21-17. ويقول الزّمخشري: "فإن قلت: لم خصّ أصحاب اليمين بقراءة كتبهم كأنّ أصحاب الشّمال لا يقرءون كتابهم؟ قلت: بلى، ولكن إذا اطّلعوا على ما في كتابهم أخذهم ما يأخذ المطالب بالبداء على جناياته والاعتراف بمساويه أمام التّنكيل به والانتقام منه من الحياء والخجل والانخزال وحبسة اللّسان والتّتعتع والعجز عن إقامة حروف الكلام والذّهاب عن التسوية القول، فكأنّ قراءتهم كلاّ قراءة. وأمّا أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنّهم يقرءون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتّى يقول القاريء لأهل الحشر: ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾. الحاقة/19". الكشّاف. الزّمخشري. مج459/2، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج7/ج16/21-17.
8 ـ الحاقة/19.
9 ـ العنكبوت/48. قال تعالى في الآيتين السّابقتين: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُواْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ . وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ

الّذي لا يقرأ ولا يكتب – إذن لارتاب هؤلاء المبطلون في أمره ﷺ القائلون: إنّه من سجع الكهّان أو أساطير الأوّلين[1]. و﴿ بِيَمِينِكَ ﴾ "هي الجارحة الّتي يُكتب بها وذكرها زيادة تصوير لما نفى عنه من الكتابة، لمّا ذكر إنزال الكتاب عليه متضمّنا من البلاغة والفصاحة والإخبار عن الأمم السّابقة والأمور المغيّبة ما أعجز البشر أن يأتوا بسورة مثله"[2]. وقد ذكر "اليمين" للتّأكّيد على أنّ الخطّ لا يكون إلاّ باليمين، لا لأنّه لا يخطّه بيمينه ويخطّه بشماله[3].

وقال تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾[4]. أي: فأقبل إبراهيم عليه السلام مستخفيًّا[5]، ومال على آلهة قومه فضربها باليمين ضربا شديدا قويًّا متينا بفأس في يده فكسّرهنّ، وخصّ الضّرب باليمين للدّلالة على أنّها أقوى الجارحتين، والضّرب بها أشدّ[6]، وقوّة الآلة تقتضي شدّة الفعل وقوّته[7].

إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾. العنكبوت/46-47.

1 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج11/ج6/21.
2 ـ تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/151، وينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج3/208، وينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج11/ج8/21.
3 ـ ينظر حدائق الرّوح والرّيحان. الهرريّ الشّافعيّ. مج22/18، وتفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج8/ج11/21.
4 ـ الصّافّات/93. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ . أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ . فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾. الصّافّات/83-92. وقال تعالى في الآيات اللاحقة: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾. الصّافّات/94- 96.
5 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج3/345، وينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/351.
6 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج12/ج23/77، والكشّاف. الزّمخشري. مج3/345، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/351، والجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج15/94، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج26/137، وتفسير البغوي. أبو محمّد البغوي. 1092.
7 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج12/ج23/158، وينظر تفسير البيضاوي. البيضاوي. ج5/18. "وقيل: المراد باليمين اليمين الّتي حلفها حين قال: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ الأنبياء/57". الجامع لأحكام القرآن. ج15/94، وينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج9/ج26/137، وتفسير البغويّ. أبو محمّد البغوي. 1092.
و"روي أنّه عليه السّلام كان يجمع يديه في الآلة الّتي يضرب بها وهي الفأس فيضربها بكمال قوّته، وقيل: المراد باليمين الحلف، وسمي الحلف يمينا إمّا لأنّ العادة كانت إذا حلف شخص لآخر جعل يمينه بيمينه فحلف أو لأنّ الحلف يقوّي الكلام ويؤكّده، وأريد باليمين قوله تعالى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ الأنبياء/57 والباء عليه

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. واليمين في الحلف مُستَعَارٌ من اليد اعتبارا بما يفعله المُعاهِدُ والمُحالف وغيره[2]. وقيل: سمّي الحلف يمينا إمّا لأنّ العادة كانت إذا حلف شخص لآخر جعل يمينه بيمينه فحلف، وقيل: لأنّ الحلف يقوّي الكلام ويؤكّده[3]. ولقد دلّ لفظ (اليمين) على الامتلاك، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾[4]. كما وردت آيات أخرى في مواضع متفرّقة في القرآن الكريم فيها لفظ "يمين" الدّالّ على "اليد اليمنى"[5].

ب ــ الشّمال: بمعنى اليد اليسرى:

قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ . فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾[6]. أي الّذين أُعطُوا كتابهم في شمالهم، والثّانيّة: ماذا لهم وما أعِدّ لهم[7]، وما حالهم وكيف مآلهم؟[8] و الاستفهام لتعظيم المصاب[9].

للسّببيّة أي ضربا بسبب اليمين الذي حلفه قبل وهي على ما تقدّم للاستعانة أو للملابسة". روح المعاني. الألوسيّ. مج12/ج158/23.

1 ـ البقرة/224.

2 ـ ينظر معجم مفردات ألفاظ القرآن. الرّاغب الأصفهانيّ. 614. مادّة (يمن).

3 ـ ينظر روح المعاني. الألوسيّ. مج12/ج158/23.

4 ـ النور/33.

5 ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾. طه/17. وقال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾. طه/69.

قال تعالى: ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا . وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ . فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾. الواقعة/26-28. أصحاب اليمين؛ هم الّذين يأخذون كتبهم بأيمانهم. ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج155/29.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴾. الحاقة/19.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾. الانشقاق/7.

6 ـ الواقعة/41-43.

7 ـ ينظر إعراب القرآن. أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل ابن النّحّاس (ت388هـ). تح: د. زهير غازي زاهد. بيروت. لبنان. عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1/1426هـ/2005م. 923.

8 ـ ينظر صفوة التّفاسير. محمّد عليّ الصّابونيّ. ج292/3.

9 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حين الأندلسيّ. مج209/8.

"فأصحاب الشّمال هم أصحاب المشأمة الّذين سبقت الإشارة إليهم في مطلع السّورة[1]. يُعَذَّبُونَ ﴿ فِي سَمُومٍ ﴾ في هواء شواظ ساخن حارٍّ ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾، وماء متناه في الحرارة لا يُبردُ ولا يُروي، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ أي: في ظلّ الدّخان اللاّفح الخانق، ساخن حارّ لا روح فيه ولا برد[2]. ومثل هذه الآية الّتي يدلّ فيها لفظ "شمال" على "اليد اليسرى" قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾[3].

9 – الحركات الدّالّة على عضو اليد:

إنّ المتأمّل في آيات الذكر الحكيم، ومديم النّظر في معانيه، لا يعدم أن يجد في كلّ مرّة فائدة، وبعد كلّ فائدة عبرة. وأهمّ ما بدا لنا ونحن نبحث عن لفظ "يد" في القرآن الكريم، وعن الدّلالة الّتي ارتبطت به، مواضع فيها إشارات إلى سلوك هذا العضو دون ذكره، في آيات متعدّدة، منها:

أ – قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾[4]. إنّهما سارّه وزوجها إبراهيم عليه السلام إذ جاءه ضيوف فأكرمهم، فلم يلبثوا أن بشّروه بغلام عليم وهم ملائكة مرسلون من الله تعالى[5]. فلمّا سمعت امرأته الخبر أقبلت في

---

1 ـ في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ . الواقعة/9.

2 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج6/ج3465/27، وتفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج160/29 وما بعدها. وقيل: أصحاب الشّمال هم: "الّذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشّمال من موقف الحساب إلى النّار". جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج219/27.

3 ـ الحاقة/25.

4 ـ الذّاريات/29. قال الله تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ . فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾. الذّاريات/24-29.

5 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبري. مج13/ج241/26 وما بعدها.

صرّة، و لم يكن إقبالها إقبالا من مكان إلى مكان، وإنّما هو كقول القائل: أقبل يشتمني[1]، أي أقبلت تصيح في ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ أي صيحة، وقيل: الجماعة أو الشّدّة، كما جرت عادة النّساء حين يسمعن شيئا من أحوالهنّ يصحن صيحة معتادة لهنّ عند الاستحياء أو التّعجّب[2]، والشّاهد: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ واختلف أهل التّأويل في معنى صكّها، والموضع الّذي ضربته من وجهها، وقال بعضهم معنى صكّها وجهها: لَطْمِهَا إيّاه، وقال آخرون: جمعت أصابعها وبسطتها وضربت بها جبهتها تعجّبا[3]، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي كيف ألد وقد كنت في حال الصّبا عقيما لا أحبل؟[4] فقد عجزت وأيست واستبعدت[5].

ب – قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[6]. استبق يوسف عليه السلام وامرأة العزيز باب البيت؛ أمّا يوسف ففارّا من ركوب الفاحشة، وأمّا المرأة فطلبًا لقضاء حاجتها منه الّتي راودته عليها[7]، والشّاهد قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾ فأدركته فتعلّقت بقميصه واجتذبته منه، وقدّته من دبر؛ أي شقّته من خلف لا من قُدّام، لأنّ يوسف كان هو الهارب، وكانت هي الطّالبة.[8] ولا يكون هذا التّعلّق والجذب والشّقّ إلاّ باليد ولا يمكن أن يتحقّق ذلك للمرأة وهي تجري خلفه عليه السلام تريد منعه من الخروج.

---

1 ـ ينظر تفسير البغوي. ابن مسعود البغويّ. 1234.
2 ـ ينظر الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج201/28، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج138/8.
3 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج13/ج243/26-244، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج18/4، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج421/6، تفسير البغوي. ابن مسعود البغويّ. 1234.
4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشري. مج18/4، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج421/6، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج138/8.
5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج10/ج201/28، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج138/8.
6 ـ يوسف/25.
7 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج7/ج222/12-223، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج313/2، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج21/4، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندليّ. مج296/5.
8 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج7/ج222/12- 223، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج313/2، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج21/4، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج296/5.

جـ – قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]. ولّما رجع موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل، رجع أَسِفًا شديد الغضب والتّغيّظ ممّا خلفه فيه قومه؛ وكانوا قد اتّخذوا عجلا جسدا إلها يعبدونه من دون الله. والشّاهد: ﴿ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ ﴾. فلمّا عاينهم وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح لفرط الدّهش وشدّة الضّجر فكسرها، وأخذ برأس أخيه، أي: أمسكه بشعره يجرّه إليه، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بفراغ يديه من إلقاء الألواح لجرّه[2]، وقيل: لّما رمى الألواح انكسرت، ولا يصحّ أنّه رماها رمي كاسر، والظّاهر أنّه ألقاها من يديه، لأنّهما كانتا مشغولتين بها[3]. وحدث ذلك كلّه لموسى عليه السلام لشدّة ما ورد عليه من الأمر الّذي استفزّه وذهب بفطنته وظنّا بأخيه أنّه فرّط في الكفّ[4]، وقيل: إنّه جرّ رأس أخيه إلى نفسه ليساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة[5]، وقيل: ليسرّ إليه أنّه نزل عليه الألواح في مناجاته، وأراد أن يخفيها عن بني إسرائيل[6]. إنّ حركة الإلقاء والأخذ والجرّ من أفعال اليد الّتي تتكرّر في حياة الإنسان، وقد اجتمعت في حال واحدة وكأنّ المشهد ماثل أمامنا تدبّ فيه حياة.

د – قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ

1 ـ الأعراف/150.
2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج6/ج9/76، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/119، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1/551، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج4/393.
3 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج4/393.
4 ـ ينظر الكشّاف. الزّمخشريّ. مج2/119، وتفسير القرآن العظيم. ابن كثير. ج3/225.
5 ـ ينظر تفسير الفخر الرّازي. الرّازي. مج5/ج15/11.
6 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج4/394.

سُلَيۡمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾[1]. لمّا دخلت بلقيس الصّرح حسبته لجّة أو بركة ماء، و"هو أوّل ما بدا لها من المدخل فهو لا محالة ساحة معنية للنّزهة فرشت بزجاج شفّاف وأُجرِي تحته الماء حتى يخاله النّاظر لجّة ماء. وهذا من بديع الصّناعة الّتي اختصّت بها قصور سليمان في ذلك الزّمان، لم تكن معروفة في اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء"[2]، لقد كانت المفاجأة قصراً من البلّور، أقيمت أرضيّته فوق الماء، وظهر كأنّه لجّة[3]. والشّاهد قوله تعالى: ﴿ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا ﴾ أي رفعت بلقيس لباسها وكشفت عن ساقيها حين شمّرت ثيابها لئلاّ تبتلّ بما حسبته ماء، ويجوز أن يكون كشف السّاقين بخلع خفّيها أو نعليها، ويجوز أن يكون بتشمير ثوبها[4]، وكَشْفُ السَّاقِ عادةُ مَنْ كان لابسا فشمّر ثيابه كراهية أن تبتلّ وأراد أن يخوض الماء إلى مقصد له[5]. إنّ حركة اليد بادية في فعل خلع النّعلين أو تشمير الثّوب ورفعه إلى أعلى.

لقد قال سليمان عليه السلام للملكة لمّا تمّت المفاجأة: ﴿ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ ﴾، فوقفت مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب الّتي تعجز البشر[6]، فعلمت أنّ هذا مُلْكا أعزّ من ملكها، وسلطاناً أعزُّ من سلطانها، فرجعت إلى الله تعالى[7] وقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾، فلقد اهتدى قلبها واستنار، وعرفت أنّ الإسلام إنّما هو إسلام لله ربّ العالمين[8].

---

1 ـ النّمل/44.
2 ـ تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج8/ج19/275.
3 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج19/2643.
4 ـ ينظر تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. مج8/ج19/276، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج7/118.
5 ـ ينظر تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج7/76، وروح المعاني. الألوسيّ. مج10/ج19/266، وتفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج7/118.
6 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج19/2643.
7 ـ تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. مج7/118.
8 ـ ينظر في ظلال القرآن. سيد قطب. مج5/ج19/2643.

هـ – قوله تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾[1]. والشّاهد قوله تعالى: ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾، أي جعل سليمان عليه السلام يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حُبًّا لها واستحسانا، وإعجابا بها[2]، وقيل: أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراما منه لها[3]، وقيل: مسح سُوقَها وأعناقَها بالماء بيده[4]. وقال الرّازي: "والغرض من ذلك المسح أمور؛ الأوّل: تشريفا لها وإبانة لعزّها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدوّ، والثّاني: أنّه أراد أن يُظهر أنّه في ضبط السّياسة والملك يتّضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، والثّالث: أنّه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتّى يعلم هل فيها ما يدلّ على المرض"[5]. والمَسْحُ؛ إمرار اليد على الشّيء، كمسح الرّأس من الماء والجبين من الرَّشْحِ[6].

إنّ الّذي يهمّنا في هذا المقام هو هذه الحركة المتنوّعة الواردة في السّياق القرآنيّ من دون ذكر "اليد" آلة اللّمس والعمل، ويُفهم ذلك من الأفعال الّتي ذكرت مثل: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾، ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾، ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾، ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾، ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾.

إنّ أعضاء جسم الإنسان الواردة في القرآن الكريم هي نفسها الأعضاء الّتي ذكرها الإنسان في أعماله الأدبيّة والفنّيّة، ولكنّهما تظلاّن مختلفتين في الموضوع والغرض؛ فبينما

---

1 ـ ص/33. قال تعالى في الآيات السّابقة: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ . إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّٰفِنَٰتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾. ص/30- 32.

2 ـ ينظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطّبريّ. مج12/ج167/23، والكشّاف. الزّمخشريّ. مج374/3، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج380/7، وتفسير النّسفيّ. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. مج1478/3.

3 ـ ينظر الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ. ج195/15، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج380/7.

4 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج68/14. مادّة (مسح)، وتفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسيّ. مج380/7.

5 تفسير الفخر الرّازي. مج9/ج191/26، وينظر تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغيّ. مج222/8.

6 ـ ينظر لسان العرب. ابن منظور. مج68/14. مادّة (مسح).

ترتقي أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم إلى أعلى فترتبط بالخلافة الّتي اختاره الله تعالى لها، وبالدّعوة الإسلاميّة، وبالإيمان والكفر، وبالجنّة والنّار، تظلّ هذه الأعضاء في الأعمال الأدبيّة والفنّيّة عند الإنسان لا تتجاوز الموضوعات الدّنيويّة الآنيّة، ولا تفارق النّزوات النّفسيّة المحدودة.

خاتمـــة

نتائج البحث

نتائج البحث:

لقد تراءى لنا من خلال هذه المطارحة العلميّة عن دلالة أعضاء جسم الإنسان في السّياق القرآنّي أنّ الإنسان هو محور القرآن الكريم؛ لأنّه المعنيّ بحمل الأمانة الّتي عرضها الله تعالى على السّموات والأرض فَأَبَيْنَ أن يحملنها، وحمل الإنسان بكلّ جوارحه وأعضاء جسمه الظّاهرة والباطنة، وأنّ هذه الأعضاء قد خضعت كلّها للغرض العامّ للقرآن الكريم، و لم ترد في المصحف الشّريف مثلما وردت في الأدب البشريّ. ونستطيع أن نوضّح ذلك من خلال النّتائج والملاحظات الّتي توصّلنا إليها، وسأجملها فيما يأتي:

– إنّ القرآن الكريم كلّه دعوة للإنسان بأعضائه وروحه وكيانه كلّه من أجل أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به شيئا.

– إنّ الإنسان هو محور القرآن الكريم؛ فكلّ ما نزل من الآيات من أوّلها إلى آخرها متعلّق به، فما من أمر ولا نهي ولا نداء ولا استفهام، ولا خبر ولا إنشاء إلاّ هو متعلّق بهذا المخلوق، والرّسل والأنبياء والشّرائع السّماويّة كلّها أرسلت إليه، وقصص الأوّلين والآخرين، كي يستفيد منها دروسا وعبرا.

– إنّ معرفة الله تعالى حقّ المعرفة تصلنا إلى معرفة المخلوق، كما أنّ معرفة هذا الأخير بمكوّناته الجسميّة والنّفسيّة تساعدنا على معرفة الخالق سبحانه وتعالى، فإنّ عظمة الكون وعظمة الإنسان من عظمة الله تعالى.

– إنّ لشخصية الإنسان في القرآن الكريم خصائص معينة تميّزه عن شخصيته في غير القرآن الكريم، إنّها خاضعة للغرض الدّينيّ العامّ بعقلها ونفسها وقلبها وكافّة أعضاء جسمها.

– إنّ للإنسان في القرآن الكريم صفات إيجابيّة وأخرى سلبيّة؛ أمّا الإيجابيّة فتتمثّل في اختياره للخلافة، وتمتّعه بالإيمان والعمل، وتفرّده بالعقل لأداء مهمّة الخلافة وحمل الأمانة. وأمّا السّلبيّة، فهي: الضّعف والنّسيان والعجلة والجدل والظّلم والجهل والبخل واليأس

والقنوط والكفر والفجور والكنود والهلع والجزع والوسوسة والغرور والخصام وغيرها من الصّفات السّلبيّة.

– لقد اهتمّ القرآن الكريم بالإنسان من كلّ النّواحي الحسّيّة والمعنويّة، وأشار إلى كلّ ما له علاقة بمهمّة الخلافة الّتي حمّله الله تعالى إيّاها.

– إنّ أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم، هي نفسها في الأعمال الأدبيّة الشّعريّة والنّثريّة عند البشر، ولكنّها تختلف عنها في موضوعها الأساسيّ الّذي تتعلّق به، وفي وظيفتها؛ ففي كتاب الله تعالى لها صلة برسالة الإسلام وبالدّعوة المحمّديّة، ولا تخرج إلى الموضوعات الّتي ألف البشر خوضها.

– إنّ القلب – على سبيل الذكر لا الحصر – في أغلب أشعار البشر عاشق امرأة، هائم بها، يعذّبه الفراق. وأمّا في القرآن الكريم، فهو قلب مؤمن بالله تعالى قانت، أو قلب عاص يشوبه الشّكّ والكبر والعناد، وهو موطن الإيمان واليقين الصّحيح والإخلاص، أو موطن الكفر والعناد والنّفاق. والأمر نفسه بالنّسبة لسائر أعضاء جسم الإنسان الواردة في القرآن الكريم فقد وردت لصيقة بالغرض الدّينيّ.

– إنّ أكثر الأعضاء ذكرا في القرآن الكريم والأكثر بروزا؛ النّفس (295 مرّة)، والقلب (132 مرّة)، واليد (110 مرّات)، والوجه (72 مرّة) لأنّها هي الإنسان بكامل كيانه وإليها جميعا تعود الأفعال الدّاخليّة والنّوايا الحسنة والسّيئة؛ فالوجه أشرف ما في الإنسان والعلامة الخصوصيّة لكلّ فرد، واليد رمز العمل سواء قامت به اليد أم قام عضو آخر، فإنّه يقال: هذا بما كسبت يداك، وإن كذب الإنسان وانجرّ عن كذبه أمر ضارّ. ومهما تعدّدت دلالات هذه الأعضاء إلاّ أنّها ظلّت مرتبطة بدلالتها العامّة الّتي يتعلّق بها الموضوع العامّ للقرآن الكريم.

– ولقد ذكرت أعضاء أخرى مرّة واحدة أو مرّتين أو مرّات قليلة كالخدّ والجبين والجبهة والأصابع والكفّ والأنامل؛ إلاّ أنّها كشفت عن بعض الحالات النّفسيّة الإنسانيّة مثل التّكبّر والبخل والكفر والنّدم والغيظ ببعض الحركات.

– ظلّت كلّ الدّلالات مرتبطة ضمن علاقات متناسقة، لتعود في الأصل إلى تكوين الإنسان الكامل في أعضائه، وقد اختاره الله تعالى لحمل الأمانة، والتّوحيد، والعبادة، وتلقي التّرغيب والتّرهيب، والجزاء والعقاب.

– إنّ القرآن الكريم، كلام الله المعجز، المنزّل على عبده محمّد ﷺ نظمه خاصّ لا يماثله فيه نصّ آخر؛ طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، محكمة السّبك في قالب فريد.

– إنّ طريقة استعمال هذه التّراكيب مع أخواتها في الأغراض الّتي يتكلّم عنها القرآن الكريم، ذات دلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم.

– إنّ المتأمّل في حروف القرآن الكريم وكلماته، لا يجد شيئا خارجا عن المألوف المتداول عند العرب قديما وحديثا، ولكن عند تلاوة الآيات الكريمة يشعر القاري أنّ للعبارة القرآنيّة كيانا خاصّا بُنِيَت عليه تراكيبه.

– إنّ نظم القرآن البديع الفريد بهر العرب بحسن الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتّساقها في التّراكيب.

– إنّ للسّياق اللّغويّ والسّياق غير اللّغويّ أثرا كبيرا على مقصود دلالة الكلمة؛ فلقد لاحظنا أن دلالات أعضاء جسم الإنسان قد تتعدّد من خلال الجو العام الّذي يحيط بالكلمة وما يكتنفها من قرائن وعلامات.

– ومنه فإنّ الكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين تماما دون أن تختلف الكلمة في بنائها الدّاخليّ، وإنّما تغيّر السّياق والقرائن المحيطة؛ أي علاقة الكلمات مع الكلمات الأخرى حين وضعها في سياقات مختلفة، أو حين تسييق الكلمة.

– إنّ السّياق القرآنيّ هو عامل مهمّ في فهم دلالات أعضاء جسم الإنسان في القرآن الكريم عندما يكون مؤشّرا في صناعة الظّهور اللّفظيّ للكلمة أو الجملة.

– إنّ تناول المفردة القرآنيّة بالدّرس والتّحليل، إنّما تمليه أهمّية هذا المكوّن الصّغير داخل الجزء الكبير الّذي هو البناء القرآني عموما.

– إنّ المفردة القرآنيّة ترد ضمن نصّ لغويّ، يجب أن نعي أبعاده ومارميه، فهو نصّ إلهيّ ممّا يعني أنّ استخدامه للّغة لن يوازي الاستخدام البشريّ، أي إنّ له استخدامه اللّغويّ الخاصّ به.

– إنّ البحث في دلالة الألفاظ القرآنيّة على جانب كبير من الأهمّية، وتتوقّف تلك الأهمّية على تحديد معاني تلك الألفاظ من أحكام شرعيّة بين الحلال والحرام، والواجب والمندوب، والمستحبّ والمكروه.

– إنّ الكلمة أصغر وحدة من وحدات المعنى، وهي الّتي تتكوّن منها الوحدات الأخرى كالعبارة والجملة. والكلمة تتمتّع بقوّة خفيّة تؤثّر في نفوسنا، وتعدّل من سلوكنا بسبب ما ارتبطت به من صبغة دينيّة، وما اكتسبته من مترلة اجتماعيّة.

– إنّ المفردة القرآنيّة فريدة في مضمونها، وموضوعها يتعلّق بغرض السّورة الدّينيّ أو بأغراضها المختلفة، ومهما أوتي الدّارس المعاصر من قدرة على الغوص فيها لبحث معانيها ودلالاتها، فهو ليس في غِنًى عمّا قاله العلماء المسلمون القدامى، ومهما كان للمفسّر المعاصر من وسائل للبحث والتّفسير، فلا غنى له عمّا قاله المفسّرون السّابقون وعلماء الأصول والمحدّثون والنّحاة والبلاغيّون.

– إنّ السّياقات اللّغويّة المختلفة الّتي وردت فيها الألفاظ الدّالّة على أعضاء جسم الإنسان هي الّتي حدّدت الدّلالات المتنوّعة للّفظ.

– إنّ السّياق القرآنيّ عامل مهمّ في فهم القرآن الكريم عندما يكون مؤثّرا في صناعة الظّهور اللّفظيّ للكلمة أو الجملة، وإنّ المسلمين الأوّلين استطاعوا أن يستفيدوا من هـــذا العامل في فهم أو إفهام الآية القرآنيّة، وأدركوا أهمّيته في تحديد المعنى وتوجيه الدّلالات.

– إنّ القرآن الكريم لا تنتهي أسراره وعجائبه ولا تتوقّف اجتهادات العلماء لفهم آياته، والغوص عميقا لاستخراج دُرره.

– إنّ كلّ من يقرأ القرآن الكريم ويدرس موضوعاته ومعانيه، لا يمكنه بأيّ حال من الأحوال أن يستغني عن أعمال العلماء السّابقين، والسّلف الصّالح.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1 - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. تقي الدّين بن دقيق العيد. تح: أحمد شاكر. القاهرة. ج. م. ع. عالم الكتب. ط2. 1407هـ.

2 - أحكام القرآن. أبو يكر محمّد بن عبد الله المعروف بابن العربيّ (ت543هـ). تح: عبد الرزّاق المهدي. بيروت. لبنان. دار الكتاب العربيّ. ط1. 1426هـ/2005م.

3 - إحياء علوم الدين. أبو حامد الغزالي (ت505هـ). تح: سيّد عمران. القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث (طبع. نشر. توزيع). (د.ط). 1425هـ/2004م.

4 – أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانيّة في ضوء القرآن الكريم. عودة عبد عودة عبد الله. عمّان. الأردن. دار النّفائس للنّشر والتوزيع. ط1. 1425هـ/2005م.

5 - أساس البلاغة. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري (ت538هـ). بيروت. لبنان. دار صادر. ط1. 1412هـ/1992م.

6 - إشارة اللّغة ودلالة الكلام. موريس أبو ناضر. بيروت. لبنان. منشورات وتوزيع مختارات. ط1. 1990.

7 - أصول تراثيّة في نظريّة الحقول الدّلاليّة. أحمد عزّوز. دمشق. سوريا. منشورات اتّحاد الكتّاب العرب. (د. ط). 2002م.

8 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشّنقيطيّ (ت1393هـ). القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث. (د.ط). 1426هـ/2006م.

9 - إعراب القرآن. أبو جعفر أحمد بن محمّد بن إسماعيل ابن النّحّاس (ت388ه). تح: د. زهير غازي زاهد. بيروت. لبنان. عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1/1426ه/ 2005م.

10 - أعلام الموقعين عن ربّ العالمين. ابن قيم الجوزيّة. مراجعة وتعليق: طه عبد الرّؤوف سعد. القاهرة. مصر. مكتبة ومطبعة الحاج عبد السّلام بن محمّد بن شقرون. شركة الطّباعة الفنّيّة المتّحدة. (د.ط). 1968.

11 - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان. شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزّرعيّ الدّمشقيّ المعروف بابن قيم الجوزية (ت 751ه). تح: مجدي فتحي السّيّد. القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث (طبع. نشر. توزيع). (د. ط). 1425ه/2004م.

12 - الإبداع البيانيّ في القرآن الكريم. محمّد علي الصّابونيّ. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة. ط1. 1426ه/2006م.

13 - الإتقان في علوم القرآن. جلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطيّ. تح: مصطفى ديب البغا. بيروت. لبنان. دار ابن كثير. ط3. 1416ه.

14 - الإشارات الجسميّة؛ دراسة لغويّة لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التّواصل. كريم زكي حسام الدّين. ج. م. ع. دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 2001. القاهرة.

15 - الإنسان في القرآن الكريم. عبّاس محمّد العقّاد. الجزائر. منشورات دار رحاب. (د. ط) و(د. ت).

16 - البحر المحيط في أصول الفقه. بدر الدّين الزّركشيّ. تح: عمر الأشقر. وزارة الشّؤون الإسلاميّة في الكويت. ط2. 1413ه.

17 - البرهان في علوم القرآن. بدر الدّين بن محمّد الزّركشي. تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم. بيروت. لبنان. دار الجيل. ط. 1408ه.

18 - البنية التّركيبيّة للحدث اللّسانيّ. عبد الحليم بن عيسى. منشورات مختبر اللّغة العربيّة والاتّصال. جامعة وهران. السّانيا. وهران. الجزائر. دار الأديب. (د. ط). 2006م.

19 - البيان بلا لسان؛ دراسة في لغة الجسد. مهدي أسعد عرّار. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1428هـ. 2007م.

20 - البيان والتّبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، المعروف بالجاحظ. بيروت. لبنان. دار الفكر للجميع ودار إحياء التّراث العربيّ. مج1/ج1. ط1968.

21 - التّأويل اللّغويّ في القرآن الكريم؛ دراسة دلاليّة. حسين حامد الصّالح. بيروت. لبنان. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1426هـ/2005م.

22 - التبيان في أقسام القرآن. ابن قيم الجوزية (ت751هـ). اعتنى به: أبو صهيب الكرمي. عمّان. الأردن. بيت الأفكار الدّوليّة. (د. ط). 2004م.

23 - التّحليل الدّلالي، إجراءاته ومناهجه. كريم زكي حسام الدّين. القاهرة. ج. م. ع. دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ج1. 2000.

24 - التّحليل اللّغويّ في ضوء علم الدّلالة. . محمود عكاشة. القاهرة. ج. م. ع. دار النّشر للجامعات. ط1. 1426هـ. 2005.

25 - التسهيل لعلوم التنزيل. أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي (ت741هـ). بيروت. لبنان. دار الكتب العلمية. ط1. 1995م. 1415هـ.

26 - التّصوير الفنّي في القرآن. سيد قطب. بيروت. لبنان. دار الشّروق. ط7. 1402هـ/1982م.

27 - التّفسير الوسيط. وهبة الزّحيليّ. دمشق. سورية. دار الفكر. ط2. 1427هـ/2006م.

28 - التّفكير اللّسانيّ في رسائل إخوان الصّفا. عبد الرّحمن مِشَنْتَلْ. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة الآداب. ط1. 1426هـ. 2005م.

29 - الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ (ت671هـ/1273م). بيروت. لبنان. دار إحياء التّراث العربيّ. (د. ط) (د. ت).

30 - الجسم البشري. محمد فائز المط. عين مليلة. الجزائر. دار الهدى للطّباعة ولنّشر والتّوزيع. (د. ط) (د. ت).
31 - الجواهر الحسان في تفسير القرآن أو تفسير الثّعالبيّ. عبد الرحمن بن محمّد بن مخلوف أبو زيد الثّعالبيّ المالكيّ (ت875ه). تح:علي محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود وعبد الفتّاح أبو سنّة. بيروت. لبنان. دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي. ط1. /1418ه/1997م.
32 - الخصائص. أبو عثمان بن جنّي. تحقيق محمد علي النّجّار. بيروت. لبنان. دار الكتاب العربيّ. (د. ط) (د. ت).
33 - الدّر المنثور في التفسير بالمأثور. السيّوطي. القاهرة. مصر. مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية. ط1. 2003.
34 - الدّراسات اللّغويّة عند العرب إلى نهاية القرن الثّالث. محمد حسين آل ياسين. بيروت. لبنان. منشورات دار مكتبة الحياة. ط1. 1400ه/1980م.
35 - الدّلالة الإيحائيّة في الصّيغة الإفراديّة. صفيّة مطهري. دمشق. سوريا. منشورات اتّحاد الكتّاب العرب. (د. ط). 2003م.
36 - دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجانيّ (ت471ه). تح: محمود محمّد شاكر. القاهرة. مصر. مكتبة الخانجي للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). (د. ت).
37 - الشّامل؛ معجم في علوم اللّغة العربيّة ومصطلحاتها. محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي. بيروت. لبنان. دار العودة. ط1. 1985.
38 - الضّوء واللّون في القرآن الكريم؛ (الإعجاز الضّوئيّ واللّونيّ). نذير حمدان. دمشق. سورية. بيروت. لبنان. دار ابن كثير. ط1. 1422ه/2002م.
39 - العلاقات الدّلاليّة والتّراث البلاغيّ العربي. عبد الواحد حسن الشّيخ. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنّيّة. ط1. 1419ه/1999م.

40 - القاموس المحيط. أبو طاهر مجد الدّين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم بن عمر الشّيرازيّ الفيروزآبادي (ت817ه). رتّبه وفصّله: حسّان عبد المنّان. عمّان. الأردن. بيت الأفكار الدّوليّة. (د. ط). 2004م.

41 - القرآن وقضايا الإنسان. عائشة عبد الرّحمن (بنت الشّاطيء). القاهرة. ج. م. ع. دار المعارف. بدون طبعة. بدون تاريخ.

42 - الكتاب. عمرو بن عثمان بن قنبز الملقّب ب"سيبويه". علّق عليه ووضع حواشيه وفهارسه، إميل بديع يعقوب. بيروت. لبنان. منشورات محمّد علي بيضون. دار الكتب العلميّة. مج1. ط1. 1999م.

43 - الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ الخوارزميّ (538ه). بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط) (د. ت).

44 - اللّغة واللّون. أحمد مختار عمر. القاهرة. ج. م. ع. عالم الكتب. ط2. 1997.

45 - اللّغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين. نادية رمضان النّجّار. الأسكندريّة. ج. م. ع. دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر. (د.ت). (د. ط).

46 - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمّد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسي (ت 546ه). تح: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1422ه/2001م.

47 - المدارس اللّسانيّة؛ أعلامها، مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التّواصليّ. أحمد عزّوز. وهران. الجزائر. دار آل رضوان. ط2. 2008.

48 – المدخل إلى مصادر اللّغة العربيّة. سعيد حين بحيرى. القاهرة. ج. م. ع. مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع. ط1. 1421ه/2001م.

49 - المصباح المنير. أحمد بن محمد بن علي الفيومي. تح: يوسف الشّيخ محمّد. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة. (د. ط). 1425ه/2004م.

50 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمّد فؤاد عبد الباقي. بيروت. لبنان. دار الجيل. (د.ط). (د.ت).

51 - المعجم الوسيط. إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطيّة الصّوالحيّ، محمد خلف الله أحمد. استانبول. تركيا. المكتبة الإسلاميّة. ج2. (د. ط). (د. ت).

52 - المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزّيات، وحامد عبد القادر، ومحمّد علي النّجّار. استانبول. تركيا. المكتبة الإسلاميّة. ج1. (د. ط). (د. ت).

53 - المعرفة في منهج القرآن. صابر طعيمة. بيروت. لبنان. دار الجيل. (د. ط). (د. ت).

54 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل أو تفسير البيضاوي. ناصر الدّين أبو سعيد عبد الله أبو عمر بن محمّد الشّيرازي البيضاويّ (ت791ه). تح: عبد القادر عرفات العشّا حسونة. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 1426ه/2005م.

55 - بدائع التفسير. ابن قيم الجوزية (ت751ه). جمعه وخرّج وراجعه: يسري السّيّد محمّد وصالح أحمد الشّامي. المملكة العربيّة والسّعوديّة. دار ابن الجوزي للنّشر والتّوزيع. ط1. 1427ه.

56 - بدائع الفوائد. ابن قيّم الجوزية. تح: صالح اللّحّام وخلدون خالد. عمّان الأردن. الدّار العثمانيّة ودار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. بيروت. لبنان. ط1. 1426ه/2005م.

57 - بلاغة الصّورة القرآنيّة؛ (الجماليّات – التّجليّات). طارق سعد شبي. القاهرة. جمهوريّة مصر العربيّة. دار البراق. (د. ط). (د. ت).

58 - تاج العروس من جواهر القاموس. محبّ الدّين أبو الفيض السّيّد محمّد مرتضى الزّبيديّ (ت1305ه). بيروت. لبنان. منشورات دار مكتبة الحياة. ط1. 1306ه.

59 - تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي. تح: عدل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط2. 1428ه/2007م.

60 - تفسير البغويّ. أبو محمّد الحسين بن مسعود البغويّ (ت516ه). بيروت. لبنان. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1423ه/2002م.

61 - تفسير التّحرير والتّنوير. الطّاهر بن عاشور. تونس. دار سحنون للنّشر والتّوزيع. (د. ط). (د. ت).

62 - تفسير الفخر الرازي أو التّفسير الكبير ومفاتيح الغيب. محمّد الرّازي فخر الدّين (ت 604ه). بيروت. لبنان. دار الفكر. ط1. 1426ه/2005م.

63 - تفسير القرآن العظيم. الحافظ عماد الدّين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشيّ الدّمشقيّ (ت774ه). بيروت لبنان. دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط6. 1404ه/1984م.

64 - تفسير المراغي. أحمد مصطفى المراغي. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1418ه/1998م.

65 - تفسير النّسفيّ، المسمّى بمدارك التّنزيل وحقائق التّأويل. عبد الله بن أحمد بن محمود النّسفيّ. راجعه: إبراهيم محمّد رمضان (ت701ه). بيروت. لبنان. دار القلم. ط1. 1408ه/1989م.

66 - تفسير حدائق الرّوح والرّيحان في روابي علوم القرآن. محمّد الأمين بن عبد الله الأُرَمِيّ العلويّ الهرَرِيّ الشّافعيّ. بيروت. لبنان. دار طوق النّجاة. ط1. 1421ه/2001م.

67 - تفسير سورة البقرة. أمير عبد العزيز. عمّان. الأردن. دار الفرقان للنّشر والتّوزيع. لبنان. بيروت. ومؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1/1405ه/1985م.

68 - تهذيب سيرة ابن هشام. عبد السّلام هارون. بيروت. لبنان. مؤسسة الرّسالة. ط15. 1406ه/1986م.

69 - تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلاّم المنّان. عبد الرّحمن بن ناصر السّعدي. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة الصّفا. ط1. 1425ه/2004م.

70 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت310ه). بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 1426ه/2005م.

71 - دراسات في فقه اللغة. صبحي الصّالح. بيروت. لبنان. دار العلم للملايين. ط15. سبتمبر2002م.

72 - دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ. محمّد ياس خضر الدُّوريّ. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1427ه/2006م.

73 - دلالة الألفاظ. محمود أبو المعاطي أحمد عكاشة. ج. م. ع. مكتبة الأنجلو المصريّة. (د. ط). 2002.

74 - دور الكلمة في اللّغة. ستيفن أولمان. ترجمة: د. كمال بشر. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة الشّباب. (د. ط). 1975.

75 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني. أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمود لألوسيّ البغداديّ. (ت127ه). تحقيق وتخريج: السّيد محمّد السّيّد وسيّد إبراهيم عمران. القاهرة. ج. م. ع. دار الحديث (طبع. نشر. توزيع). (د. ط) 1426ه/2005م.

76 - زاد المسير في علم التفسير. أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغداديّ (ت597ه). بيروت لبنان. المكتب الإسلاميّ. ط3. 1404ه/1984م.

77 - زاد المعاد في هدي خير العباد. شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزّرعيّ الدّمشقيّ، المعروف بابن قيم الجوزية (ت751ه). تح: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. بيروت. لبنان. مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط6. 1404ه/1984م.

78 - شرح العقيدة الطحاوية. القاضي علي بن علي بن محمّد بن أبي العزّ الدّمشقيّ. (ت792ه). تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التّركيّ، وشعيب الأرنؤوطيّ. بيروت. لبنان. مؤسّسة الرّسالة. (د. ط). (د. ت).

79- شرح العقيدة الطّحاويّة. ابن أبي العزّ. تح: جماعة من العلماء. وخرّج أحاديثها: محمّد ناصر الدّين الألبانيّ. بيروت. لبنان. المكتب الإسلاميّ. ط 5. 1399ه.

80 - شرح مواهب الفتّاح على تلخيص المفتاح. ابن يعقوب المغربيّ (ت1128ه). تح: عبد الحميد هنداوي. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة. ط1. 1426ه/2006م.

81 - صفوة التفاسير. محمد علي الصابوني. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 1419ه/1998م.

82 - طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحرّاني وابن قيم الجوزية. إعداد عمر أحمد الراوي. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط2. 1427ه/2006م.

83 - علم الدّلالة العربيّ ، النّظريّة والتّطبيق، دراسة تاريخيّة، تأصيليّة، نقديّة. فايز الدّاية. بيروت. لبنان دار الفكر المعاصر، و دمشق. سورية. دار الفكر. ط2. 1966م.

84 - علم الدّلالة بين النّظر والتّطبيق. أحمد نعِيم الكَراعين. بيروت. لبنان. المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع. ط1. 1993م.

85 - علم الدّلالة. بيار غيرو. ترجمة: أنطوان أبو زيد. بيروت. لبنان. منشورات عويدات. ط1. 1986.

86 - علم الدّلالة. د. أحمد مختار عمر. القاهرة. مصر. عالم الكتب. ط5. 1998م.

87 - علم الدّلالة. كلود جرمان وريمون لوبلون. ترجمة: نور الهدى لوشن. بنغازي. ليبيا. منشورات جامعة قان يونس. ط1. 1997م.

88 - علم الدّلالة؛ دراسة نظريّة وتطبيقيّة. فريد عوض حيدر. القاهرة. ج.م.ع. النّاشر مكتبة الآداب. ط1. 1426ه/2005.

89 - علم الدّلالة؛ دراسة وتطبيق. نور الهدى لوشن. الزاريطة. الأسكندريّة. ج. م. ع. المكتب الجامعيّ الحديث.

90 - علم اللّغة، مقدّمة للقاريء العربيّ. محمود السّعران. بيروت. لبنان. دار النّهضة العربيّة. (د. ط). (د. ت).

91 - عوامل التّطوّر اللّغويّ؛ دراسة في نموّ وتطوّر الثّروة اللّغويّة. أحمد حمّاد عبد الرّحمن. بيروت. لبنان. دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط9. 1983.

92 - غرائس الأساس. ابن حجر العسقلاني (ت 852ه). تح: توفيق محمّد شاهين. القاهرة. ج. م. ع. مكتبة وهبة. ط1. 1411ه/1990.

93 - فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير. محمّد بن عليّ الشوكاني (1173- 1250ه)، (1760 - 1834م). بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر. (د. ط). (د. ت).

94 - فصول في علم اللّغة العام. محمّد على عبد الكريم الرُّوَيني. بيروت. لبنان. عالم الكتب للطّباعة والنّشر والتوزيع. ط1. 2002م.

95 - فقه اللّغة وخصائص العربيّة. محمّد المبارك. ط7. 1971. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 1426ه/2005م.

96 - في ظلال القرآن. سيد قطب. بيروت. لبنان. دار الشّروق. ط9. 1400ه/1980م.

97 - كتاب أسباب النّزول. أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النّيسابوريّ. اعتنى به وليد الزّكري. صيدا. بيروت. لبنان. المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر. (د. ط). 1424ه/2003م.

98 - كتاب التّعريفات. عليّ بن محمّد الشّريف الجرجانيّ الحسينيّ الحنفيّ. (ت816ه). تح: محمّد عبد الرّحمن المرعشلي. بيروت. لبنان. دار النّفائس للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1424ه/2003م.

99 - كتاب الصّناعتين. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. تح: مفيد قميحة. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط2. 1404ه/1984م.

100 - كتاب العين (مرتّب على حروف المعجم). الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170ه). ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 1424ه/2004م.

101 - كتاب الفقه على المذاهب الأربعة. عبد الرحمن الجزيري. بيروت. لبنان. دار إحياء التراث العربي. ج1. ط3. (د. ت).

102 - لباب النّقول وأسباب النّزول. عبد الرّحمن بن أبي بكر بن محمّد جلال الدّين السّيوطي (ت911ه). الجزائر. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب وتونس. الدّار التّونسيّة للنّشر. ط3. ماي 1404ه/1984م.

103 - لسان العرب . أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقيّ المصريّ (ت 711ه). بيروت. لبنان. دار صادر للطّباعة والنّشر. ط1. 2000م.

104 - لمحات نفسيّة في القرآن الكريم. عبد الحميد محمّد الهاشميّ. عن دعوة الحقّ. سلسلة شهريّة. العدد:11. السّنة الثّانيّة. 1406ه. صفر.

105 - مباحث لسانيّة في ظواهر قرآنيّة. مهدي أسعد عرّار. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. ط1. 2008.

106 - محاسن التأويل. محمد جمال الدين القاسمي (1283ه - 1332ه)، (1866م - 1914م). بدون ذكر البلد. دار إحياء الكتب العربيّة. عيسى البابي الحلبيّ وشركاه. تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي. ط1. 1376ه -1957م.

107 - مختار الصحاح. الرازي. بيروت. لبنان. دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 1983.

108 - مدخل إلى علم اللّغة. محمود فهمي حجازي. القاهرة. مصر. دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع. (د. ط). 1998.

109 - مشكل إعراب القرآن ومعانيه. أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت207ه). تح: محمّد بن عيد الشّعبانيّ. طنطا. ج. م. ع. دار الصّحابة للتّراث. ط1. 1427ه/2006م.

110 - معارج القدس في معرفة مدارج النفس. أبو حامد الغزالي. مطبعة الميناء العراقي. (د. ط). (د. ت).

111 - معجم الصحاح (مرتّب ترتيبا ألفبائيّا وفق أوائل الحروف). إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (ت390ه أو 400ه). اعتنى به مأمون شيحا. بيروت. لبنان. دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 1428ه/2007م.

112 - معجم المقاييس في اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت395ه). تح: شهاب الدّين أبو عمرو. بيروت. لبنان. دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط2. 1418ه/1998.

113 - معجم مفردات ألفاظ القرآن. ابو القاسم الحسين بين محمّد بن المفضّل المعروف بالرّاغب الأصفهانيّ. ضبطه وصحّحه وخرّج آياته وشواهده لإبراهيم شمس الدّين. بيروت. لبنان. دار الكتب العلميّة. منشورات محمّد علي بيضون. (د. ط). 1425ه/2004م.

114 - مفهوم الإنسان في القرآن الكريم والحديث الشّريف. حمد بوشلطة. بيروت. لبنان. منشورات الحلبيّ الحقوقيّة. ط1. 2007م.

115 - مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة. محمد علي الجوزو. بيروت. لبنان. دار العلم للملايين. ط1. 1980م.

116 - منهج الإسلام في تزكية النّفوس. أنس أحمد كرزون. بيروت. لبنان. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. ط1. 1428ه /2007م.

117 - نظريّة الحقوق الدّلاليّة؛ دراسة في التّأسيس والتّطبيق. أحمد عزّوز. رسالة دكتوراه. جامعة وهران. إشراف: أ.د. عبد الكريم بكري. والمشرف المساعد: مختار حبّار. (مخطوط).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الإهداء

كلمة شكر

مقدّمة: ..... 3 - 9

مدخل: أسماء جسم الإنسان في الدّلالة السّياقيّة 10- 53

أوّلا: - أصل الإنسان: 12

ثانيّا: - ألفاظ "البشر" و"الإنسان" و"النّاس" و"الإنس" في القرآن الكريم12

1 - البشر: 12

2 - الإنسان: 14

3 - النّاس: 16

4 – الإنس: 16

ثالثا: - جسم الإنسان في القرآن الكريم: 19

رابعا: - تعريف "الجسد" و"الجسم" و"البدن": 20

1 – الجسد: 20

2 – الجسم: 21

3 – البدن: 21

خامسا: – تعريف الدّلالة 26

1 - ماهية الدّلالة لغة: 27

2 - ماهية الدّلالة وعلم الدّلالة اصطلاحا: 27

3 - موضوع علم الدّلالة: 30

4 - أنواع الدّلالة: 32

5 - علاقة علم الدّلالة بالمستويات اللّغويّة والعلوم الأخرى: 33

أ - الدّلالة الصّوتيّة: 34

ب - الدّلالة الصّرفيّة: 35

ج – الدّلالة النّحويّة: 35
د – الدّلالة السّياقيّة: 36
6 – العلاقة ما بين الدّال بالمدلول في علم الدّلالة: 44
7 – علاقة اللّفظ بالمعنى: 45
8 – أهمية علم الدّلالة: 49
9 – المفردة القرآنيّة: 51

الباب الأوّل: أسماء الأعضاء غير الظّاهرة في السّياق القرآنيّ ..... 54 - 214

الفصل الأوّل: القلوب البيضاء في السّياق القرآنيّ ..... 55 - 116
أوّلا: إحصاء لفظ "قلب" في القرآن الكريم: 57
ثانيّا: تعريف القلب: لغة واصطلاحا: 57
ثالثا: معاني القلب في القرآن: 64
1 – القلب بمعنى المضغة: 64
2 – القلب بمعنى العقل: 64
3 – بمعنى الرّوح: 65
رابعا: الألفاظ المرادفة للفظ "قلب" في القرآن: 66
1 – الفؤاد: 66
2 – الصدر: 69
3 – العين: 72
خامسا: أقسام القلب في القرآن: 72
1 – تقسيم الرّسول ﷺ : 73
2 – تقسيم الصّحابة رضي الله عنهم: 73
3 – تقسيم ابن قيّم الجوزيّة: 74
أ – القلب الصّحيح: 74

ب – القلب المريض: 74
جـ – القلب الميّت: 75
سادسا: مظاهر القلوب البيضاء صفاتها:..... 75
1 – قلب الرّسول ﷺ القلب المستقبل القرآن:..... 76
2 – صفات القلوب البيضاء ودلالاتها: 83
أ – القلب السّليم: 83
ب – القلب المنيب: 83
جـ – القلب المهديّ: 84
د – القلب المربوط عليه:..... 85
هـ – القلب التّقي:..... 87
و – القلب العاقل: 89
ز – القلب المطمئن للإيمان: 91
ح – القلب الوجل: 95
ط – القلب المُخْبِتُ: 98
ي – القلب السّاكن:..... 99
ك – القلب اللّين: 101
ل – القلب الخاشع:..... 102
م – قلب رؤوف رحيم ورهبانيّ: 103
ن – القلوب الّتي ألّف الله بينها: 105
س – قلوب الخير أو الخيّرة:..... 109
ع – القلب الطّاهر: 110
ف – القلب الحيّ: 112
ص – القلب المؤمن: 114

الفصل الثّاني: القلوب السّوداء في السّياق القرآنيّ 117- 162
أوّلا: القلب المريض: 118
ثانيّا: القلب المختوم عليه: 126
ثالثا: القلب المطبوع عليه: 131
رابعا: القلب القاسي: 140
خامسا: القلب المكنون: 147
سادسا: القلب الّذي فيه الرعب والخوف: 151
سابعا: القلب الأعمى: 155
ثامنا: القلب الغليظ: 156
تاسعا: القلب الّذي شدّ الله عليه: 157
عاشرا: القلب لدى الحناجر: 159
حادي عشر: القلب الواجف الخافق المضطرب: 162

الفصل الثّالث: أقسام النّفس ودلالاتها في السّياق القرآنيّ 163-214
أوّلا: إحصاء لفظ "نفس" في القرآن الكريم: 165
ثانيّا: تعريف لفظ "نفس" وتحديد معانيه: لغة واصطلاحا: 166
ثالثا: أنواع النّفس في القرآن: 168
1 - النَّفْسُ المُلْهَمَةُ: 169
2 - النَّفْسُ الأَمَّارَةُ: 170
3 - النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ: 171
4 - النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ: 173
5 - النَّفْسُ الرَّاضِيَّةُ: 174
6 - النَّفْسُ المَرْضِيَّةُ: 174
رابعا: دلالات "النّفس" في القرآن الكريم: 175
1 - النّفس بمعنى الذّات الإلهيّة: 175

2 – النّفس بمعنى العقوبة: 176
3 – النّفس بمعنى الغيب: 177
4 – النّفس بمعنى العِنْد: 178
5 – النّفس بمعنى الإنسان: 179
6 – النّفس بمعنى آدم عليه السّلام: 182
7 – النّفس بمعنى الرّوح: 183
8 – النّفس بمعنى العقل الّذي به تمييز الإنسان عن الحيوان: 185
9 – النّفس بمعنى القلب: 186
10 – النّفس بمعنى قوى الخير والشّرّ في الإنسان: 188
11 – النّفس بمعنى الأخ: 189
12 – النّفس بمعنى ضمير الإنسان وطويّته وباطنه ونجواه: 189
13 – النّفس بمعنى الجوانب المكتسبة من الشّخصية الإنسانيّة: 190
خامسا: نماذج لمواقف نفسيّة إنسانيّة في القرآن الكريم: 190
سادسا: مميّزات القرآن في هذه المواقف : 213

الباب الثّاني: أسماء الأعضاء الظّاهرة في السّياق القرآنيّ 215-381

الفصل الأوّل: ملامح الوجه ودلالاتها في السّياق القرآنيّ 216-258
أوّلا: إحصاء لفظ "وجه" في القرآن الكريم: 217
ثانيّا: تعريف لفظ "وجه": 218
ثالثا: لفظ "وجه" في السّياق القرآنيّ: 219
1 – إسلام "الوجه" لله تعالى: 219
2 – وجه الرّسول ﷺ : 221
أ – تقلّب وجه الرّسول ﷺ في السّماء وتوجيهه إلى البيت الحرام: 221
ب – إسلام وجه الرّسول ﷺ لله تعالى: 223

ج – إقامة "وجه" الرّسول ﷺ للدّين حنيفا:..... 223
3 – وجه يعقوب عليه السلام : 225
4 – وجه امرأة عمران عليهما السّلام: 226
5 – حقيقة البرّ:.....227
6 – علامة وجوه المؤمنين:.....228
7 – موقع الوجه في العبادة:.....229
8 – الوجه في النعيم والعذاب:.....230
أ – الوجه في النّعيم:..... 230
❁ وجوه لا قتر عليها ولا ذلّة 231
❁ وجوه ناضرة وناظرة:..... 231
❁ وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة: 232
❁ وجوه ناعمة راضيّة:..... 233
❁ وجوه منعّمة: 233
❁ وجوه بيضاء: 234
ب – الوجه في العذاب: 236
❁ وجوه تضربها الملائكة:..... 236
❁ وجوه تغشاها قطع من اللّيل مظلما: 237
❁ وجوه تغشاها النّار من كلّ جانب: 238
❁ وجوه طمست معالمها: 239
❁ وجوه يحشر أصحابها عميّا وبكما وصمّا في النّار: .. 241
❁ وجوه يحشر أصحابها عليها:..... 242
❁ وجوه تشوى بماء كالمهل:..... 243
❁ وجوه لا تكفّ النّار عنها: 244
❁ وجوه تلفحها النّار: 245

❁ وجوه كبّت في النّار: 246
❁ وجوه تقلّب في النّار: 246
❁ وجوه تسحب في النّار: 247
❁ وجوه سِيئت لّما رأت وعد الله: 248
❁ وجوه باسرة: 249
❁ وجوه عليها غبرة ترهقها قترة: 249
❁ وجوه خاشعة عاملة ناصبة: 250
❁ وجوه سوداء: 251
❁ وجوه يُتّقى بها سوء العذاب: 256

الفصل الثّاني: دلالات اليد وحركاتها في السّياق القرآنيّ 259-310
أوّلا: إحصاء لفظ "يد" في القرآن الكريم: 261
ثانيا: تعريف "اليد": 262
ثالثا- لفظ "يد" في السّياق اللّغويّ القرآنيّ: 263
1 - حركات اليد وأفعالها في القرآن الكريم: 263
أ - عمل اليد: 264
ب - كتابة الكتاب والافتراء على الله: 267
جـ - بسط اليد: 268
د - كَفُّ اليد: 269
هـ - تقطيع الأيدي: 272
و - قطع يد السّارق وإقامة الحدود: 275
ز - حركة اليد الدّالّة على البخل والشّحّ: 276
ح - حركة اليد الدّالّة على النّدم والحيرة: 278
ط - شهادة الأيدي: 280

ي – كلام الأيدي: 281
ك – العبادة والطّهارة: 282
ل – معجزة اليد عند موسى عليه السلام: 285
م – اليد في سياق الظّلمة والعذاب: 286
ن – حركة ردّ اليد إلى الفم: 287
س – اليد وحركة اللّمس الدّالّة على العناد والكفر: 289
ع – تعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين: 290
ف – اليد وحركتا الأخذ والضّرب: 293
ص – حركة اغتراف الماء: 293
ق – التّعبير على حركة اليد في الصيد: 295
ر – التّعبير على الأسر: 296
2 – تصديق الّذي بين اليدين: 296
3 – علم ما بين الأيدي: 297
4 – من بين الأيدي واليدين: 299
5 – اليد في سياق الدّعاء: 303
6 – القوّة على عبادة الله تعالى: 305
7 – الإلقاء باليد إلى التّهلكة: 306
8 – الّذي بيده عقدة النّكاح: 307
9 – إعطاء الجزية عن يد: 308

الفصل الثّالث: دلالات أعضاء أخرى في السّياق القرآنيّ 311-381
أوّلا: الجسم والبدن والجسد في القرآن الكريم: 313
1 – الجسم: 314
2 – البدن: 316
3 – الجسد: 317

ثانيّا: "رأس" و"ناصية" في القرآن الكريم:.....320
1 – الرأس في القرآن الكريم: 321
أ – الرّأس في سياق الرّؤيا:..... 321
ب – الرّأس في العبادة (الوضوء): 322
جـ – الرّأس في العبادة (الحجّ): 323
د – الرّأس في حال الغضب: 325
هـ – الرّأس في سياق الإهانة: 325
و – حركة الرّأس في موقف الارتداد عن الحق:.....327
ز – الرّأس في العذاب:..... 328
ح – حركة الرّأس في حال العناد والاستهزاء: 330
ط – الرّأس في سياق الكِبَر:..... 332
2 – الناصية: 332
أ – ناصية أبي لهب: 333
ب – النّواصي والأقدام في العذاب: 334
جـ – الناصية في قبضة الله تعالى: 335
ثالثا: اللّحية والجبين والجباه والخدّ في السّياق القرآنيّ: 336
1 – اللّحية: 336
2 – الجبين: 338
3 – الجباه: 340
4 – الخدّ:..... 341
رابعا: لفظ "لسان" في القرآن الكريم:..... 342
1 – اللّسان بمعنى جارحة الكلام: 343
2 – اللّسان بمعنى اللّغة:.....345
3 – اللّسان بمعنى الثّناء الحسن:.....345

4 - اللّسان بمعنى القرآن:.....346
خامسا: الرّقبة والعنق والجيد في القرآن الكريم: 348
1 - الرّقبة: 348
2 - العنــق: 351
3 - الجيد: 356
سادسا: ملحقات اليد في السّياق القرآنيّ:..... 358
1 - الذِّراع:..... 358
2 - العَضُدُ: 359
3 - المرافق: 362
4 - الكفّ: 363
5 - الأصابع:..... 366
6 - البنان: 369
7 - الأنامل: 371
8 - ما دلّ على اليد اليمنى واليد اليسري: 372
أ – اليمين: بمعنى اليد اليمنى: 372
ب – الشّمال: بمعنى اليد اليسرى: 375
9 – الحركات الدّالّة على عضو اليد: 376

خاتمة: نتائج البحث: 382-387
قائمة المصادر والمراجع:..... 388-400
فهرس الموضوعات: 401-411

الملخص

لقد تناولت في هذه الأطروحة موضوعا يتعلّق بالأسماء الدّالّة على أعضاء جسم الإنسان في السّياق القرآنيّ، ودرستها دراسة تحليليّة ودلاليّة. فأحصيت تلك الأسماء المتعلّقة بالإنسان فوجدتها تبلغ 990 اسما متعلّقا بأربعة وستّين عضوا. ولمّا كانت الأعضاء كثيرة والمقام لا يتّسع لدراستها كلّها، اكتفيت بأربعة بأعضاء معيّنة، هي: النّفس والقلب والوجه واليد، لأنّها تمثل الإنسان في نوازعه الدّاخلية، فالنّفس تمثّل (نوازع الخير والشّر)، والقلب يمثّل موضع الإيمان والكفر والطّاعة والعصيان، والوجه هو الصّورة الأولى لشخصيّة أي إنسان، ولا يتميّز عن غيره إلاّ انطلاقا من الوجه، وأمّا اليد فهي الّتي تمثّل كلّ أعمال الإنسان سواء أكانت حسّية كالبطش والقتل والسّرقة والمساعدة أم معنويّة كالكذب والغيبة وقول الكلمة الحسنة، فيقال: بما كسبت أيدي الإنسان.

الكلمات المفتاحيّة:

الأسماء؛ الدّلالة؛ التّحليل؛ السّياق؛ والقرآن؛ العضو؛ القلب؛ النّفس؛ الوجه؛ اليد.